مكتبة الدراسات التاريخية
والعلاقات الدولية
- ٩ -

تاريخ العرب الحديث والمعاصر

تأليف
دكتور
رأفت غنيمي الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب - جامعة الزقازيق

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهراني - الفجالة
القاهرة ت/ ٩٠٤٦٩٦

مقـــدمة

يقول العلامة عبد الرحمن بن خلدون فى كتابه المسمى : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العــرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » :

« ان أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال الى حال ، وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ، سنة الله التى خلت فى عبـــاده .

« وقد كانت فى العالم أمم الفرس الأولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو اسرائيل والقبط ، وكانوا على أحوال خاصة بهم فى دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركتهم مع أبناء جنســـهم ، وأحوال اعتمارهم للعـــالم تشهد بها آثارها . ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب . فتبدلت تلك الأحوال ، وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها أو يشابهها والى ما يباينها أو يباعدها ، ثم لا يزال التدريج فى المخالفة حتى ينتهى الى المباينة بالجملة .

وهـــذا يعنى تعاقب الدول والحضارات تعاقبا دوريا : حيث يبدأ الانسان حياته الاجتماعية بصورة بدائية ثم يطورها حتى يصل الى ذروة التطـــور فى مرحلة حضـــارية ثم ينتهى الى مرحلة التدهور والانهيار ..

وفى ذلك يقول ابن خلدون : ان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان وركبه على صـــورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء ، وهداه الى

التماسه بفطرته وبماركب فيه من القدرة على تحصيله ، الا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه .

ويضيف ابن خلدون بأنه لابد من اجتماع القدر الكثير من ابناء جنســه ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف ، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا فى الدفع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنســـه .

ثم ان هــذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه ، وتم عمران العالم بهم ، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لمــا فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم ، وليست السلاح التى جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية فى دفع العدوان عنهم لأنهــا موجودة لجميعهم ، فلابد من شىء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض وإلا يكون من غيرهم ، فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة(*) .

ومعنى هــذا أن ابن خلدون يفسر قيام الدول ونشوء المجتمعات بحاجة الأفراد الى التجمع من أجل تحقيق التكامل فى المأكل والملبس والمسكن ، وما يترتب على ذلك من ظهور صناعات ومن قبول سلطة أعلى تنظم العلاقات وتتولى قيادة الأفراد من أجل تحقيق الاحتياجات ومن أجل الدفاع ، هــذه السلطة تتمثل فى يد الملك أو الحــاكم : الذى يرأس الدولة التى تكونت لتلبية احتياجات الأفراد .

ويحدد ابن خلدون الأطوار التى تمر بها الدول فى ثلاثة أطوار متعاقبة أو دورية تبدأ بالبداوة ثم يكون طور التحضر ، ثم طور التدهور . وقد نظر ابن خلدون الى الدولة على أنها كائن حى يولد وينمو ثم

(*) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة .

يهرم ليفنى ، فللدولة عمر مثلها مثل الكائن الحى تمــاما ، وقد حدد عمر الدولة بمائة وعشرين ســنة ، وهى تتكون من ثلاثة أجيال • وفى ذلك يقول : ان الدولة فى الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال ، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر المتوسط فيكون أربعين الذى هو انتهاء النمو والنشوء[1] •

والأطوار التى تمر بها الدول والحضارات هى :

أولا ـــ طور البداوة :

يطلق ابن خلدون مصطلح طور البداوة فى حياة الأمم والشعوب والدول على البدو الذين يعيشون فى قبائل بالصحراء ، والبربر الذين يسكنون الجبال فى جماعات عشائرية وأسرية ، والتتار الذين يسكنون الســهول فى عصبيات قوية ، وهؤلاء لا يخضعون لقوانين متحضرة وإلا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم ، وهم يعيشون مرحلة من الحياة البشرية تسبق مرحلة التحضر •

وأن اجتماع هؤلاء (البدو ، البربر ، التتار) انما هو للتعاون على تحصيل معاشهم والابتــداء بما هو ضرورى منه قبل الكمالى ، ويكون تعاونهم بالمقدار الذى يحفظ الحياة ، وتحكم أفراد البدو رابطة العصبية حيث نصرة ذوى الأرحام والأقارب وما يلزم عنها من تعاضد وتناصر ، وكلما كانت القرابة بين الأفراد البدو أكثر أصالة وأشد نقاوة ، كانت العصبية فيهم أقوى ، وبالتالى كانت الرياسة فيهم على ســائر البطون والقبائل التى تختلط فيها الأنساب ، وتحتفظ القبيلة بالسلطة ما احتفظت بعصبيتها ، ويدعم العصبية عاملان : احترام القبيلة لشيخها ثم حاجتها المستمرة للدفاع والهجوم •

---

(١) نفس المرجع •

ويذكر ابن خلدون أن حياة التقشف تسبغ على البدو أخلاقــا فاضلة كالدفاع عن النفس والنجدة والشهامة والغيرة على الاستقلال ، وتهدف رابطة العصبية فيهم الى الملك أى التغلب والحكم بالقهر ، فان كانت بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة فلابد أن تتغلب أقوى عصبية فتلتحم بها سائر العصبيات ثم تطلب الغلبة على القبائل القاصية حتى تستتبعها وتلتحم بها .

ويضيف ابن خلدون بأنه اذا اتسعت أحوال القبائل البــدوية وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والترف دعاهم ذلك الى السكون والدعة ، ثم تزيد أحوال الترف والدعة فيتخذون القصور والمنازل ، وهؤلاء هم الحضر[٢] .

ثانيا ــ طور التحضر :

وفى هــذا الطور يتحقق الملك وتؤسس الدولة وينتقل المجتمع من الحياة البدوية الخشنة أو من العمران البدوى الى الحياة المتمدينة المترفة أو العمران الحضرى ، وتم ذلك بعد تغلب القبيلة بالعصبية الصاعدة على دولة مجاورة فى دور هرمها يصير الملك لها .

ويحدد ابن خلدون عوامل قيام الدول وتحضرها فيما يلى :

(ا) عامل الدين :

يدفع عامل الدين أهل القبيلة الى البذل من أجل تحقيق غايتهم فضــلا عن أنه يذهب التنافس ويزيل الاختلاف فيحصل التماسك . ويضرب ابن خلدون المثل على أثر عامل الدين فيذكر أنه بينما تكون الدولة المغلوبة فى طور هرمها نتيجة فتور الايمان فى نفوس أهلها ، ويتخاذلون عن الدفاع حرصا على الحيــاة ويزيدها ضعفا ان كانت

(٢) نفس المرجع .

الدولة مؤلفة من شعوب متباينة ، ولذا فان فتح المسلمين للشام والعراق وفارس ومصر مع خضوع هذه الأقاليم لدولتين عظيمتين هما الفرس والروم كان أيسر من فتح شمال افريقية التى يسكنها بربر لهم عصبية متينة ، بل لم يستطيع الرومان قبل ذلك اخضاعهم[٣] .

ويفسر ابن خلدون نجاح العرب فى الفتح الاسلامى فيذكر ان العرب (البدو) لا يحصل لهم الملك الا بصفة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ، حيث يعمل الدين أن يؤلف كلمتهم لاظهار الحق ، ويتم اجتماعهم ويحصل لهم التغلب والملك .

(ب) عامل السياسة :

ان الدعوة السياسية أو المذهب السياسى تدفع القبيلة الى الفتح والتغلب على الأمصار . ذلك أن أهل القبيلة بعضهم اقتدروا على دولة مجاورة فى دور هرمها بفقدان الحامية فهى نهب لهم وطعمة لأكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم الى أن يصبح أهلها مغلبين لهم .

(جـ) عامل الاقتصاد :

ان الحاجة الاقتصادية التى تدفع القبيلة الى الدفاع عن نفسها أولا ثم الى الغزو ثانيا هى التى تدفعها حين تستقر الى أن تحسن وسائل هذا العيش ، ومن مظاهر ذلك أن تتخذ لها مقرا ثابتا ، ومن ثم فانه بعد تأسيس الدولة تلجأ الى تشييد المدن ، وتأسيس الدولة سابق على تشييد المدن لأنه يحتاج الى المال والأدوات وقوى عاملة ضخمة لا يمكن أن يسخرها الا الملك . ومعنى هذا أن الناحية الاقتصادية هى التى تحدد طبيعة الحياة الاجتماعية[٤] .

---

(٣) نفس المرجع .
(٤) نفس المرجع .

ويتوقف تقدم الحضارة فى الدولة على ثلاثة أشياء هى :

١ ــ مزايا الارض :

اعتبر ابن خلدون الأرض مصدر الانتاج ، وأن التحضر يأتى نتيجة عمل منظم متواصل لنشاط الانسان المتمركز فى استثمار الأرض ، وأن المزارعين فى الأرض السهلية والجلبية أهم قسم من أقسام الشعوب فى الانتاج ، ويأتى بعدهم البدو الرحل ثم سكان المدن .

٢ ــ مزايا الحكومة :

يعتبر ابن خلدون الحكومة القوية أساساً آخر من أسس التحضر ، ذلك أن الانسان المستقر يحتاج الى التنظيم والحماية حتى يطمئن على ثمار عمله فيزيد من انتاجه ، كما أنه يحتاج الى حكومة عادلة تحقق الأمان والعــدالة والى حكومة قوية تســتطيع الدفاع عن مصالحه ، والى حكومة واعية بأهمية التجارة الخارجية فتشجعها وتحميها .

ان حكومة بهذه المواصفات تساعد على الاستقرار فى الوطن والى تماسك المواطنين والى انصرافهم الى الانتاج ، وبالتالى تصبح الدولة من الغنى ما يجعلها تسعى الى تحديث وسائل انتاج ومعيشة المواطنين ، أى بمعنى آخر توصف بأنها دولة متحضرة انتقلت من طور البداوة الى طور التحضر .

٣ ــ كثرة السكان :

يرى ابن خلدون أنه اذا كانت الحكومة تدعم قيام الحضارة فان كثرة السكان تخلقها لأن اجتماع عدد من السكان وتنسيق جهودهم وتوزيع العمل بينهم يجعل ثمرة جهودهم تفوق حاجاتهم فلا يستهلكون الا جزءاً يســيرا ، ويزيد الباقى عن حاجاتهم يستثمرونه فى الترف

ومظاهر التحضر والترف يزيد الدولة فى أولها قوة الى قوتها ، وذلك أنه اذا حصل الملك والترف كثر التناسل فتقوى العصبية[٥] .

ثالثا — طور التدهور :

يحدث تدهور الدولة أو الحضارة عندما تتوفر العوامل الآتية :

(ا) العصبية والموالى :

يعتبر ابن خلدون العصبية والموالى والصنائع من عوامل تدهور الدولة ، وفى ذلك يقول : حيث أن بالعصبية تتم الرياسة والملك فأن صاحب الرياسة يطلب بطبيعته الانفراد بالمجد ، اذ أن من الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة ، فيأنف حينئذ من المســاهمة والمشاركة فى استتباعهم والتحكم فيها ، ويجىء خلق التأله الذى فى طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام فيجدع حينئذ أنوف العصبيات .

ويضيف ابن خلدون أنه حين الانفراد بالملك فانه يدافع الأقارب مستعينا بالأباعد فيركب صعبا من الأمر ، أنه أمر فى طبائع البشر لابد منــه فى كل الملوك الذين يســتظهرون على عصبياتهم بالموالى والمصطنعين . وعلى هــذا يمكن القول أن الحاكم اذا استخدم الموالى والصنائع وقدمهم على أهل عصبيته كان هؤلاء الموالى والصنائع من عوامل ضعف الدولة لأن أهل عصبيته سيصبحون من بعض أعــدائه فيحتاج فى مدافعتهم عن الأمر الى أوليــاء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم ، فيكونون أقرب اليه من سائرهم فيستميتون دونه فى مدافعة قومه عن الأمر الذى كان لهم فيستخلصهم

---

(٥) نفس المرجع .

صاحب الدولة ويخصهم بمزيد من التكـرمة والأيثار ويقلدهم جليل الأعمال والولايات[٦] .

وهنا يكون الخطر ، ذلك أن الموالى والصنائع الذين أصبحوا أقرب الى الحاكم من عصبيته يكونون خطرا على الدولة ، ويكون ذلك مؤذنا — كما يقول ابن خلدون — باهتضام الدولة ، وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية التى كان بناء الغلب عليها ، ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الأمتهان وعداوة السلطان فيتربصون به الدوائر ، ويعود وبال ذلك على الدولة ولا يطمع فى برئها من هـذا الداء لأنه ما مضى يتأكد فى الأعقاب الى أن يذهب رسمها[٧] .

(ب) الترف :

يذكر ابن خلدون أنه اذا كان للموالى والصنائع دور فى انهيار الدولة ، فان الترف هو العامل الحاسـم فى ضعف الدولة وتدهور الحضارة . ويفسر لنا ابن خلدون دور الترف فى تدهور الدولة من خلال العوامل الاقتصادية والأخلاقية والنفسية .

فالعامل الاقتصادى يتمثل فى الاسراف فى الترف من حيث النزوع الى رقة الأحـوال فى المطعم والملبس والفرش والآنية ، ومن حيث تشـييد المبانى الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة ، ومن حيث اجازة الوفود من اشراف الأمم ووجوه القبائل مع التوسعة فى الأعطيات على الصنائع والموالى وادرار الأرزاق على الجند . وقد يستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضر بها على البياعات ليفى الدخل بالخراج حتى تثقل المغارم على الرعايا ويكسد الأسواق ، ولا يزال الأعمار فى نقص والترف فى ازدياد حتى ينتقص العمران ويعود وبال ذلك على الدولة .

---

(٦) نفس المرجع .
(٧) نفس المرجع .

كما يتمثل العامل الأخلاقي النفسي في أن عوائد الترف تؤدي الى العكوف على الشهوات وتثير مذمومات الخلق ، فتذهب عن أهل الحضر طباع الحشمة ويقذعون في أقوال الفحشاء ، فضلا عن أن الترف يذهب خشونة أهل البداوة ويضعف العصبية والبسالة حتى انغمسوا في النعيم فأنهم يصبحون عيالا على الدولة كأنهم من جملة النسوان والولدان المحتاجين الى المدافعة عنهم • كما أن الترف مفسد لبأس الفرد ولشكيمة الدولة ، والترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الفساد والسفه ، والترف مظهر لحياة السكون والدعة ودليل ميل النفس الى الدنيا والتكالب على تحصيل متعها حتى يتفشى الخلاف والتحاسد ، ويفت ذلك في التعاضد والتعاون ويفضى الى المنازعة ونهاية الدولة[٨] •

هـذه صفحات لابن خلدون سقتها كفاتحة ومقدمة توضيحية لهذا الكتـاب الذي أحاول فيه التعمق في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ومحاولة استقراء أحداثه لابراز أن دوام الحال من المحال وأن الدول والحضارات تمر بمراحل وأطوار في حياتها ، فالدولة تبدأ صغيرة ثم تنمو وتقوى حتى تصبح أكثر تحضرا وأقوى تنظيما ، ثم تتجه نحو التدهور والانهيار بفعل عوامل متعددة •

لقد صـدق ابن خلدون في كثير مما ذكره في مؤلفـه القيم ، وهـذا شيء طبيعي لأن ابن خلدون استنتج ما توصل اليه من أفكار من دراسته للتاريخ وللأمم والشعوب التي عرفها أو خبرها ومن هنا وجدنا في تاريخ العرب فترات ازدهار وفترات تدهور وانهيار كما هو حال تاريخ الأمم والشعوب الأخرى في العالم •

لـما كان لكل حادثة أو واقعة بداية وذروة ونهاية ، ونهاية الحادثة أو الواقعة بداية لأخرى فان تاريخ العرب الحديث يستند الى بداية

---

(٨) نفس المرجع •

تكوين الدولة العربية الاسلامية زمن الرسول محمد بن عبــد الله عليه صلاة الله وسلامه منذ أربعة عشر قرنا .

واستنادا الى ما جاء بكتاب الله الكريم فى قوله سبحانه وتعالى : والله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبا ، يخلق ما يشاء .. صدق الله العظيم .. فان كل دولة تبدأ صغيرة شأنها شأن الطفل من حيث الضعف وقلة الامكانيات ولكنها متطلعة الى الكبر والقوة والاتساع وكثرة الامكانيات ، وعندئذ تصل الى مرحلة القوة كالشاب والانســان فى دور الرجولة الكاملة بالنسبة للفتى والأنوثة الكاملة بالنسبة للفتاة فتصبح الدولة من القوة وتوفر الامكانيات ما يتيح لها التوسع وفرض الســلطة والنفوذ على الدول المجاورة الأضعف واستيعابها أو اهتضامها كما يقول ابن خلدون .

ولمــا كان الانسان بعد الفتوة والشباب والاكتمال يسير نحو الهرم والشيخوخة وهى سنة الله فى خلقه ، فكذلك الدولة تسير بعد قوتها واتساعها الى الهرم والانهيار وعندئذ تكتمل دورة النمو لهذه الدولة لتبدأ دورة نمو أخرى لدولة أو حضارة أخرى ..

ومن هنا نقول أن الدولة العربية الاسلامية بدأت صغيرة متمثلة فى حكومة الرسول محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وسلامه وتميزت باجتماع السلطتين الدينية والزمنية فى يد هــذه الحكومة المستندة الى دســتور سماوى هو القرآن الكريم بتعاليمه .

ولكن هــذه الحكومة العربية الاسلامية الصغيرة ما لبثت أن كبرت وقويت واتسعت لتشمل أقطارا عديدة كانت تخضع لامبراطوريات قديمة وأعنى بها امبراطورية الروم فى الغرب وامبراطورية الفــرس فــى الشرق . وتميزت هــذه الدولة العربية الاسلامية الكبيرة بالامتداد لتشمل أقطارا فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ، كما تميزت بالتحضر حيث

نفض العرب عصر البداوة لبناء دولة متحضرة سبقت العالم المعاصر آنذاك وأصبحت دمشق وبغداد والقاهرة على سبيل المثال حواضر متمدينة تموج بالعلماء فى مختلف فروع المعرفة وبالعمران البشرى والمادى ..

ولنا أن نتساءل عن العوامل المسئولة عن وصول الدولة العربية الاسلامية الصغيرة البدوية الى مرحلة القوة والتحضر .. وللاجابة نحدد هذه العوامل فيما يلى :

أولا ـــ عدم التناقض بين العقيدة الاسلامية والعلم الحديث :

يمتلىء القرآن الكريم بالآيات التى تتناول المعرفة الانسانية وتحض على التعلم وسبر أغوار العلم الحديث من ذلك « اقرأ باسم ربك الذى خلق » و « علم الانسان ما لم يعلم » و « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » و « أفمن يعلم كمن لا يعلم » . ومن هنا أخذ المسلمون بكثير من العلوم العقلية حتى التى عربها علماؤهم عن اليونان والرومان وغيرهم ، ولم يكد يأت القرن الرابع الهجرى ـــ العاشر الميلادى ـــ حتى كانت الحضارة الاسلامية قد وصلت أوج عظمتها ، وكان من بين رواد العلوم العقلية علماء من مختلف الشعوب التى اعتنقت الدين الاسلامى فى المشرق والمغرب الاسلاميين[٩] .

ويمكن لنا ادراك أهمية ذلك وأثره اذا عرفنا موقف الكنيسة الغربية فى روما العدائى من مناهج المدارس الفلسفية واحراق مؤلفاتها واصدار قرارات الحرمان ضد مؤلفيها ، ومنع جامعات العصور الوسطى من تدريسها .

---

(٩) د . عبد الشافى غنيم و د . رأفت الشيخ : قضايا اسلامية معاصرة ص ١٦ .

ثانيا — الاعتراف بالديانات الكتابية السابقة :

كان اعتراف الاسلام بالرسـالات والكتب السماوية السـابقة عليه واعتبارها من التنزيلات الالهية واحترام وتقدير رسلها وأنبيائها من بين العوامل التى حببت الكثيرين من أصـحاب هذه الديانات فى الاسلام وتوجيههم الى اعتناقه والأخذ بمبادئه .

وقد ساعد على تفهم كثير من الشعوب لمبادىء العقيدة الاسلامية واعتناقها انتشار اللغة العربية بانتشار الفتوحات الاسلامية وتعلم هذه الشعوب لها وقراءة القرآن الكريم والأحاديث النبوية وكتب الفقـه والشريعة .

ثالثا — النظرة الشمولية للحياة فى الاسلام :

تناول القرآن الكريم وتناولت السنة النبوية الشريفة كل ما يمس جوانب حياة النـاس والعلاقات بين الأفراد والمجتمع مع الاهتمـام بالجوانب الخلقية والسـلوكية والثقافية لتكوين الشخصية الحضارية المسلمة مع التركيز على تقنين وتنظير كل هـذه المعاملات فى اطار من الرقابة التنظيمية المرتبطة بالمنهج العلمى الصحيح . ومن هنا وجدت الشـعوب فى الاسلام سـلطة واحدة تشرف على الشـئون الدينية والزمنية معا [10] .

رابعا — الافادة من الحضارات السابقة وامتصاصها :

ايمانا بأن الاحتكاك الحضارى بين الشـعوب يؤدى الى التقدم لم يرفض الاسلام والمسلمون ما سبق من نظم سياسية وقيم حضارية ونظريات علمية ، بل لقد استفادت الدولة الاسـلامية من كل النظم

---

(١٠) نفس المرجع ص ١٧ — ١٨ .

والحضارات السابقة ، واضطر علماء المسلمين فى سبيل ذلك الى اجادة اللغات الفارسية والهندية واليونانية واللاتينية ونقل تراث ومؤلفات هـذه الحضارات والثقافات الى اللغة العربية ، ولم يكتف المسلمون بمجرد ترجمة ونقل هـذا التراث وانما أضافوا وحذفوا وابتكروا كثيرا من الحقائق والمعلومات .

خامسا ـ الأخذ بمبادىء العدل والحرية والمساواة :

كان اصرار رسول الله محمد بن عبد الله عليه صلاة الله وتسليمه منذ فجر الدعوة على تحرير المسلم من عبودية الجاهليـة بمختلف صـورها أول دروس الانسانية فى ادراك مفهوم العـدالة والحرية والمساواة ، ذلك الشعار الذى بدأ المفكرون فى نشره منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى . ويرجع كثير من المستشرقين المنصفين دوافع انتشار الاسلام بهذه السرعة المذهلة الى هـذا المبدأ الأساسى من مبادىء الدولة فى الاسلام[11] .

سادسا ـ الدور الذاتى فى الدعوة الى الاسلام :

لم تعتمد العقيدة الاسلامية فى انتشارها فى أرجاء القارات على مؤسسات منظمة وبعثات تبشيرية مخطط لها وميزانيات معتمدة تستهدف اغراء الناس لاعتناق الاسلام ، ولكنها اعتمدت على الجهود الذاتية المنبعثة عن عمق العقيدة فى قلوب أصحابها نخص من هؤلاء علمـاء الاسـلام وفقهاؤه والرحالة والتجار والجغرافيون والمعلمون المسلمون كما اعتمدت أيضا على اهتمام التجمعات الاسـلامية فى كل الأمصار بانشاء المساجد والمدارس والكتاتيب وغيرها من الأبنية الدينية والتعليمية التى كانت تقوم أساسا على الجهود الذاتية والتبرعات المادية والعينية .

---

(١١) نفس المرجع ص ١٨ ـ ١٩ .

ولعل مما يثير التساؤل عند المفكرين ظاهرة عمق العقيدة الاسلامية فى بلاد لم تطأها قدم جندى اسلامى واحد فى شرق وغرب وجنوب أفريقيا وجنوب شرقى آسيا ، حتى أن هؤلاء المسلمين خاضوا ومازالوا يخوضون لمدة قرون حروبا ضــد المستعمرين والأغلبيات المســيحية المتعصبة والوثنيين على الرغم من عدم التكافؤ فى المــال والسلاح[١٢] .

سابعا ــ غلبة الايمان بالعقيدة على الحركات الانفصالية :

تأثرت القوة السياسية للدولة الاسلامية سلباً بظهور حركات انفصالية فى العصر العباسى الثانى خاصة بعد أن سيطرت على عاصمة الخلافة بغداد عناصر تركية ، ولكن هــذا التأثير لم يمتد الى الجوانب العقيدية والفكرية ، حتى أن القيادات الادارية والتنظيمية للدويلات الاسلامية فى المشرق والمغرب الاسلاميين كانت شديدة الولاء والانتماء للعقيدة الاسلامية ، حيث أنها تعتبر هــذا الايمان جسر بقائها واستمرارها فى قواعدها . وكانت وسيلتها الى تمكين هــذا التعبير تكمن فى كثرة اهتمامها ببناء المؤسسات الدينية واجتذاب الفقهاء وغيرهم من علماء الدين ، والاهتمام بنشر الديانة الاسلامية .

ثامنا ــ وحدة مصادر التشريع فى الاسلام :

كان القرآن الكريم وكانت السنة النبوية الشريفة مصدر التشريع الموحد فى الدولة الاسلامية ، ولذلك لم يتأثر بالضعف السياسى الذى انتاب الدولة فى بعض مراحل وجودها وانما كان فى كثير من الأحيان يشكل عامل التوازن بين الصــعود والأفول فى المجالات الســياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية بل انه كان الزاد الذى تنهل منه الأقليات الاسلامية أينما وجدت .

---

(١٢) نفس المرجع ص ٢٠ .

تاسعا — التكوين الحضارى للشخصية الاسلامية :

حين يصل المسلم الى حقيقة التعرف على شخصيته فى اطار عقيدة تحترم وجوده وكيانه واستقلاله وحريته يصعب على أية قوة مهما كان حجمها أن تقف فى طريقه ، وهكذا كان اكتشاف المسلمين لحقيقة شخصياتهم فى ظل الاسلام عاملا أساسيا فى ظاهرة التوسع الاسلامى الشمولى عقيديا وسياسيا وعسكريا وحضاريا[13] .

ولكن الدولة الاسلامية العربية تعرضت منذ العصر العباسى الثانى لعوامل تفكك سياسى من داخل الدولة ومن خارجها أدى بها للمرور فى طور الهرم والتدهور ، وهذه العوامل هى :

أولا — العوامل الداخلية :

تمثلت العوامل الداخلية التى أصابت الدولة الاسلامية العربية وعرضتها للضعف والتدهور فى :

١ — الخلافات الحزبية والمذهبية :

رغم ما بذله رسول الله محمد بن عبد الله صلاة الله عليه وسلامه من جهود لتحقيق وحدة العقيدة للمسلمين وتغليب العقيدة الاسلامية على ما عداها من الصراعات الحزبية أو المطامع الدنيوية فان الدولة الاسلامية العربية بعده تعرضت لظهور بعض الاتجاهات الحزبية والمذهبية مثل السبئية[14] والكيسانية والقرامطة والشيعة والخوارج

---

(١٣) نفس المرجع ص ٢١ — ٢٥ .

(١٤) السبئية تنتسب الى عبد الله بن سبأ وهو يهودى من اصل يمنى ادعى الاسلام وبدأ يستغل المرارة التى كانت عند بعض العلويين الذين كانوا يؤمنون بأحقية سيدنا على بن أبى طالب فى الخلافة وينحرف بها الى منعطفات واتجاهات رفضها الامام على وكذلك انصاره ومن بين ما نادى به ابن سبأ مبدأ الرجعة والوصاية والحلولية وانفراد على بالامامة ، وقد انضوى تحت لوائه كثير من السطحيين المتعصبين الذين لعبوا دورا كبيرا فى اثارة الامصار الاسلامية على الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

وغيرها مما أثر فى وحدة الدولة الاسلامية العربية سياسيا ولم يؤثر فى وحدة العقيدة عند المسلمين .

٢ — العصبيات القبلية :

أكد الاسلام على ضرورة التخلى عن العصبية واحلال الوحدة العقيدية والأيمانية مكانها ، ولكن هذه العصبية ظهرت فى عهد الأمويين متمثلة فى انقسام المسلمين بين يمنيين ومضريين ذلك الانقسام الذى أدى الى تدهور الدولة الاسلامية العربية والذى امتد ليشمل المشرق العربى والمغرب العربى وفى الأندلس(١٥) .

٣ — الشعوبية :

هى حركة عدائية للعرب والعروبة وتزعمها الفرس والترك ، وأخذت الشعوبية تنتقل من مجرد نقد العرب والتحدث عن مثالبهم الى محاولة الحط من شأنهم والحديث عن جهالتهم وجلافتهم وسوء تدبيرهم ، وأخذت كتب الشعوبيين فى مثالب العرب ونقائصهم تبرز الى الوجود ، ثم تطور الأمر الى انتقال الشعوبية الى مرحلة الزندقة والتطاول على الديانة الاسلامية ونقد القرآن الكريم ، والعودة الى ايقاظ الديانات والمذاهب المجوسية القديمة ، وظهور الحركات العدائية للاسلام والمسلمين وفى مقدمتها حركات البابكية والحزمية والمقنعية والخراسانية الفاطمية التى تنتمى الى فاطمة بنت الخراسانى ، وغير ذلك من الحركات الهدامة فى جسم الدولة .

٤ — طموحات العناصر الدخيلة :

وقد تمثلت هذه العناصر بطموحاتها فى زعماء الخراسانيين ثم تسلط الأتراك والبويهيين وغيرهم الذين تحولوا بعيدا عن سماحة

---

(١٥) المرجع السابق ص ٣٠ — ٣٢ .

الاسلام وعدم التمييز بين المسلمين بسبب اللون أو الجنس أو اللغة ، الى أدوات لاضعاف نظام الدولة الاسلامى حتى انتهى الأمر باضعاف الخلفاء العباسيين وانهاء الدولة العباسية على يد المغول عام ٦٥٦ هـ الموافق عام ١٢٥٨ م • ولقد كانت أطماع قيادات هـذه العناصر فى العصر العباسى الثانى عاملا ليس فقط فى اضعاف أمر الخلفاء العباسيين وانما فى المساعدة على خلق كيانات ودويلات مستقلة أضعفت من وحدة الدولة الاسلامية(١٦) •

٥ ــ ظهور العديد من الدويلات الاسلامية المستقلة :

كان من نتيجة الحركات الشـعوبية وطموحات زعامات العناصر الدخيلة أن تفككت عرى وحدة الدولة الاسلامية العربية شرقا وغربا وأخذت الصراعات تقوم بين هـذه الدول وبعضـها ، وما يقال عن الدويلات الاسلامية فى المشرق العربى يقال عن مثيلاتها فى المغرب العربى التى كانت مظهرا لتفكك الدولة الاسلامية الكبرى ، وفى الأندلس خاصة بعد سقوط الخلافة الأموية الأندلسية عام ٤٢٢ هـ الموافق١ م وقيام الدويلات المستقلة فى ظل نظام اقطاعى أتاح فى النهاية للقوى المسيحية المعادية انهاء الوجود الاسلامى فى الأندلس •

٦ ــ عدم الادراك الواعى لفلسفة العقيدة والفكر الاسلاميين :

الدين الاسلامى دين شـمولى يجمع بين الدين والدنيا مصداقا لقوله ﷺ : « اعمل لدينك كأنك تموت غدا واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » • وهـذا التصور الشمولى غاب عن البعض الذين اعتقدوا أن الدين الاسلامى يقتصر على مجرد العبادات الظاهرة وأنه يتعارض مع مظاهر التطور العلمى والفكرى الانسانى •

---

(١٦) نفس المرجع ص ٢٣ ــ ٢٥ •

ونحن لا ننكر على الدولة العثمانية مثلا دورها القيادى فى الذود عن كثير من الأراضى الاسلامية ضد الهجمات الصليبية الآتية من جانب الأسبان والبرتغال ، ولكن عدم الادراك الحقيقى لفسلفة وفكر الاسلام وقف حائلا دون عمليات التطور الفكرى والحضارى ، فى وقت بدأت فيه الحركات السياسية والانقلابات الصناعية تجتاح أوروبا مما أدى الى اصابة العالم الاسلامى بظاهرة التخلف الحضارى ، وقد أتاح ذلك للاستعمار الأوروبى استغلال هـذا التخلف والجمود لبسط ظلاله على كثير من البلاد الاسلامية الواقعة فى اطار الدولة العثمانية[١٧] .

ثانيا ـ العوامل الخارجية :

من المعلوم أن الضعف الداخلى يجذب القوى الخارجية لتحقيق أهدافها ، وبمعنى آخر ان تفكك المجتمع من الداخل يتيح للغـزو الخارجى فرصة لتحقيق أطماعه ، فجسم الانسان الضعيف قليل المناعة يتيح للميكروبات أن تنفذ الى الجسـم فتصيبه بالعلل والأمراض ، وضعف الوحدة الوطنية فى دولة ما يسمح للاعداء بالوثوب لاحتلال البلاد ، ولبنان حاليا خير مثل على صدق هـذه المقولة .

وحين توفرت داخل الدولة الاسلامية عوامل رأيناها تصيب وحدة هـذه الدولة فى مقتل ، فقد ظهرت عوامل خارجية استفادت من العوامل الداخلية لكى تساهم فى تدهور الدولة وانهيارها سياسيا وان كانت قوة العقيدة الاسلامية قد عصمت الدولة الاسلامية من الانهيار الشـامل الكامل .

وأهم العوامل الخارجية هى :

١ ـ العدوان الصليبى :

ظهرت فى أوروبا موجة صليبية عاتية تتجه للقضاء على الكيان الاسلامى ، وهى ذات أهداف استعمارية وان اتخذت الصليب شعارا

---

(١٧) نفس المرجع السابق ص ٣٥ ـ ٣٦ .

لتجمع الناس حولها • وقد وجهت هذه الموجة أول ضرباتها فى المغرب العربى الاسلامى وفى الأندلس فى محاولة للقضاء على الوجود الاسلامى فى شبه جزيرة ايبيريا وملاحقته فى المغرب العربى الاسلامى •

وفى نفس الوقت كانت الحملات الصليبية العسكرية تتتابع واحدة بعد الأخرى بدعوى السيطرة على الأماكن المقدسة بفلسطين وتخليصها من أيدى المسلمين • ورغم عدم نجاح المسلمين فى الوقوف ضد العدوان الاستعمارى الصليبى فى شبه جزيرة أيبيريا حتى انتهى الأمر بسقوط « غرناطة » آخر معاقل المسلمين بالأندلس عام ١٤٩٢م ، فقد نجح المسلمون فى وقف المد الصليبى فى المشرق العربى الاسلامى بل وتصفية الوجود الصليبى هناك على يد صلاح الدين الأيوبى ثم على يد سلاطين المماليك حكام مصر وبلاد الشام •

٢ ــ العدوان المغولى :

تعرضت الدولة العربية الاسلامية فى القرن السابع الهجرى الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى لعدوان المغول الزاحفين من وسط آسيا على جناح الدولة فى المشرق والذين دمروا بغداد عاصمة الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ الموافق عام ١٢٥٨م [١٨] •

ورغم نجاح المغول فى الاستيلاء على الجناح الشرقى من الدولة الاسلامية وسقوط الخلافة العباسية فى بغداد بعد أن استمرت فى الحكم نحو خمسة قرون ونصف مما أدى الى انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة ، الا أنهم ــ أى المغول ــ فشلوا فى الاستيلاء على بلاد الشام والامتداد الى مصر والى بقية أقطار الدولة الاسلامية بالمغرب العربى ، بسبب وقفة السلاطين المماليك حكام مصر وبلاد الشام الذين استطاعوا هزيمة المغول فى موقعة عين جالوت بفلسطين عام ٦٥٨ هـ الموافق لعــام

(١٨) نفس المرجع السابق ص ٣٦ ــ ٣٧ •

١٢٦٠م فأوقفوا زحفهم وان لم يقضوا على خطرهم القضاء الكامل •
وظل تدمير المغول لبغداد عاصمة الخلافة العربية الاسلامية علامة على
تدهور وانهيار الدولة العربية الاسلامية سياسيا •

وقد هيأت العوامل الداخلية المسئولة عن تفكك الدولة الاسلامية
السياسيا للعوامل الخارجية التى سقناها — وأعنى العدوان الصليبى
والعدوان المغولى — أن تضرب ضربات مؤثرة فى جسم الدولة حتى رأينا
دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام التى نجحت فى الوقوف أمام
العدوان الصليبى ثم العدوان المغولى ينهار عام ١٥٠٩م أمام سفن
البرتغاليين فى المحيط الهندى أمام مدينة بومباى الهندية فيما عرف
بموقعة ديو البحرية ، كما انهارت أمام زحف العثمانيين الى بلاد الشام
عام ١٥١٦م والى مصر عام ١٥١٧م •

* * *

الباب الأول

الدولة العثمانية والوطن العربى

مقـــــــــدمة :

(مرحلة التدهور الأولى فى التاريخ الحديث)

الفصل الأول ـــ الحكم العثمانى للوطن العربى :

الفصل الثانى ـــ العصبيات المحلية :

مقـــــدمة

يضم الوطن العربى الوحدات السياسية المعروفة حاليا فى قارتى آسيا وأفريقيا فى جناحين يشتمل الجناح الأسيوى على ما عرف بالهلال الخصيب وما عرف بالمربع العربى ، والهـلال الخصـيب يتكون من : الجمهورية العراقية ، الجمهورية العربية السورية ، الجمهورية اللبنانية، المملكة الأردنية الهاشمية ، فلسطين ، ويتكون المربع العربى من : المملكة العربية السعودية ، الجمهورية العربية اليمنية (الشمالية) ، جمهورية اليمن الديموقراطية (الجنوبية) ، سلطة عمان ، دولة الامارات العربية المتحدة ، دولة قطر ، دولة البحرين ، دولة الكويت •

أما الجناح الأفريقى من الوطن العربى فيضم كلا من : جمهورية مصر العربية ، جمهورية السودان الديموقراطية ، جمهورية الصومال الديموقراطية ، جمهورية جيبوتى ، الجمهورية العربية الليبية ، الجمهورية التونسية ، الجمهورية الجزائرية ، المملكة المغربية ، الجمهورية الموريتانية الاسلامية •

ورغم هذا التعدد فى الوحدات السياسية العربية فان الوحـدة الثقافية التى تظلل أقطار الوطن العربى من أهم عوامل الوحدة بين تلك الأقطار ، ذلك أن اللغة العربية هى لغة كل العرب وهى اللغة السائدة فى مشرق الوطن العربى ومغربه ، أى فى جناحه الأسيوى وجناحه الأفريقى، ولا يقلل من قوة عامل اللغة وجود لهجات محلية مشتقة من اللغة العربية ذاتها أو لهجات أخرى كتلك التى يتكلم بها الأكراد فى شمال العراق وسوريا وتلك التى يتحدث بها البربر فى المغرب العربى •

كما أن الدين الاسلامى دين غالبية العرب فى الوطن العربى حيث تصل نسبة المسلمين العرب أكثر من ٩٠٪ من عدد سكان الوطن العربى،

وبذلك يعتبر الدين الاسلامى عاملا ثقافيا من عوامل الوحدة بين الأقطار العربية ، ورغم وجود أقلية مسيحية وأقلية يهودية من سكان الوطن العربى ، فان ذلك لم يقلل من الوحدة العربية حيث يتحدث المسيحيون واليهود اللغة العربية كالمسلمين •

وكانت الوحدة الثقافية العربية مستندة الى الأسس التالية :

١ ــ الوحدة الروحية التى تجمع شعوب المنطقة العربية •

٢ ــ ارتباط السلطة الدينية بالسلطة الزمنية ، فقد كان الخليفة هو الزعيم السياسى الى جانب كونه الزعيم الدينى للمسلمين •

٣ ــ شيوع مبادىء الأخاء والمساواة التى تحطم الحواجز بين الناس دون نظر الى جنس أو لون ، وهذه المبادىء تستند الى شرائع الدين الاسلامى •

وتعتبر حضارة الوطن العربى الاسلامية العربية خلاصة تفاعلات بين ثقافات واتجاهات وأجناس وشعوب مختلفة تآلفت وامتزجت فى ظل الخلافة الاسلامية التى ظهرت أولا فى شبه الجزيرة العربية عندما ظهر الاسلام وانتشر فى عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين ، ثم فى ظل دمشق عاصمة الخلافة الأموية فبغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ثم فى ظل القاهرة عاصمة آخر خلافة عربية •

وقد تعرض الوطن العربى لانقسامات داخلية بعد ضعف الخلافة العباسية حيث رأينا دويلات اسلامية تقوم هنا وهناك فى أنحاء الوطن العربى ولكنها لم تنفصل عن الخلافة الاسلامية ، كما لم يضع حكام هذه الدويلات أية قيود أو حواجز تحول دون انتقال المواطن العربى من قطر عربى لآخر أو تحول دون اتصال العرب فى المغرب باخوتهم عرب المشرق ، بل استمرت وحدة العرب الشعبية وان اختلفت حكوماتهم وتعددت دولهم فبلاد العرب لكل العرب •

وفى الوقت الذى أخذت فيه الامارة العثمانية تتكون بآسيا الصغرى وتتوسع على حساب الامبراطورية البيزنطية فى البلقان قبل أن تتجه الى الشرق العربى كانت أقطار الوطن العربى تعيش مرحلة من التفتت والضعف ، حيث كانت سلطنة المماليك فى القاهرة تحكم كلا من مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن ، وقد بدأ الضعف يدب فى هذه السلطنة حتى هزم أسطولها أمام سفن البرتغاليين بمياه الهند عام ١٥٠٩ م ، بعد أن كانت هذه السلطنة قد نجحت فى طرد بقايا الصليبيين من فلسطين ، وهزمت المغول فى عين جالوت بفلسطين عام ١٢٦٠م .

كما أن العراق الذى ظل تحت حكم المغول منذ عام ١٢٥٨م سقط فى قبضة الشاه اسماعيل الصفوى شاه فارس عام ١٥٠٨م ، بينما ظلت مشيخات الخليج العربى تعيش فى ظل التنظيمات القبلية ، حيث مارست القبائل العربية النازحة من وسط شبه الجزيرة العربية الى سواحل الخليج حياة الرعى والتجارة والغوص على اللؤلؤ . وكان الأئمة الزيديون يحكمون اليمن ويعترفون لسلاطين المماليك فى مصر بالسيادة عليهم شأنهم فى ذلك شأن أشراف مكة فى الحجاز ، وكانت نجد والاحساء تعيش فى ظل تنظيمات قبلية ولم تخضع لسلطة سياسية من دولة خارجية .

وفى الجناح الأفريقى من الوطن العربى ، ظهرت بالسودان أول سلطنة اسلامية هى سلطنة الفونج فى سنار عام ١٥٢٢م التى حاولت توحيد كل أقاليم السودان فى دولة اسلامية عربية بعد أن تعددت مملكاته . وفى ليبيا سادتها دويلات صغيرة حتى احتلها الأسبان عام ١٥١٠م ثم أهدوها لفرسان القديس يوحنا فى مالطة عام ١٥٣٥م الى أن طردهم منها الأتراك العثمانيون عام ١٥٥١م .

وفى تونس حكمتها الأسرة الحفصية من عام ١٢٢٨م التى امتدت سلطتها فى بعض فترات التاريخ شرقا الى طرابلس والى الأندلس غربا

حتى صارت ولاية عثمانية منذ عام ١٥٣٤م ، وأما الجزائر فقد حكمتها أسرة بنو عبد الوديد الذين اتخذوا من تلمسان مركزا لدولتهم منذ عام ١٢٣٥م • وأما مراكش فقد عاشت تحت حكم أسرة بنى واطس ومركزهم مدينة فاس منذ عام ١٤٧٠م ومارسوا الجهاد البحرى الاسلامى ضد سفن الأسبان وفرسان القديس يوحنا •

* * *

الفصل الأول

الحكم العثمانى للوطن العربى

ـ مقـــــدمة :

ـ التوسع العثمانى فى الوطن العربى :

ـ نظام الحكم العثمانى :

ـ تاثيرات نظام الحكم العثمانى :

- التاثيرات الايجابيـــة ٠
- التاثيرات الســـلبية ٠

مقـــدمة

نظر العرب الى انتصارات الأتراك العثمانيين على البزنطيين نظرة فرح واستبشار وعدوها انتصارات للمسلمين ، وعندما سقطت مـدينة القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية فى أيدى العثمانيين عام ١٤٥٣ م سرت رنة فرح وسرور بين العرب وأقيمت الاحتفالات فى كل من القاهرة ودمشق ، وغيرها من المدن العربية .

ولكن مع أوائل القرن السادس عشر تحول العثمانيون للزحف نحو المشرق العربى والسيطرة على كل من العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز، ثم امتداد السيطرة العثمانية على كل من الجزائر وتونس وليبيا من أقطار المغرب العربى وان لم ينجحوا فى فرض سيطرتهم على مراكش أو موريتانيا .

فلماذا كان هذا الزحف العثمانى والسيطرة على أقطار الوطن العربى؟ أو بعبارة أخرى ما هى الأسباب التى دفعت العثمانيين الى التحـول لفرض السيادة العثمانية على أقطار الوطن العربى فى المشرق والمغرب ؟ سوف نحاول الاجابة على هذه التساؤلات فى الصفحات التالية :

وما هو نظام الحكم الذى وضعه سلاطين آل عثمان وبصفة خاصـة سليمان بن سليم الأول الذى عرف بسليمان القانونى ؟ وما شـكل هذا الحكم وتنظيماته فى الوقت الذى كانت فيه الأقطار العربية التى خضعت للحكم العثمانى وتنظيماته ـــ وفى مقدمة هذه الأقطار . مصر بطبيعة الحال أكثر تحضرا من الدولة العثمانية ؟ الاجابة على هذه التساؤلات ستظهر فى الصفحات التالية :

وهل التنظيمات التى وضعها الثمانيون لحكم الأقطار العربية تعد أثرا من تأثيرات بيئة الاتراك العثمانيين الأصلية فى وسط آسيا أم دخلت عليها تأثيرات من حضارات أخرى احتك بها العثمانيون فى انتقالهم

من وسط آسيا الى هضبة الأناضول بآسيا الصغرى ، كالحضـارة الفارسية والحضارة البيزنطية والثقافة العربية الاسلامية ؟ الاجابـة على هذه التساؤلات سنراها فى الصفحات التالية :

خضعت الأقطار العربية للحكم العثمانى حوالى أربعة قرون من ١٥١٤ الى ١٩١٤م ، فهل كانت تأثيرات العثمانيين طوال هذه الفترة ايجابية كلها أو سلبية كلها ؟ .. سوف نحاول الاجابة على هذا التساؤل فى الصفحات التالية :

فلنحاول فى هذا الفصل الاجابة على كل التساؤلات المثارة فى هذه المقدمة على أمل استجلاء الحقائق وتوضيح الأمور بموضوعية ..

التوسـع العثمانى فى الوطن العربى

تنسب الدولة العثمانية الى الأمير عثمان الأول مؤسسها بوسط آسيا الصغرى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ـ وبالتحديد عام ١٢٩٩م وهو عام ارتقاء عثمان الامارة ـ وفى عصورها الأولى أطلق عليهـا المؤرخون العثمانيون اسم « دولت عليه » أى الدولة العلية ، ثم أطلقوا عليها اسم : « سلطنت سنية » أو السلطنة السنية ، كما أطلق عليهـا بعد اتساع ممتلكاتها فى أوروبا وآسيا وأفريقيا اسم « امبراطور اق عثمانلى » أى الامبراطورية العثمانية ، وعرفت أيضا بالاسم الذى ارتاح له الأتراك العثمانيون وهو « دولت عثمانلى » أى الدولة العثمانية . وكان العثمانيون يتمسكون بكلمتى « عثمانى » و « عثمانيين » لقبا مميزا لهم تعبيرا عن اعتزازهم بانتسابهم الى عثمان الأول ـ كما ذكرنا ـ من ناحية ، وستعلاء على هذه الأجناس التركية الأسيوية المتبربرة فى نظرهم من ناحية أخرى . وظل ذلك الموقف العثمانى من لفظة تركى حتى أوائل القرن العشرين ، على الرغم من أن لغتهم كان يطلق عليها فى جميع العصور التاريخية اللغة التركية [1] .

(١) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ... ص ١١ ـ ١٢ .

لقد جاء بناء الدولة العثمانية الفتية ، أوروبيا ، حيث انطلقت من شبه جزيرة آسيا الصغرى وانقضت على الدولة البيزنطية الهرمة المتاخمة لها فى شبه جزيرة البلقان ، وأخذت تهزمها فى كل الميادين حتى استطاع السلطان محمد الثانى فتح مدينــة القســطنطينية عاصمــة الأمبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣م واتخذها عاصمة لدولته وأطلق عليها اسم استانبول[٢] . ولم يتوقف العثمانيون فى زحفهم بشرق أوروبا الا بعد أن وصلوا الى أبواب مدينة « فينا » عاصمة النمســا عام ١٥٢٩م .

وكانت أقطار الوطن العربى والاسلامى تنظر الى انتصــــارات العثمانيين وفتوحاتهم على حساب الامبراطورية البيزنطية نظرة ملؤها الاحترام والحماس والتأييد ، فى الوقت الذى جعلت هذه الانتصارات العثمانيين ينظرون الى أنفسهم نظرة حماة الدين الاسلامى والأقطار الاسلامية .

ولكن الدولة العثمانية بعد أن زادت فى التوسع غربا توقف الزحف أو كاد ، وفى مقابل ذلك وجدناها تتجه شرقا وتزحف نحو أقطار الوطن العربى لتستولى عليها .. فما الذى دفع الدولة العثمانية الى الاستيلاء على الأقطار العربية ؟

للاجابة على هذا التساؤل نحب أن نلفت النظر الى أن الزحف العثمانى نحو أقطار الوطن العربى حقيقة تاريخية لا يختلف عليها اثنان ، ولكن الاختلاف يأتى من تفسير أسباب هذا الزحف والتوسع العثمانى فى الأقطار العربية ، ومن ثم تعددت اجتهادات المؤرخين حول هذه الأسباب وهى :

---

(٢) تعدد اسم العاصمة العثمانية بين استانبول أو استامبول أو اسلامبول وهى تعنى دار الاسلام ، ثم اطلق عليها فى القرن التاسع عشر اسم الآستانة ومعناها العتبة .. د . الشناوى : المرجع السابق ص ١٤ .

أولا : أن الدولة العثمانية — فى رأى البعض — قد وصلت الى درجة التشبع فى فتوحاتها فى أوروبا ولم يعد أمامها فى رغبتها للفتح والغزو سوى أقطار الوطن العربى ، أو بعبارة أخرى أن الدولة العثمانية قد وصلت الى أقصى مدى فى الغرب يمكن أن تصل اليه ولا يمكنها تجاوز هذا المدى ، فاذا أرادت التوسع فليس أمامها الا الشرق •

وبمناقشة هذا الرأى لا نستطيع أن نغفل أن الفتوحات العثمانية استمرت فى أوروبا فى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم — المعروف باسم سليمان القانونى أو المشرع — حتى وصلت الى أسوار مدينة فيينا عام ١٥٢٠ كما ذكرنا ، فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية حتى ذلك التاريخ قد استولت على كل من العراق وأقطار الشام ومصر والحجاز مما يقلل من دقة القول بأن الدولة العثمانية بعد أن فشلت جيوشها أمام أسوار مدينة فيينا وتوقف زحفها — نتيجة لهذا الفشل — غربا اتجهت بزحفها شرقا على حساب الوطن العربى •

الا أننا فى نفس الوقت لا يمكن أن نغفل أن الدولة العثمانية وعاصمتها استانبول لم يكن فى مقدورها أن تتوغل أكثر من هذا — أى أكثر من أبتلاع أقطار شبه جزيرة لبلقان — حيث أنه لكل دولة مرسى معين فى التوسع ، ودولة مركزها استانبول من المعتول أن يقف مداها عند المجر [٣] •

ثانيا : يذكر البعض الآخر أن الزحف العثمانى شرقا جاء لرغبة الدولة العثمانية السنية المذهب فى الوقوف أمام خطر الصفويين الشيعة فى فارس الراغبين فى السيطرة على العالم الاسلامى السنى • ومن هؤلاء المؤرخين القائلين بهذا الرأى المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » Arnold Toynbee ، ويذكرون أنه لا يقلل من هذا الرأى كون

(٣) د • محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى طبعة ١ ص١٠٠

السلطان سليم الأول العثمانى عند انتصاره على الشاه اسماعيل الصفوى فى موقعة « جالديران » عام ١٥١٤م ودخوله مدينة « تبريز » عاصمة الدولة الصفوية واستيلائه على مناطق العراق الشمالية ، أنه لم يشأ أن يستمر فى زحفه داخل فارس وعاد الى عاصمة ملكه لأن اختلاف المذاهب بين العثمانيين السنيين والفرس الشيعة جعل العثمانيين لايرحبون بالسيطرة على فارس خوفا من عدم استتباب الأمور لهم فيها [٤] .

ولكننا نتساءل اذا كان هذا الرأى صحيحا بأن الزحف العثمانى نحو أقطار الوطن العربى هو رغبة العثمانيين فى حماية الأقطار الاسلامية العربية السنية المذهب من الخطر الصفوى الشيعى ، فلماذا استولت الدولة العثمانية على أقطار سنية المذهب مثل دولة المماليك فى مصر وأقطار الشام والحجاز ، الى جانب أقطار شمال أفريقيا ، اذا كان هدف العثمانيين هو التصدى للخطر الشيعى القادم من فارس ؟ ونحن نعتقد أن تصدى العثمانيين للصفويين الفرس الشيعة جاء نتيجة لمحاولة الشاه اسماعيل الصفوى التوسع غربا وتهديد الدولة العثمانية ذاتها خاصة بعد أن فشلت الدويلات الحاجزة Bu fer States التركمانية التى أقامها العثمانيون على أطراف دولتهم فى صد محاولات الصفويين الشيعة لنشر المذهب الشيعى ثم النفوذ الصفوى فى ممتلكات الدولة العثمانية بآسيا الصغرى خاصة بعد أن نجح الصفويون فى الاستيلاء على العراق من المغول عام ١٥٠٨ م ، ومن ثم أصبحت الحدود الصفوية العثمانية مشتركة ومثار صراع وحرب .

ثالثا : وجاء فى رأى بعض المؤرخين أن الزحف العثمانى نحو أقطار الوطن العربى هو اتجاه الدولة العثمانية الفتية والقوية للتصدى لأطماع البرتغال فى البحر الأحمر والبحر العربى والخليج العربى ومداخلها وايقاف التهديدات والأخطار البرتغالية الموجهة ضد الأقطار

---

(٤) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٤١

العربية والاسلامية ، وذلك بعد أن فشلت سلطنة المماليك فى مصر وأقطار الشام فى القضاء على التهديدات والأخطار البرتغالية

ويذكر هذا الرأى أنه منذ نجح « فاسكودى جاما » فى الدوران حول رأس القارة الأفريقية الجنوبى الذى عرف برأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ م اتخذت البرتغال سياسة صليبية استعمارية ضد المسلمين بشرق أفريقيا والهند والجنوب والخليج العربيين حتى استطاع البرتغاليون هزيمة التحالف الاسلامى أمام « بومباى » قرب جزيرة « ديو » عام ١٥٠٩م ٠

ونحن نعتقد أن موقف العثمانيين ضد التوسع البرتغالى فى الجنوب العربى وتوغلهم فى الخليج العربى ، ومحاولتهم دخول البحر الأحمر كان نتيجة لوجود البرتغاليين فى هذه المياه والمناطق العربية والاسلامية الذى حدث قبل أن يصل العثمانيون الى أقطار المشرق العربى ، وبالتالى فان الزحف العثمانى نحو أقطار الوطن العربى لم يكن بسبب رغبة العثمانيين فى التصدى للخطر البرتغالى على تلك الأقطار ٠

رابعا : وهناك رأى آخر يذكر أن سبب الزحف العثمانى نحو أقطار الوطن العربى هو رغبة العثمانيين فى شن حملات لتأديب الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط والذين يهددون نشاط الأسطول العثمانى فى هذا البحر ، كما يهددون أمن وسلامة الأقطار العربية الاسلامية المطلة على هذا البحر وخاصة أقطار شمال أفريقيا ٠

ويؤكد هذا الرأى أن العثمانيين هم الذين طردوا فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس وساقوهم أمامهم حتى استقروا فى جزيرة مالطة ، ومن هناك تحالفوا مع الأسبان لمواجهة حركة الجهاد البحرى الاسلامى [٥] التى قادها رجال البحر فى كل من مراكش والجزائر

---

(٥) اطلق عليها المؤرخون الأوروبيون عليها اسم القرصنة ، ولتوضيح هذه القضية ، ارجع لكتابنا : العرب دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر.

وتونس وطرابلس الغرب — ليبيا — ضد العمليات الصليبية الاستعمارية التى قام بها البرتغال والأسبان منذ ما عرف « بحركة الاستعادة » La Gequonques ta التى بشرت بها الملكة « ايزابلا » ملكة أسبانيا ضد المسلمين فى شبه جزيرة « أيبيريا » وملاحقتهم فى البحر المتوسط بل وفى الأرض العربية بشمال أفريقيا •

ويجب أن نسجل هنا أن أقطار شمال أفريقيا الثلاثة : الجزائر — طرابلس الغرب — تونس ، دخلت تحت السيادة العثمانية أعوام ١٥١٨ ، ١٥٥١ ، ١٥٧٤ م بالتوالى بناء على طلب بعض أهل تلك الأقطار ولم تدخل بغزو عثمانى ، وجاء طلب عرب شمال أفريقيا هذا لمواجهة الخطر الأسبانى المتحالف مع فرسان القديس يوحنا ، والموجه ضد أقطار شمال أفريقيا ، فى الوقت الذى بقيت فيه مراكش بعيدا عن السيادة العثمانية•

وفى رأينا أن فرض السيادة العثمانية على أقطار شمال أفريقيـا الثلاثة : الجزائر ، طرابلس الغرب ، تونس اذا كان قد حدث بناء على طلب بض أهلها ولمواجهة خطر الأسبان وفرسان القديس يوحنا ، فلماذا استولى العثمانيون على بقية الأقطار العربية مثل مصر وأقطار الشام والحجاز والعراق ولم يتهدد هذه الأقطار الأسبان وفرسان القـديس يوحنـا ؟ •

خامسا : وهناك رأى يقول أن الزحف العثمانى نحو الوطن العربى كان يسبب أطماع سلاطين آل عثمان فى تكوين امبراطورية مترامية الأطراف حول البحر المتوسط تجعل من هذا البحر بحيرة عثمانية ، ومن وجهة نظر عسكرية كان لا بد أن يكون للامبراطورية جناح شرقـى يشمل الأقطار العربية يواجه الجناح الغربى الذى تكون على أنقاض الامبراطورية البيزنطية حتى يحمى الجناحان — الشرقى والغربى — قلب الامبراطورية •

وهذا فى رأينا أكثر الآراء صوابا حيث يفسر لنا التوسع العثمانى على حساب أقطار الوطن العربى سواء جاء هذا التوسع عن طريق الفتح والغزو أو فرض السيادة تلبية لطلب بعض أهل بعض الأقطار العربية ، ولا يقلل من هذا الرأى القول بأن فكرة غزو أقطار الشام ومصر وبقية الأقطار العربية لم تكن فى مخطط السلطان « سليم الأول » حينما زحف بجيوشه شرقا ابتداء من عام ١٥١٤م حيث تذكر المصادر أن السلطان « سليم » قال للسلطان المملوكى « طومانباى » بعد انكسار الأخير ووقوعه فى قبضة الأول[٦] ما نصه : والله ما كان قصدى أذيتك ، ونويت الرجوع من حلب ، ولو أطعتنى من الأول ، وجعلت السكة والخطبة باسمى ما جئت لك ولا دست أرضك[٧] .

ونحن نعتقد أن الرغبة فى تكوين امبراطورية عثمانية مترامية الأطراف كانت فى مخطط سلاطين آل عثمان وحتى قبل السلطان سليم الأول ، وحديث السلطان سليم مع السلطان طومانباى يدل على رغبة الأول فى فرض السيادة العثمانية على مصر بعد أن نجحت الجيوش العثمانية فى الاستيلاء على أقطار الشام من سلطان المماليك . ومن ثم أغرت تلك الانتصارات التى أحرزتها القوات العثمانية السلطان سليم لاحتلال وفرض السيادة العثمانية على بقية الأقطار العربية .

وقد تحق للعثمانيين مخططهم حيث أصبحت الامبراطورية العثمانية دولة بحر أوسطية ، اذ كانت تطل على معظم سواحل هذا البحر : الشرقى والجنوبى بأكملها ، الى جانب ثلث الساحل الشمالى حتى البحر الأدرياتى ، كما عززت الامبراطورية العثمانية وجودها العسكرى والسياسى والدينى فى البحر المتوسط باستيلائها على عدد من الجزر

---

(٦) كان ذلك بعد موقعة الريدانية (العباسية) فى يناير ١٥١٧م ، حيث دخل سليم القاهرة فى ٢٦ يناير .

(٧) ابن زنبل أحمد الرمال : آخرة المماليك فى مصر ص ١٣٦ .

الهامة القائمة فى حوضه الشرقى مثل جزيرة « رودس » (عام ١٥٢٢م)، وجزيرة قبرص (عام ١٥٧١م)، وجزيرة كريت أوكريد (عام ١٦٦٩م). وان كانت قد أخفقت فى الاستيلاء على جزيرة مالطة عام ١٥٦٥ أو أواخر حكم السلطان سليمان المشرع من فرسان القديس يوحنا[٨] .

* * *

كانت تلك تفسيرات المؤرخين عن أسباب الزحف والتوسع العثمانى شرقا على حساب أقطار الوطن العربى ، والرأى عندى هو أنه لا يمنع من أن تكون معظم هذه الأسباب مسئولة مسئولية مشتركة عن اتجاه الدولة العثمانية نحو الشرق والتوسع بالاستيلاء على أقطار الوطن العربى ، واذا كانت ظروف الدولة العثمانية القوية قد هيأت لها التوسع، فان ظروف أقطار الوطن العربى قد سهلت على الدولة العثمانية تحقيق اتجاهها للتوسع .

فقد كانت كل من فارس والعراق تعانى من الدمار والفوضى نتيجة للاغارات المغولية الشىء الكثير حتى استطاعت الدولة الصفوية فى أوائل القرن السادس عشر (١٥٠٨ م) تكوين وحدة سياسية من العراق وفارس على أساس دينى شيعى يعادى المذهب السنى الذى تدين به الدولة العثمانية الفتية .

واذا كانت مصر وأقطار الشام قد نجت من الاغارات المغولية المخربة على يد سلاطين المماليك ، الا أن دولة المماليك رغم ضخامتها — حيث كانت لها السيادة على الحجاز الى جانب كل من مصر وأقطار الشام — كانت فى أوائل القرن السادس عشر قد وصلت الى حالة من الاعياء الشديد بسبب تحول تجارة الهند والشرق الأقصى عن طريق مصر والبحر الأحمر الى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبسبب حروب

(٨) د . الشناوى : المرجع السابق ص ١٦ — ١٧ .

المماليك المستمرة وبصفة خاصة ضد الزحف البرتغالى على منافذ البحار العربية الجنوبية ، وليس أدل على ضعف المماليك من هزيمتهم أمـام البرتغاليين فى مياه الهند فيما عرف بمعركة ديو البحرية عام ١٥٠٩م — كما ذكرنا — ، ولذلك كانت مقاومتهم للزحف العثمانى نحو أقطار الشام ومصر ومقاومة غير عنيدة بل كانت قوتهم مفككة •

أما أقطار الوطن العربى فى شمال أفريقيا : الجزائر ، طرابلس الغرب ، تونس ، فقد دخلت تحت السيادة العثمانية دون مقاومة من سكانها بل برغبة من بعض أهلها للتخلص من تهديداتأسبانيا ذات السياسة الصليبية ، وتهديدا تفرسان القديس يوحنا القراصنة ، بـل ورغبة من مواطنى هذه الأقطار العربية فى أن تقضى الدولة العثمانية الاسلامية الفتية على السيطرة المسيحية فى مياه هذه الأقطار العربيـة وبعض شواطئها •

وقد سارعت الدولة العثمانية الى بسط سيادتها على أقطار الوطن العربى الثلاثة المشار اليها — الجزائر ، طرابلس الغرب ، تونس — فى المغرب العربى حتى تحكم الحلقة حول البحر المتوسط ، وتكتمل السلسلة العربية من الأقطار الداخلة فى حوزة السلطنة العثمانية سواء المشرقية أو المغربية •

حدث اذن زحف وتوسع عثمانى على الأقطار العربية ، نتيجة توفر عوامل أو ظروف هيأت لهذا الزحف والتوسع سواء فى داخل الدولـة العثمانية أو فى أقطار الوطن العربى ، وقد استمرت السيطرة العثمانية طوال أربعة قرون تعرضت فيها الأقطار العربية لتطورات وعوامـل داخلية وخارجية كظهور العصبيات المحلية وسيطرتها على الحكم فى بعض الأقطار العربية ، وقيام الدعوات السلفية ذات البرامج الاصلاحية الدينية اصطدم بعضها بالدولة العثمانية ، الى جانب الثورات المحليـة

ضد الحكم العثمانى ، بالاضافة الى الزحف الاستعمارى الأوروبى على معظم أقطار الوطن العربى التى هى ولايات عثمانية ٠

وأما المدة التى بقيت فيها أقطار الوطن العربى خاضعة للحكم العثمانى ، فانه رغم أن السيطرة العثمانية استمرت لمدة أربعة قرون كما ذكرت ، الا أن استمرار هذه السيطرة العثمانية طوال هذه القـــرون الأربعة حدثت فى أقطار دون أخرى وأعنى فى الأقطار التى لم تتعرض لغزوات استعمارية أوروبية والتى بقيت تحت السيطرة العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى ٠

نظـــام الحـــكم العثمـــانى

وضع السلطان سليمان القانونى لحكم الولايات العثمانية ــ ومنها الأقطار العربية ــ نظاما للحكم يقوم على توزيع السلطة بين ثـــلاث قوى كانت على النحو الآتى :

أولا ــ الوالى :

ويلقب بالباشا[٩] ، وهو نائب السلطان فى حكم الولاية ، وله سلطة مراقبة تنفيذ أوامر السلطان والرئاسة على جميع الموظفين العثمانيين فى الولاية ، وان كانت سلطته مقيدة بوجود قوى أخرى تشاركه فى السلطة مثل رؤساء الجند والعصبيات المحلية ، كما أنها محدودة بفرمان يصدر من السلطان بالتعيين لمدة سنة قابلة للتجديد ٠

ثانيا ــ رؤساء الجند :

وهم قادة الفرق أو الأوجاقات[١٠] ، تلك الفرق الموكول اليهـــا الدفاع عن الولاية ضد الغزو الخارجى وحفظ النظام والأمن الداخلى

---

(٩) قسمت الاقطار العربية الى عدة ولايات على رأس كل منها والى ٠

(١٠) اصبح قائد أوجاق الانكشارية أهم الاوجاقات بمثابة القائـــد العام للحامية العسكرية العثمانية ٠

وخاصة بالتصدى للثورات التى قد يقوم بها أهالى الولاية ضد الحكم العثمانى ، ومن اجتماع قادة الفرق بتأليف مجلس شورى الوالى المسمى بالديوان الذى له السلطة الكبيرة فى ادارة الحكومة حيث لا يستطيع الوالى أن يبرم أمرا الا بموافقة أعضائه ، فهم بمثابة رقابة واشراف على سلطة الوالى ، وحتى عندما انقسم الديوان الى ديوان كبير وديوان صغير ظل لسلطة قادة الجند القوة فى مواجهة الوالى •

ثالثا — العصبية المحلية [11] :

وخير مثل للعصبية المحلية وسلطتها فى حكم الولاية المماليك فى مصر حيث أصبح لهم حكم الأقاليم المختلفة للولاية بحكم أنها أعرف بأهل البلاد وظروفها ، وفى وقت ضعف الدولة وجندها تقوى شوكة العصبية المحلية حتى يصير فى امكانهم عزل الوالى أو الاستئثار بالنفوذ دونه •

وقد تأثر نظام الحكم الذى وضعه سلاطين آل عثمان لحكم الولايات بعدة مؤثرات تفسر لنا كيف استطاع العثمانيون وهم قوم لا حضارة لهم وضع نظام لحكم أقاليم شاسعة تشتمل على شعوب متباينة ، أصبحت خاضعة لسيطرتهم •

ويرجع المؤرخون وجود نظام الحكم العثمانى الى تأثيرات عوامل متعددة هى :

(ا) بيئة الأتراك العثمانيين الأصلية فى وسط آسيا التى أثرت على ثقافة الأتراك بصفة عامة وخاصة اللغة والعادات والتقاليد القبلية • ويذكر المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » أن السلطان العثمانى كان

---

(١١) استخدمها سلاطين آل عثمان لاقامة توازن فى الحكم بين العناصر العثمانية (الوالى وقادة الفرق) وبين العناصر المحلية .

(نظر عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ج ١ طبعة رابعة ص ١٧ — ٢٢) •

يمارس حكم شعوب الولايات كما كان التركى يمارس رعى الماشـــية فى أراضى الأستبس أو البرارى ، وأن ممارسة الرعى كانت تتكون من ثلاثة عناصر : الراعى ، والماشية ، وكلب الحراسة . فالسلطان — فى رأى « توينبى » — هو الراعى ، أما الماشية فهى الشعوب التى خضعت للدولة ، أما كلب الحراسة فهو الجيش العثمانى (١٢) .

كما أن بيئة وسط آسيا التى انطلق منها الأتراك العثمانيون قــد فرضت عليهم الاستعداد العسكرى وروح القتال والغزو تحــت قيادة زعيم القبيلة الذى له الحل والعقد فى كل صغيرة وكبيرة والذى يقودهم فى عمليات الحرب والاغارة .

وان كنا يجب أن نوضح أن تأثير بيئة الأتراك العثمانيين الأصلية فى وسط آسيا ضعف بمرور الزمن واستمر فى الضعف مع بناء الدولة واتساعها فى أوروبا وفى الأقطار العربية ، وبسبب تأثر الأتــراك العثمانيين بحضارات البيزنطيين والعرب .

(ب) الحضارة الفارسية وما اشتملت عليه من مظاهر الفخامة والتبجيل والاحترام للسلاطين العثمانيين الى جانب التنظيمات الادارية والسياسية فى الدولة العثمانية ، فضلا عن اعتبار أصحاب الملل — أى غير المسلمين — مستقلين بأمورهم الداخلية ، كل ذلك وجد طريقه الى نظام الحكم العثمانى اما عن طريق الدولة السلجوقية فى فارس أو عن طريق العرب الذين تأثروا بالحضارة الفارسية أو عن طريق الدولــة البيزنطية التى جاورت الأتراك السلاجقة واحتكت بهم .

واذا كان المؤرخون قد اختلفوا حول الطريق الذى سلكته الحضارة الفارسية الى تنظيمات الحكم العثمانى ، واذا كانوا قد اختلفوا فى مدى

---

(١٢) د . الشناوى : المرجع السابق ص ٥١ .

تأثير الحضارة الفارسية فى العثمانيين ، فمما لا شك فيه أن هناك تأثيرا حضاريا فارسيا فى التنظيمات العثمانية ، وان كانت بمرور الوقت قد صهرت هذا التأثير الفارسى مع غيره من تأثيرات لدى العثمانيين وأصبحت تكون سلوكا عثمانيا •

(جـ) تأثيرات العرب الدينية واللغوية فى مجالات التعليم ومجالات العبادة والقضاء والافتاء ويرجع بعض المؤرخين ما جبلت عليه التنظيمات العثمانية من جمود وتحفظ الى التأثيرات العربية التقليدية ، ولكن هؤلاء المؤرخين يسرفون فى ذلك وينسون أن تأثيرات بيئة وسط آسيا الرعوية القبلية وتأثيرات الحضارة الفارسية لها دورها الأكبر فى التحفظ والتمسك بالتقاليد ومقاومة كل الحركات التقدمية فى المجتمع العثمانى •

(د) تأثيرات البيزنطيين على التنظيمات العثمانية خاصة فى النواحى الادارية والضرائبية ومظاهر العظمة والأبهة فى البلاط ، الى جانب تمتع الأجانب بامتيازات محددة تتفق مع نظام الدولة ، كل ذلك يفسر لنا كثيرا من التنظيمات العثمانية •

* * *

تأثيرات نظـــام الحكم العثمانى

كان العرب يشكلون الجزء الاسلامى الأكبر فى مجموعة ولايات الدولة العثمانية ، وبذا كانوا أكثر الولايات العثمانية تأثرا بالتنظيمات العثمانية ايجابا وسلبا ، وكان العرب ينظرون الى الدولة العثمانية قبـــل زحفها وتوسعها شرقا نظرة اكبار وفخار لما كسبته للمسلمين من فتوحات فى بلاد الروم • كما ظل العرب بعد خضوعهم للحكم العثمانى ينظرون الى العثمانيين باعتبارهم حماة الدين الاســـلامى ، بـــل وباعتبارهم المحافظين على الخلافة الاسلامية •

وقد تأثر العرب بنظام الحكم العثمانى بتأثيرات ايجابية وتأثيرات سلبية تسوقها على النحو الآتى :

التأثيرات الايجابية :

يمكننا أن نحدد التأثيرات الايجابية لنظام الحكم العثمانى على العرب فيما يلى :

أولا ــ الوحدة السياسية الاسلامية :

تحققت للاقطار العربية وحدة سياسية اسلامية فى ظل الحكم العثمانى [١٣] بعد أن كانت تلك الأقطار كيانات متنافرة تكاد تكونمتباعدة عن بعضها البعض منذ أن سقطت الوحدة العربية الاسلامية نتيجة ضعف الخلافة العباسية بظهور زعامات طامعة فى الحكم فى أنحاء الدولة الاسلامية المترامية الأطراف ، وبصفة خاصة بعد أن تعرضت بغداد ــ عاصمة الخلافة العباسية ــ للتدمير المغولى الشامل فى منتصف القرن السابع الهجرى الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى •

ولكن يؤخذ على هذه الوحدة السياسية الاسلامية أنها فرضت جمودا وعزلة على نشاط العرب فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية حيث لم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم فى هذه المجالات، هذا على الرغم من أن العثمانيين قد حققوا بهذه الوحدة السياسية الاسلامية استقرارا نسبيا فى أقطار الوطن العربى •

---

(١٣) لم تكن هذه الوحدة عربية على الرغم من انها تضم الاقطار العربية حيث أن الهدف من تكوينها ليس عربيا وقيادتها ليست عربية بل كانت عثمانية ولمصلحة العثمانيين وان استفادت منها الاقطار العربية فى انهاء التجزئة التى كانت قائمة بينها قبل قدوم العثمانيين •

ثانيا — مواجهة الصفويين :

يعتقد بعض المؤرخين أن السيطرة العثمانية على أقطـار الوطن العربى أوقفت امتداد نفوذ الصفويين الشيعة للسيطرة على الأقطار العربية السنية المذهب ، خاصة وأن الشاه اسـماعيل الصفوى غزا العراق عام ١٥٠٨م بحجة ضم مزارات الشيعة فى النجف الأشرف وكربلاء ، وهى الأماكن التى لها تقدير واحترام كبيرين عند الشيعة فى كل أنحاء العالم الاسلامى .

ونحن نتفق مع هذا الرأى حيث أن الصفويين الشيعة كانوا قـد نجحوا فى استمالة بعض الرعايا العثمانيين فى الأناضـول لاعتنـاق مذهب شيعى فوضوى عرف باسم « قزل باش » — أى صاحب الرأس الحمراء — ، كخطوة للقضاء على المذهب السنى فى الدولة العثمانية وفرض نفوذ الصفويين الشيعة السياسى على ولايات الدولة العثمانية بعد سقوط الدولة ذاتها تحت سيطرة هذا النفوذ الشيعى .

كما أننا لا نستبعد أنه اذا نجح الصفويون فى فرض نفوذهم السياسى ومذهبهم الدينى فى قلب الدولة العثمانية وسيطروا عليهـا أن يتجهوا فى تحقيق ذلك الى كل من أقطار الشام ومصر وغيرها من الأقطار العربية .

ثالثا — التصدى للبرتغاليين :

استطاع العثمانيون التصدى لتوغل البرتغاليين فى البحار العربية خاصة البحر الأحمر والخليج العربى بعد أن عجز المماليك فى مصر والشـام وخلفاؤهم عرب الجنوب والمغاربة والبنادقة عن الوقـوف أمام تهديدات البرتغاليين لأقطار الوطن العربى ، خاصة بعد الهزيمـة التى لحقت بهذا التحالف عند جزيرة « ديـو » أمام بومباى بمياه الهند عام ١٥٠٩ م .

ولكن يجب أن ندرك أن العثمانيين لم يستطيعوا طرد البرتغاليين فى المياه العربية بما يهدد أمن هذه الأقطار •

كما يجب أن ندرك أن العثمانيين بتصديهم للخطر البرتغـــانى الصليبى على الأقطار العربية قد فرضوا حمايتهم على تلك الأقطار ، تلك الحماية التى استمرت حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى عند ما بدأ الضعف يدب فى كيان الدولة العثمانية ذاتها •

رابعا ــ التصدى للأسبان وفرسان القديس يوحنا :

شهدت مياه حوض البحر المتوسط الغربى نشاطا صليبيا فى مطلع العصور الحديثة قامت به كل من أسبانيا وفرسان القديس يوحنـــا المتمركزين بجزيرة مالطة ، مما دفع بعض أهالى أقطار شمال أفريقيا العربية الاسلامية الى الاستنجاد بالدولة العثمانية لحماية تلك الأقطار من الخطر الصليبى الأسبانى وحلفائهم فرسان القديس يوحنا •

وقد استطاع العثمانيون بفرضهم لسيادتهم على الأقطار العربية بشمال أفريقيا أن يدخلوا فى معارك شـــديدة وحاسمة مع الأسبان وفرسان القديس يوحنا ، انتهت بكسر شوكة الخطر الأسبانى ، بالاضافة الى طرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس الغرب عام ١٥٥١ م ، وان لم ينته هـــذا الخطر نهائيا حيث استمرت عمليات الجهاد البحرى الاسلامى يقوم بها رجال البحر المراكشيون والجزائريون والتونسيون والطرابلسيون طوال القرون الممتـــدة من السادس عشر حتى التاسع عشر الميلادى •

خامسا ــ منع المراكب المسيحية من دخول البحر الأحمر :

كان سلاطين آل عثمان حريصين جدا على حماية الأماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز حيث أن تبعية الحجاز للدولة العثمانية قد أضفت

عليهـا — أى على الدولة العثمانية — مركزا دينيا مرموقا فى جميع أرجاء العالم الاسلامى على أساس أن هـذه البلاد — الحجاز — تضم أهم الأماكن المقدسة الاسلامية على وجه الأرض[١٤] .

كما كان سلاطين الدولة العثمانية قد اهتموا اهتماما كبيرا بابراز لقبين دينيين من بين ألقابهم العديدة ، اذ كان هذان اللقبان يضفيان على سلاطين آل عثمان صبغة دينية لها بريقها ووزنها فى أرجاء العالم الاســلامى ، كان أولهما لقب « حامى حمى الحرمين الشريفين » ، أو « خادم الحرمين الشريفين »[١٥] .

وقد تجلى اهتمام العثمانيين بالحجاز فى أنهم فرضوا أثناء صدامهم مع البرتغاليين حول مداخل البحار العربية الجنوبية تقليدا جديدا يقضى بمنع دخول المراكب المسيحية فى البحر الأحمر استنادا الى أنه يطل على الأماكن المقدســة للمسلمين فى الحجاز ، وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر[١٦] .

وقد أفاد هذا التقليد أقطار الوطن العربى ومنع الدول الاستعمارية الأوروبية من تحقيق أطماعها فى العالم العربى حتى القرن التاسع عشر ، وان كان هذا التقليد قد أضر بالأحوال الاقتصادية للأقطار المطلة على

---

(١٤) د . الشناوى : المرجع السابق ص ٦٥ .

(٦٥) نفس المرجع ص ٦٦ .

(١٦) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٢٨ . وكان صرف العثمانيين هو ابعاد البرتغاليين الصليبيين لانهم وحدهم القوة المسيحية المعادية للمسلمين التى تواجدت فى المياه العربية الجنوبية . وهذا يذكرنا بالبلاغ العسكرى الذى أصدرته القيادة المصرية فى حرب عام ١٩٧٣ باعتبار السفن الاجنبية معرضة للضرب اذا دخلت مياه البحر الاحمر دون اذن من السلطات المصرية ، وكان الهدف هو منع السفن الاسرائيلية او المتعاونــة مع الاسرائيليين .

البحـــر الأحمر نتيجة توقف التجــارة الخارجية التى تنقلها السفن المسيحية ، وقد هجرت موانى البحر الأمر مثل السويس وجدة وسواكن بسبب هذا التقليد مما أثر على الأمور الاقتصادية لأقطار الوطن العربى « البحر أحمرية » ، كما ساعد هذا التقليد على تحول طريق تجارة الشرق الأقصى مع أوروبا الى الدوران حول أفريقيا واســـتمرار هذا التحول على الرغم من ارتفاع تكاليفه •

سادسا ــ تقوية الحياة الاسلامية :

استفادت الشعوب العربية من الحكم العثمانى المسلم فى تقوية الحياة الدينية الاســـلامية ذلك أن الحكـــام العثمانيين حافظوا ـ ـ المشاعر الاسلامية للمواطنين العرب المسلمين فشاركوهم فى الاحتفالات الدينية ومراعاة الشرائع الاسلامية ، وكل ذلك انعكس على تأكيد القيم والمبادىء الدينية فى نفوس العرب المسلمين •

كما ساعد الحكام العثمانيون على اتصال العرب المسلمين فى موسم الحج ، بالاضافة الى الاهتمام بالتعليم الدينى الذى كان يؤديه الجامع الأزهر فى مصر وغيره من المساجد الكبرى فى الأقطار العربية هذا التعليم الذى كان وسيلة للترابط بين العرب المسلمين الى جانب أنه كان يؤدى وظيفة اجتماعية بما يضفيه على المتعلم من مركز أدبى واجتماعى ومادى •

وقد ظل نفوذ العلماء ــ علماء الأزهر ــ لدى السلطات الحاكمة فى مصر مملوكية وعثمانية قويا كما أن هذه السلطات سعت الى تشجيع هؤلاء العلماء فى المدارس والمجالس الخاصة ، أو منحهم الهدايا والمنح من وقت لآخر •

كذلك كان سلاطين آل عثمان يهدون علماء الأزهر الكثير من الهدايا أو يأمرون بمرتبات تصرف من « الضربخانة » ــ أى دار سك النقود ــ ،

وكان يجارى السلطان العثمانى فى ذلك سلطان المغــرب ولا سيما السلطان محمد فى القرن الثامن عشر الميلادى[١٧] .

وكل ذلك أفاد الشــعوب العربية الاســلامية فى تقوية الروح الدينية ، وقد صدق المثل القائل : « الناس على دين ملوكهم »[١٨] .

سابعا ـ تأخير الغزو الاستعمارى الأوروبى :

كانت انجلترا أكثر الدول الأوروبية حماسا للمحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ومعظم سنوات القرن التاسع عشر حتى لا تعطى لروسيا الفرصة لكى تحقق أطماعها على حســاب الدولة العثمانية بما يهدد المصالح البريطانية فى البحر المتوسط والأقطار العربية .

وقد استفادت الأقطار العربية من هــذا الموقف الانجليزى حيث تأخر الغزو الاستعمارى الأوروبى للأقطار العربية الى القرن التاسع عشر وخاصة بعد مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ م باستثناء استيلاء فرنسا على الجزائر عام ١٨٣٠ م وانجلترا على عدن عام ١٨٣٩ م .

ثامنا ـ الحكم غير المباشر :

استفادت الشــعوب العربية من الحكم العثمانى غير المباشر ، حيث لم يتدخل العثمانيون لتغيير البنــاء الاجتماعى والاقتصــادى السائد فى العالم العربى قبل القرن السادس عشر ، ومن ثم احتفظ العرب تحت الحكم العثمانى بمؤسساتهم الســابقة ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وليس أدل على ذلك أن العثمانيين أبقو على التقسيم الشائع

---

(١٧) د. محمد أنيس: ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ج ٣ص١١٠٨

(١٨) قارن هذا الموقف للعثمانيين بموقف الفرنسيين فى الجــزائر بعــد عــام ١٨٣٠ م .

فى المجتمعات العربية الاســلامية الى طبقات : رجال القلم ، رجال السيف ، التجار ، أصحاب الحرف ، أهل الذمة ، العبيد • كما أبقوا على انتظام أصحاب الحرف فى طوائف لكل منها شيخ ينظم شــئون العاملين فيها ويكون حلقة الاتصال بينهم وبين رجال الحكومة •

ونتيجة للحكم العثمانى غير المباشر ، ونتيجة لبقاء التراث العربى بعيــدا عن تدخل التنظيمات العثمانية ، فقد استفاد العرب فى بقاء الفكرة القومية ومقوماتها فى نفوسهم الى أن تهيأت لها الظروف فى أوائل القرن العشرين لتنطلق الى مجال الاعلان والتحرك نحو الوجود والتحقيق •

* * *

وباستعراض التأثيرات الايجابية للحكم العثمانى على أقطــار الوطن العربى خلال أربعة قرون يتضح ما يلى :

١ ــ لم يكن الحكم العثمانى سيئا بالصورة التى ألصقها به أعداؤه ، بدليل أن الأقطار العربية استفادت بصورة أو بأخرى وبدرجات متفاوتة من هذا الحكم كما رأينا •

٢ ــ أن معظم التأثيرات الايجابية للحكم العثمانى على الأقطار العربية لم تكن مقصودة أو مخطط لها لخدمة تلك الأقطار وانما حدثت لخــدمة الدولة العثمانية كامبراطورية تمتلك أو تفرض سيادتها على تلك الأقطار •

٣ ــ أن الدولة العثمانية ظلت قوية طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر فى ممارسة سلطتها على ولاياتها العربية وغير العربية ، ومن هنا كانت تأثيراتها الايجابية قوية ومؤثرة ، وعندما بدأ الضعف يدب فى أوصال الدولة ابتداء من القرن الثامن عشر وظهور العصبيات المحليــة فى الأقطار العربية ضعفت التأثيرات الايجابية للدولة على الأقطار العربية •

٤ — أن بعض التأثيرات الايجابية للحكم العثمانى فى الوطن العربى لم تكن ايجابية تماما وانما شابتها تأثيرات سلبية أضعفت من ايجابيتها كالوحدة السياسية ، وتقليد منع المراكب المسيحية من دخول مياه البحر الأحمر ٠٠ وغيرها ٠٠

التأثيرات السلبية :

يمكن لنا تحديد التأثيرات السلبية للحكم العثمانى على أقطار الوطن العربى فى النقاط الآتية :

أولا — الفهم القاصر لوظائف الدولة :

كان العثمانيون يفهمون خطأ أن وظائف الدولة ومسئوليات الحكومة نحو رعاياها قاصرة على ثلاثة أمور فقط هى :

(ا) الدفاع عن الولايات ضد أية اعتداءات خارجية أو ثورات داخلية ، وهذا يستلزم وجود قوات عثمانية تدافع عن البلاد أو تشارك فى مهاجمة الدول المعادية للسلطنة العثمانية ، كما تحافظ على الأمن والنظام فى الولايات ، فمهمتها عسكرية بوليسية فى آن واحد لكى تضمن بقاء الولايات تدين بالتبعية للسلطنة العثمانية ٠ وبطبيعة الحال لم تكن القوات العسكرية التى تمركزت فى الولايات العربية قوات عربية بل كانت قوات عثمانية بتشكيلاتها مما أفقد المواطنين العرب الاحساس بقدرتهم على حماية بلادهم والدفاع عنها ٠

(ب) تحصيل الأموال الأميرية — الضرائب — على تنوعها ثم توزيعها على وجوهها المختلفة عن طريق ادارة مالية ، وأهم وجوه انفاق هذه الأموال هو ارسال الجزية السنوية للسلطان التى تعرف باسم « الميرى » ، الى جانب الهدايا السنوية فى المناسبات المتعددة كمناسبة صدور فرمان بالولاية أو انعام سلطانى بلقب ٠٠ الخ ٠

ولم يكن ذلك يتطلب أكثر من الاشراف على الموظفين الذين يجمعون الضرائب والملتزمين ولا يهم ما يقع على الرعايا من ظلم أو اجحاف •

(جـ) الفصل فى الخصومات بين الناس ، وهذا يستلزم من الدولة اقامة نظام قضائى حسب ما تقضى به الشريعة الاسلامية ، وهذا أمر له أهمية عند السلطان العثمانى باعتباره خليفة المسلمين فى نفس الوقت •

ولم يكن فهم العثمانيين لوظائف الدولة ومسئوليات الحكومة يدرك أن هناك أمورا أخرى على درجة كبيرة من الأهميـــة تدخل فى وظائف الدولة مثل التعليم والصحة والتنمية الاقتصادية والرعاية الاجتماعية ، ولذلك فقد تركت الدولة العثمانية هــذه الأمور للأفراد والهيئات تقوم بالصرف عليها باعتبارها خارجة عن مسئولياتها التى حددتها الأنظمة الموضوعة •

وعلى هــذا فاذا احتاج الناس الى تعليم أبنائهم عهدوا بهم الى بعض من يحسنونه أو قد لا يحسنونه ، واذا احتاجوا الى علاج من مرض بحثوا عنه عنــد بعض الأدعياء • وأما الزراعة فتســير على ما اعتاده الفلاحون الذين يخضعون للملتزمين ، فى الوقت الذى تركت فيه أمور الصناعة فى يد أصــحاب الحرف ينظمونها فى طوائفهم ، ويتوارثون العمل فيهــا خلفا عن سلف ، وأما التجــارة فقد خضعت لتأثيرات الامتيازات الأجنبية التى منحت للأوروبيين فى الولايات العربية فى مجال التجــارة وغيرها من المجالات • وكل ذلك يجرى دون تدخل من الدولة العثمانية لترسم سياسة ، بل ان ترك هــذه المجالات قد أدى الى حدوث انهيار اقتصــادى وفوضى سياسية وتأخر اجتماعى وعزلة ثقافية حلت بالوطن العربى[١٩] •

---

(١٩) د • أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ....

ثانيا — تقسيم المجتمع الى طبقتين :

نظر العثمانيون الى المجتمع العربى نظرة خاطئة تقوم على اعتباره منقسما الى طبقتين رئيسيتين هما :

(ا) الطبقة الحاكمة التركية الأصل التى كونت داخل مجتمعات أقطار الوطن العربى ارستقراطية حاكمة منعزلة عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها واحساسها بذاتيتها ، وكانت هـذه الطبقة التركية تستمد كيانها من القوة العثمانية ، وكانت حريصة على عدم الاختلاط بالشعوب العربية باعتبار هـذه الشعوب أدنى مرتبة ووظيفتهم خدمة الطبقة الحاكمة •

(ب) الرعايا العرب فى بلادهم الخاضعة للحكم العثمانى بتصوراته وفهمه ، وعلى هؤلاء الرعايا خدمة الحكام ومدهم بما يحتاجون اليه ، كمـا كان على الرعايا تنظيم أمورهم الحياتية حسب ما اعتادوه قبل مجىء العثمانيون ، فاستمرت الطوائف الحرفية تؤدى دورها المعتاد تحت اشراف مشايخ الطوائف ، وبقيت الطوائف الاجتماعية بمكانتها دون تدخل العثمانيين كأهل الذمة — أى اليهود والمسيحيين — وأصحاب القلم أى العلماء ، وغيرهم •

ولا شك أن هـذه النظرة العثمانية القاصرة نحو تقسيم المجتمع قد تركت تأثيرات سلبية على المجتمعات العربية أدت الى عدم شعور المواطن العـربى بالولاء للدولة العثمانية بل أحس كل مواطن بولائه لوطنه وقطره العربى الذى ولد فيه ، ولعل هـذه التأثيرات السلبية تفسر لنا ضآلة تأثير الحكم العثمانى فى أقطار الوطن العـربى رغم السنوات الطويلة التى خضعت فيها الأقطار العربية للحكم العثمانى •

وهنا تبدو الفروق واضحة بين سياسة العثمانيين وبين سياسة

العرب حين انطلقوا من قلب الجزيرة العربيـــة فى موجـــات بشرية متلاحقة ، فاتحين مبشرين برســـالة الاسلام والعروبة ، فقد اقترب العـــرب من ســـكان البلاد الأصليين منذ نهـــاية القرن الثانى ومطلع القرن الثالث للهجرة(٢٠) •

ثالثا ــ الشك فى ممثلى السلطنة بالولايات :

اتصف نظام الحكم العثمانى بالشك وعدم الثقة فى ممثلى السلطنة فى ولايات الدولة ، وكانت نتيجة ذلك أن الوالى وهو الذى ينوب عن السلطان فى حكم الولاية ، كان يشـــعر بالشك فى تصرفاته ويخضع لرقابة من قوى عثمانية أخـــرى فى الولاية كقـــادة الفرق العثمانية العسكرية المعروفة بالأوجاقات ، والكتخذا وهو وكيل الوالى ، الى جانب ما نصت عليه التنظيمات العثمانية من تقصير مدة حكم الوالى خوفا من استقلاله بالولاية ، وعدم جمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يده ، وجعل تعيين القاضى والكتخذا والدفتردار ــ المسئول عن الأمور المالية ــ فى يد السلطان لا فى يد الوالى •

كل ذلك يجعل الوالى يشـــعر بعدم الاستقرار وعدم الاطمئنان لبقائه فى الولاية ، فلا يرتبط بولايته ولا بمشروعات يفكر فى انجازها فى الولاية ، وانما ينحصر تفكيره فى جمع أكبر قدر من الأموال لنفسه يحتفظ بها عند عزله من منصبه •

ثم ان عدم الثقة فى الوالى أدت الى تقسيم السلطة بينه وبين قادة الفرق العثمانية والعصبيات المحليـــة ، مما أدى الى التشـــاحن والخلافات بين أطراف الســـلطة الثلاثة ، وبالتالى تحملت الشـــعوب العربية نتائج هـــذه الخلافات •

(٢٠) د ٠ عبد العزيز الشناوى : من ابحاث الندوة الدولية لتاريـــخ القاهرة ج ١ ص ٦٦٨ •

رابعا ــ الرجعية وعدم التجديد :

كانت السياسة التى جرى عليها الحكم العثمانى فى الأقطار العربية سياسة الرجعية وعدم التجديد ، ذلك أننا رأينا الحكم العثمانى يبقى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فى المجتمعات العربية ، كما كانت قبل الغزو العثمانى للأقطار العربية .

بل اننا نرى أن مجموعة القوانين التى وضعت فى عهد سلاطين آل عثمان سليم الأول وسليمان القانونى ــ أو المشروع ــ قد بقيت نافذة المفعول ، وأساسا سار عليه السلاطين الذين خلفوا أصحاب القوانين وواضعيها ، وهذا دليل على أن الدولة العثمانية لم تكن ترحب كثيرا بأى تجديد فى نظم الحكم السائدة أو فى عادات الناس وتنظيماتهم الاجتماعية .

واذا كانت المجتمعات العربية قد استفادت من السياسة الرجعية للحكم العثمانى فى أنها حافظت على التراث العربى ، الا أن هذه السياسة قد أدت مع طول المدة التى بقيت فيها المجتمعات العربية تحت السيطرة العثمانية الى تخلف الأقطار العربية فكريا واقتصاديا واجتماعيا الى جانب التخلف السياسى .

خامسا ــ الطابع العسكرى للحكم العثمانى :

اتصف الحكم العثمانى للأقطار العربية بالطابع العسكرى الذى تمثل فى اعتبار الجيش العثمانى أداة للحرب وأداة للحكم معا ، باعتبار أن الجيش العثمانى غزا وسيطر وفتح أقطار الوطن العربى ، ومن ثم يتفرع منه أداة الحكم فى الولايات . ولا شك أن ذلك له تأثيره السلبى الخطير على الجيش نفسه الذى يبتعد بذلك عن وظيفته الأصلية وهى الدفاع عن البلاد ، وعلى العرب الذين يخضعون لحكم عسكرى يبعدهم

عن حياتهم المدنية ويقاسون خشونة وغلظة الحكم العسكريين الأتراك . الى جانب اهمـــال النواحى الاقتصـــادية والثقافية والاجتماعية التى يجهلها هؤلاء الحكام .

وليس أدل على تأثير الطابع العسكرى للحكم العثمانى أن الدولة العثمانية كانت قاعدة للجيش ، يجب أن تسخر كل الولايات لخدمته وفى تزويده بالقوى البشرية والمـــادية ، ونشر التعبئة الروحية بين أفراده . وقد طبعت العسكرية الصارمة ـــ التى كانت الخصيصة الأولى للدولة ـــ أخلاق العثمانيين وطبعت تصرفات الدولة بل وسياستها العليا بالطابع العسكرى العنيف[٢١] .

سادسا ـــ سوء الادارة العثمانية :

لم يكن العثمانيون أهل حضـــارة وليس لهم ميراث ادارى سليم يطبقونه على الولايات العربية وغير العربية التى تخضع لحكمهم ، ولذلك ساءت ادارتهم لتلك الولايات بصورة تركت آثارا سلبية امتدت قرونا فى ظل الحكم العثمانى ومازالت هـــذه الآثار باقية الى الآن تشير الى أصحابها .

ومن مظاهر سوء الادارة العثمانية فى الأقطار العربية الاهتمام المحدود بالمدن والبلاد الواقعة على سواحل البحار والطرق الرئيسية دون الاهتمام بالمناطق الصحراوية والريفية والنائية فى أقطار الوطن العربى ، رغم أن هـــذه المناطق تمثل الجانب الأكبر من الأقطار العربية ، وتركها العثمانيون فى يد رؤساء القبائل والعائلات والملتزمين والاقطاعيين يدبرون أمرها بما تعودوه من أساليب الحرب والادارة القبلية .

---

(٢١) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ص ٤٩ ـــ ٥٠ .

كما كان من مظاهر سوء الادارة العثمانية اهتمام الدولة بالأقطار العربية التى تدر عليهم أموالا أكثر من غيرها ، فعلى سبيل المثال ، كان اهتمام العثمانيين بمصر أكثر بكثير من اهتمامهم بليبيا أو اليمن .

سابعا — الامتيازات الأجنبية :

كان العثانيون خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر من القوة بحيث منعوا تحقيق الأطماع الاستعمارية الأوروبية فى ممتلكات الدولة ، ولكن عندما بدأ الضعف يدب فى أوصال الدولة فى القرن الثامن عشر حاولت الدولة استرضاء الدول الاستعمارية الأوروبية باعطائها امتيازات قنصلية واقتصادية ودينية وثقافية فى الولايات العربية .

وفى ظل هذه الامتيازات أصبحت الأقطار العربية مسرحا للنشاط الاستعمارى الاقتصادى والثقافى والدينى تمثل ذلك فى انشاء البنوك والوكالات التجـارية والمدارس والكنائس والادعاء برعاية المسيحيين العرب[٢٢] ، مما كان له أثره الخطير على أقطار الوطن العربى أدى فى النهاية الى تحقيق الأطماع الاستعمارية الأوروبية عندما تفككت الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر .

ثامنا — العـزلة :

فرض الحـكم العثمانى على الأقطـار العربية العزلة الثقـافية والاقتصادية بحرمان الشعوب العربية من الاتصال بالحضارة الأوروبية الناهضة بدعوى الخوف على الأقطار العربية من أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية ، ولا شك أن الاحتكاك الحضارى بين الشـعوب المختلفة عامل هام فى التقدم الحضارى والنمو الاجتماعى والاقتصادى .

---

(٢٢) كان الانجليز يبسطون حمايتهم على المسيحيين العرب البروتستانت، بينما يحمى الفرنسيون الكاثوليك العرب والروس يحمون الارثوذكس العرب

واذا كانت الأقطار العربية قد استفادت حقيقة ببقائها بعيدة عن أطماع الدول الأوروبية قرابة ثلاثة قرون تحت الحكم العثمانى أى الى أواخر القرن الثامن عشر ، فان العزلة التى عاشتها الأقطـــار العربية قد جعلتها تتخلف مئات من السنين عن الأقطـــار الأوروبية الناهضة ، بل وسلبتها ثقتها فى نفسها وفى قدرتها على استعادة مجدها الأول كدولة موحدة كبرى فى منطقة الشرق الأوسط سبقت حضارتها المزدهرة الحضارة الأوروبية الناهضة فى القرن التاسع عشر •

ومع ذلك فان القطر الذى تهيأت له فرصة يكسر فيها نطاق العزلة المفروضة عليـــه وينفتح على الحضارة الأوروبية ، استطاع أن يبنى نفسه فى المجالات المختلفة على أسس حديثة • ومصر فى مطلع القرن التاسع عشر على يد محمد على خير دليل على ذلك •

مما سبق نستطيع أن نسجل الحقائق التالية عن التأثيرات السلبية للحكم العثمانى على أقطار الوطن العربى :

١ ــ أن الحـــكم العثمانى فى الوطن العـــربى لم يكن ايجابيا ولا سلبيا كله •

٢ ــ أن معظم التأثيرات السلبية للحـــكم العثمانى فى الوطن العربى لم تكن مقصودة ولا مباشرة وانما حدثت بسبب ظروف العصر الذى وجدت فيه •

٣ ــ أن التأثيرات السلبية للحكم العثمانى فى الأقطار العربية كانت أبقى أثرا وأشـــد تأثيرا من التأثيرات الايجابية وهـــذا ما دعا

---

(٢٣) د . محمد انيس : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة جـ ٣ ص ١١٠٧ .

البعض الى القول بأن العثمانيين سبب تخلف العرب • وقد ساعد على سلبية الحكم العثمانى فى المجتمعات العربية أن العثمانيين لم يكن لهم رصيد حضارى يقدموه للحياة العلمية فى الولايات العربية ، فلم يتعلم العرب اللغة التركية ولم يدخلوا اللغة التركية فى الكتاتيب[٢٣] •

* * *

الفصل الثاني

العصبيات المحليــة

مقــــــدمة :

العصبيات المحلية فى المشرق العربى :

العصبيات المحلية فى المغرب العربى :

العصبية المحلية فى مصر :

مقـــدمة

رأينا فى الفصـــل السابق كيف أدت تأثيرات الحـــكم العثمانى السلبية على أقطار الوطن العربى الى ضعف وتخلف هـــذه الأقطار بل والعودة بها الى التفكك كمـــا حدث للخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى حيث ظهرت دويلات فى المشرق الاسلامى ودويلات فى المغرب الاسلامى ..

ونتج عن هـــذه التأثيرات السلبية ظهور العصبيات المحلية فى الولايات الخاضعة للحكم العثمانى تلك العصبيات التى لم تكن لتظهر لولا ما أصاب الدولة العثمانية من مظاهر الضعف والافلاس الادارى والفقر الحضـــارى .

ويذكر بعض المؤرخين أن ظهور العصبيات المحلية يرجع الى ظلم الولاة العثمانيين وثقل وطأة الحكم العثمانى ورجاله على الشـــعوب العربية ، مما دفع بالبعض من المغامرين أو المتطلعين الى الزعامة الى استغلال ضيق تلك الشـــعوب فأظهروا الرغبة فى التصدى المظالم الواقعة على العرب بهدف الحصول على مساندة أهالى الولايات لارتقاء كرسى الباشوية .

كما يذكر البعض الآخر من المؤرخين أن ظهور العصبيات المحلية فى الأقطار العربية يرجع الى نزعات فردية ومطامع شـــخصية تتصل برغبة أصحابها فى السيطرة على اقليم من الأقاليم العربية لتحقيق مكاسب مادية والحصول على سلطة كاملة تحقق له أملا أو حلما راوده منذ صغره كما فى حالة المماليك .

ومما يجب ملاحظته أن معظم العصبيات المحليـــة كانت تركيـــة

الجنسية على الرغم من قيامها فى ولايات عربية ، باعتبار القائمين بها أتراكا يعملون فى خدمة الدولة العثمانية وطمعوا فى حكم وراثى طويل •

ومع التسليم بهذا القول فقد كانت هناك حركات عربية تمثلت فى ثورات القبائل العربية فى الولايات ضد الحكم العثمانى ، وثورات دروز لبنان ، وحركة الشيخ ظاهر العمر فى جنوب سوريا وهـذا فى نظر بعض المؤرخين دليل على حيوية الشعوب العربية وعدم استسلامها لسلبيات الحكم العثمانى •

ومما تجب ملاحظته كذلك أن معظم العصبيات المحلية ظهرت فى العالم العربى خلال القرن الثامن عشر الميلادى وهو القرن الذى شهد انهيار التوازن الذى حرص على وجوده السلطان سليمان القانونى فى تشريعات الحكم بين الوالى من ناحية والعصبيات المحلية وقادة الأوجاقات العثمانية من ناحية أخرى •

وقد ظهرت عصبيات محلية فى المشرق العربى تمثلت فى ثورة المعنيين بجبل لبنان ، وآل العظم فى تلاد الشام والشيخ ظاهر العمر فى جنوب سوريا وحكم المماليك فى العراق •

كما ظهرت عصبيات محلية فى المغرب العربى كان أبرزها الحسينيون فى تونس والقرمانليون فى ولاية طرابلس الغرب •

وظهرت عصبيات محلية فى مصر — قلب المنطقة العربية ودرة الولايات العربيـــة تحت الحكم العثمانى — تمثلت فى حركة على بك الكبير ، ثم أسرة محمد على •

ولم تكن سياسة الدولة العثمانية حيال هـذه العصبيات المحلية سوى تعبير عن الافلاس الذى أصاب الحكم العثمانى ، فكانت تلجأ الى ارسال الحملات العسكرية للقضاء على ثورات القبائل العربية ،

واذا فشلت فى ذلك لجأت الى سياسة تغيير الباشوات أو تضطر الى تثبيت الباشا لمدة طويلة وتقبل حكم أسرته وراثيا اذا أثبت أفراد هذه الأسرة طاعة وخضـوعا وقدموا الأموال الكافية للسـلطان العثمانى ورجال دولته •

كما أن الشعوب العربية لم تعضد هـذه العصبيات المحلية نظرا لأن هـذه الشعوب لم تجد فارقا كبيرا بين زعماء هـذه العصبيات وبين الحكم العثمانى المباشر ، ولذلك نجد أهالى الولايات العربية كانوا يطلبون من السلاطين العثمانيين — عندما تفسد الأمور فى بلادهم فى ظل هذه العصبيات — عزل أصحاب هذه العصبيات •

* * *

العصبيات المحلية فى المشرق العربى

شهد المشرق العربى فى ظل الحكم العثمانى ظهور عصبيات محلية متعددة فى جبل لبنان وبلاد الشام والعراق وجنوب سوريا • ونحن لسنا فى مجال ذكر هذه العصبيات فى تلك الأقطار العربية تفصيلا ، بل نوردها لندلل على سلبيات الحـكم العثمانى ومساوىء التنظيمات العثمانية فى المشرق العربى •

أولا — المعنيون فى لبنـــان :

لبنان له وضع جغرافى وتاريخى خاص ، ذلك أن ثلثى أراضيه عبارة عن جبال عالية بينها وديان تتصف بالعمق والضيق ، كما أن السهول الواقعة بين الجبال نجدها محدودة الامتداد فى الغرب حيث تكاد الجبال أن تصل الى مياه البحر المتوسط فيما عدا سهل البقاع الخصيب الذى يفصله عن البحر جبال عالية تجعل الأمطار التى تسقط عليه قليلة الى حد ما •

وعلى هـذا نجد أن الجبال والوديان التى تتخللها — حيث تكثر الأمطار — ذات موارد أكثر من السهول الداخلية ، وينتج عن ذلك تركز السكان حيث تتوفر الموارد ، على أن الشرائط الطبيعية وحدها لا تكفى لتعليل التكاثف البشرى الشديد فى الجبال اللبنانية ، بل هناك الأسباب التاريخيـــة والطائفية التى حملت الدروز والموازنة على الاعتصـــام بالمرتفعات الأمنية حفاظا على كيانهم[1] .

وسكان لبنان لهم وضعهم الخاص من حيث تركيبهم الاجتماعى والدينى ، فاللبنانيون ينقسمون اجتماعيا الى قيسية ويمنية ، وينقسمون دينيا الى مسلمين ومسيحيين ، والتقسيم الدينى أكثر تفصـــيلا حيث ينقسم المسلمون الى سنة وشيعة وينقسم المســـيحيون الى موارنة كاثوليك وأروام كاثوليك وأرثوذكس وغيرهم بالاضـــافة الى الدروز المتحالفين مع المسلمين فى معظم فترات التاريخ[2] .

عندما استولى العثمانيون على بلاد الشام عام ١٥١٦ م جعلوا مدينة طرابلس اللبنانية مقرا لباشوية عثمانية الى جانب باشويات حلب ودمشق ، ثم جعلوا مدينة صيدا عام ١٦٦٠ م باشوية عثمانية رابعة لمواجهة ثورات الدروز والموارنة .

وفى جبل لبنان ثارت الأسرة المعنية الدرزية ضـــد الحكم العثمانى حيث ظهر من زعمائها الأمير فخر الدين الأول الذى توفى عام ١٥٤٤ م فى بلاط باشا الشام بدمشق ، وابنه الأمير قرقماس الذى لقى مصرعه أثناء صراعه مع العثمانيين عام ١٥٨٥ م .

---

(١) د . عزة النص : احوال السكان فى العالم العربى ص ٥٦ .

(٢) الدروز ينتسبون الى أحد اتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى يدعى محمد بن اسماعيل الدرزى الذى أوحى للحاكم بأمر الله بالالوهية ثم فر الى جبل لبنان بعد موت الحاكم بأمر الله وهناك أسس مذهبه واصبح له اتباع عرفوا بالدروز نسبة اليه .

على أن أعظم أمراء الأسرة المعنية الدرزية كان فخر الدين الثانى الذى امتاز بالحنكة السياسية ، فرغم أنه كان درزيا الا أنه كان يتقنع بقناع المسيحية أمام المسيحيين ، ويدعى الانتماء للمسلمين السنيين أمامهم وذلك لكسب ود كل هؤلاء وليستطيع تحقيق أهدافه ، وقد كانت صفاته هـذه سببا فى أن اعتبره بعض المؤرخين تلميذا مخلصا لمكيافيللى الأديب الايطالى صاحب كتاب الأمير .

وكان فخر الدين الثانى دائم الثورة على الحكم العثمانى ، وسعى فى سبيل استمرار ثورته الى الحصول على معاونة من دوق تسكانيا فى ايطاليا بل من أسبانيا وفرسان القديس يوحنا ومن ثم اندفع فى العمل على فرنجة أهل جبل لبنان وأخذ يعمل على تطوير اقتصادياتها وتنظيم مدينة بيروت بما يقربها من المدن الأوروبية ، واهتم بالتعليم وحرص على ارسال عدد من الشباب الدروز للتعليم فى ايطاليا ، وشجع الأوروبيين على دراسة اللغة العربية وآدابها .

الا أن حيـاة الأمير فخر الدين الثانى انتهت على يد القـوات العثمانية عام ١٦٣٥ م حيث نهبت الامارة المعنيـة ودمرت ، وعادت السيطرة العثمانية كاملة الى جبل لبنان ، وحتى تحكم الدولة العثمانية سيطرتها على لبنان وعلى الدروز بصفة خاصـة فان العثمانيين أنشأوا عام ١٦٦٠ م ولاية صيدا ــ كما ذكرنا ــ تتكون من المناطق الساحلية التى كانت تابعة لباشوية الشام ، ومهمة هـذه الولاية الجديدة مراقبة دروز لبنان والموارنة واخماد الثورة من جانبهم بالاستعانة بولاية طرابلس اللبنانية أيضا[٣] .

وقد تسلمت أسرة درزية أخرى حكم جبل لبنان خلفا للاسرة المعنية، هى الأسرة الشهابية حيث كان بشير الأول الشهابى أول امراء هـذه

(٣) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٥٤ .

الأسرة منذ عام ١٦٩٨ م الذى واجه ثورة « المتاولة » الشـيعة الذين يسـكنون المنطقة الجبلية بين الجليل وصيدا ، كما واجه عداء أسرة يمنية هى أسرة علم الدين[٤] .

وكان أشهر زعماء الأسرة الشهابية هو بشير الثانى الذى تولى الامارة عام ١٧٩٥ م الذى واجه أحمد باشا الجزار والى صيدا (عكا) حتى وفاة الجزار عام ١٨٠٤ م ، وقد تشبه بالأمير فخر الدين الثانى حيث استطاع بالخديعة حينا وبالحرب حينا وبالمهادنة حينا آخر أن يستقطب القوى المتنافرة فى لبنان ، فمع أنه كان درزيا بصفة رسمية الا أن هـذا لم يمنعه أن يظهر أمام الموارنة بأنه مسـيحى ويدعى اعتناقه للديانة المسيحية حتى يضمن ولاء الموارنة وخضوعهم له فى ظل وحدة لبنان .

وقد عمل بشير الثانى لاصلاح الأحوال فى لبنان ووضع السلطة كاملة فى يده بقوة مستخدما العنف والبطش بالطائفيين ، ورغم ذلك اتسم حكمه بطابع التقدم وجنى آثار النهضة الاقتصادية فى عهـده بالعيش فى ترف تجلى فى قصره المسمى « بيت الدين » الذى يعتبر ذا شهرة معمارية فى لبنان .

الا أن بشير الشهابى اضطر الى الفرار الى مصر عام ١٨٢٢ م بسبب تزعمه ثورة ضد باشا عكا وكان هروبه سببا فى ظهور أسرة درزية أخرى — مازالت موجودة — برئاسة الشيخ جنبلاط ، حتى اذا نجح محمد على والى مصر فى الحصول على عفو من السلطان العثمانى للأمير بشير الثانى عاد الى لبنـان كحليف لمحمد على عام ١٨٣١ م وبقى هناك الى عام ١٨٤٠ م عندما غادر لبنان للمرة الأخيرة ..

---

(٤) د. محمد انيس: الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص٦١ .

وقد استمر لبنان يعيش جوا من الانقسامات الطائفية حتى ثارت فتنة دينية بلغت ذروتها عام ١٠٦٠ م بين الدروز والموارنة كانت نتيجتها مذبحة لكلا الطرفين شملت مدن صيدا وحاصبيا وراشيا ودير القمر وزحلة الى جانب عدد كبير من القرى المجاورة لبيروت ، وامتدت المذابح الى سوريا واتسعت لتشمل المسيحيين والمسلمين ، وقد لعب قنصل فرنسا في بيروت الدور الأكبر في اثارة هذه الحرب الأهلية •

وكانت هذه المذابح دافعا لكي يعلن الامبراطور الفرنسي نابليون الثالث — في غيبة الدولة العثمانية وعدم سعيها لانهاء هذه المذابح — أنه سوف يتدخل لايقاف هذه المذابح بحجة أن فرنسا تحمى الموارنة الكاثوليك ، وبالفعل نزلت قوات فرنسية أواخر شهر أغسطس عام ١٨٦٠م الى ميناء بيروت ولكن بعـــد أن التزمت فرنسا أمام انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا وتركيا بأن احتلالها مؤقت لن يتجاوز ستة شـــهور ولن يزيد عدد قوات الاحتلال الفرنسي عن ١٢ ألف جندى • وقد ظلت هذه القوات حتى جلت عن لبنان تحت ضغط الدول الأوروبية في ٥ يونيو ١٨٦١ م ، بعد احتلال دام أكثر من عشرة شـــهور •

ونتيجة لهذه المذابح وتداخل الدول في أمور لبنان وسلبية الحكم العثماني فقد وضعت لجنة دولية في يونيو ١٨٦١ م نظاما أساسيا جديدا لحكم لبنان جعل بمقتضاه جبل لبنان منطقـــة تحكم حكما ذاتيا تحت رئاسة حاكم مسيحي يخضع للباب العالي مباشرة — وليس لباشا صيدا — وبالتـــالي يختاره السلطان العثماني ويعينه وعرف باســـم المتصرف ويساعده مجلس اداري مكون من ١٢ عضوا : عضوان عن كل طائفة من الطوائف الدينيـــة الكبيرة الست وهي : الدروز والموارنة والسنة والشيعة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك •

وقد اعتبر النظام الأساسي منذ عام ١٨٦٤ م وحتى عام ١٩١٤ م دستورا دائما بعد أن صادقت عليه الدول الكبرى وهي انجلترا والنمسا

والروسيا وبروسيا وتركيا عام ١٨٦٤ م • وان كانت عدة تعديلات طفيفة قد أدخلت عليه كانشاء منطقة مارونية أخرى وتعديل عدد ممثلى الطوائف فى المجلس الادارى المعاون للمتصرف •

ثانيا — آل العظم فى الشـــام :

شهدت بلاد الشام حركة عصبية محلية أخرى تمثلت فى آل العظم الذين تولوا باشوية دمشق لمدة ستين سنة ، وجاء ارتقاء آل العظـم لباشوية دمشق نتيجة توفر ظروف معينة اضطرت الدولة العثمانية الى الاستعانة بأفراد هـذه الأسرة لتولى مقاليد الحكم فى ولايات سوريا ، وهـذه الظروف تمثلت فيما أصاب سوريا من فوضى واضطراب بعد أن كانت الأحوال فى بداية الحكم العثمانى طيبة والأمن مستتب والحياة الاقتصادية نشطة ومستقرة •

ومصـــدر الفوضى التى أصابت سوريا كانت من المسئولين عن استقرار الأمن ، وأعنى من القوات العسكرية المتمركزة هناك ســواء المحلية أو الوافدة ، واذا كانت مدينة حلب قد شهدت طوال قرنين من الزمان تقريبا من بداية الحكم العثمانى استقرارا وازدهارا اقتصاديا حتى أصبحت أكبر وأهم المراكز التجارية فى « الليفانت »[٥] بسبب وقوعها على الطرق المؤدية الى قلب الدولة العثمانية من ناحية والعراق من ناحية أخرى ، فان النزاع بين القوات المحلية فى المدينة والتى عرفت باسم الأسياد أو الأشراف[٦] من ناحية وبين القوات الوافدة وأعنى الانكشارية أدى الى تدهور النواحى الاقتصادية واضطراب نشـاط السـكان •

---

(٥) الليفانت تعبير يطلق على سواحل الحوض الشرقى للبحر المتوسط وهى مشتقة من الفعل الفرنسى Lever من شروق الشمس وهى تعنى أيضا الشرق .

(٦) يدعون الانتساب الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما دمشـــق فقد كانت المدينة الكبرى فى الشام ذات الوضـــع التاريخى والأدبى والروحى ، فقد شهدت هى الأخرى منذ بداية الحكم العثمانى رخاء وانتعاشا فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى ، الا أنها فى أوائل القرن الثامن عشر شهدت فترة من الفوضى والاضطراب أيضا بسبب النزاع بين الانكشارية السلطانية ــ المعروفة باسم القابقول ــ وبين الانكشارية المحلية التى تسمى « يردلية »[٧] •

وفى وسط هــذا الاضطراب والفوضى التى انتشرت فى سوريا لجأ الباشوات العثمانيون الى أساليب ساهمت فى ازدياد الفوضى خاصة فى زمن الباشوات الضـــعاف ، ذلك أن هؤلاء الباشوات لجئوا الى استخدام جنود مرتزقة عرفوا بالمغاربة معظمهم من المغرب والجزائر وتونس ، الى جانب جنود من التركمان ، وكان هؤلاء الجنود عاملا جديدا فى الاضطراب •

وقد أدت الاضطرابات المتوالية وخصوصا فى حلب الى انهيار الزراعة ، فالرحالة الفرنسى « فولنى » Volney يذكر فى عام ١٧٨٥ م أن أكثر من ٣٢٠٠ قرية فى ولاية حلب كانت مســـجلة أسماؤها فى سجلات الضرائب ، ولكن لم يبق منها ذلك العام أكثر من ٤٠٠ قرية ، أما بقية القرى فقد هجرها سكانها[٨] •

فى وسط هــذا الاضطراب الواقع ببلاد الشام ظهرت فى دمشق أسرة حكمت باشوية دمشق لمصلحتها ولمصلحة الدولة العثمانية هى أسرة العظم التى أثبت قادتها أنهم جديرون بثقة الدولة العثمانية ، لأن دمشق كانت مثار اهتمام السلطان العثمانى باعتبارها تتحكم فى طريق الحجاج

---

(٧) د . محمد انيس ود . حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٥٨ .

(٨) د . محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٥٢ .

الآتين من تركيا ومن شمال سوريا ، وتأمين هؤلاء الحجاج فى الطريق أمر له أهميته عند السلطان العثمانى باعتباره حامى حمى الاسلام والمسلمين ، وتعرض الحجاج الى سلب ونهب البدو فى طريق الحج عبر بلاد الشام الى الحجاز مما يؤثر فى مركز السلطان الدينى باعتباره خليفة المسلمين .

وحرص السلطان العثمانى على سلامة الحجاج استدعى منه أن يعهد الى باشا دمشق بقيادة حملة عسكرية لمرافقة قوافل الحجاج كل موسم لحمايتها من اغارات البدو ، وكثيرا ما كان هذا الباشا يحمل لقب أمير الحج ، ومن ثم يتولى امداد هذه القوافل بما تحتاج اليه من مؤن ورعاية طوال وقت عبورها أراضى بلاد الشام حتى وصولها الى الاراضى المقدسة بالحجاز .

جاءت استعانة السلطان العثمانى بآل العظم على أمل أن ينتهى الاضطراب فى سوريا ، وقد استطاع آل العظم بالفعل ضمان الأمن والاستقرار فى الولاية . وكان أول باشوات آل العظم هو اسماعيل باشا الذى نقل من باشوية صيدا الى باشوية دمشق[٩] عام ١٧٢٤ م وقد استطاع اسماعيل باشا أن يخضع حركات التمرد فى دمشق ويعيد الى المدينة نوعا من الاستقرار ، واستمر ماسكا بزمام الأمور مستعينا بجنده من مماليك البوسنة والمغاربة حتى طرد هو نفسه من دمشق عام ١٧٣٠م [١٠].

وتوالى أفراد من أسرة العظم فى حكم باشوية دمشق بل وتولى غيرها من باشويات الشام بعد اسماعيل العظم ، مثل سليمان باشا العظم الذى تولى باشوية دمشق فى الفترة من ١٧٣٢ الى ١٧٤٢ م

---

(٩) تعرف أيضا باسم ولاية او ايالة الشام .

(١٠) د . محمد انيس ود . حراز : المرجع السابق ص ٥٩ .

ثم خلفه ابن أخيه أسعد باشا العظم الذى استمر فى الباشوية حتى عام ١٧٥٦ م تصدى خلالها لثورة « اليردلية » التى تزعمها الدفترد سيد فتح الله وقضى على هذه الثورة بقتل قائدها ورجاله جميعا[11] ، كما تولى باشوية حلب عام ١٧٥٥م الى جانب باشوية دمشق وحصل من السلطان العثمانى على الموافقة بتعيين أقاربه وأتباعه فى باشويات طرابلس وصيدا .

ورغم اتساع نفوذ آل العظم ، ورغم ضيق الدولة العثمانيـــة من هذا الاتساع ، فقد أثبتت الأحداث أنهم أجدر بتأييد الدولـــة العثمانية ضد الخارجين عليهم ، ومن ثم فان دمشق شهدت فترة من الاضطراب منذ خروج أسعد العظم منها عام ١٧٥٦م الى أن تعين عثمان باشا العظم المعروف باسم عثمان الصادق عام ١٧٦١م ، حدثت خلال السنوات الخمس هذه صدامات بين « القابقول » من ناحية و «البردلية» وحلفاؤهم من الدروز من ناحية أخرى،كما تعرضت قوافل الحج لاغارات قبائل البدو .

جاء تعيين عثمان باشا العظم ـــ عثمان الصادق ـــ دليلا جديدا على اعتراف الدولة العثمانية بحاجتها الى باشوات هذه الأسرة لضمـــن الأمن والاستقرار فى سوريا ، ذلك أنه منذ أوائل الثلاثينيات من هذا القرن ـــ الثامن عشر ـــ ظهر على مسرح الأحداث فى جنوب سوريـــا رجل عربى طموح تواق الى الحكم هو الشيخ ظاهر العمر ، وكان ازدياد خطر ظاهر العمر فى باشوية صيدا قد أجبر السلطان العثمانى على تثبيت آل العظم فى باشوية دمشق وتعيين أقاربهم فى باشويات صيدا وطرابلس وفى حلب أحيانا [12] .

---

(١١) د . انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٥٣ .

(١٢) د . انيس و د . حراز : المرجع السابق ص ٦٠ .

ورغم أن عثمان باشا العظم فشل فى صد التحالف المملوكى (المصرى) الشامى أى تحالف جند على بك الكبير فى مصر وجند الشيخ ظاهر العمر فى فلسطين ، حتى دخل هؤلاء الجند المتحالفين دمشق نفسها عام ١٧٧١م ، مما جعل الدولة العثمانية تعزل عثمان باشا وتعين باشا آخر مكانه ، فان آل العظم عادوا الى الحكم مرة أخرى فى دمشق فى شخص محمد باشا العظم عام ١٧٧٨م الذى حكم الباشوية حوالى عشر سنوات حكما مستقرا بصورة سبق فيها غيره من الباشوات حتى صار محل تقدير أهل الولاية .

وبانتهاء حكم آل العظم فى سوريا عام ١٧٨٦م ، عادت الانقسامات والفتن فى الباشوية مما جعلها تفقد الأهمية التى كانت لها ، بل أن تصبح تابعة لباشوية صيدا خاصة بعد أن انتزع أحمد باشا الجزار باشا صيدا ولاية دمشق وضمها الى حكمه عام ١٧٩٠م حتى عام ١٨٠٤م . حيث عانى الأهالى من سوء الحكم الشىء الكثير مما اضطر الكثيرين من أهالى البلاد الى الهرب من دمشق الى جبل لبنان أو حلب فرارا من بطش الجزار وارهاقه .

ظل هذا الوضع السىء فى دمشق حتى اتجه محمد على الى الأقطار الشامية عام ١٨٣١م حيث أنهى الباشويات العثمانية فى حلب ودمشق وطرابلس وصيدا وجعلها تحت الحكم المصرى حتى عام ١٨٤٠م . وبعدها عادت الى الوقوع تحت الحكم العثمانى بكل سلبياته حتى الحرب العالمية الأولى .

ثالثا — ظاهر العمر فى فلسطين :

كانت أحوال أقطار الشام بصفة عامة وولاية صيدا بصفة خاصة تهيىء لرجل طموح مثل الشيخ ظاهر العمر أن يعلن آماله وتطلعاته ويدافع عنها .. فما هى الظروف التى ساعدت على ظهور هذا الرجل ؟ ومن هو ظاهر العمر ؟

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر اكتسبت ولاية صيدا مركزا خاصا بين ولايات الأقطار الشامية (طرابلس الشام ، حلب ، دمشق) ، أى أصبحت ولاية صيدا أكثر مكانة بين ولايات الشام ، ويرجع ذلك الى توفر عدة عوامل هى :

١ ــ تجدد النزاع مع دروز لبنان .

٢ ــ تطلع البكوات المماليك فى مصر الى جنوب بلاد الشــام .

٣ ــ نشاط الأوروبيين التجارى فى صيدا [١٣] .

وكما هو معلوم فى التنظيم العثمانى لحكم الولايات ، كان يلى ولاية صيدا ــ شأنها شأن بقية الولايات ــ واليا (وزيرا أو نائبا للسلطان كما كان يسمى) بيده السلطات العسكرية والمدنية (الماليــة والادارية والقضائية) ، وكان يلتزم الولاية من الباب العالى بمــال معلوم مع هدية سنوية من المــال على وجه ثابت .

وكانت ولاية صيدا كغيرها من الولايات مقسمة الى اقطاعيــات يلتزم كل مقاطعة منها شيخ من البيوت القديمة ذات الحيثية ، من الوالى رأسا أو من أمير أعظم منه نظير مبلغ معين من المــال لا يقبل الزيادة يقال له مال الميرى يدفعه الشيخ مع هدية مالية يقال لهــا عوائد [١٤] .

وكان أصحاب المقاطعات لا يدعون الباشا (الوالى) يتدخل فى شئون بلادهم ويقاومونه اذا حاول التدخل متحصنين فى حصونهم وجبالهم ومستندين الى اتحاد كلمتهم ، ذلك أن هؤلاء المشايخ [١٥] كانوا

---

(١٣) د . محمد أنيس ود . حراز : المرجع السابق ص ٦١ .

(١٤) ميخائيل الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيدانى ص ١١ .

(١٥) تعنى كلمة المشايخ أصحاب الاقطاعيات الذين كانوا مشــايخ لقبائل أو عشائر أو أسر .

يتحصنون فى قلاع قديمة من بقايا آثار الصليبيين بالجبال ، ويلتف حولهم رجال أشداء من عشائرهم ينفذون أوامر المشايخ ولا يخرجـــون عليهـــم .

ونظرا لأن ولاية صيدا كانت أحدث ولايات الشام تكوينـــا فلم يتواجد بها قوات عسكرية من أهل البلاد أو من الانكشارية ، وانمـــا اعتمد الولاة على قوات عسكرية وافدة من خارج المنطقة من الأكراد والتركمان والأرناءوط والمغاربة والسودانيين وغيرهم ، وقد تشكلت هذه القوات فى وحدات متنوعة بتيوع مواطن ولهجات ولغات أصحابها .

وحيث أن هذه القوات مأجورة وجنودها غرباء عن أهل البلاد فلم يكن جنودها يتعاملون مع أهل البلاد الا بوسائل السلب والنهب لمصلحتهم الخاصة ومصلحة الوالى الذى كان دائم السكوت عن أفعالهم ، وعدم ايقاف اعتداءاتهم المتكررة على الناس الذين ضجوا كثيرا بالشكوى منهم، وبلغ ضيق الناس بأفعال هؤلاء الجند أن أصبحوا مضرب المثل الذى لا يزال دارجا الى اليوم بالقول بأن فلانا نظير عسكر الدولة ملحه على ذيله ، أى لا ذمة له ولا عهد ولا يذكر الخبز ولا الملح بفيه[١٦].

أما ظاهر العمر فهو عربى الأصل من قبيلة عربية تدعى بنو زيدان أحد بطون قبيلة أكبر هى بنو أسد النازلة حول « معرة النعمان » بـــين الشـــام ـــ أى دمشق ـــ وحلب ، وكان بنو زيدان يدعون أنهم من نسل زيدان بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ولم يكن يعرف من بنى زيدان سوى عمر والد ظاهر ، عندما أقامه الأمير بشير شهاب الأول شـــيخا على بلاد صفد لأن عمر كان قيسيا مثله ليغريه بالشيخ السابق على صفد الذى كان يمنيا ، وقد تم ذلك عام ١٦٨٩م [١٧] .

---

(١٦) ميخائيـــل الصبـــــاغ : المرجع السابق ص ١٢ .

(١٧) نفس المرجع ، ص ١٥ .

ولد ظاهر فيما تروى أقرب المصادر الى الدقة حوالى عام ١٦٨١م ، وقد تأدب بالآداب العربية والاسلامية حتى اشتهر بالأخلاق والرحمة مع الشجاعة والمهارة والذكاء ، وقد استطاع بحسن سمعته وتدبيره من أن يحصل من باشا صيدا على التزام منطقة « طبرية » فحكمها منذ عام ١٧٣٣م بالعدل ووفر لأهلها الاستقرار والأمن .

وباستقرار ظاهر فى « طبرية » أخذ يوسع التزامه بضم البلاد التى حولها شيئا فشيئا بموافقة باشا صيدا الذى لم يكن يرفض طلبات ظاهر المدعمة بالهدايا ، ولذلك أخذ ظاهر بسهولة ودون عقبات جميع البلاد التى حول « طبرية » ، وقد فرح أهل تلك البلاد بحكم ظاهر لما اشتهر به من العدل والرحمة وقدرته على حمايتهم من اغارات البدو وحملاتهم للسلب والنهب .

ونتيجة لصفات ظاهر هذه فقد ذاع صيته بين عرب فلسطين وأخذت وفود البلاد المختلفة تأتى اليه وتطلب ولايته عليهم ، بل كثيرا ما كانوا يلجئون اليه ليرد عنهم ظلم حكامهم وملتزميهم ، مما أغار صدور هؤلاء الحكام والملتزمين ضد ظاهر وجعله هدفا لمؤامراتهم وتحالفوا مع الدولة العثمانية وباشوات ولايات الشام ضد ظاهر العمر عندما تأزمت الأمور بين الطرفين .

وقد اتبع ظاهر سياسة المسالمة أولا فى ضم البلاد الراغب فى ضها الى التزامه ، فاذا فشلت سياسة المسالمة لجأ الى الحرب ، وكان النجاح حليفه فى معظم الأحوال ان لم يكن كلها ، فقد استطاع مثلا عام ١٧٣٩م أن يحصل على التزام صفد من ملتزمها الذى يدعى محمد نافع بأن أخذ يلاطفه ويحتال عليه بالوعد والوعيد الى ان استنزله عنها وتولاها وأحضر تقريرها من وزير صيدا[١٨] .

---

(١٨) نفس المرجع ص ٣٨ ، وكانت صفد حينئذ قلعة قديمة حصينة . وكلمة وزير صيدا تعنى باشا أو والى صيدا .

ومن ناحية أخرى اتجه ظاهر الى « المتاولة » وهم قوم من الشيعة وبلادهم ، بلاد بشارة بين جبل الدروز (الشوف) وبلاد صفد ، يريد أخذ بلادهم ، ولكنهم رفضوا التنازل عن بلادهم وأنذروه بالحرب ، فحاربهم وغلبهم بالمكر والخديعة وأخذ بلادهم عام ١٧٤٢م وحصل على التزامها من باشا صيدا ، ثم تحالف ظاهر مع « المتاولة » انتظارا لصدامه مع العثمانيين .

نتيجة لاتساع التزام ظاهر وقوة شوكته ، ونتيجة لاثارة الملتزمين القدامى لباشا صيدا ضد ظاهر ، فقد أخذت العلاقات تسوء بين ظاهر من ناحية وبين ممثلى الدولة العثمانية من ناحية أخرى تلك العلاقات التى اينتهت بالقضاء على ظاهر العمر نفسه وتفكك امارته التى بناها طوال سنوات طويلة باللين تارة وبالحرب تارة أخرى .

كان المحك الأول للخلاف مع الدولة العثمانية هو مدينة عكا الساحلية التى أراد ظاهر العمر أن يأخذ التزامها بحجة حمايتها من القراصنة المالطيين الذين كانوا يجوبون الحوض الشرقى للبحر المتوسط آنذاك ، الا أن باشا صيدا رفض اعطاء عكا لظاهر رغم العروض السخية التى عرضها عليه ظاهر بزيادة المال الميرى المقرر عليها ، فغضب ظاهر واستشار أخاه « سعد »[١٩] الذى أشار اليه بأخذها عنوة .

وقد نفذ ظاهر نصيحة أخيه « سعد » فاقتحمت قواته مدينة عكا حوالى عام ١٧٤٤م وقبضت قواته على متسلم المدينة وأرسل الى ظاهر الذى أكرمه وأرسله الى مولاه باشا صيدا ، ثم ان ظاهر انتقل الى عكا واتخذها مقرا لحكمه ، ولما وصل المتسلم الى الباشا لم يقدر هذا

---

(١٩) نصح سعد اخاه ظاهر بقوله : « ما عليك بأس من السلطان اذا أخذت عكا وقمت له بمالها المقرر عليها لانه لا يسأل ان كان المتولى عليها باشا من رجاله أو من أهل البلاد وعنده الامر بالسواء بشرط ان مال الميرى يصل له تماما .

أن يفعل شيئا لعدم قوته وصبر على ناره وصار يترصد الحوادث لظاهر وهو على حقد عظيم (٢٠) .

استمر ظاهر فى توسيع التزامه فضم بلاد : الناصرة ، حيفا ، والبلاد المجاورة لها ، ومنع عن باشا صيدا العوايد (الهدايا) واكتفى بارسال المال الميرى المقرر على كل اقطاعياته ، ودخل فى صراع مع باشوات دمشق وصيدا من آل العظم حتى استطاع ظاهر الاستيلاء على صيدا نفسها ، وحصل من السلطان العثمانى على فرمان بولاية صيدا والاقطاعيات التى كانت فى يده . وبعد ذلك ضم ظاهر كلا من يافا والقدس والخليل تلبية لطلبات أهلها ووافق السلطان العثمانى بعـد أن وصلته الهدايا الكثيرة من ظاهر .

ولكن ظاهر أحس بأن الدولة العثمانية تكن له العداء وتسعى للتخلص منه ، ومن ثم بحث عن حليف قوى فوجد ذلك الحليف فى شخص على بك الكبير شيخ البلد فى مصر ، وقد انتهز ظاهر فرصة قبول على بك لشفاعته فى ميخائيل الجمل كاتب على بك لكى يطلب نجدة مصرية للوقوف أمام محاولات عثمان باشا العظم (المعروف بعثمان الصادق) — باشا دمشق — للقضاء على ظاهر وامارته ، وبالفعل أسرع على بك فأرسل جيشا مكونا من أربعة آلاف جندى مصرى ليكـون فى خدمة الشيخ ظاهر (٢١) .

وعندما تجدد تهديد باشا دمشق لظاهر أرسل على بك جيشا بقيادة مملوكه محمد أبو الذهب اجتمع مع جيش ظاهر بقيادة ابنه على وذلك عام ١٧٧٢ م ، واستطاع هذا الجيش المشترك أن يلحق الهزية بعثمان باشا وأن يطرده من دمشق ، ولكن عودة محمد أبو الذهب المفاجئة الى

---

(٢٠) ميخائيل الصباغ : المرجع السابق ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار .. المجلد الاول ص ٣٥٤ .

مصر بجيشه ليقود ثورة ضد سيده على بل قد تركت ظاهر يتاقـــى تهديدات العثمانيين بمفرده ، ومع ذلك فقد نجح بمساعدة الأسطول الروسى فى البحر المتوسط من الاستيلاء على بيروت وطرد حاكمهـــا من قبل الدولة العثمانية ويدعى أحمد باشا الجزار[٢٢] .

جاءت نهاية الشيخ ظاهر العمر حين أرسلت الدولة العثمانيـــة حملة كبيرة بقيادة القبطان باشا المسمى حسن باشا حاصر عكا واستولى عليها وطارد الشيخ ظاهر الذى قتل على يد قائد حرسه الخاص وهو مغربى يدعى « الدنكزلى » خان سيده بالاتفاق مع رجال الدولة العثمانية. وذلك فى أغسطس ١٧٧٥م • وتروى المصادر أن حسن باشا عندما أحضر له « الدنكزلى » رأس ظاهر ووضعها أمامه وسأل الدنكزلى عن بلده فى المغرب ومدة خدمته لظاهر التى بلغت أربعين سنة كان خلالها موضـــع رعاية وعطف ظاهر غضب حسن باشا وقال له : تأكل خبز انســـان أربعين سنة ودخلك منه هذا المقدار وتخضب سيفك بدمه ، لينتقم الله منـــى اذا كنت لا أنتقم منك لظاهر ، ثم أمر من كان فى حضرته من ملازميه فأخذوا « الدنكزلى » فخنقوه ورموه فى البحر [٢٣] .

وهكذا انتهت حركة الشيخ ظاهر كعصبة محلية بعد أن جاهـــد ضد قوى كثيرة : العثمانيون فى مركز السلطنة أى السلطان وحاشيته ، والباشوات فى ولايات الشام ، والقبائل المناوئة له ، بل والأكثر ايلاما خروج أبنائه عليه خاصة على وعثمان • وبعد أن تحالف مع الدروز تارة ومع الشيعة تارة أخرى ، ومع المالطيين ومع الروس ومع الفرنسيين •

---

(٢٢) كان الجزار سنجقا فى مصر فى عهد على بك الكبير ، ولكنـــه فر من مصر بعد أن غضب عليه على بك وجاء الى لبنان وأقام فى حمـــى الأمير يوسف الشهابى الذى رأى منه كل دهاء وبأس فعينه نائبا عنـــه فى بيروت لكى يحصنها ويحميها من الروس الذين كانوا يعملون فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

(٢٣) ميخائيل الصباغ : المرجع السابق (الوثائق) ص ١٦٧ .

وكانت صداقته لعلى بك الكبير صداقة مصير ، وكان ظاهر وفيا لأصدقائه مخلصا لحفلئه • وكان الشيخ ظاهر قد اكتسب محبة أهله وعشيرته وأهالى امارته بما كان يتحلى به من صفات طيبة ، فقد أجبر أعداءه على احترامه فى حياته بل وحتى عند وفاته •

فقد خاطبه عثمان باشا العظم (الصادق) والى دمشق رغم العداء بينهما عام ١٧٧٤م بقوله : قدوة المشايخ الكرام ، وعين آعيـــان العقلاء الفخام ، صاحب المقام المعتبر اخونا الشيخ ظاهر العمر • كما جاء فى مقدمة الفرمان السلطانى بالعفو عن الشيخ ظاهر القول : الى قدرة الأمجاد والأعيان الشيخ ظاهر العمر زيد قدره[٢٤] •

وبعد موت ظاهر منح السلطان العثمانى باشوية صيدا عام ١٧٧٥م الى أحمد باشا الجزار م ثم زاد له باشويتى دمشق وطرابلس فأصبح الجزار الباشا الحقيقى والفعلى على كل سوريا واتخذ عكا مركزا لأملاكه ومنها واجه ثورات أهالى الشام ضده بسبب قسوته ، ومنها واجه حملة بونابرت على الشام منذ فبراير ١٧٩٩م حتى توفى عام ١٨٠٤ م ليخلفه سليمان باشا قائد جيشه فى حكم جنوب سوريا ثم خلفه عبد الله باشا الجزار عام ١٨١٩ م الذى أعد الى الأذهان حكم أحمد الجزار القامش ، وظل الوضع على هذا النحو حتى زحفت جيوش محمد على الى بلاد الشام عام ١٨٣٣م •

رابعا ــ مماليك العراق :

سقط العراق عام ١٥٠٨ م تحت حكم الصفويين الشيعة فى فارس ، ومن العراق اتجهت أنظار الصفويين الى التوسع فى آسيا الصغرى ، ولهذا بدأ الصدام بين العثمانيين السنة والصفويين الشيعة على أرض

(٢٤) نفس المصدر ص ١٦٥ •

العراق منذ عام ١٥١٤ م ، ذلك العام الذى شهده غزو السلطان سليم الأول العثمانى لفارس وانتصاره على القوات الصفوية فى سهل « جالديران » •

ورغم دخول السلطان سليم الى عاصمة الصفويين مدينة « تبريز » واستيلائه على أموال وكنوز الشاه اسماعيل الصفوى ونسائه ، فان هذا الانتصار العثمانى لم ينه العداء بين العثمانيين والصفويين ، بل استمر طويلا ، وكان العراق ميدانا للصراع والمعارك بين الطرفين مما جعل العراق موزعا توزيعا متوازيا بين السنة والشيعة •

ظل الصراع طويلا بين العثمانيين والفرس حتى بعد سقوط حكم الأسرة الصفوية فى فارس واستلام الشاه « نادر شاه » الحكم عام ١٧٣٣ م ، الى وفاه نادر شاه عام ١٧٤٧ م حيث عقدت بين فارس والدولة العثمنية معاهدة حددت الحدود بين الدولتين أدخلت العراق كله فى حوزة الدولة العثمانية •

وفى ظل الصراع الفارسى العثمانى حول العراق كانت حاجة الدولة العثمانية الى أقرار الأمور فى العراق دافعا لكى تظهر أسرة حاكمة تتولى باشوية بغداد منذ أوائل القرن الثامن عشروتستمر حتى عام ١٨٣١م بدأت هذه الأسرة بحسن باشا الذى تعين واليا على العراق عام ١٧٠٤م ، وقد نجح حسن بالفعل فى اخضاع القبائل العربية المتمردة حتى لم يعد فى استطاعة البالب العالى أن يستغنى عن خدماته[٢٥] •

ظل حسن باشا فى الحكم متخذا من بغداد مقرا له ، ونادرا ما كانت كل أقاليم العراق تخضع لحكمه ، اذ كانت الموصل والبصرة كثيرا ما يعلن حكامها عدم خضوعها لباشوية بغداد ، وبقى حسن باشا فى الحكم حتى عام ١٧٣٤ م حيث خلفه فى الباشوية ابنه أحمد •

(٢٥) د . انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٥١ .

وكان حسن باشا ومن بعده ابنه أحمد قد نجحا فى البقاء فــى انباشوية بسبب تكوين قوة عسكرية من المماليك تحت امرة كل منهمــا • وكان لهؤلاء المماليك منزلة كبيرة عند حسن باشا وأحمد باشا بسبب دورهم فى القضاء على الثورات المستمرة للقبائل العربية ، مما دفع أحمد باشا الى اتخاذ قائد الفرقة المملوكية كتخدا له (أى وكيلا أو نائبا) وزوجه من ابنته ويدعى سليمان أغا •

وعندما توفى أحمد باشا عام ١٧٤٧م ــ وكان سليمان أغا يقــوم بحملة عسكرية فى البصرة ــ حاولت الدولة العثمانية انهاء حكم أسرة حسن باشا واعادة العراق الى الحكم العثمانى المباشر ، ولكن جنــد الانكشارية فى بغداد رفضوا قبول الباشا الجديد الذى أرسله السلطان العثمانى ، وزحف سليمان أغا من البصرة ودخل بغداد بالقوة وأعلن أنه الباشا الشرعى ، وطلب من السلطان العثمانى اصدار فرمان بذلك ، وقد ساعده على بلوغ هدفه تقديمه الهــدايا وحاجة الدولة العثمانية الى استمرار استقرار الأمور فى العراق على الحدود مع فارس ، وفى نفس الوقت الذى كانت قد عقدت فيه معاهدة بين فارس والدولة العثمانية لتحديد الحدود بينهما •

وبصدور فرمان من السلطان العثمانى بولاية سليمان أغا عــام ١٧٤٩ م تبدأ سلسلة الباشوات المماليك فى العراق التى استمرت حتى عام ١٨٣١م ، ولكن مما تجدر الاشارة اليه أن الدولة العثمانية حاولت أكثر من مرة انهاء حكم المماليك فى العراق ، ولكن محاولاتها لم تكن تستمر حتى يعود الباشوات المماليك الى الحكم مرة أخرى •

وكان أشهر باشوات المماليك فى العراق سليمان باشا الكبير الذى ساعدته شركة الهند الشرقية البريطانية فى تولية باشوية بغداد وبقى بها من عام ١٧٨٠ الى ١٨٠٢ م ، فأثاب الباشا الشركة البريطانيــة على ذلك بالرعاية والعطف اللذين أسبغهما عليها وعلى نشاطها فــى العراق فى مدى عشرين عاما ، وقد أجابته الشركة الى ما طلبه عــام

١٧٨٢م من سلاح وعتاد فجلبتهما له من بومباى ، ثم أردفت ذلك بعدد من المدربين الانجليز جاءت بهم من الهند[٢٦] •

وبعد سليمان الكبير (بويوق) كان سليمان الصغير (كوجوك) الذى ساعدته وحدة عسكرية نظامية أقامها عمه الوالى السابق حافظ باشا (١٨٠٢ — ١٨٠٧ م) بمساعدة فرنسية على النسق الأوروبى ، ساعدته هذه القوة فى السيطرة على الأمور فى العراق ، كما ساعدته فرنسا لدى الباب العالى فى الاعتراف بسليمان الصغير (كوجوك) واليا على العراق ، وان كان قد تم عزله عام ١٨٨٠ م بتأثير الانجليز لدى الباب العالى بسبب صداقته للفرنسيين •

وكان آخر الباشوات المماليك وأعظمهم فى العراق هو داوود باشا الذى حكم من عام ١٨١٧ الى عام ١٨٣١م • وكان أصل داوود من « جورجيا » وبيع فى طفولته الى سليمان باشا الكبير ، وقد استطاع بمهارته وتعلمه أن يصبح مستشارا لسليمان باشا ثم زوجا لابنته ، وبعد وفاة سليمان باشا غضب عليه وعمل معلما بأحد مساجد بغداد فكون علاقات لمدة ١٤ سنة ، وكان يعاصر محمد على فى مصر ، وقد قلده فى علاقات مع رجال الدين وأفراد الشعب العراقى الى جانب تكوينه اتباعا من المماليك وهذه القوه ساعدته على ارتقاء الولاية •

وقد حكم داود باشا العراق حكما مطلقا لمدة ١٥ سنة ، وكان يعاصر محمد على فى مصر ، وقد قلده فى سياسته القائمة على تركيز السلطة فى يده • واحتكار تجارة الاستيراد والتصدير وزراعة أصناف جديدة من المحصولات كالقطن وقصب السكر • وقد أدى تنفيذه لسياسة تمركز السلطة فى يده الى خوض معارك طويلة ضد القبائل العربية وضد أكراد شمال العراق ، واذا كان قد استطاع اخماد ثورات القبائل العربية فان اخضاع الأكراد قد أدى به الى الصدام مع الفرس الذين يؤيدون أكراد العراق •

---

(٢٦) د • أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات فى النهضة العربية الحديثة ص ٢٢٢ •

وقد كان العداء بين داوود باشا والفرس عنيفا انقلب أثـره المدمر على الفرس الشيعة المقيمين بالعراق وعلى المصالح الفارسية فى العراق ، وانتهى هذا العداء بتوقيع صلح « أرضروم » فى مارس عام ١٨٢٣م الذى أنهى اجراءات داوود باشا ضد الفرس فى العـراق وأعاد منطة كردستان الى حوزة الدولة العثمانية •

وبسبب وشاية الانجليز ضد داوود باشا عند الباب العالى ، وبسبب رفض داوود باشا المساهمة المالية فى دفع الغرامة التى فرضتها روسيا على الدولة العثمانية بعد هزيمة الأخيرة عام ١٨٢٩م ، أرسل السلطان محمود الثانى عام ١٨٣١م قوة عسكرية عثمانية دخلت بغداد فاستسلم داوود باشا الذى اختار المدينة المنورة منفى اختياريا حيث عمل شيخا للحرم النبوى الى أن مات •

وبنهاية داوود باشا انتهت عصبية المماليك المحلية فى العراق دون أن تقدم شيئا للعراق وشعبه بل على العكس نجد الباشوات المماليك كانوا يتساهلون فى مصلحة العراق مقابل تأييد القوى الأوروبية وخاصة انجلترا لهؤلاء الباشـوات أمام محاولات السلطنة العثمانية انهـاء حكمهم ، وضد شاهات فارس •

وكان اهتمام البريطانيين بالعراق سببه اتخاذ الخليج العربـى والعراق وشمال بلاد الشام طريقا للمواصلات السريعة بين لنـدن والسلطات البريطانية فى الهند ، هذا الى جانب الأهمية العسكرية للخليج العربى بالنسبة للهند ، وان كان هذا الاهتمام العسـكرى لم يظهر بشكل واضح الا بعد الحملة الفرنسية على مصر[٣٧] •

ولذلك وجدنا البريطانيين يأخذون من الباشوات المماليك مواقف

---

(٣٧) د• محمد أنيس : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٩٩ •

التأييد طالما تحققت مصالحهم — كما سبق أن رأينا — فاذا تعرضت مصالحهم للمصادرة أو التعويق من جانب هؤلاء الباشوات تآمروا ضد الباشوات حتى تم عزلهم .

عاد الحكم العثمانى المباشر الى العراق من عام ١٨٣١ الى عام ١٩١٤ م (٢٨) ، عاش العراق خلالها فى ظل ثورات مستمرة للقبائل العربية فى الجنوب وثورات أكراد الشمال ، الى جانب انقسام العراق الى سنة وشيعة ، هذا بالاضافة الى أطماع شاهات فارس وتدخلات القوى الأجنبية وخاصة انجلترا .

ولم يكن لباشورات الدولة العثمانية فى العراق سياسة اصلاحيــة فيما عدا مدحت باشا (١٨٦٩ — ١٨٧١ م) حيث شمل الأصلاح نواحى متعددة كالتعليم ونظام الحجر الصحى ، ومع ذلك بقى نظام «الطابو»(٢٩) من أهم الأعمال التى تمت على يد مدحت باشا ، وهو نظام كان يهدف الى استقرار القبائل فى الأراضى الزراعية (٣٠) هذا الى جانب اهتمامه بربط العراق بحريا بكل من استانبول ولندن بعد أن فتحت قنـــاة السويس للملاحة العالمية .

---

(٢٨) طبقا لمنشور التنظيمات الخيرية الصادر بالآستانة فى يونية ١٨٥٦م انقسم العراق الى ثلاثة ولايات هى : ولاية بغداد ، ولاية البصرة التـــى انشئت عام ١٨٦٤م ، وولاية الموصل التى انشئت عام ١٨٧٩م . د . انيس : المرجع السابق ص ١٢١ .

(٢٩) الطابو = تسجيل الاراضى ، ويعنى قيام ادارة التسجيلات ببيـــع اراضى الحكومة باقساط صغيرة سهلة الدفع ، ومنح هذا الحق بصفة خاصـــة لشيوخ القبائل بحيث تسع قطعة الارض القبيلة التى يتولون رئاستها ، وقد ادى هذا النظام الى ان اصبح الكثير من شيوخ القبائل ملاكا زراعيين واقطاعيين كبـــــار .

(٣٠) د . انيس : المرجع السابق ص ١٣١ .

ظل الوضع فى العراق بعد مدحت باشا يعيش عدم استقرار ونهبا لأطماع الدول الأوروبية وضاعها وعاصة ايجلترا وفرنسا ، حتى كانت ثورة ١٩٠٨ فى تركيا بقيادة جماعة الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة ضد استبداد السلطان عبد الحميد ، فشارك العراقيون مع اخوانهم العرب فى تشكيل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة التتريك التى اتبعتها حكومة الاتحاديين والمعادية للعروبة .

* * *

العصبيات المحلية فى المغرب العربى

شهدت منطقة المغرب العربى الكبير عصبيات محلية كان أبرزها الحسينيون فى تونس والقرمانليون فى ولاية طرابلس الغرب (ليبيا).

أولا — الحسينيون :

كان اتجاه الدولة العثمانية الى بسط نفوذها فى أقطار شمال أفريقيا مما يكمل سلسلة الفتوحات العثمانية فى المشرق العربى ، وفى نفس الوقت لاحكام الحلقة حول البحر المتوسط ، بالاضافة الى مطاردة الأسطول الأسبانى وفرسان القديس يوحنا بسبب اغاراتهم الصليبية ضد أقطار شمال أفريقيا العربية الاسلامية .

واذا كان النفوذ العثمانى قد وجد طريقة الى الجزائر باعلان « خير الدين بارباروسا » عام ١٥١٨م ولاءه للسلطان سليم الأول الذى سارع بالأنعام عليه بلقب بك وتعيينه « بجلربك » أى أمير الأمراء ، فان النفوذ العثمانى قد وجد طريقة الى تونس عام ١٥٧٤م بانتصار « سنان باشا » قائد الأسطول العثمانى على التحالف الصليبى المكون من فرسان القديس يوحنا وأسبانيا والبندقية .

ومنذ عم ١٥٧٤ م صارت تونس باشوية عثمانية خاضعة مباشرة لنسلطان العثماني ، وطبق عليها نظام الحكم الذى وضعته الدولـة العثمانية لحكم ولاياتها ، فكان الى جانب الباشا وقادة الفرق العثمانية (الانكشارية) ، ورؤساء البحر (قادة عمليات الجهاد البحرى) قوة أخرى لها مكانتها وهى سلطة آغوات القوات غير النظامية الذين عرفوا « بالدايات » حتى تغير الاسم عام ١٧٠٥ م الى لقب « الباى » •

وقد حكمت تونس من عام ١٦١٢ الى عام ١٧٠٥ م أسرة الدايات المعروفة بالأسرة المرادية نسبة الى مؤسسها الأول المعروف باســم « مراد بك » ، حتى انتهت هذه الأسرة عام ١٧٠٢م بقتل جميع أفرادها على يد أغا ابراهيم ، ثم عادت تونس الى الحكم العثمانى المباشر •

استطاع زعيم الفرسان الأغا حسين بن على أن يستغل فترة الفوضى والخلاف التى أعقبت انتهاء حكم الأسرة المرادية ، والتنازع على السلطة فتجيب الى أهل البلاد والى بعض قادة الجند حتى نادوا به « بايا » على تونس عام ١٧٠٥ م ، ولكنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذى يقبل أن يعيش تحت رحمة قوى أخرى يمكنها أن تعزله متى شاءت •

تمكن الحسين بن على أن يجعل حكمه فى تونس وراثيا منـذ عام ١٧١٠ م حتى عام ١٩٥٩ م حتى مع وجود الحماية الفرنسية على تونس منـذ عام ١٨٨١ م • وقد عمل حسين بن على من أجل بقـاء الحكم الوراثى فى أبنائه من بعده ، ووقف ضد كل تدخل سواء أتى من دايات الجزائر أو من الدول الأوروبية ، وضمن فى تونس عهدا من الأمن والاستقرار والتقدم الاقتصادى والازدهار العمرانى وتعاون مع الدول الأوروبية على قدم المساواة بعقد المعاهدات التجارية التى تدر دخلا لبلده ورواجا لأهلها •

وتوالى أفراد هذه الأسرة على الحكم دون أن يكون لكل باى سياسة واضحة للنهوض بتونس وقد شارك أسطول تونس فى عهد الباى حسين (١٨٢٤ — ١٨٣٥ م) فى معركة نوارين البحرين ببلاد اليونـــان وتم تدميره هناك مع الاسطولين المصرى والعثمانى ، كما أن الباى حسين وقف موقف الحياد من الغزو الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠م حفاظـــا على كرسى الحكم وعلى تونس •

ومنذ الاحتلال الفرنسى للجزائر خضع البايات للنفوذ الفرنسى بصفة خاصة والنفوذ الأوروبى الانجليزى والايطالى بصـــفة عامة . فظهرت الكنائس والمدارس الأجنبية ، وتدخلت انجلترا وفرنسا فـــى شئون تونس الداخلية خاصة بسبب الأزمة المالية التى عاشتها تونس فى عهد الباى محمــود (١٨٦٤ — ١٨٨١ م) ، وكانت الفرمانـــات السلطانية تسمح للبايات فى تونس وللدايات فى الجزائر بعقد المعاهدات التجارية والمالية بما يدعم الاستقلال المالى ، وان أدى ذلك الى وجود امتيازات ضخمة للاجانب أدت الى خراب البلاد الاقتصادى بسبـــب تهرب الأجانب من المساهمة فى الاقتصاد التونسى رغم ضخـــامة ما يملكونه فى تونس من ممتلكات واسعة ، وبسبب مقاومتهم لكل اصلاح مالى أو دستورى والاحتمــاء بالقناصل وعــدم المثــول أمــام القضاء الوطنـــى •

وكان احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠م مقدمة طبيعية لاحتلالها تونس ، وقد حاول بايات تونس كسب ود فرنسا لتأجيل الاحتلال الفرنسى لبلادهم ، من ذلك أن الباى حسين سارع الى القنصل الفرنسى فى تونس « ماثيو دلسبس » يبدى له موافقته على ما فعلته فرنســا بجارته الجزائر ، وأبدى استعداده لتموين جنود الحملة باللحوم اللازمة بل أرســل رجـــلا من خاصـــته الى الجيرال « بورمون » قائد حملة

الاحتلال الفرنسية للجزائر ليهنئه بالنصر الذى كسبه [٣١]

ومن ذلك الحين عاش بايات تونس تحت تهديد وخوف من احتلال فرنسى مرتقب ، ولذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام المطالب الفرنسية المتزايدة التى أدت الى مزيد من الامتيازات الفرنسية فى تونس فى مجالات السياسة والاقتصاد بل وحتى فى النواحى الروحية كاجبار الباى على بناء كنائس واقامة تماثيل للقديسين • وكانت نتيجة هـذه الامتيازات أن ارتبكت أحوال البلاد السياسية والاقتصادية •

وانتهى الأمر بتونس الى الوقوع تحت الاحتلال الفرنسى الذى حدث بصورة تدريجية ، فزحفت القوات الفرنسية من الجزائر الى الأراضى التونسية بحجة تأديب بعض القبائل التى تعرضت للمصالح الفرنسية ، ولم تفرض الحماية الفرنسية مباشرة ، وانما فرضت على الباى عقد معاهدة يضع نفسه تحت وصاية فرنسا مع بقائه فى كرسى الحكم مسلوب السلطة •

ثانيا — القرمانليون :

استولى الأسبان على طرابلس الغرب (المدينة) عام ١٥١٠ م واستمروا بها حتى عام ١٥٣٥ م حينما تنازلت عنها أسبانيا لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مقرا لهم بعد أن طردهم العثمانيون من جزيرة رودس • وقد ظل فرسان القديس يوحنا يحتلون طرابلس الغرب حتى عام ١٥٥١ م عندما قدم العثمانيون وأخذوها منهم بناء على استنجاد بعض أهلها بهم •

استمر الحكم العثمانى المباشر لولاية طرابلس الغرب من عام ١٥٥١م حتى عام ١٧١١م فيما عرف بالعصر العثمانى الأول الذى انتهى ليبدأ

(٣١) د • زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصر الحديث ص ١٨٣ .

حكم الأسرة القرمانلية • وقد عاشت الولاية أثناء العصر العثماني الأول خاصة أواخر القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر تعاني من الفوضى الشاملة التي حلت بالبلاد نتيجة سوء الحكم والادارة ، وقيـــام الثورات الشعبية في مختلف أنحاء الولاية •

كما ساءت أحوال البلاد نتيجة الفتن التي ثارت بين جند الانكشارية و « القولوغلية »[٣٢] الذين انصرفوا عن مهمتهم الأصلية وهي الدفاع عن البلاد الى مهمة أخرى سعوا من ورائها الى الكسب والشهرة وهي عزل الولاة أو الثورة عليهم ، والسلب والنهب من الأهالي ، وتولية من يشاءون في منصب الولاية حتى وجدنا ترزيا يتولى منصب الولاية لمدة سبعة أشهر عام ١٠٩٧هـ / ١٦٨٦ م يدعى ابراهيم الترزي[٣٣] ، ووجدنا بائعا للقهوة هو عثمان القهوجي يتولى الولاية لمدة ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوما ، وقد وصفه « ابن غلبون » [٣٤] بأنه كـــان يطبخ القهوة بسوق الترك ، ويصفه أحمد النائب[٣٥] بأنه كان فظـــا ذا جفاء وغلظة ، عاجزا عن القيام بأعباء الولاية ، بايعه الجند في الليلة التي خلعوا فيها سلفه محمد الامام عام ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ م •

وقد تولى حكم ولاية طرابلس الغرب في أوائل القرن الثامن عشر

---

(٣٢) القولوغلية أو القول أو غلية طبقة اجتماعية جديدة نتجت من ان درغوت باشا ثاني الولاة أحضر معه عدة آلاف من جند الانكشارية ، وبمرور الزمن اختلطت بالاهالي وتناسلت فتكونت طبقة القولوغلية التي كانت قليلة العدد في أول الأمر ثم سرعان ما تكاثرت وزاد نفوذها بمـــا حصلوا عليه من امتيازات عسكرية ومالية ، وأفراد هذه الطبقة أمهاتهم ليبيات وآباؤهم أتراكا ولذلك كان ولاؤهم مزدوجا لكل من ليبيا وتركيا •

(٣٣) الطاهر الزاوي : ولاة طرابلس ص ٢٠٤ •

(٣٤) ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب ص ٧٠ •

(٣٥) احمد النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ص ٦٧ •

(من ۱۷۰۱ — ۱۷۱۱ م) تسعة ولاة انصرف معظمهم الى الاشتغال بمصالحهم الشخصية دون القيام بأى عمل للقضاء على حالة الفوضى التى كانت تعم البلاد ، وكانت هذه الحالة تستلزم وجود شخصية قوية تستفيد من الأحوال المضطربة فى الولاية لتظهر أمام الناس كمنقذ للبلاد .

وقد تمثلت هذه الشخصية فى أحمد بن يوسف بن محمود بن مصطفى القرمانلى[٣٦] ، وكان أبوه عاملا وبعده ولى خليل باشا الوالى ابنه — أى أحمد — عمل أبيه على ساحل المنشية[٣٧] وكان أحمد هـذا سليل أسرة تركية جاء مؤسسها الأول كأحد جنود القائد العثمـانى « درغوت باشا » فى عام ١٥٥٣ م الى مدينة طرابلس وتزوج زوجـة عربية ليبية ، ثم تدرج أفراد هذه الأسرة فى المناصب المختلفة فى ولايـة طرابلس الغرب حتى تولى أحمد عمالة المنشية وهى ضاحية ساحلية من ضواحى طرابلس .

كان أحمد القرمانلى طموحا واسع الحيلة ، ولذلك وقف موقف المتفرج من الخلافات التى كانت قائمة بين الباشا والديوان وجنـد الانكشارية والقولوغلية ، وأظهر أنه لا ينحاز لأى فريق ، وأنه الشخصية التى يمكن لها السيطرة على الموقف وذلك حتى يفوز برضاء الجميع ، وكان موقفه حكيما اذ كفى نفسه شر الانغماس فى هذا الصراع مؤقتا حتى يضعف أطراف الصراع فيسهل أمامه طريق الوصول الى كرسى الولاية .

وقد استطاع أحمد بهذه السياسة أن يستقطب كثيرا من جنـد الايكشارية وأعضاء الديوان ومعظم أعيان طرابلس ، وأن يؤثر فيهم

---

(٣٦) يرجع اسم قرمانلى الى بلدة قرمانيا الواقعة جنوبى هضبـة الأناضول بآسيا الصغرى . ابن غلبون ص ١٩٠ .

(٣٧) ابن غلبون : المرجع السابق ص ١٩٠ .

حتى أجمعوا على توليته واليا على طرابلس الغرب[٣٨] ، وكانت بيعتـه على يد أهل البلدين الساحل والمنشية ضحوة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م [٣٩] • وكان أخلص المؤيدين له طوائف القولوغلية وعرب الجبل [٤٠] ، وكان عمره آنذاك خمسا وعشرين سنة •

وكان على أحمد القرمانلى لكى يحصل على فرمان سلطانى بتثبيته فى ولاية طرابلس الغرب واستقرار الأمور له فيها ولذريته من بعده أن يتخلص من الأخطار والصعوبات التى واجهته منـذ اليـوم الأول •

وكانت الصعوبات التى واجهته داخل الولاية تتمثل فى ضباط الانكشارية الطامعين فى الحكم والراغبين فى بقاء أو تولية الولاة بأيديهم، وقد استطاع أحمد القرمانلى تدبير مذبحة لهؤلاء الضباط فى منزلـه الريفى قرب ضريح « سيدى الهانى » بالمنشية بعد أن أقام حفلة كبيرة لحوالى ثلاثمائة ضابط من قادة الجند الانكشارية الذين يخشى انقلابهم عليه ، وبعد الحفل ذبحهم رجاله •

وأما أعيان طرابلس الذين ساهموا فى اختيار أحمد القرمانلى واليا فقد ظل يلاطفهم ويتودد اليهم حتى حصل على فرمان من السـلطان بتثبيته فى ولاية طرابلس الغرب ، وحتى تخلص من بقية الصعوبـات التى واجهته ، ثم أهمل مشورتهم ونسى تأييدهم له وتصرف كحاكم مطلق لا يقبل حتى شفاعتهم •

وكان على أحمد القرمانلى كذلك التخلص من الفتن والثورات الداخلية حتى تستقر له الأمور ، ولذلك بدأ منذ توليته فى استئصال

---

(٣٨) د • رأفت الشيخ: تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ص ٣٨

(٣٩) ابن غلبون : المرجع السابق ص ١٦١ •

(٤٠) أحمد الدجانى : احاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ ص ٢٥ • وعرب الجبل ، يعنى الجبل الغربى باقليم طرابلس •

بذور الثورات ، وقد قضى بقسوة على الثورات التى كانت كافية للقضاء على الاسرة القرمانلية ، ولكن من حسن حظ أحمد باشا أنها لم تقم فى وقت واحد ولا فى مكان واحد ، لذلك سهل عليه القضاء عليها حتى استقرت له الأحوال وصفت له الأمور[٤١] .

وكان على أحمد القرمانلى أيضا استرضاء السلطان العثمانى خاصة بعد أن انتصر أحمد على خليل باشا وقتله وهو الوالى المعين من قبـل السلطان ، فأرسل وفدا من أهالى طرابلس محملا بالهدايا الثمينة ، وعندما وصل هذا الوفد الى استانبول نظم مظاهرات علنية احتفـالا بانتصار السلطان على بطرس الأكبر قيصر روسيا [٤٢] ، كما استقبل أحمد باشا مبعوث السلطان القادم الى طرابلس للتحقيق فى مقتل خليل باشا ، وبالغ فى تعظيم واكرام هذا المبعوث الذى عاد محملا بالهدايا لـه وللسلطان ، ومن ثم صدر فرمان سلطانى بولاية أحمد باشا لطرابلس الغرب[٤٣] .

وكانت علاقات أحمد القرمانلى بالدول الأوروبية تتسم بالعداء بسبب سياسته البحرية القائمة على توجيه سفن الأسطول التى بناهـا لمهاجمة سفن الدول الأوروبية فى عرض البحر المتوسط ، وقد فرض على هـذه الدول دفع اتاوات تنظمها معاهدات نظير عدم تعرض سفن أسـطوله لسفنهم وتجارتهم وكانت معظم الدول الأوروبية تخضـع لشروطه ضمانا لسلامة سفنهم ، وكانت كل من انجلترا وهولندا من أوائل الدول الأوروبية التى سارعت الى دفع الجزية المعتادة لقاء عدم الاعتداء على سفنها المارة فى البحر المتوسط[٤٤] .

---

(٤١) د . حسن محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١٨٥ .
(٤٢) أحمد الدجانى : المرجع السابق ص ٢٦ .
(٤٣) أحمد النائب : المرجع السابق ص ٧٢ .
(٤٤) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ١٠٥ .

وقد اهتم أحمد باشا بالأسطول ، فأعلن الجهاد البحرى الاسلامى ضد السفن الأوروبية فيما عدا السفن التى تعهدت بلادها بدفع الاتاوة السنوية له ، وقد كسب من وراء مهاجمة السفن الأوروبية الأموال والغنائم الكثيرة[٤٥] ، كما ضمن عدم مهاجمة الشواطىء الطرابلسية بواسطة السفن الأوروبية[٤٦] . كما كانت نتيجة ضم اقليم فزان أن استفادت الولاية من تجارة القوافل الوافدة عبر الصحراء من وسط وغرب أفريقيا مما أدى الى رخاء البلاد وتوفر الأموال بخزينة الباشا .

وقد حكم أحمد باشا الولاية لمدة ٣٤ سنة من ١٧١١ الى ١٧٤٥ م استطاع خلالها تثبيت حكم أسرته والقيام ببعض الانشاءات حتى وصفه المؤرخون بأن عهده كان أحسن عهود الأسرة القرمانلية بل وأحسن العهد التركى كله[٤٧] ، حيث اتخذ جمعية علمية لحسم النوازل والمحاكمات الشرعية ، وكان لين العريكة يؤثر العدل والانصاف[٤٨] ، وأنه هو الذى أسس قوانين الدولة وأحيا رسوما دائرة من قواعدها[٤٩] .

وبعد وفاة أحمد القرمانلى عام ١٧٤٥ م تولى ابنه محمد الباشوية ليجد الأمور مستتبة له وصفها أحمد النائب بقوله : لم تظهر خلال مدته مناقشة داخلية بما مهد له والده[٥٠] . وقد سار على سياسة والده فى التعامل مع الدول الأوروبية بفرض الاتاوات على سفنها المارة بالبحر المتوسط حتى توفى عام ١٧٥٤ م .

---

(٤٥) د . حسن محمود : المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٤٦) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٩ .

(٤٧) الطاهر الزاوى : المرجع السابق ص ٢٢٣ .

(٤٨) أحمد النائب : المرجع السابق ص ٣٢٥ .

(٤٩) ابن غلبون : المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٥٠) أحمد النائب : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

وبعد محمد تولى الولاية ابنه على باشا الأول من عام ١٧٥٤ الى عام ١٧٩٥ م استمر خلالها يمارس نفس السياسة حتى اضطرته الى الصدام مع الدول الأوروبية والى سوء الأحوال فى الولاية حتى نجح مغامر يدعى على برغل عام ١٧٩٣ م بموافقة السلطان العثمانى فى الاستيلاء على طرابلس حيث فر على القرمانلى باسرته الى تونس ثم عاد الى طرابلس فى يناير ١٧٩٥ م بعد هرب على برغل[٥١] •

بعد عودة على القرمانلى الأول الى طرابلس فى يناير ١٧٩٥ م تنازل لابنه أحمد عن الباشوية حيث لم يمكث فى الحكم حتى فر من طرابلس فى العام التالى ١٧٩٦ م لكى يخلصه أخوه يوسف الذى نجح فى استخدام قواته للقضاء على ثورات القبائل العربية بالولاية ، وفى مهاجمة سفن الدول الأجنبية فى مياه البحر المتوسط •

وقد عاصر يوسف القرمانلى أحداثا أوروبية وعربية ، فقد حدثت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م وتولى محمد على باشوية مصر عام ١٨٠٥ م ، وغزت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ م ، وحدث صدام بين يوسف باشا والولايات المتحدة الأمريكية •

وقد كانت علاقات يوسف باشا بفرنسا طيبة من البداية وهذا يفسر لنا مساعدة يوسف للحملة الفرنسية على مصر فعندما احتل بونابرت مصر عام ١٧٩٨ م وبعد تدمير الاسطول الفرنسى فى أبى قير أراد بونابرت أن يكون هناك اتصال برى بين الحملة فى مصر وبين فرنسا ، فكتب رسالة الى القنصل الفرنسى فى طرابلس بتاريخ ٢٢ يناير ١٧٩٩ م يطلب منه فيها أن يتصل بيوسف باشا ويرتب معه أمر مرور الرجال والذخائر من فرنسا بطريق طرابلس الغرب ، وانتهى هذا الاتصال

---

(٥١) برغل تعنى بالتركية القمح المسلوق المكسر ، وقد اشتهر بها على لانه كان يطعم البرغل بدلا من الأرز •

بعقد معاهدة بين يوسف باشا والقنصل الفرنسي عام ١٨٠١ م تؤمن لبونابرت ما أراد [٥٢] .

وقد استاءت كل من انجلترا والدولة العثمانية بسبب التفاهم الفرنسي القرمانلي ، ومع ذلك فبعد غزو فرنسا للجزائر فرضت على يوسف باشا معاهدة مهينة في أغسطس ١٨٣٠ م دفع فيها تعويضات حربية ومالية للرعايا الفرنسيين . ولم يمنع هـذا وقوف القنصل الفرنسي في طرابلس الى جوار على الثاني الذي تنازل له والده ــ يوسف باشا ــ عن الحكم عام ١٨٣٢ م تحت ضغط ظروف البلاد .

كما اصطدم يوسف بالولايات المتحـدة الأمريكية عام ١٨٠٣ م نتيجة رفض الحكومة الأمريكية الاذعان للباشا بدفع اتاوات مقابل عدم مهاجمة سـفنها في البحر المتوسط ، وعندما هاجمت السفن الحربية الأمريكية ميناء طرابلس وجنحت احدى هـذه السفن في الميناء وأسرها القرمانليون تآمر الأمريكيون لاعادة أحمد باشا الثاني الهارب من طرابلس ، مما اضطر يوسف الى الرضـوخ للمطالب الأمريكيـة بالافراج عن الجنود الأمريكيين والتعهد بعدم التعرض للسفن الأمريكية بالبحر المتوسط .

ونتيجة لكل ذلك ساءت أحوال الولاية الاقتصادية مما انعكس على الحكم ، ولم يفلح تنازل يوسف باشا عن الحكم لابنه على الثاني في امتصاص غضب الأهالي مما دفع الباب العالي الى ارسال حملة الى طرابلس أنهت حكم الأسرة القرمانلية عام ١٨٣٥ م ، حيث عادت الولاية تحت الحكم العثماني المباشر ، دون أن تستفيد شـيئا طوال ١٢٤ سنة كانت خلالها تحت حكم الأسرة القرمانلية .

---

(٥٢) د . نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الايطالي حتى الاستقلال ص ٥٩ .

عاد الحكم العثمانى المباشر من عام ١٨٣٥ حتى عام ١٩١١ م حكم الولاية خلالها ثلاثة وثلاثون واليا تراوحت مدة ولاية بعضهم بين سنة وعدة شهور حتى احتلها الايطاليون عام ١٩١١ م ليجدوها فى حالة من الضعف السياسى والعسكرى والاقتصاد ما مكن لهم منها.

العصبية المحلية فى مصر

شهدت مصر خلال القرن الثامن عشر حركة على بك الكبير كعصبية محلية هى عصبية المماليك ، فقد شهد المسرح السياسى فى مصر فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ايهيار سلطة الباشا العثمانى أمام قوة قادة الفرق العثمانية ، بينما شهد هـذا المسرح فى النصف الثانى من نفس القرن سـيطرة البكوات المماليك أمام ضعف الباشا وقادة الفرق العثمانية •

وكان مصدر قوة المماليك نظام تربيتهم حيث يتم شراؤهم صغارا ثم يعتنقون الدين الاسلامى ويخضعون لتربية عسكرية قاسية بالاضافة الى استمرار تدفقهم من خارج مصر وعـدم انصهارهم فى المجتمع المصرى ، وكل ذلك أدى الى أن طوائف المماليك ظلت محتفظة بنقائها وذاتيتها الخاصة •

وكان منصب شيخ البلد ــ حاكم القاهرة وزعيم المماليك ــ أعلى المناصب التى يتقلدها البكوات المماليك حيث كان يتولاه زعيمهم وأكثرهم عصبية وأكبرهم قوة عسكرية ، يليه منصب أمير الحج ، وكثيرا ما كان الخلاف يقع بين البكوات المماليك حول هذين المنصبين ، فاذا تولـى أحدهم أحـد هذين المنصبين أخذ فى التنكيل بمنافسيه وخصومه من البكوات المماليك وأغدق الهبات والوظائف على أنصاره ومؤيديه •

ورغم الخلافات بين البكوات المماليك الا أنهم كانوا يتحدون ضد

باشا لا يرغبون فى وجوده بالقاهرة ، ويروى الجبرتى فى أحداث عام ١١٧٤ هـ الموافق أغسطس ١٧٦٠ الى أغسطس ١٧٦١ م أن الباشا العثمانى كان يدعى مصطفى باشا ، ويبدو أن البكوات المماليك كانوا عنه راضين ، حتى اذا عينت الدولة آخر العام واليا آخر يدعى : أحمد باشا كامل المعروف بصبطلان ، وكان ذا شهامة وقوة مراس فدقق فى الأحكام ، وصار يركب وينزل ويكشف على الأنبار والغلال ، فتعصب عليه الأمراء — البكوات المماليك — ، وأصعدوا مصطفى باشا المعزول ، وعرضوا فى شأنه الى الدولة[٥٣] .

واذا كان الشعب المصرى الذى يقع عليه عبء هذه الخلافات يثور هنا وهناك فى أنحاء مصر فقط عندما تمس حياته بصورة يهتز لها مفهوم العدل والحكم العادل عند المصريين ، فان الحكومة العثمانية كانت تلجأ الى اتخاذ عدة اجراءات عقابا للبكوات المماليك ، من أمثلتها اغلاق أسواق الرقيق فى المناطق المحيطة بالبحر الأسود وبصفة خاصة فى البلقان حتى تحرم البكوات المماليك من مصادر قوتهم العددية ..

كما كانت الحكومة العثمانية تلجأ — وخاصة فى الأوقات التى لا تكون فيها مشغولة بحروب خارجية — الى ارسال حملات تأديب الى مصر يقابلها البكوات المماليك بالفرار الى الصعيد ، ثم يعودون الى القاهرة متى سحبت الحكومة العثمانية هذه الحملات .

ومن الطبيعى أن تتأثر أحوال المصريين بهذه الظروف ، فالزراعة اضطربت والتجارة كسدت ، والنواحى الثقافية تجمدت ، فى الوقت الذى زادت فيه سلطة شيخ البلد الى حد الطغيان ، وفى الوقت الذى زادت فيه الضرائب على المصريين لمواجهة المشروعات الكبيرة التى يعمل شيخ البلد على تنفيذها ، ولمواجهة اغلاق أسواق الرقيق أمام البكوات

---

(٥٣) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار ... ص ٧٢ .

المماليك باستخدام جنود مرتزقة من البدو والنوبيين واليونانيين الذين استخدموا فى الحرب المدافع التى اشتراها شيخ البلد .

جاء على الى مصر وعمره ١٣ سنة[٥٤] مملوكا « لابراهيم كتخدا » ، والاثنان من مماليك « مصطفى القازدغلى » ولما بلغ طور الشباب ظهرت شخصيته بكل مكوناتها من شجاعة وقوة وطموح وقسوة ، ثم تقلد الامارة والصنجقية بعد موت أستاذه وسيده « ابراهيم كتخدا » عام ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ — ١٧٥٥ م ، وعندما قتل « حسين بك القازدغلى » المعروف بالصابونجى وتعين فى رئاسة البيت بعده على بك[٥٥] عام ١١٧٢هـ/ ٤ سبتمبر ١٧٥٨—٢٤ أغسطس ١٧٥٩م أحضر «خشداشينه»[٥٦] المنفيين واستقر أمرهم[٥٧] ، ثم أصبح أميرا للحج وكبيرا للمماليك وشيخا للبلد فى عام ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م .

نتيجة طموح على بك لتقلد الحكم فى مصر كان عليه أن يتخلص من منافسيه ومعارضيه والقوى المختلفة الداخلية والخارجية التى تعوق هـذا الطموح ، فقد تخلص بالنفى الى الحجاز من عبد الرحمن كتخدا أعظم المماليك وكبيرهم وابن سيدهم وله الصولة والكلمة والشهرة ، وكان له عزوة كبيرة ومماليك وأتباع وعساكر ، وقد ارتجت مصر

---

(٥٤) تذكر المصادر أن على كان ابن قسيس رومى ارثوذكسى من الأناضول وخطف فى الثالثة عشرة من عمره وبيع فى القاهرة وكان اسمه يوسف وانه تزوج يونانية مسيحية اظهرت الاسلام وبقيت على دينها اسمها مريم . وقد عرفت بأكثر من اسم مثل : « جن على » وبلو قبطان ، وعلى بك القازوغلى ، ثم على بك الكبير .

(٥٥) كانت هناك بيوتات مملوكية تعرف بأسماء مؤسسيها كالابراهيمية والقاسمية والعلوية والقازد غلية والمرادية الخ .

(٥٦) خشداشينه جمع خشداش اى زميل فى الرق .

(٥٧) عبد الرحمن الجبرتى : المرجع السابق ص ٧١ .

(القاهرة) فى ذلك اليوم (يوم خروج عبد الرحمن كتخدا) وظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم ، فلم يحصل شىء من ذلك سوى ما نزل بالناس من البهتة والتعجب ، وكان ذلك عام ١١٨٨ هـ / ١ يوليو ١٧٦٤ — ١٩ يونيو ١٧٦٥ م[٥٨] .

وأصبح من السهل أمام على بك التخلص من بقية منافسيه من زعماء المماليك سـواء بالقتل أو النفى أو المطاردة مع المصادرة حتى وصفه الجبرتى بانه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادىء ظوره واقتدى به من بعده[٥٩] ، وأنه قتل منافسيه من الرؤساء والأقران وباقى الأعيان ، وفرق جمعهم فى القرى والبلدان وتتبعهم خنقا وقتلا ، وأبادهم فرعا وأصلا ، واستأصل كبار خشداشينه وقبيلاته ، وأخرم القوانين الجسيمة والعوائد المرتبة وحارب كبار العربان[٦٠] .

كما نجح على بك بعد أن أصبح شيخا للبلد وخلال السـنوات الخمس الأولى من المشيخة (١٧٦٣ — ١٧٦٨ م) فى القضاء على زعماء قبائل العربان فى الوجهين البحرى والقبلى ، فقد نجح فى القضاء على شوكة عرب الحبايبة وزعيمهم « سويلم بن حبيب » المسيطرين على بلاد اقليمى الشرقية والقليوبية ، كما كسر شوكة عرب الهنادى بالبحيرة ، وبذلك تفرق الهنادى وعرب الجزيرة والصوالحة وغيرهم وراحت كسرة على الجميع ولم يقم لهم قائم من ذلك اليوم[٦١] .

ثم اتجه على بك للقضاء على زعامة محلية أخرى فى الوجه القبلى تمثلت فى همام بن يوسف الهوارى الذى اتخذ من فرشوط مقرا له ،

---

(٥٨) نفس المرجع ص ٧٥ .

(٥٩) نفس المرجع ص ٧٦ .

(٦٠) نفس المرجع ص ٩٧ .

(٦١) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٧ .

وكانت هيبة همام بن يوسف فى الوجه القبلى تقوم على الأعجاب بشهامته وتقرير مجموعة الصـفات النادرة التى كونت شخصيته الفذة[٦٢] ، ومع ذلك كان حريصا على ارسال المـال الميرى بانتظام ، كما كان يرسل بين الحين والآخر الهدايا للباشا العثمانى وشيخ البلد بالقاهرة ، ولكن الذى ضايق على بك هو تحول الصعيد الى وكر تنبت فيه الفتن ومورد يمد منافسيه على مشيخة البلد بالمؤن والعتاد والسلاح[٦٣] •

وقد نجحت حملات محمد أبو الذهب مملوك على بك المتوالية فى كسر شوكة عرب الهوارة حتى مات همام بن يوسف كمدا قرب اسنا وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصـعيد من ذلك التاريخ كأن لم تكن[٦٤] •

وقد استخدم على بك فى اقرار الأمور بمصر له مماليكه الذين كونهم وبقيادة هؤلاء المماليك أمثال محمـد أبو الذهب وأحمد الجزار الذى عرف بهذا الاسم (الجزار) بسبب ما أظهره من بطش وقسوة ضد بدو الدلتا الثائرين الحبايبة والهنادى • وهنا نلاحظ مدى قوة المماليك فى مقابل ضعف الباشا العثمانى وقادة الفرق العثمانية كأنهم لا وجود لهم •

أطمع استقرار الأمور فى مصر لصالح على بك وبيد على بك ، أطمعه فى التطلع الى الباشـوية وهنا ثار الخلاف بينه وبين الدولة العثمانية التى أبت أن يحكم مصر باشا من المماليك رغم موافقتها على أن يحكم العراق باشـوات من المماليك اعتبارا من عام ١٧٤٩ م • ولذلك نجد على بك يأمر رجاله فى ١٧ رجب ١١٨٢ هـ الموافق ٢٧ نوفمبر

---

(٦٢) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ٤٨ •

(٦٣) د • السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ٢٥ •

(٦٤) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٩ •

١٧٦٨ م باعتقال محمد راقم الباشا فأنزلوه من القلعة الى بيت أحمد بك كشك وأجلسوا عنده الحرسجية[٦٥] ، وبعد أسبوعين تقلد على بك قائمقامية عوضا عن الباشا[٦٦] •

أرسل على بك الهدايا الى السلطان العثمانى مع طلب بفرمان سلطانى بالباشوية المصرية وأن تكون له بلاد الشام الى جانب مصر فيزداد ملكه ومحبته ، وعندما رفض السلطان العثمانى طلبات على بك أعلن رفضه قبول باشا يأتى من استانبول ، ومنع الأموال المقررة سنويا على مصر المعروفة باسم الميرى من الوصول الى الدولة العثمانية ، وضرب نقودا فى مصر باسمه وعليها تاريخ ١١٨٢ هـ ، وأتبع ذلك بطرد كل من يظهر ميلا للدولة العثمانية من موظفى الدواوين •

اتجه على بك لتوسيع ملكه بضم الحجاز ومينائه جدة ليجعل منها مركزا للتجارة مع الهند ، ولمراقبة الملاحة فى البحر الأحمر ، فلما فتحها عزل واليها العثمانى وجعل ولايتها لملوك من أتباعه عرف فيما بعد باسم حسن بك الجداوى ، وقد تم ذلك عام ١٧٧٠ م بقيادة محمد بك أبو الذهب وقد استغرقت الحملة خمسة شهور[٦٧] •

ثم اتجه على بك نحو الشام لتحقيق هدفين الأول تأمين حدود مصر الشرقية خوفا من هجوم عثمانى يقوده باشوات الشام العثمانيين ضده بالاستيلاء على جنوب بلاد الشام ، والهدف الثانى مساعدة الشيخ ظاهر العمر ضد الدولة العثمانية ورجالها فى الشام ، وبالفعل

---

(٦٥) المقصود تحديد اقامته بمنزل احد رجال على بك والجرسجية يعنى الحراس •

(٦٦) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٥ — ٨٦ •

(٦٧) لقب الجداوى أضيف الى صاحبه بعد أن أصبح حاكما لجدة ، ولم يكن له هـذا اللقب قبل ذلك ، وهـذا أمر شائع عند المماليك •

أرسل على بك جيشا بقيادة مملوكه محمد أبو الذهب لتحقيق الهدفين ، ورغم نجاح هذا الجيش بالاشتراك مع جيش الشيخ ظاهر فى دخول دمشــق وطرد الباشا العثمانى الا أن محمد أبو الذهب خان سيده وانسحب من الشام عائدا الى مصر دون اذن على بك •

عندما عاد محمد أبو الذهب الى مصر عام ١٧٧٢ م غادر على بك مصر بعد أن « حمل حموله وأمواله وذهب الى جهة الشام وصحبته على بك الطنطاوى وباقى صناجقه ومماليكه واتباعه وطوائفه [٦٨] ، ولجأ الى صديقه الشيخ ظاهر العمر ، ولكنه أراد العودة الى مصر فأمده الشيخ ظاهر بقوة من رجاله وأمده الكونت « ألكسيس أرلوف Alexis Arlow » قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط ببعض الأسلحة ولكن على بك هزم فى الصالحية أمام جند أبو الذهب فى ١٥ صفر ١١٨٧ هـ الموافق ٢٦ أبريل ١٧٧٣ م وجرح على بك الى أن مات بالقاهرة بعد عشرة أيام ، ليصبح محمد أبو الذهب شيخا البلد ، ورغم وصول خليل باشا واليا على مصر فى ٨ يونيو ١٧٧٣ م الا أن هــذا الوالى لم يكن له فى الولاية الا الاسم والعلامة على الأوراق ، والتصرف الكلى للأمير الكبير محمــد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه واشراقاته[٦٩] •

وكانت لعلى بك علاقات بكل من روســيا وانجلترا والبندقية ، حيث كانت ورســيا تشجع الخارجين على الدولة العثمانية ولكن دون استراتيجية واضحة ، حيث كايت تتخلى عن حلفائها بمجرد عقد هدنة أو صلح مع الدولة العثمانية ، وقد عانى على بك من هــذا الموقف الروسى على الرغم من أنه أعطى الاسطول الروسى تسهيلات فى الموانى المصرية والموانى الشامية بالتعاون مع الشيخ ظاهر العمر •

---

(٦٨) الجبرتى : المرجع السابق ص ٩٦ وكان ذلك فى ٢٥ المحرم ١١٨٦ هـ الموافق ٢٨ أبريل ١٧٧٢ م •

(٦٩) نفس المرجع ص ٩٩ •

ومما يجب الاشارة اليه أن التحالف الروسى مع على بك وظاهر العمر وسيطرة الأسطول الروسى على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، قد أضاف عاملا جديدا بالاضافة الى العوامل المحلية الأخرى لاضطراب التجارة الخارجية لمصر والشام وبقية أقطار المشرق العربى ، رغم أن على بك والشيخ ظاهر كانا يقدران أهمية هــذه التجارة لرخاء بلادهما بما يجبى من رسوم عليها(٧٠) .

وأما علاقة على بك بكل من انجلترا والبندقية فكان هدفه هو اعادة فتح طريق التجارة الهندية عبر البحر الأحمر ومصر ، ومن ثم ساعدت انجلترا على بك بطريقة غير مباشرة فى حركته على أمل فتح الطريق أمام التجــارة الانجليزية . أما البندقية فلم تستطع أن تقدم أيــة مساعدة عملية لعلى بك(٧١) .

وقد انتهت حركة على بك الكبير فى مصر كعصبية محلية دون أن يترك أثرا حيث أخذ المصريون من هــذه الحركة منذ بدايتها حتى نهايتها موقفا سلبيا ، ولم يدافعوا عنها عندما انهارت بمقتل على بك نفسه ، واكتفى على بك بتحميل المصريين نفقات حروبه الخارجية ومشروعاته الداخليــة .

ظل محمد أبو الذهب شيخا للبلد حتى توفى عام ١٧٧٥ م ليخلفه فى مشيخة البلد اســماعيل بك الى أن توفى عام ١٧٨٨ م ليخلفه ابراهيم بك ومراد بك حتى جاءت حملة بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ م . ولم تستفد مصر بتاتا من حكم هؤلاء البكوات بل تحمل شعبها عبء الأرهاق وشظف العيش لدفع الأمــوال المطلوبة للصراع بين البكوات المماليك ، وحتى التجار الأجانب عانوا من تعسف المماليك الذين أساءوا

---

(٧٠) د . أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢١٤ .

(٧١) نفس المرجع ص ٢٤٤ .

معاملتهم وأرهقوهم بالضرائب مما أدى الى اغلاق البيوت التجـارية الأجنبية فى كل من القاهرة والاسكندرية •

وهكذا كانت مصر ضعيفة عسكريا واقتصاديا ولم يعد باستطاعتها المقاومة ومدافعة الغزو الأجنبى ، وظهر هـذا الضعف واضحا عندما حضرت الى البلاد الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ م[٧٢] • وظل الأمر على هـذا النحو حتى بعد خروج الحملة الفرنسية فى الفترة التى أعقبت هـذا الخروج والتى عرفت باسم فترة الفوضى حتى أصبح محمد على واليا على مصر عام ١٨٠٥ م •

---

(٧٢) د . السيد رجب حراز : المرجع السابق ص ٣١ .

الباب الثانى

مرحلة اليقظة العربية والاسلامية الأولى
فى التاريخ الحديث

مقـــدمة

بلغت قوة الدولة العربية الاسلامية ذروتها ووصلت الحضارة العربية الاسلامية الى أوجهـا فى العصر العباسى الأول ، ثم بدأت القوة والازدهار فى التعرض لانتكاسات نتيجة عوامل داخلية تمثلت فى ظهور الخلافات الحزبية والمذهبية ، والعصبيات القبلية ، والشعوبية الى جانب طموحات العناصر الدخيلة على الدولة العربية الاســلامية وظهور العديد من الدويلات الاسلامية المستقلة فى المشرق والمغرب .

كذلك كانت هناك عوامل خارجية ساعدت على التفكك السياسى للدولة العربية الاسلامية وبالتالى انتكاسة الحضارة العربية الاسلامية ، من هــذه العوامل حدوث العدوان المغولى على مشرق العالم الاسلامى وتدمير بغداد عاصمة الدولة العربية الاسلامية عام ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وقبل ذلك حدث الغزو الصليبى الاستعمارى على فلسطين وأنحاء من الوطن العربى فى المشرق والمغرب على السواء ، بالاضافة الى السيطرة الاستعمارية الأوروبية الحديثة على أقطار العالمين العربى والاسلامى منذ القرن الخامس عشر حتى بلغت ذروة الهجمة الاستعمارية على تلك الأقطار فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

ويمكن أن نضيف الى تلك العوامل الخارجيــة تأثير المستشرقين الأوروبيين السلبى على الحضـــارة العربية الاسلامية بصورة أوقعت العرب والمسلمين فى الحيرة بين التمسك بأصـــول حضارتهم أو الأخذ بالحضارة الغربية الزائفة المــادية هــذا الى جانب الحكم العثمانى لأقطار الوطن العربى الذى استمر أربعة قرون كانت له تأثيرات سلبية واضحة ــ كما سبق أن ذكرنا ــ ساهمت فى تخلف الوطن العربى سواء كانت هــذه التأثيرات ناتجة عن طبيعة الحكم العثمانى أو ما خلفه من

ظهور عصبيات محلية ساهمت بدورها فى تخلف الأقطار العربية ، وكل تلك العوامل أدت الى تخلف أقطار العالمين العربى والاسلامى بعد أن كانت أكثر تحضرا وسبقتها الدول التى عرفت بالدول الصناعية سبقا كبيرا .

كانت تلك العوامل الداخلية والخارجية قد دفعت المخلصين من أبناء الأمة الاسلامية الى التفكير فى كيفية تجاوز هذه الانتكاسات ، وهداهم تفكيرهم الى أن ما أصاب المسلمين لم يكن ليصيبهم لولا ابتعادهم عن جوهر العقيدة الاسلامية الخالصة وأن خلاصهم بالعودة الى الله والاقتداء برسوله ﷺ تمسكا بقول الله سبحانه وتعالى : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » صدق الله العظيم ..

ونتيجة لهذا التفكير المنطقى السليم ظهرت ما سمى فى التاريخ العربى والاسلامى باليقظة العربية الاسلامية . فما المقصود بهذا التعبير ؟

يطلق تعبير اليقظة الاسلامية على الحركات الاسلامية التى ظهرت على مسرح الأقطار العربية والاسلامية فى القرن الثامن عشر الميلادى كنشوة دينية ضد ما ساد تلك الأقطار من تصرفات وسلوك يتنافى مع جوهر الدين الاسلامى الحنيف ، وأن هذه الحركات الاسلامية انما قامت لكى تعيد للدين الاسلامى مكانته الأولى التى عاشها زمن رسول الاسلام الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ومن بعده الخلفاء الراشدين .

وقد تمثلت تلك النشوة الدينية فى دعوة التوحيد التى انطلقت من نجد بشبه الجزيرة العربية بامامة محمد بن عبد الوهاب ، والدعوة السنوسية التى اتخذت من برقة بليبيا مقرا ومركزا تنتشر منه تلك الدعوة التى تنتسب لمحمد بن على السنوسى ، والدعوة المهدية التى

اتخذت من السودان مسرحا لنشاطها والتى قادها محمد أحمد بن عبد الله الملقب بالمهدى المنتظر ، الى جانب فكرة الجامعة الاسلامية التى تزعم الدعوة اليها المفكر الاسلامى جمال الدين الأفغانى واتخذ من مصر مركزا لها وساعده فى الترويج لها المصلح الاسلامى المصرى محمد عبده • بالاضافة الى الطرق الصوفية التى ظهرت فى أقطار شـمال أفريقيا العربية الاسـلامية كالطريقة الشاذلية والطريقة التيجانية والطريقة القادرية التى انطلقت من العراق •

كما يطلق تعبير اليقظة العربية الاسلامية أيضا على ظهور حركات تحررية ضد الهجمة الاستعمارية التى أحاطت بالعالم الاسلامى منـذ الحروب الصليبية ، تلك الحركات التى عاشتها أقطار اسلامية للتخلص من السيطرة الأجنبية المعادية للاسلام •

ويطلق تعبير اليقظة العربية الاسـلامية كذلك على الدعوة الى الوحدة بين أقطار العالمين العربى والإسلامى والتى وجدت لها صدى فى قلب كل عربى وكل مسلم ، فظهرت مشروعات للوحدة بين الأقطار العربية كان أبرزها ظهور جامعة الدول العربية ، كما ظهرت مؤسسات وحدوية اسلامية تمثلت فى منظمة المؤتمر الاسلامى وما تفرع عنه من أنشطة اقتصادية وثقافية وسياسية واعلامية •

ويمكن القول أن هـذه اليقظة العربية الاسلامية بكل جوانبها انما حدثت كرد فعل للشوائب التى علقت بالعقيدة الاسلامية نتيجة تطرف بعض المسلمين وخروجهم عن جوهر العقيدة ، بل وارتداد بعضهم الى تقديس الأصنام أو المخلوقات ، ومن ثم كانت أول أسس هـذه اليقظة هى الدعوة الى عودة المسلمين للتمسك بكتاب الله وسنة رسوله وترك البدع والتصرفات المنافية للعقيدة الاسلامية •

كما أن هـذه اليقظة العربية الاسلامية حدثت أيضا للوقوف أمام

الهجمات الاستعمارية ضد العرب والمسلمين ، كما أنها جاءت للرد على التفتت الموجود فى القوى العربية الاسلامية بالدعوة الى وحدة عربية اسلامية تعية للعرب والمسلمين صورتهم التى كانوا عليها عند ظهور الاسلام وفى عهود الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين .

واذا أردنا أن نحدد تاريخا لبدء تلك اليقظة العربية الاسلامية فيمكن اعتبار القرن الرابع عشر الميلادى هو البداية ، حيث ظهرت فى أوائل هـذا القرن أفكار العلامة والمتصوف العربى المسلم أحمد بن تيمية الذى عاش فى الفترة الممتـدة من عام ٦٦١ الى عام ٧٢٨ هـ الموافق لعام ١٢٦٣ الى ١٣٢٨ م : والذى عايش دمار التتار فى الوطن العربى الاسلامى ، فاتخذ من القرآن الكريم مصدرا لاصلاح النفوس وبعث الهمم ، وتأكيد عقيدة التوحيد السامية ، وهاجم خصوم العقيدة الاسلامية وفقهاء العصر الجامدين ورجال الدين ورجال الحكم الذين استبدوا بالسلطان فأفسدوا السلطة .

* * *

الفصل الثالث

دعوة التوحيد (الوهابية)

- مقـــدمة :
- ظروف نجد ٠
- محمد بن عبد الوهاب ٠
- مبادىء دعوة التوحيد ٠
- نشر الدعوة ٠
- تقييم الدعوة ٠

مقـــدمة

أطلق على دعوة التوحيد اسم الدعوة الوهابية نسبة الى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسسها فى نجد ، وتسمية تلك الدعوة بنسبها الى الشيخ محمد بن عبد الوهاب يحتمل معنيين الأول محاولة أعداء الدعوة وهم الأتراك العثمانيون ومن والاهم تصـــغير شأن الدعوة بربطها بشخص الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب وكأنها حركة فردية وليست دعوة عامة للاصلاح أحوال المسلمين الذين ساءت أحوالهم الدينية والاجتماعية فى ظل الحكم العثمانى •

والمعنى الثانى يقوم على أنه لا ضرر فى تسمية دعوة التوحيد باســم الدعوة الوهابية حيث يرجع الفضل الى الشيخ محمــد بن عبد الوهاب فى احياء دعوة التوحيد بعد أن فشل الشيخ أحمد تقى الدين ابن تيمية الدمشقى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين فى نشر هــذه الدعوة ، ومن ثم فلا بأس من تسميتها بالدعوة الوهابية ••

ونحن لا نرى غضاضة فى تسمية دعوة التوحيد التى انطلقت من نجد بالجزيرة العربية باســم صاحبها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى له شرف أن يقترن اسمه بدعوة التوحيد ، وليس هــذا بغريب ، فالتاريخ ملىء بالأمثلة الكبيرة ، فهناك الدعوة السنوسية فى برقة نسبة الى محمد بن على السنوسى ، والدعوة المهدية فى السودان نسبة الى محمد أحمد بن عبد الله الملقب بالمهدى المنتظر ، وهناك الثورة العرابية فى مصر نسبة الى قائدها أحمد عرابى •• وهكذا •

ويمكن أن نرجع دعوة التوحيد الى العلامة أحمد بن تيمية الذى عاش بدمشــق فى الفترة الممتدة بين عام ١٢٦٣ م وعام ١٣٢٨ م ، أى فى الفترة التى شهدت هجمات التتار (المغول) على أقطار المشرق

العربى ، وقد درس أحمد بن تيمية الفلسفة اليونانية والعربية والقرآن الكريم وأصول الشريعة الاسلامية والفقه على مذهب أحمد بن حنبل ٠

وكانت دراسة أحمد بن تيمية ومعايشته لما أصاب الأمة العربية والاسلامية على يد التتار سببا لكى يدرك أن ما أصاب هذه الأمة ما كان ليصيبها لو ظلت وفية على تمسكها بمبادىء الاسلام الأولى ، وما لم يتأثر المسلمون بمتادىء الباطنية والقرامطة وغيرهم من الفرق المبدعة للضلالات والخرافات التى لصقت بالعقيدة الاسلامية ٠

فالباطنية اتخذت ما عرف بمبدأ الأشراق الالهى الذى كان ركنا ركينا فى مبادئها ، ومعناه أن المعرفة تشرق على أئمتهم فتسمو بهم الى مرتبة لا ينالها غيرهم ، أى أن الله يفيض عليهم نور المعرفة فتتكشف لهم الحقائق فيعرفون بواطن الأمور وظواهرها ، وفرقة النصيرية أعانت التتار على محاربة الاسلام[1] ٠ ونتيجة لذلك رأى ابن تيمية الجهلة من عامة الناس ينحتون فى الصخور أقداما وأكفا يدعون أنها للنبى محمد ﷺ فيقدسونها ويتبركون بها أو يصنعون أصناما يسجدون لها ٠

هال أحمد بن تيمية ما آل اليه حال الأمة العربية الاسلامية ، فوجه هجومه الى خصوم العقيدة الاسلامية الصافية من الحكام والفقهاء وأهل الزهد والصوفيين ، ودعاهم الى مبادىء محددة هى[2] :

١ ــ الرجوع الى الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح فى فهم الآيات والأحاديث ، وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين والصوفية حيث أنها لا تتفق مع الروح السلفية القديمة ٠

---

(١) د ٠ أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة ص ٩ ٠

(٢) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٢٩٠ ٠

٢ — محاربة البدع والمنكرات ولا سيما ما كانت وسيلة للشرك بالله كالتمسح بالقبور والصلاة عندها وطلب الحاجة منها ، والاستعانة أو الاستغاثة بغير الله والتبرك بالأشجار والأحجار التى يعتقد فيها العامة الخير أو دفع الشر .

٣ — ترك الغلو فى تقديس الرسول ﷺ والاكتفاء بالاقتداء بهديه .

٤ — فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، وعدم التقليد المقوت . بل ان الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح من الصحابة هى المصدر الأساسى لكل مجتهد يستطيع عن طريقها الاهتداء الى الرأى الصائب حتى ولو خالف رأى الأئمة الأربعة[٣] .

٥ — لعن من اتخذ القبور مساجد ، فقد ورد نهيه صلى الله عليه وآله وسلم عن اتخاذها مساجد ، ولعن من يفعل ذلك ، وقد ذكره غير واحد من الصحابة والتابعين ، وكان العكوف على القبور والتمسح بها وتقبيلها والدعاء عندها وفيها ونحو ذلك هو أصل الشرك وعبادة الأوثان ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم لا تجعل قبرى وثنا بعدى[٤] .

وقد أثارت دعوة أحمد بن تيمية عليه أرباب الطرق الصوفية والفلاسفة والمتكلمين المتعصبين ، وأكثرهم من ذوى المناصب والنفوذ فى مصر والشام ، حتى استدعى الى مصر وضيق عليه الخناق ، ولكن مريديه ظلوا على صلة به الى أن عاد الى دمشق بعد أن غاب عنها سبع سنوات ، وفيها استأنف الشيخ أحمد بن تيمية دعوته

---

(٣) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ص ٢٤ .

(٤) ابن تيمية (تقى الدين ابى العباس احمد بن تيمية) : كتاب الزيارة من مجلد الجامع الفريد ص ٤٣٧ .

الاصلاحية بنشاط وعكف على نشر دعوة التوحيد ومقاومة المبتدعـة ونادى بالرجوع الى الكتاب والسنة(٥) •

وكان من الطبيعى أن يسـتمر الرجعيون والمضللون فى عدائهم للامام أحمد بن تيمية ، ونتيجة لدسائسهم عند رجال الحكم سجن ابن تيمية أكثر من مرة حتى توفى بالسـجن فى قلعة دمشـق عام ٧٢٨هـ / ١٣٢٨ م ، وبموته خفتت دعوة التوحيد بسبب ملاحقة الحكام لتلاميذه ، ولكنها أحييت على يد الامام محمد بن عبد الوهاب فى نجد بعد أربعة قرون •

ولم يكن أحمد بن تيمية ذلك المصلح العظيم الذى أيقظ العقول وبعث الفكر الاسلامى الأصيل فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، يعلم أن الله سيهيىء لتعاليمه رجلا فى قلب الصحراء العربية اسـمه محمـد بن عبد الوهاب يبعث الحيـاة الى هـذه الدعوة ويعمل على تحقيقها (٦) •

ظروف نجد

كانت نجد بشبه الجزيرة العربية هى المنطقة التى انبعثت فيها دعوة التوحيد حيث كان يعيش محمد بن عبد الوهاب ، وتمثلت ظروف نجد فيما يلى :

(أ) الظروف الطبيعية :

نجد هضبة تتوسط شبه الجزيرة العربية ، وان غلب عليها الطابع الصحراوى الجاف الا أنها تضم كثيرا من الوديان والواحات الخصبة

(٥) حافظ وهبة : نفس المرجع ص ٢٩٠ •

(٦) د . أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ١٨ •

أهمها وادى حنيفة ، ووادى الرمة وبدايته قريبة من المدينة المنورة ؛ وتبلغ مساحة هـذه المناطق أكثر من عشرة آلاف ميل ، وهى تتكون من سلسلة من البلدان والقرى من سدير فى الشمال وتنتهى فى الجنوب الى وادى الدواسر ، ومجموعة المناطق الخصبة تحيط بها الدهناء شرقا وجنوبا ، والنفود ، والمنحدرات من الشمال ومنحدرات من الغرب(٧) .

ويفصل اقليم نجد عن الأحسـاء الواقعة على الخليج العربى مرتفعات الصمان ورمال الدهناء ، ومع اتساع هضبة نجد فان القسم المأهول منها لا يتعدى سلسلة ضيقة من الواحات ممتدة على شـكل هلال تحف بها الرمال من كل جانب ، وتفصل ما بينهـا أحيـانا ، فهى محدودة من الجنوب بصحراء الربع الخالى ، ومن الشرق بالدهناء ومن الشمال بالنفود الكبير : ومن الغرب بأنفـاد السر والبطـرا وقنيفذة .. الخ (٨) .

والمنطقة بصفة عامة صحراوية ، وحيث توجد الآبار بقدر كاف من المـاء ظهرت مدن وقرى تحاط بالبساتين ، وهـذه على أية حال كثيرا ما تكون متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة بلاد العرب ، ودون أن تربط بعضها ببعض منطقة زراعية(٩) .

ومن أهم واحات نجد القصيـم والسـدير والحوطـة والحريق ووادى الدواسر والجوف والوشم التى عاصمتها مدينة شقراء مركز التجارة بين بلاد العرب وكل من الهند وسوريا والعراق ، وواحة المحمل ، وواحة العارض ومركزها مدينة الرياض . وتعتبر واحة العارض التى عرفت قديما باسم اليمامة قلب هضبة نجد ، ومن بلادها الى جانب

(٧) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٣ .

(٨) د . عزة النص : أحوال السكان فى العالم العربى ص ٦٥ .

(٩) الليدى آن بلنت (مترجم) : رحلة الى بلاد نجد ص ٢٠٧ .

الرياض مدينة الدرعية منبت آل سعود ومركز امارتهم ، والعمارية والعيينة والجبلة . ومن واحات نجد أيضا الخرج ، وجبل شمر الذى يعتبر متمما لهضبة نجد ، وسمى بذلك لأن قبائل شمر تسكنه وتعمل بالزراعة نظرا لتوفر المياه وخصوبة الارض .

ومناخ نجد يتميز بالحرارة الشديدة نهارا وازدياد البرودة ليلا نظرا لكونه اقليم صحراوى ، والجو جاف والأمطار قليلة بصفة عامة ، وأكثر مناطق نجد خطا فى الأمطار مناطق جبال شمر والنفوذ الشمالى ، بينما الصحراء الجنوبية لا تكاد تسقط بها الأمطار .

وأما بالنسبة لمركز انبعاث دعوة التوحيد فان هذا المركز يتمثل فى رأيى فى بلدة العيينة التى ولد بها محمد بن عبد الوهاب وبلدة الدرعية مقر امارة آل سعود الذين ساندوا الدعوة من البداية وعملوا على نشرها . وبلدة العيينة تقع فى واحة العارض يشتهر أهلها بالزراعة ، كما يهتمون بالعلم ، وهى بلدة صغيرة نوعا ، أما بلدة الدرعية فتقع غربى مدينة الرياض وتبعد عنها بحوالى ١٢ ميلا وهى فى الجهة الشمالية من وادى حنيفة وبها كثير من أشجار النخيل والفاكهة ، يرويها عدد كبير من الآبار غزيرة المياه ، وأشهر ضواحيها الطريف فى الجهة المقابلة من الوادى ومريحة والغصيبة(١٠) .

(ب) الظروف الاجتماعية :

تأثرت الظروف الاجتماعية لأهالى نجد بطبيعة الأرض التى يعيشون عليها ، ومن ثم وجدنا السكان ينقسمون الى بدو وحضر ، فالبدو رحل يتنقلون بأغناهم وابلهم وراء المراعى ، ومن ثم يتميزون بالخشونة فى طباعهم ، والاستعداد الدائم للقتال .

---

(١٠) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٥٠ .

وكانت مسألة توفر المراعى والمياه لا تحدث الا بالرحلة والضرب فى المناطق النائية ولذلك صار كل تنظيم سياسى قائم على الاستقرار فى السكن أمرا متعذرا على البدوى ، والصلة الدموية وحدها هى التى تعين الفلك الذى تضطرب فيه حياة البدو ، فهى تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل[11] .

والقسم الثانى من سكان نجد هم سكان المدن والواحات والقرى وهم أكثر استقرارا من البدو ، وان كانوا فى الأصل من البدو وتوطنوا فى مساكنهم من قديم[12] . والحضر يشتغل معظمهم بالتجارة ، الا أن التجارة فى الفترة السابقة لقيام الدولة السعودية الأولى — وتحالف آل سعود مع الامام محمد بن عبد الوهاب — فقدت أهميتها كمورد رزق لبعض سكان نجد نظرا لفقدان الأمن وعدم استقرار النظام وانتشار الفوضى[13] .

وسكان نجد من البدو والحضر ينتظمون فى قبائل يحكمها العرف والتقاليد المتوارثة ، فاذا كانت القبائل البدوية سمتها عدم الاستقرار والتقاتل والاغارة على من جاورهم أو الهجرة الى أرض جديدة ، فأن الحضر انتظموا فى مجموعة من الامارات أو المشيخات التى تتفق مع القبائل البدوية فى الطباع الصحراوية حيث عاد السكان الى مفاهيم الحياة البدوية الجاهلية التى كانوا عليها قبل الاسلام وعادت العصبيات القبلية تمزق المجتمع وتشتته ، وعاد الغزو والسلب والنهب ليكون مصدر العيش فى الصحراء[14] .

---

(١١) كارل بروكلمان (مترجم) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٧ .

(١٢) حافظة وهبة : المرجع السابق ص ٤٦ .

(١٣) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٩ .

(١٤) أحمد عسة : معجزة فوق الرمال ص ١٢ .

ورغم ذلك فقد بقيت عند أهل نجد عادات العرب الأصيلة مثل المروءة والشجاعة ، فمن ذلك أن الحماية تمنح للمسافر الغريب طوعا وعن طيب نفس ، وقد يضم أحد أفراد القبيلة رجلا غريبا الى عشيرته ضما لا انفصام له[١٥] . هـذا الى جانب علاج الخلافات اليومية عن طريق المجالس اليومية ، والطاعة لشيخ القبيلة والاستماع الى من هم أكبر سنا واحترام مجلسهم ، والتضحية بالروح أثناء الحرب وبالأموال أثناء السلم ، وهم على العموم — كما ذكر أحمد بن سعيد البغدادى فى كتابه نديم الأديب ، فى حديثه عن أهـل نجد فى تلك الفترة — ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسننهم فهى عندهم[١٦] .

وأما قبائل وعشائر نجد فأنهم كانوا موزعين على النحو التالى : أهل حايل ينتمى أكثرهم الى شمر ، وأهل القصيم يرجعون فى الغالب الى بنى خالد وبنى تميم ، وأهل الجنوب ينتمون فى أنسابهم الى عنزة ، وأهل الوسط ينتمون الى الدواسر وبنى تميم ، وأهل الجنوب الغربى ينتمون الى الدواسر وقحطان[١٧] .

وكان التنظيم القبلى يعطى لشيخ القبيلة السلطة الكاملة على كل أفراد قبيلته ، وهو فى العادة أكثر أفراد قبيلته ثروة وأكبرهم مركزا وسنا فى الغالب ، ولذلك يعد المسئول عن كل ما يلحق بقبيلته من اغارات القبائل الأخرى ، الى جانب مسئوليته عن تنظيم الأمور المتعلقة بأفراد قبيلته مهما سكنوا فى مناطق متفرقة أو فى قرى وواحات متباعدة ، ومهما اختلفوا من حيث الثراء أو فى درجة التحضر ، فالكل أمام عرف وتقاليد القبيلة سـواء .

---

(١٥) كارل بروكلمان : المرجع السابق ص ١٧ .

(١٦) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٤٢ .

(١٧) حافظة وهبة : المرجع السابق ص ٤٧ .

(ج) الظروف السياسية :

لم يخضع اقليم نجد للحكم العثمانى كما خضعت أطرافه فى الحجاز والأحساء مثلا ، ومن ثم لم يشهد الاقليم ولاة عثمانيين يأتون اليه ولا حامية عثمانية تجوب خلال دياره[18] ، ولقد تركت الدولة العثمانية هذا الاقليم لأهله يحكمونه بالطريقة القبلية المألوفة طالما لا يعلن أهله العداء للدولة ، كما أن الاقليم كان فقيرا فلم يكن مغريا للعثمانيين .

وكان الاقليم سياسيا يحتوى على عدة امارات صغيرة تتخذ كل امارة منها مقرا لها فى بلدة ولها أميرها الذى هو فى نفس الوقت زعيما لعشيرة أو رئيسا لقبيلة له الكلمة النافذة على أهل امارته .

وكانت العلاقات بين امارات نجد علاقات جفاء ، وكثيرا ما كانت الحروب تنشب بين هذه الامارات وتكاد كل امارة منها أن تكون منعزلة عن غيرها لا تربطها بها روابط سياسية معينة بحكم تجاورها ، ولم تكن الروابط التى تجمعها سوى العلاقات التجارية والجوار ووحدة الأصل ، وأشهر الأسر النجدية الحاكمة فى ذلك الوقت ــ وقت انبعاث دعوة التوحيد ــ هى : آل معمر فى العيينة ، ودهام بن دواس فى الرياض ، وآل زامل فى الخرج ، وآل سعود فى الدرعية[19] .

وتنتسب الأسرة السعودية الى قبيلة عنزة التى تعتبر من أكثر القبائل العربية عددا وفروعا وانتشارا فى نجد والعراق وبلاد الشام ، وقبل ارتباط هذه الأسرة بزعامة أميرها محمد بن سعود بدعوة الامام محمد بن عبد الوهاب ، لم يكن لآل سعود شأن كبير فى نجد ، ولم يكن

---

(١٨) ساطع الحصرى : الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٢٣٩ .

(١٩) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١٣ .

لهم تأثير يذكر فى شئون الجزيرة العربية ، بل كان شأنهم شأن غيرهم من شيوخ المقاطعات النجدية[٢٠] .

(د) الظروف الدينيـــة :

سيطرت على أهل نجد البدع والخرافات ، وانغمس الناس فيها فحجوا الى القبور للتبرك وقضاء الحاجات وتفريج الكروب ، والتبرك بذكر النخيل أو شجرة فى نجد تسمى « شجرة الذيب » أو غـــار فى أســـفل الدرعية ، أو زيارة الدجالين الذين يدعون القدرة على اجابة المطالب ، وهـــذه المطالب كثيرة : كالرغبة فى انجاب البنين أو الرغبة فى الانجاب للعواقر ، أو الزواج للعوانس ، والرغبة فى طـــول العمر ، وغير ذلك من الأساطير والخرافات التى نسجت حول هـــذه الأشياء والأماكن والأشخاص .

ولم تكن نجد تنفرد بمثل هـــذه البدع والخرافات ، فقد شاركتها فيها بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من الاقطار الاسلامية التى تعرضت لمثل ظروف شبه الجزيرة العربية ، وأعنى الظلم والفقر والجهل، وهى ظروف ساعدت على كثرة الدجالين وأصحاب البدع ممن يجدون لبضاعتهم سوقا رائجة فى دنيا العوام وأشـــباه العوام ، فهذه هى الفرصة السانحة لطلاب الصيد فى المـــاء العكر[٢١] .

وهكذا احتلت الضلالات والبدع والخرافات والأساطير فى نفوس العامة وغير العامة محل القيم الصحيحة للاسلام ومبادئه ، حتى أصبحت تعاليم الاسلام التى تضبط المجتمع نسيا منسيا : حتى كأن الاسلام لم يظهر فى شبه الجزيرة العربية ولم يترك أثرا حضاريا لا على رمالها ولا فى عقول أبنائها ونفوسهم[٢٢] .

---

(٢٠) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢١٠ .
(٢١) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٣١ — ٣٢ .
(٢٢) احمد عسه : المرجع السابق ص ١٢ .

وقد كثر عدد الأدعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، فلو عاد صاحب الرسالة الى الأرض فى ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الاسلام لغضب وأطلق اللعنـــة على من استحقها من المسلمين ، كما يلعن المرتدون وعبدة الأوثان[٢٣] .

كانت تلك أحوال المسلمين فى نجد قبيل قيام الامام محمد بن عبد الوهاب بالدعوة لأفكاره ومبادئه ، وهى أحوال كانت فى حاجة الى مصلح بل الى مصلحين ، وبالفعل ظهر مصلحون كانوا من فقهاء مذهب أحمد بن حنبل الذى كان سائدا فى اقليم نجد ، وليس أدل على ذلك من أنه لم تذكر ترجمـــة لقاض من قضاة امارات نجد الا ومن بين أوصافه « الحنبلى » ، ولم يذكر عالم حنبلى فى القاهرة أو دمشق دون أن يكون من بين أساتذته أو تلاميذه أحد النجديين[٢٤] .

محمـــد بن عبـــد الوهاب

صاحب الدعوة القديمة الجديدة — أعنى دعوة التوحيد — هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن على بن محمد بن أحمد بن راشد التميمى ، ينحدر من أصول عربية تنتهى الى مضر ، وهو بطن من بطون تميم أكبر القبائل العربية وأعزها[٢٥] . ولد محمد طبقا للرأى الأرجح عام ١١١٥هـ الموافق عام ١٧٠٣ م ببلدة العيينة التى تقع بالقرب من الرياض ، وكانت بلدة العيينة يحكمها عبد الله بن محمد من آل معمـــر الذين كانوا خاضعين لنفوذ حاكم الأحساء .

(٢٣) لوثروب ستودارد (مترجم) : حاضر العالم الاسلامى ص ٢٥٩ .

(٢٤) د . صلاح العقاد : دعوة حركات الاصـــلاح السلفى المجلة التاريخيـــة ص ٨٧ .

(٢٥) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٤٥ .

وكان الشيخ عبـــد الوهاب والد محمد يعمل وقتها قاضيا لبلدة العيينة ، وهو فى نفس الوقت متفقة فى مذهب أحمد بن حنبل الذى كان يقوم بتدريسه مع الحديث والتفسير لطلاب العلم ، وكان الطفل محمد يحلو له أن يرقب مجلس أبيه عن كثب فينصت لأحاديث القوم ومجادلاتهم[٢٦] • وقد استظهر القرآن الكريم وهو فى العاشرة من عمره : وبلغ مبلغ الرجال وهو فى الثانية عشرة فزوجه أبوه وجعله يؤم المصلين ، وأخذ يسترشد بآرائـــه فيمـــا يعترضـــه من فتـــاوى ومسائل فقهية[٢٧] ، حتى كان والده يقول عن ابنه : لقد استفدت من ولدى محمد فوائد شتى فى الأحكام[٢٨] •

ولقد تأثرت شخصية الامام محمد بن عبد الوهاب فى تكوينها بعدة عوامل يمكن أن نلخصها فيما يلى :

١ ــ نشأته فى بيت يشتغل أهله أبا عن جد بالعلوم الدينية ، ومن ثم نشأ واسع الثقافة ، وسبق زملاءه من الصبيان بما اتصف به من سرعة الحفظ والادراك والقدرة على الفهم •

٢ ــ تأثره بمذهب الامام أحمد بن حنبل ، وهو المذهب الذى وجد أسرته تعتنقه وتدرسه وتفتى فيه بل تقضى على أصوله ، وامتلأت خزانة كتب الأسرة بمؤلفات العلامة « أحمد بن تيمية » و « ابن قيم الجوزية » وغيرهما من مدرسة أحمد بن حنبل ، ومن ثم انصرف محمد بن عبد الوهاب عن الفقه الجدلى والفلسفى الى تناول الدين من قريب ، وفهم أصوله من كتاب الله وسنة رسوله •

---

(٢٦) د . عبد الحميد البطريق : الوهابية دين ودولة : بحث منشور بمجلة كلية البنات سنة ١٩٦٤ ص ٤٢ •

(٢٧) أحمد عسه : المرجع السابق ص ١٢ — ١٣ •

(٢٨) حسين بن غنام : تاريخ نجد ص ٧٥ •

٣ — طبيعة البيئة التى نشأ فيها محمد بن عبد الوهاب ، وهى بيئة صحراوية بدائية ليس فيها مجال للتعقيد ولكنها بيئة واضحة مكشوفة ، والناس فيها على الفطرة ، ومن السهل أن ينقادوا الى البدع والخرافات اذا لم يوجد من يأخذ بيدهم ويبصرهم بحقيقة وبساطة الدين الاسلامى ، ويوضح لهم بأسلوب سهل غير معقد خطأ الوقوع تحت تأثير الدجالين والاستمرار فى اتباع تيار التقاليد المتوارثة والمخالفة لجوهر الدين الاسلامى[٢٩] .

٤ — الرحلات التى قام بها الامام محمد بن عبد الوهاب التى كانت مدرسة نافعة له ، فقد وسعت من أفقه ونبهته الى الأخطاء الشائعة فى العالم الاسلامى ، وجعلته يصمم على القيام بدعوته الاصلاحية فوق ما استفاده أثناءها من الدراسات العلمية والأخذ عن مشاهير العلماء فى مختلف العواصم الاسلامية[٣٠] .

وكانت أولى رحلات الامام خارج نجد الى الحجاز حيث أدى فريضة الحج وزار قبر الرسول ﷺ بالمدينة المنورة ، واجتمع هناك الى فقهاء وعلماء من مذاهب سنية متنوعة ، ورأى ما يحدث أمام قبر الرسول عليه الصلاة والسلام من بدع ، ومن العلماء الذين التقى بهم الامام كان العلامة عبد الله بن ابراهيم بن سيف ، الذى أخذ عنه الشيخ الامام ولازمه مدة ، وقد سأله تلميذه الشيخ عما يفعل حول قبر رسول الله ﷺ من النداءات الشركية وطلب الغوث والشفاعة فأجابه — العلامة عبد الله — بقوله : ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون[٣١] .

---

(٢٩) د . رأفت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث ص ٢١٠ .

(٣٠) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٥٥ — ٥٦ .

(٣١) الشيخ عبد العزيز آل الشيخ : تعقيب على كتاب الدعوة الوهابية لعبد الكريم الخطيب ص ٤٧ .

كما التقى الامام محمد بن عبد الوهاب فى المدينة المنورة بالعلامة أبى المواهب البعلى الدمشقى ، والعلامة محمد حياة السندى المدنى ، وغيرهم من مدرسة أحمد بن حنبل وعنهم أخذ الامام محمد بن عبد الوهاب الكثير من مسائل الفقه القائم على النظر فى كتاب الله وسنة الرسول بقلب سليم وعقل واع .

وكانت رحلة الامام محمد بن عبد الوهاب الثانية الى العراق حيث زار بغداد ومكث فى البصرة أربع سنوات تعلم فيها علمى اللغة والحديث على يد عالم بصرى ، وأثناء اقامته بالبصرة شاهد ما يفعله غلاة الشيعة عند قبور وأضرحة الأولياء وآل البيت من تقديس وأعمال تدل على الجهل والضلالة .

وفى البصرة انتقد أعمال الجهلاء والمضللين حتى ضاق به أهل البصرة ، واستنكروا صراحته فى نقد أفعالهم المنافية لجوهر الدين الاسلامى فأخرجوه من بلدهم فحدثته نفسه بالذهاب الى الشام ؛ ولكن ضيق ذات اليد جعله يعدل عن فكرته هذه ، ويتجه الى نجد حيث بلدة « حريملا » التى كان والده قد انتقل اليها[٣٢] .

ورغم خروج الامام محمد بن عبد الوهاب من البصرة مطرودا ، فقد درس الكثير من كتب اللغـــة والحديث ، وأفتى بما يراه صحيحا فيما عرض عليه من أمور ، فيذكر أن أناسا من مشركى البصرة يأتون الى بشبهات يلقونها على ما أقول وهم قعود لدى ، لا تصلح العبادة كلها الا لله فيبهت كل منهم فلا ينطق فاه[٣٣] .

---

(٣٢) د . عبد الحميد البطريق : المرجع السابق ص ٤٣ .

(٣٣) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٢٨ .

مبـادىء الدعـوة

عاد الامام محمد بن عبد الوهاب الى نجد من رحلاته خارجها ، وقد اتسعت ثقافته وزادت تجاربه واكتمل نضجه ، اذ كان عمره آنذاك خمسا وثلاثين سنة ليعتكف على المزيد من كتب الفقه والتفسير والحديث، ثم يخرج الى النـاس بدعوته الى التوحيـد وترك ما هم فيه من بدع وضلالة .

ويمكن أن نحـدد مبادىء دعوة التوحيـد للامام محمـد بن عبد الوهاب فيما يلى :

أولا — مبدأ التوحيـد :

يعتبر مبدأ التوحيد ركن الدعوة الرئيسى ، ولذلك نجد أصحاب الدعـوة وأتباعها يطلقون على أنفسـهم ألقاب الحنابلة والاخـوان والسلفيين ، وعلى الدعوة أسم دعوة التوحيد . ويمكن أن نقف على حقيقة هـذا المبدأ الذى دعا اليه الامام محمد بن عبد الوهاب من كتبه التى ألفها ورسائله التى بعث بها الى من أنس فيهم خيرا ، فانه يذكر مثلا فى رسالة الى شخص يدعى عبد الرحمن بن ربيعة قوله : ان التوحيد الذى دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم هو افراد الله بالعبادة كلها ليس فيها حق لملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عن غيرهم ، فمن ذلك لا يدعى الا اياه كما قال تعالى : وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا ، فمن عبد الله ليلا ونهارا ، ثم دعا نبيا أو وليا عنـد قبره فقد اتخـذ الهين اثنين ، ولم يشـهد أن لا اله الا الله هو المدعو(٣٤) .

---

(٣٤) حسين بن غنام المرجع السابق المجلد الأول ص ٢٢٣ .

وذكر الامام محمد بن عبد الوهاب فى كتابه « التوحيد » أن الله ذكر فى قرآنه الكريم ما يؤكد عدم الشرك به كقوله : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » • وقوله سبحانه وتعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » • وقوله سبحانه وتعالى : « ان الله لا يغفــر أن يشرك به ويغفــر ما دون ذلك لمن يشــاء »[٣٦] •

كما استشهد الامام محمد بن عبــد الوهاب بالأحاديث النبوية كقول رسول الله ﷺ : اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ، وفى حديث آخر قال : من قال لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل • وفى حديث عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبى ﷺ على حمار فقال لى : يامعاذ أتدرى ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ، قلت الله ورسوله أعلم ، قال : فان حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به • قلت يارسول الله أفلا أبشر الناس ، قال لا تبشرهم فيتكلوا[٣٦] •

ومن أقوال الامام محمد بن عبد الوهاب يفسر عبارة لا اله الا الله بأنها تعنى ترك كل معبود غير الله والتوجه الى الله وحــده ، وأن العبادة اذا جعلت لغير الله صار ذلك الغير الها مع الله وان لم يعتقد الفاعل ذلك[٣٧] • أى أن معنى لا اله الا الله نفى صفة الألوهية عن كل المخلوقات واثباتها لله وحده • وأنها الكلمة الفارقة بين الكفر والاسلام ، وهى كلمة التقوى ، وهى العروة الوثقى ، وهى التى

---

(٣٥) د. احمد عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ١٩

(٣٦) محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد ص ٢ — ٣ .

(٣٧) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٧ .

جعلها ابراهيم عليـه السلام كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون . وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها ، ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب ومحبتها ومحبة أهلها وبغض من خالفها ومعاداته[٣٨] .

ولم يكن التوحيد الذى دعا اليه الامام محمد بن عبد الوهاب مذهبا جديدا بل احياء لمبدأ اسلامى كبير ، وقد قال : انى لم آت بجهالة بل أقولها ولله الحمد ان ربى هدانى الى الصراط المستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، ولست ولله الحمد أدعو الى مذهب صوفى أو غيره بل أدعو الى الله وحده لا شريك له ، وأدعو الى سنة رسول الله ﷺ التى أوصى بها أول أمته وآخرهم[٣٩] .

وتأكيدا لمبدأ التوحيد فقد دعا الامام محمد بن عبـد الوهاب المسلمين الى معرفة تاريخ الأنبيـاء لادراك تمسكهم بوحدانية الله : فقال : فاحرص ياعبد الله على معرفة هـذا الحبل الذى بين الله وبين عباده ، الذى من استمسك به سلم ومن ضيعه عطب ، فاحرص على معرفة ما جرى لأبيك آدم وعدوك ابليس ، وما جرى لنوح وقومه ، وصالح وقومه ، وابراهيم وقومه ، ولوط وقومه ، وموسى وقومه ، ومحمد ﷺ وقومه .

وأضاف الامام محمد بن عبد الوهاب قائلا : واعرف ياعبد الله ما قص العلماء عن الصحابة وأحوالهم وأعمالهم لعلك أن تعرف الاسلام والكفر ، فأن الاسلام اليوم غريب وأكثر الناس لا يميز بينه وبين الكفر ، وذلك هو الهلاك الذى لا يرجى معه فلاح[٤٠] .

---

(٣٨) محمد بن عبد الوهاب : ثلاثة عشر رسـالة فى مجلد الجامع الفريد ص ٢٦٠ .

(٣٩) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٢١٥ .

(٤٠) محمد بن عبد الوهاب : مختصر سيرة الرسول ص ٦ .

ثانيا — مبدأ محاربة البدع :

لا تستقيم دعوة التوحيد دون محاربة نواقضه ، ولذلك حارب الامام محمد بن عبد الوهاب البدع والضلالة التى تتمثل فيما يلى :

١ — حارب الاستعانة بالأولياء والصالحين ، فقال : من الشرك الاستعاذة أو الاستغاثة بغير الله أو الاستشفاع بما ســواه • وقد استشهد الامام محمد بن عبد الوهاب بالقرآن والسنة فى تأكيد دعوته هــذه فقال : فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى : وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً ، قال — أى ابن عباس — هــذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ولم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ونسى العلم عبدت • وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وانما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله[٤١] •

ويؤكد الامام محمد بن عبد الوهاب أن زيارة القبور — قبور الأنبياء والأولياء والصالحين — والتماس البركات من أصحابها ليس كما يدعى المضللون للتقدير والاحترام ، لأنه اذا جاز هــذا فى حق الأحياء فلا يجوز فى حق الأموات ، وأن الموتى قد انقطع ما بينهم وبين الحياة والأحياء ، وليس ثمة فرق بين من يرجو البركة عند قبر ولى وبين من يعبد وثنا ، كلاهما قد جعل بينه وبين الله شفيعا يرجى •

ويضيف الامام محمد بن عبد الوهاب توضيحا لأفكاره فى قوله : ما كان كفار قريش الذين حاربوا دعوة التوحيد الا على هذه الصورة ، كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق العظيم ، ولكن هناك آلهة دون الله

(٤١) محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد ص ٤٩ — ٥٠ •

يتصرفون وينفعون ويضرون ، ان هؤلاء الآلهة هى الطريق الى الله ، ولذلك ذكر كفار قريش : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى[٤٢] .

ولا يعنى ما ذكره الامام محمد بن عبد الوهاب من دعوة لمحاربة تقديس قبور وأضرحة الأنبيـــاء والأولياء والصالحين أن دعوته تنكر شفاعة النبى عليه الصلاة والسلام يوم القيامة ، بل ان هـــذه الدعوة تعترف أيضا بشفاعة سائر الأنبياء والملائكة والأولياء أيضا ، ولكن محبة الأنبياء والأولياء الصالحين ليست بالتوسل بهم ولكن فى متابعتهم فيما كانوا عليه من الهدى والدين[٤٣] .

وطلب الامام محمد بن عبد الوهاب من المسلم أن يطلب الشفاعة من المالك لها وهو الله ، واذنه فيها لمن شاء من الموحدين ، فيقول المسلم طالب الشفاعة : اللهم شفع نبينا محمدا فينا يوم القيامة ، اللهم شفع فينا عبادك الصالحين أو نحو ذلك . وأما ما يجرى على ألسنة الناس كقولهم : يارسول الله أو ياولى الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركنى أو أغثنى أو نحو ذلك ، فانه من الشرك ، اذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح [٤٤] .

وأكد الامام محمد بن عبد الوهاب أن الشفاعة كلها لله تعـــالى ، واستشهد بما جـــاء فى القرآن الكريم : قل لله الشفاعة جميعـــا ، كما أن الشفاعة لا تكون لأحد الا من بعد أن يأذن له الله سبحانه وتعالى الذى ذكر فى قرآنه الكريم : من ذا الذى يشفع عنده الا بأذنه . كما لا يشفع فى أحد الا بعد أن يأذن الله فيه كما قال سبحانه وتعالى : ولا يشفعون الا لمن ارتضى[٤٥] .

---

(٤٢) محمد بن عبد الوهاب : كتاب كشف الشبهات ص ٤٩ — ٥٠ .
(٤٣) حسين بن غنام : المرجع السابق مجلد أول ص ٢١٣ .
(٤٤) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٧ .
(٤٥) محمد بن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٢٣١ .

٢ ـــ حارب تقديس القبور وتجصيصها[٤٦] والكتابة عليها وتقديم القرابين لها ، واقامة الأضرحة والقباب ومساجد على هـذه القبور ، وكل ذلك من الأمور المبتدعة ، لأن النبى ﷺ نهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه ، وثبت فى صحيح مسلم انه عليه الصلاة والسلام بعث عليا بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره ألا يدع قبرا عاليا الا سواه ولا تمثالا الا هشمه • ومع ذلك لم ينه عليه الصلاة والسلام عن زيارة القبور بشرط أن تكون هـذه الزيارة للدعاء للميت واتعاظ الزائر ، على أن يراعى فيها الطريقة التى سنها النبى ﷺ فى الزيارة[٤٧] •

٣ ـــ حارب البدع والخرافات ، فقـد هال الامام محمـد بن عبد الوهاب أن يرى بعض المظاهر المبتدعة كخروج النساء خلف الجنائز الى القبور ، والاسراف فى الاحتفالات السنوية بموالد الأنبياء والأولياء وما يحدث فيها من الدراويش من رقص وتمايل وشطحات وأذكار ، وغير ذلك من الأعمال المحرمة أصلا والتى تستحق المحاربة حتى ولو كانت خارج نجد ، وعلى هـذا الأساس كانت غزوات الامام وأنصاره فى شـبه الجزيرة العربية والعراق[٤٨] •

ثالثا ـــ مبدأ فتح باب الاجتهاد :

يقوم هـذا المبدأ على قاعدة أن المجتمع الاسلامى يتطور وتظهر به مشكلات تواجه المسلمين ليس هناك فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأحكام الأئمة الأربعة نص صريح يعالج مثل هـذه المشكلات المستجدة • ولهذا يدعو الامام محمد بن عبد الوهاب الى الابداع فى التشريع واطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مقتدر عليه مستوف لشروطه •

---

(٤٦) التجصيص اى البناء بالجص •
(٤٧) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٧ •
(٤٨) نفس المرجع ص ٢٩٨ •

وكان المسلمون قد اصطلحوا على قفل باب الاجتهاد بعد الأئمة الأربعة : مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل ، فجاءت دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب بفتح باب الاجتهاد من جديد استنادا الى أن الله وحده هو الذى يحلل ويحرم ، والحجة الوحيدة فى التحليل والتحريم هى فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة منهما تستنبط الأحكام ، واعتبر الأئمة الأربعة هم وحدهم الذين تؤخذ أحكامهم دون المذاهب الدينية الأخرى كالمتصوفين والمعتزلة والشيعة وغيرهم[٤٩] .

وكان مذهب أحمد بن حنبل هو نبراس الامام محمد بن عبد الوهاب وهديه فى استنباط الأحكام واتباع ما أخذ به صاحب المذهب ، ولكن الامام محمـد أحيانا ما كان يخالف قدوته الامام أحمـد فى بعض المسائل التى يجمع عليها فقهاء المذاهب الثلاثة الآخرين ، كما كان له بعض مسائل اجتهادية مثل جعل دية المسلم ٨٠٠ ريال بدل ١٠٠ ناقة[٥٠] .

نشر الدعـوة

عاد الامام محمد بن عبد الوهاب من رحلته الى البصرة ونزل ببلدة حريملا فى نجد وأخذ يبث الدعوة بين أهل البلدة ، واستنكر ما وجده من بدع درج أهل البلدة عليها ، واشتدت حملته على البدع بعد موت والده الشيخ عبد الوهاب (١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م) ، مما دفع ببعض العبيد فى حريملا الى تدبير مؤامرة لقتله فاضطر الى ترك حريمـلا باحثا عن النصير الذى يشد أزره حتى ينشر دعوة التوحيد فى كل نجد ، وهو يعلم أن كل مبدأ اصلاحى لا ينتصر بقوته وصدقه فحسب بل لابد له أيضا من سلطان يحميه حتى يحقق أهدافه[٥١] .

(٤٩) د . أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ١٠ .

(٥٠) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٩٩ .

(٥١) د . حسن محمود : تاريخ المملكة العربية السعودية ص ٦١ .

ولقد وجد الامام محمد بن عبد الوهاب هـذا السلطان وهـذا النصير فى شخص عثمان بن معمر أمير بلدة العيينة مسقط رأس الامام . وهنا اعتمد الامام على الله وعلى مؤازرة الأمير عثمان فى نشر دعوة التوحيد ، وفى تجنيد الأنصار والاتباع لتأييد الدعوة وتنفيذ مبادئها .

وفى العيينة دعا الامام محمد بن عبد الوهاب وشارك فى هدم القباب بما فيها القباب التى على قبور الصحابة ، وقطع ذكراً للنخيل كانوا يتبركون به ، وكانت هناك شجرة كبيرة تعرف بشجرة الذيب لم يجرؤ أتباع الامام على قطعها لكثرة زوارها وقاصديها فخرج بنفسه وقطعها[٥٢] ، كما أقام الحد على امرأة من بلدة العيينة اعترفت بارتكابها الزنا ، بعد أن تحقق من سلامة عقلها وصحة فعلتها وأشرك معه حاكم العيينة عثمان بن عمر فى رجمها .

أثار تنفيذ مبادىء الدعوة على النحو الشرعى أثار المنتفعين من الفساد والبدع السائدة ، حتى اذا حدثت حادثة اقامة حد الرجم على المرأة الزانية وذيوعها ، قام أهل الأحساء بصفة خاصـة يصرخون ويحتجون لأنهم كانوا مستمتعين ببعض الأباحات الكاذبة التى خلفتها لهم دولة القرامطة[٥٣] .

ونتيجة لصرخات أهل الأحساء لأميرهم سليمان بن محمد رئيس بنى خالد ، الذى بادر فأنذر عثمان بن معمر أمير العيينة المشـمول بحماية سليمان بقوله : ان المطوع الذى عندك قد فعل ما فعل ، وقال ما قال ، فاذا وصلك كتابى فاقتله ، فان لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا [٥٤] . كما هدده بالمقاطعة الاقتصادية ومنع تجار العيينة من العمل

---

(٥٢) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٥٣) نفس المرجع : ص ٦٣ .

(٥٤) حسين بن غنام : المرجع السابق ص ٧٩ .

فى الأحساء وما جاورها من بلاد تخضع لسليمان بن محمد ، فما كان من عثمان بن معمر الا أن طلب من الامام محمد بن عبد الوهاب الرحيل عن العيينة اذ لا قبل لعثمان بمعاداة سليمان .

وجاء رحيل الامام محمد بن عبد الوهاب عن العينية الى مدينة الدرعية حيث آل سعود ، وذلك عام ١١٥٧ هـ / ١٧٤٣ م ، وكان الامام قد نجح فى استقطاب « ثنيان » و « مشارى » أخوى أمير الدرعية محمد بن سعود حتى أصبحا من أتباعه وتلاميذه . وبوصول الامام محمد بن عبـــد الوهاب الى الدرعية بدأت مرحلة جديدة وحاســمة لنشر الدعوة .

ويعد سعود بن محمد بن مقرن مؤسس الحكم السعودى باعتباره أول من سيطر على منطقة الدرعية ، وبعد وفاته عام ١١٣٧ هـ تعاون أبناؤه فيما بينهم على بسط نفوذهم فى هــذه المنطقة حتى وفد اليهم الامام محمد بن عبد الوهاب وتعاهد مع الأمير محمد بن سعود على المبادىء الدينية الاصلاحية(٥٥) . ومنذ هــذا التعاهد قامت الدولة السعودية التى مرت بأدوار فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، والتى اتخذت من دعوة التوحيد للامام محمد بن عبد الوهاب مذهبا تدين به وتعمل فى ظله وتسعى لنشره وتحارب من أجله .

تحالف الامام محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود على دين الله ورسوله ، والجهاد فى سبيل الله واقامة الشريعة الاسلامية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يظل الامام مقيما فى الدرعية لا يبارحها ولا يتحلل من هــذا التحالف ، وجاء تعهد الامام محمد بن

---

(٥٥) د . حسن سليمان محمود : المرجع السابق ص ٧٢ .

عبد الوهاب للأمير محمد بن سعود فى عبارته المأثورة : الدم بالدم ، والهدم بالهدم[٥٦] .

انطلق الحليفان لنشر الدعوة خارج الدرعية بأعداد الجيوش التى توجه لرد المهاجمين والمناهضين للدعوة وارسال الرسائل الى الحكام والأمراء للدخول فى الدعوة . وما قرب القرن الثانى عشر الهجرى من الانتهاء حتى أصبحت مدينة الدرعية عاصمة دينية وسياسية وحربية .

وخلال سنوات قليلة انتشرت دعوة التوحيد مع الحكم السعودى فى بلاد نجد مثل العارض والوشم وسدير وحائل والخرج والأفلاج والحريق ، ووصلت طلائعها الى الأحساء وعمان وبادية الحجاز وعسير واليمن ، وسمع بها أهل البلاد العربية الأخرى خارج شبه جزيرة العرب[٥٧] .

وجاء الصدام الأول بين الدعوة ومناهضيها متمثلا فى موقف « دهام بن دواس » حاكم الرياض الذى استمر يحارب الدعوة لمدة عشر سنوات حتى انتهى الأمر بدخول الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود مدينة الرياض وفرار دهام منها وكان ذلك عام ١١٨٧ هـ .

استمرت فتوحات الدولة السعودية الأولى الراعية والداعية لدعوة التوحيد بفتح القصيم وبريدة والأحساء ، ومحاولة فتح الحجاز دون نجاح . وعندما توفى الأمير محمد بن سعود عام ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م واصل ابنه الأمير عبد العزيز نشر الدعوة وضم البلاد حتى توفى قتيلا عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م على يد شيعى من أهل أفغانستان انتقاما

---

(٥٦) كناية عن الارتباط الوثيق بينهما كل منهما ولى دم الآخر يطلب به ويثأر ويهدم بيت أعدائه اذا هدموا بيته . . عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٦٦ .

(٥٧) د . حسن سليمان محمود : المرجع السابق ص ٦٥ .

لاقتحام القوات السعودية مدينة كربلاء عام ١٢١٦ هـ وهدم قبه قبر الحسين بن على ، وكان الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد توفى عام ١٢٠٦ هـ [٥٨] .

وبعد مقتل الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود تولى الامارة ورئاسة الدولة السعودية الأولى ابنه سعود بن عبد العزيز الذى امتد حكمه من عام ١٢١٨ — ١٢٢٩ هـ / ١٨٠٣ — ١٨١٤ م . وعرف باسم سعود الكبير ، وقد واصل سياسة سلفيه فى تثبيت دعائم الملك السعودى خاصـــة أن جميع بلدان وقرى نجد كانت دائمة التردد بين الولاء للدولة السعودية وبين الاستقلال عنها واثارة الاضطرابات ضدها[٥٩] .

وكان اتجاه آل سـعود لفتح الحجاز ونشر دعوة التوحيد بين الحجازين سببا فى اثارة شـعور الاستياء والمقاومة عند الحجازين ، وتدخل الدولة العثمانية بحجة الدفاع عن المقدسات الاسلامية ضد الفاتحين الذين وصفتهم الدعاية العثمانية المغرضة بأسماء : الروافض ، الخوارج .. الخ .

وعندما فتح دعاة التوحيد السعوديون مكة عام ١٢١٨ هـ/١٨٠٣ م أبقوا « الشريف غالبا »[٦٠] أميرا عليها بشرط اتباعه مبادىء الدعوة ، ولكن تنفيذ مبادىء الدعوة بمحاربة البدع المصاحبة للحجاج من مصر

---

(٥٨) د . رأفت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث ص ٢٣٢ .

(٥٩) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ص ٥٥ .

(٦٠) نظام الشرافة قائم منـذ القرن الرابع الهجرى ، حيث كان الاشراف يتمتعون باعتبار دينى ، ويتم اختيار الشريف من قبل كبار البيت النبوى الشريف ويطلب الى سلطان مصر الموافقة على هـذا الاختيار . وقد انتهى نظام الشرافة باستخلاص الملك عبد العزيز آل سـعود لاقليم الحجاز من الشريف حسين فى عام ١٩٢٥ م .

والشام والدولة العثمانية أثار الحجازيين لأنه حرمهم من دخل مالى كان هؤلاء الحجاج يقدمونه للحجازيين فى صورة صدقات أو ريع أوقاف أو كسوة للكعبة ، ومن ثم أخذ شريف مكة (الشريف غالب) يبعث بالوفود الى السلطان العثمانى فى استانبول والى محمد على فى مصر يشكو من سياسة السعوديين ويطلب التدخل لاجلائهم عن الحجاز .

وفى عام ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م بايع أهل المدينة المنورة الأمير سعود الكبير على الدخول فى طاعته وتطبيق مبادىء دعوة التوحيد فهدمت جميع القباب المقامة على القبور ، وفى العام التالى حج سعود الكبير فى موكب كبير أظهره كأمير وحيد لمكة بل ولمنطقة الحجاز بكاملها مما أثار حفيظة الحجازيين والشريف غالب بصفة خاصة ، الذين طالبوا بالعمل على استخلاص الأماكن المقدسة فى الحجاز من يد هؤلاء النجديين أصحاب دعوة التوحيد(٦١) .

وفى الحقيقة فان دعوة التوحيد لم تثر انتباه العثمانيين وهى فى مهدها الأول سواء فى حريملا أو فى العيينة بنجد ، ولكن تحالف الأمير محمد بن سعود مع الامام محمد بن عبد الوهاب ونشاط هذا التحالف خارج الدرعية وامتداده بصفة خاصة الى الحجاز ثم الى العراق قد أثار مخاوف العثمانيين من هذه الحركة العربية الاسلامية الفتية المنتصرة .

وقد أزعج الدولة العثمانية انتشار دعوة التوحيد وتوسع الدولة السعودية واعلان الأمير سعود الكبير انهاء السيادة العثمانية من الحجاز ، فى الوقت الذى يلقب سلاطين الدولة العثمانية بلقب خليفة المسلمين ، ويحرص هؤلاء السلاطين على المحافظة على لقب حامى حمى الحرمين الشريفين . كما أزعج الدولة العثمانية مهاجمة الدولة السعودية للولايات العثمانية فى العراق والشام وعجز ولاة العراق والشام عن ايقاف هذا الهجوم .

---

(٦١) عبد الكريم الخطيب : المرجع السابق ص ٦٩ .

وقد أدركت الدولة العثمانية أن دعوة التوحيد تؤذن بقيام دولة عربية كبرى تناوىء الخلافة العثمانية ومن ثم أخذت السلطة العثمانية تعمل على قبرها فى مكانها قبل أن تتسع آفاقها ، فوضعت الخطط وعبأت علماء الدين الذين شرعوا ألسنتهم وأقلامهم يؤلفون الكتب ويخطبون الخطب على المنابر يرمون أتباع الدعوة بالخروج على الاسلام وعلى سلطان الخليفة(٦٢) .

وكانت الدولة العثمانية حريصة فى نفس الوقت على استعادة سيادتها على الحجاز لاستعادة سمعتها فى العالم الاسلامى بتأمين الحج الى الحرمين الشريفين ، ومن ثم أصدر السلطان العثمانى أمرا الى محمد على والى مصر لكى يستعيد السـيادة العثمانية على الحجاز والقضاء على الدولة السعودية الخارجة على العثمانيين ، وحاول اغراءه باضافة الحجاز الى ولاية مصر .

واذا كان السـلطان العثمانى قـد كلف محمـد على فى عام ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م بمحاربة الدولة السعودية ، الا أن محمـد على أخذ يماطل فى تنفيذ أمر السلطان لمدة خمس سنوات متعللا بحجج كثيرة كانشغاله بمحاربة المماليك فى الصعيد ، ومناوأة سليمان باشا والى الشام لمحمد على وتأييده للمماليك ، وعدم توفر الاعتدة الحربية والسفن الكافية والجنود المعدين للقيام بهذه الحملة عبر البحر الأحمر الى الحجاز ، حتى كان عام ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م حيث بدأ محمد على فى تنفيذ أمر السلطان العثمانى بعد أن أعد عدته معتمدا على موارد مصر وبعد أن بنى السفن اللازمة لنقل قوات الحملة الى موانى الحجاز ، وبعد أن يئس من مساعدات الدولة العثمانية له لأداء هذه المهمة .

---

(٦٢) د . احمد عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٠ .

هرت الحرب بين جيوش محمــد على العثمانية[63] وبين قوات الدولة السعودية فى ثلاثة أدوار ، بدأ الدور الأول فى خريف عام ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م بنزول قوات محمد على بقيادة ابنه طوسون الى ينبع ميناء المدينة المنورة ، وبدأ الدور الثانى بوصول محمد على نفسه الى ميناء جدة فى شــهر رمضان ١٢٢٨ هـ / ٢٨ أغسطس ١٨١٣ م • وبدأ الدور الثالث من هــذه الحرب بتولية ابراهيم بن محمد على قيادة جيوش والده فى شبه الجزيرة العربية عام ١٨١٥ م •

وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، وانتهت بالاستيلاء على بلدة الدرعية عاصمة الدولة السعودية فى يد ابراهيم بن محمد على واعتقل الأمير عبد الله بن سعود الذى تولى الامارة عام ١٨١٤ م بعد وفاة والده وأرسل الى مصر بكل تجلة واحترام ، وبقى ابراهيم فى نجد مع قواته حتى صيف عام ١٢٣٤ هـ / ١٨١٩ م حيث سلم البلاد الى قوات الجيش العثمــانى التى وصلت الى شــبه الجزيرة العربية ، وعاد الى القاهرة ، مما أعاد البلاد الى حياة الاضطراب والفوضى ، وبذلك استطاعت الدولة العثمانية أن تخفت — الى حين — أول صوت عربى شديد بدأ محاولة اعادة السلطان الى العرب[64] •

ورغم سقوط الدولة السعودية ، فقد بقيت دعوة التوحيد حية فى نفوس المؤمنين بها ، ولذلك نجد الأمير تركى بن عبد الله آل سعود يسعى — وسط الخلافات حول الامارة بعد عبد الله بن سعود — لاحياء الدولة والدعوة ، حتى عده المؤرخون أنه منشىء الدولة الثانية لآل سعود فى عام ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م ، لأنه منذ هــذه السنة اعتبر

---

(٦٣) كانت جيوش محمــد على كلها تركية ليس بينها جندى مصرى واحد حيث انه من الثابت أن اول تشكيلات مصرية فى قوات محمــد على كانت عام ١٨٢٣ م •

(٦٤) د • احمد عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢١ .

الزعيم الساعى لاسترداد امارة آل سعود[٦٥] ، وظل رافعا علم الثورة ضد العثمانيين حتى اغتيل عام ١٢٥١ هـ / ١٨٣٣ م فأعلن ابنه فيصل نفسه اماماً وحاكما على نجد .

وازاء روح الأمير فيصل بن تركى النضالية وعمله على اعادة الدولة السعودية الى سابق عهدها من القوة والاتساع سارع العثمانيون بحث محمد على فى مصر للقضـــاء على دولة فيصل فى نجد ، وقد تمكن خورشيد قائد قوات محمد على من الايقاع بين الأمراء السعوديين أنفسهم حتى استولى على مدينة الرياض عام ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م . وبعد معارك دامية رأى فيصل أنه ليس له قدرة على مقاومة قوات محمد على ، فاستسلم لخورشيد الذى أرسله مع أخويه جلوى وولديه عبد الله ومحمد الى مصر[٦٦] .

ولقد بقى الأمير فيصل بن تركى بمصر من عام ١٨٣٨ الى عام ١٨٤٣ م حيث فر منهـــا بمساعدة عباس باشا الأول والى مصر . وفى هــذه الفترة عادت الفتن الى نجد رغم وجود أمراء من آل سعود رضى عنهم العثمانيون مثل خالد بن سعود شقيق الامام عبد الله ، ومثل عبد الله بن ثنيان آل سعود . وعندما وصل فيصل الى نجد عام ١٨٤٣ م تمكن من استعادة دولته التى شادها قبل انتقاله الى مصر ، وبقى الحجاز خارجا عن حدود دولته .

ولقد ساعد على نجاح فيصل فى استعادة امارته انسحاب قوات محمد على نتيجة لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ م واتجاه فيصل الى مسالمة

---

(٦٥) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٢٣ . وعبد الله والد تركى ليس هو عبد الله بن ســـعود الذى نقلة ابراهيم باشا الى مصر بعـــد سقوط الدرعية .

(٦٦) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٢٤ .

العثمانيين بالاعتراف لهم بالسيادة على نجد والأحساء وعمان وقطر وعسير ، ولم يشأ أن يسعى لغزو العراق والشام والحجاز واستمرت دولة فيصل ، التى عرفت بالدولة السعودية الثانية ، حتى وفاته عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٦ م .

وقع نزاع بعد وفاة فيصل بين ولديه عبد الله وسعود كانت نتيجته أن تمكن محمد بن الرشيد أمير حائل بجبل شمر ، من أن يبسط سيطرته على الرياض عاصمة آل سعود ، ولكن عبد الرحمن بن فيصل لم يرض لنفسه أن يعيش تحت رحمة محمد بن الرشيد بالرياض فثار ضده ولكن قوة ابن الرشيد أجبرته على ترك نجد هو وأسرته الى الأحساء فالقطيف فالكويت حيث استقر بها ونزل ضيفا على أميرها من آل الصباح عام ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م (٦٧) .

ظل الأمير عبد الرحمن بن فيصل يعيش فى الكويت حتى خرج ابنه عبد العزيز عام ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م من الكويت ومعه أربعون رجلا من آل سعود وأنصارهم لمنازلة آل الرشيد فى نجد وحلفائهم العثمانيين وبالفعل استطاع عبد العزيز بالجرأة والمفاجأة أن يستولى على الرياض ، وبعدها أخذ يعمل على هدم مملكة ابن الرشيد واسترداد ملك آبائه وأجداده . وانتهز خروج الدولة العثمانية من حرب البلقان منهوكة القوى فانقض على اقليم الأحساء واستخلصه من النفوذ التركى ، وبذلك نفذ الى الخليج (٦٨) .

وقد استمر العداء قائما بين آل سعود والعثمانيين حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وقد دخل عبد العزيز فى حروب متصلة مع آل الرشيد وحلفائهم الأتراك العثمانيين ، ومع حكام عسير ثم مع

---

(٦٧) د . حسين سليمان محمود : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٦٨) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٢٣٨ .

الشريف حسين فى الحجاز حتى اتسعت الامارة السعودية لتصبح سلطنة نجد ومملكة الحجاز ، الى أن أصبح اسمها الرسمى عام ١٩٣٢ م « المملكة العربية السعودية » .

ولم يكن الأتراك العثمانيون هم وحدهم الذين ناصبوا دعـوة التوحيد وآل سعود العداء ، بل كانت هناك قوى أخرى تنظر الى نشر مبادىء الدعوة على يد آل سعود والى توسع الدولة السعودية بعدم ارتياح ان لم يكن بعداء ، من هـذه القوى أهل فارس الشيعة الذين اخذوا يناصرون أعداء آل سعود السنيين .

كما كان لانجلترا موقف عدائى من الدولة السعودية ، خاصـة بعد أن انتشرت مبادىء دعوة التوحيد الى ساحل الخليج العربى وبعد أن شمل نفوذ الدولة السعودية معظم قبائل الخليج ، وكان تحالف قبيلة القواسم[٦٩] مع السعوديين عام ١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م بداية لتوتر فى العلاقات بين الدولة السعودية الأولى وانجلترا خاصـة بعدما أعلن الشيخ سلطان بن صقر القاسمى اعتناقه لمبادىء دعوة التوحيد وبعد أن استند الى قوة آل سعود فى القيام بعمليات جهاد بحرى اسلامى[٧٠] ضد السفن الانجليزية فى الخليج العربى انطلاقا من رأس الخيمة .

وعندما سقطت الدرعية عام ١٨١٨ م فى يد قوات ابراهيم بن محمد على سقطت رأس الخيمة معقل قبيلة القواسم فى يد الانجليز

---

(٦٩) القواسم قبيلة عربية استقرت فى ساحل عمان منذ النصف الأول للقرن الثامن عشر وامتد نفوذها فشمل المنطقة الممتدة من شبه جزيرة قطر الى « خور فكان » على الخليج .

(٧٠) درج المؤرخون الأجانب وشايعهم بعض المؤرخين العرب على تسمية العمليات البحرية التى قامت بها سفن عربية اسلامية ضد السفن غير الاسـلامية المعادية بالقرصنة ، والحقيقة أنها عمليات جهاد بحرى اسلامى .. انظر كتابنا العرب دراسات فى التاريخ ..

عام ١٨١٩ م ثم فرضت على شيوخ الخليج معاهدات الهدنة [٧١] التى تحولت الى ما عرف بالمعاهدات المانعة[٧٢] ثم معاهدات الحماية[٧٣] .

وعندما أعاد عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود بناء الدولة السعودية الثالثة أوائل القرن العشرين ودخل فى صراع مع العثمانيين لجأ السلطان عبد العزيز سلطان نجد الى مهادنة الانجليز فعقد معهم عام ١٩١٥ م معاهدة العقير ، والتى كانت أول معاهدة دولية أكد فيها عبد العزيز مركزه الدولى[٧٤] ، وان تشابهت مع المعاهدات المانعة التى عقدتها انجلترا مع شيوخ الخليج ، حتى استطاع عبد العزيز سلطان نجد وملك الحجاز عام ١٩٢٧ م أن يعقد معاهدة جديدة مع انجلترا عرفت بمعاهدة جدة نصت على اعتراف الانجليز باستقلال سلطنة نجد وتوابعها والحجاز ..

---

(٧١) معاهدات الهدنة التى فرضتها انجلترا أولا على شيوخ الخليج تقضى بايقاف عمليات الجهاد البحرى الاسلامى ضد السفن غير الاسلامية والعمليات البحرية العدائية التى تحدث بين سفن القبائل العربية المتصارعة .

(٧٢) عرفت بالمعاهدات المانعة لأنها تمنع شيوخ الخليج من :

١ ـ القيام بعمليات جهاد بحرى .

٢ ـ الاتجار فى الرقيق .

٣ ـ توريد السلاح للمنطقة

٤ ـ التنازل عن قطعة من الأرض الا لانجلترا أو بموافقتها .

(٧٣) معاهدات الحماية هى التى فرضتها انجلترا على شيوخ الخليج وظلت سارية المفعول حتى اعلن استقلال امارات الخليج ابتداء من النصف الثانى للقرن العشرين .

(٧٤) أحمد عسه : المرجع السابق ص ٦٧ .

تقييـــم الدعــوة

فى واقع الأمر ان دعوة التوحيد التى انطلقت فى نجد على يد الامام الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب واحتضنها آل سعود ونشروها ليست بدعة جديدة لأنها رجوع بالاسلام الى أصوله على عهد الرسول الكريم والصحابة ، ولكن الجديد فيها هو ظهورها فى زمن بدا فيه كل شىء مخالف لمــا درج عليه الناس منذ سنوات ، وأصبح من عاداتهم يعتبر مدعاة للاستنكار ، واذا كانت الدعوة قد لقيت معارضة فان ذلك سنة كل جديد على الناس فى كل زمان وفى كل مكان .

ونحن نعتقد أن دعوة التوحيد هــذه دعوة صحيحة تمــاما ، ويمكن اعتبارها مظهرا لليقظة العربية الاسلامية بكل معنى الكلمة ، ولنا فى كتب الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب السند والدليل ، وأهم هــذه الكتب هى :

١ ــ كتاب التوحيد أو التوحيد الذى هو حق الله على العبيد .

٢ ــ كتاب كشف الشبهات .

٣ ــ كتاب الكبائر والمسائل التى خالف فيها رســول الله ﷺ أهل الجاهليــة .

٤ ــ كتاب آداب المشى الى الصلاة .

٥ ــ كتاب الهدى النبوى .

هــذا الى جانب كتب فى تفسير القرآن الكــريم وفى السيرة النبوية ، وفى الأحاديث النبوية الشريفة ، بالاضافة الى الرســائل والكتب المطولة والمختصرة التى كان يبعث بها الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه الى أمراء البلاد وشيوخ القبائل .

فمن ذلك ما قاله عبد الله بن الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م حين دخل مكة مع الأمير سعود بن عبد العزيز : مذهبنا فى الاصول مذهب أهل السنة والجماعة ، وطريقتنا طريقة السلف التى هى الطريق الأسلم والأعلم والأحكم ، وهى أننا نقر آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها ونكل علمها الى الله مع اعتقاد حقائقها ، فان الامام « مالك بن أنس » وهو من أجل علماء السلف لما سئل عن الاستواء فى قول الله سبحانه وتعالى : الرحمن على العرش استوى ... قال الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة[٧٥] .

كما أن لنا فى أقوال المؤرخ المصرى المعاصر للأحداث عبد الرحمن الجبرتى السند والدليل على ان دعوة التوحيد صحيحة ومظهر لليقظة العربية الاسلامية ، فقد سجل فى أحداث يوم ٢٩ صفر ١٢١٨ هـ / ٢٠ يونية ١٨٠٣ م : حضر صحبة الحجاج العائدين كثير من أهل مكة هروبا من الوهابى [٧٦] ، ولفظ الناس فى خبر الوهابى واختلفوا فيه ، فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا — وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم — ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه .

وأضاف الجبرتى أن الوهابى أرسل الى شيخ الركب المغربى[٧٧] كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته ، وأورد الجبرتى صورة لهذا الكتاب جاء فيه : من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له .. وقال : قال الله تعالى : قل هـذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين .

---

(٧٥) السيد رشيد رضا : الوهابيون والحجاز ص ١١ .

(٧٦) يقصد الأمير سعود الكبير الذى فتح مكة .

(٧٧) يقصد أمير الحج اى رئيس بعثة الحج الرسمية القادمة من المغرب .

وجاء فى رسالة الأمير سعود التى أوردها الجبرتى أيضا : اذا عرف هــذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التى أعظمها الاشراك بالله والتوجه الى الموتى • وسؤالهم النصر على الأعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التى لا يقدر عليها الا رب الأرض والسموات ، وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التى لا تصلح الا لله وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الأغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصا •

وأضاف الأمير سعود فى رسالته التى أوردها الجبرتى قائلا : فهذا الذى أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر الى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم ، وهو الذى ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رســول الله ﷺ واجماع السلف الصالح من الأمة(٧٨) •

ويبدو من تسجيل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى لأحداث دعوة التوحيد أنها تلقى منه القبول والتأييد ، وقد سجل أيضا فى أحداث يوم ٢ صفر ١٢٢٢ هـ / ١١ أبريل ١٨٠٧ م ما يلى : وصل حجــاج المغاربة الى مصر من طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم ، وأن مسعود الوهابى — يقصد الأمير سعود بن عبد العزيز أو سعود الكبير — وصل الى مكة بجيش كثيف ، وحج مع الناس بالأمن وعــدم الضرر ورخاء الأسعار ، وأحضر مصطفى جاويش أمير الركب المصرى وقال له : ما هذه العويدات (٧٩) والطبول التى معكم ، فقال : هو اشارة

(٧٨) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم واخبار .

(٧٩) العويدات يعنى المحمل المشتمل على الكسوة وصدقات فقراء مكة والمدينة وريع الأوقاف الموقوفة لعمارة الحرمين الشريفين .

وعلامة على اجتماع الناس بحسب عاداتهم ، فقال : لا تأت لذلك بعد هذا العام : وان اتيت به أحرقته ، وأنه هدم القباب وقبة آدم وقباب ينبع والمدينة المنورة ، وأبطل شرب التنباك والنار جيلة من الأسواق ، وبين الصفا والمروة وكذلك البدع (٨٠) •

بل ان الجبرتى يسجل رأيه بصورة أكثر دقة وصراحة فى تسجيله لأحداث يوم ٢٢ ذى الحجة ١٢٢٣ هـ الموافق ٨ فبراير ١٨٠٩ م حين يقول : انقطع الحج الشامى والمصرى معتلين بمنع الوهابى الناس عن الحج ، والحال ليس كذلك فانه لم يمنع أحدا يأتى الى الحج على الطريقة المشروعة ، وانما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة ، وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا فى هذا العام وما قبله ولم يتعرض لهم أحد بشىء •

ويضيف الجبرتى أن أهل الحجاز قد شوهوا دعوة محمد ابن عبد الوهاب فادعوا بأن : الوهابى استولى على ما كان بالحجرة النبوية الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها ، فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام ، وهذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، اما حرصا على الدنيا أو كراهة أن يأخذها من يأتى بعدهم أو لنوائب الزمان ، فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء •

ويستمر الجبرتى فى وصف هذه الأحداث فيذكر ما نصه : فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة ، وهى فى الزيادة ، ارتصدت معنى لا حقيقة : وارتسمت فى الأذهان حرمة تناولها

(٨٠) عبد الرحمن الجبرتى : المرجع السابق •

وأنها صارت مالا للنبى ﷺ فلا يجوز لأحد أخذها ولا انفاقها ، والنبى عليه الصلاة والسلام منزه عن ذلك ولم يدخر شيئا من عرض الدنيا فى حياته •

وناقش الجبرتى الادعاءات بتفكير الوهابين لأخذهم هذه الذخائر والجواهر واتهامهم بكراهية النبى وعدم محبته وقال : ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسنته لا بمخالفة أوامره وكنز المال بجمرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين وباقى الأصناف الثمانية (٨١) • وكنز المال بحجرة الرسول لا ينتفع به أحد الا ما يختلسه العبيد والخصيون الذين يقال لهم أغاوات الحرم ، والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم والمحتاجون وأبناء السبيل يموتون جوعا • وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعون منها الى أن حضر « الوهابى » واستولى على المدينة وأخذ تلك الذخائر (٨٢) •

ويذكر العالم المصرى الدكتور أحمد أمين : ان محمد بن عبد الوهاب لم ينظر الى المدينة الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه فى اصلاحه الى الحياة المادية ، وانما اتجه الى العقيدة وحدها ، فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب ان صلحا صلح كل شىء وان فسدا فسد كل شىء •

ويصور الدكتور طه حسين دعوة محمد بن عبد الوهاب بقوله : ان مبدأ الحركة جديد وقديم معا ، انه جديد بالنسبة الى المعاصرين ، ولكنه قديم فى حقيقة الأمر لأنه ليس الا الدعوة القوية الى الاسلام الخالص النقى المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هو الدعوة الى

---

(٨١) هم الأصناف الذين ورد ذكرهم فى الآية الكريمة : انما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل .

(٨٢) عبد الرحمن الجبرتى : المرجع السابق .

الاسلام كما جاء به النبى خالصا لله وحده ملغيا كل واسطة بين الله وبين الناس ، هو احياء للاسلام العربى وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب (٨٣) •

ومع اعتقادنا الراسخ بسلامة دعوة التوحيد فاننا لا يمكن أن ننكر وجود مغالين فى تنفيذ مبادىء الدعوة ، حتى ان هذا الغلو استمر الى مطلع القرن العشرين ، وتمثل فى رفض مظاهر الحياة الحضارية الجديدة بآلاتها ومعداتها : وقد بذل الملك عبد العزيز جهودا كبيرة لأقناع أولئك المغالين بالاعتدال ومع ذلك فيمكن القول بأنه وان وقعت بعض تجاوزات من بعض جفاة الأعراب والجهال ، فليس من الانصاف أن ينسب كل ذلك الى أتباع الدعوة كلهم وهم أهل نجد (٨٤) •

ومن الأنصاف القول بأن دعوة التوحيد قد أحدثت يقظة عربية اسلامية فى المنطقة العربية ، حيث نبهت أذهان العرب الى ضرورة ايقاظ وعى العرب واعادة أمجادهم ونقض السيطرة التركية ، واظهار الفكرة العربية التى كانت مغمورة تحت السيطرة التركية على أقطار الوطن الربى •

* * *

---

(٨٣) د • احمد امين : زعماء الاصلاح • ، ص ١٨ •.

(٨٤) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٤٠ •.

الفصل الرابع

الدعـوة السنوسـية

- مقـــدمة
- ظروف برقــة ٠
- محمد بن على السنوسى ٠
- أسس الدعوة السنوسية ٠
- نشر الدعــوة ٠
- تقييم الدعوة السنوســية ٠

مقـــدمة

هذا نموذج آخر أو مظهر ثان لليقظة الاسلامية فى تاريخ العرب الحديث وأعنى الدعوة التى انطلقت من برقة على يد صاحبها محمـد ابن على السنوسى ، وهى الدعوة التى نسبت اليه والتصق بها اسـمه فصارت تعرف باسم الدعوة السنوسية •

ولقد تشابهت مبادىء الدعوة السنوسية مع مبادىء الدعوة الوهابية فى الناحية الدينية حيث دعت الى الوحدانية وعدم الأشراك وترك البدع وفتح باب الاجتهاد ، وان خالفت فى الأشادة بالتصوف الحقيقى حتى عرفها البعض بأنها طريقة صوفية •

لقد استخدم محمد بن على السنوسى أداة هى الزاوية السنوسية فى نشر مبادىء دعوته الدينية والاجتماعية والسياسية بين القبـائل العربية ، وقامت الزوايا التى انتشرت بين القبائل بدورها كاملا فى جميع المجالات الاقتصادية والعسكرية والسياسية والاجتماعية والتعليمية والدينيـة •

وحيث تولى الأمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب الجانب الدينى لدعوة التوحيد بينما تولى آل سعود الجوانب السياسية والعسكرية ، فان محمد بن على السنوسى جمع فى يديه الناحيتين الدينية والسياسية حيث كان القائد السياسى الى جانب كونه الزعيم الدينى •

ولقد نجحت الدعوة السنوسية فى اقامة دولة عربية اسلامية فى ليبيا بعد كفاح طويل ضد الاستعمار الفرنسى جنوب الصحراء وضـد الاستعمار الأيطالى على الأرض الليبية ذاتها •

ظروف برقة

أولا — الظروف الطبيعية :

ولد محمد بن على السنوسى فى الجزائر ، ثم أكمل تعليمه فى المغرب ، وسافر الى مصر مارا بليبيا فالحجاز ، ثم عاد ثانية الى مصر فليبيا قبل أن يستقر به المقام فى برقة ، ومعنى هذا أنه لم يكن برقاويا: كما أن دعوته لم تبدأ ببرقة ، ولكنه منذ اتخذ هذا الاقليم مقرا له ومستقرا انتسب اليه وباشر دعوته تحت اشرافه المباشر بين أهل الاقليم ، ومن هنا تجىء دراستنا لبرقة كمجال كبير وواسع للدعوة السنوسية .

وبرقة أحد أقاليم ليبيا الثلاثة (برقة ، طرابلس ، فزان) بل أكبر هذه الأقاليم من حيث المساحة (٧٠٠ ألف كم٢) وان لم يكن أكثرها سكانا ، ويمتد هذا الاقليم من عقبة السلوم شرقا وحدود طرابلس غربا، وكان يعرف عند الرومان باقليم « سيرينة » التى سماها العرب «قيرين» أو « قرناه » ثم أصبح يعرف منذ الفتح العربى باقليم برقة (١) » .

وسطح الاقليم متنوع بين سهل ساحلى يضيق فى الجزء الأوسط بحيث يتكون من جيوب ساحلية تنحشر بين رءوس صخرية تصل الى الساحل ، ولكن فى جناحى برقة : فى البطنان (مرمريقة) شرقا ، وفى برقة البيضاء والحمراء غربا ، يتسع هذا السهل الساحلى بحيث يمتد عشرات الأميال الى أن يلتقى بالصحراء (٢) ، والى جانب هذا السهل الساحلى يوجد الجبل الأخضر الذى يرتفع عن مستوى سطح البحر بحوالى ألف متر وتكسوه الخضر الدائمة ، ويرتفع من الساحل ارتفاعا

---

(١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٨٢ .

(٢) د . نقولا زيادة . ليبيا ص ١ .

مباشرا ولكنه ينحدر تدريجيا نحو الصحراء فى الجنوب ، وبـه من الأراضى الصالحة للزراعة المساحات الكبيرة التى ترويها ميـاه الأمطار الغزيرة •

والى الجنوب من الجبل الأخضر توجد الصحراء الواسـعة التى تكون معظم مساحة الأقليم وهذه الصحراء مستوية وان وجد بها بعض الكثبان والهضاب فهى مستوية أيضا ، وفى صحراء برقة توجد أودية عميقة بعضها يمتلىء بالمـاء فترة ما وبعضها يكون جافا طول السنة (٣)• كما توجد بعض الآبار والينابيع المتناثرة وسط الصحراء تحيط بهـا واحات فقيرة مثل الجغبوب والكفرة ، وجالو ، وأوجلة (٤) •

ثانيا — الظروف الاجتماعية :

وسكان برقة يعيشون فى تنظيم قبلى اتضحت صورته منذ الفتح العربى الاسلامى ثم عندما زحفت قبائل بنى هلال وبنى سليم من مصر الى المغرب منذ القرن الخامس الهجرى — الحادى عشر الميلادى — فوجدنا هذه القبائل تنقسم الى قسمين رئيسيين : القبائل السعدية ، وقبائل المرابطين ، ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بنى سليم ، وأن المرابطين هم بقية القبائل العربية اليمنية التى جاءت مع الفتـح العربى الاسلامى والتى اختلطت بالبربر وعربتهم ، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف فى النسب (٥) الى بيت الرسول ﷺ • ومن أهم القبائل السعدية العبيدات وعائلة فايد والحسا والبراعصة والدرسة والعبيد وعرفة والعواقير والمغاربة ، وأهم قبائل المرابطين : المنفـة والقطعان والحوطة والفواخر والزوية •

---

(٣) د • فيليب رفلة : الجغرافيا السياسية لأفريقيا ص ٣٣٨ .

(٤) د • عزة النص .. احوال السكان فى العالم العربى ص ٧٦ .

(٥) نقولا زيادة . نفس المرجع ص ١٢ .

وقبائل برقة تعيش نفس التنظيم القبلى العربى من حيث انقسامها الى عشائر وبطون وأفخاذ ، وللقبيلة أرض تملكها وتتنقل فى أرجائها ، وأفراد كل قبيلة متضامنون فى أداء ما عليهم من واجبات وفى الحصول على ما لهم من حقوق ، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرياسة العـامة على أفرادها • ومنذ أيام الفتح العربى الاسلامى حتى العصر الحديث كان الحكم فى برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار فى تقسيم البـلاد الى وحدات ادارية ، بحيث تكون القبيلة أساسا لتطبيق النظام ومسـاعدة الحكام (٦) •

ولسنا بحاجة الى الحديث بتفصيل عن معيشة القبائل العربيـة فى برقة ، حيث أن القبائل البدوية فى الصحراء العربية سـواء فى المشرق — حيث رأينا فى نجد — وفى المغرب — حيث نجد فى برقة — يعيشون حياة غير مستقرة • فيما عدا الواحات ، وكثيرا ما تتقاتل القبائل من أجل المراعى أو مياه الآبار •

وقد توفرت فى برقة ظروف اجتماعية هيأت للسيد محمد بن على السنوسى أن يدعو لأفكاره بين أهل الاقليم الذى تميز بانقسام سكانه الى قبائل متنافرة تأثر أفرادها بالبيئة الصحراوية فاتصفوا بالقـوة والخشونة والمحافظة على العادات والتقاليد العربية ، هذا الى جانب أن الاقليم كان عدد سكانه قليل بالنسبة لمساحته الشاسعة ، كما كان هذا المجتمع البرقاوى أكثر تجانسا فى تكوينه الجنسى وخلوا من الأقليات التى تفت دائما فى عضد الحركات الاصلاحية (٧) •

ثالثا — الظروف السياسية :

ومنذ أن أصبحت ليبيا (طرابلس الغرب) ولاية عثمانية عـام ١٥٥١ م سيطر الحكم العثمانى على السواحل دون الدواخل ، وعلى هذا

(٦) مصطفى بعيو • دراسات فى التاريخ اللوبى ص ٣٢ •
(٧) د • محمد فؤاد شكرى • السنوسية دين ودولة ص ٢٦ •

أهملت برقة فلم تلق من عناية الدولة العثمانية أو اشرافها المباشر مايستحق من اهتمام ، حتى اذا حكمت الولاية الأسرة القرمانلية حاول أمراؤها السيطرة على كل الولاية بما فيها برقة ، ثم عاد الحكم العثمانى المباشر ليجعل من برقة ولاية قائمة بذاتها عام ١٨٣٨ م .

وقد حاول الحكم العثمانيون جمع السلطة فى أيديهم ولكن أهل برقة لم يخضعوا للحكم الجديد ومن ثم حدثت ثورات فصدامات بين أهل البلاد والأتراك العثمانيين ، حتى بات هؤلاء يتوقون الى ازالة هذا الشر المستطير ووضع حد للصدام وذلك باستمالة زعماء العرب وأصحاب النفوذ فى البلاد ، فكانت هذه الرغبة من جانبهم السبب الأكبر والمباشر الذى دعا العثمانيين الى الاعتراف بالسنوسية ليس فقط كدعوة وطريقة بل بل كامارة وسياسة (٨) .

رابعا — الظروف الدينية :

وكانت أحوال أهل برقة الدينية تستدعى وجود داعية لاصـــلاح ما شاب عقيدتهم الدينية من شوائب ، ذلك أنه بحكم مرور السنين واهمال المصلحين الدينيين لوظيفتهم قد جعل البرقاويين يحيدون عن أصـــول الاسلام الصحيح ، وغير متفهمين للعقيدة وانما مقلدين ، ومن ثم أصبحوا سائرين فى غيابات الضـــلال معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينية والخليفة ، اذ أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو فى الجبل الأخضر ضربا من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام ، وقد أراد مؤسسو هذه الكعبة الزائفة أن يدخلوا فى أذهان البدو أن زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام (٩) الى غير ذلك من أعمال تنافى الدين كوأد البنات وعدم صوم رمضان بابتداع بدعة تقوم على الذهاب

---

(٠) د . محمد فؤاد شكرى . المرجع السابق ص ٢٦ .

(٩) أحمد حسين : فى صحراء ليبيا ص ٤٨ .

قبل حلول شهر رمضان بأيام الى وادى « زازا » المعروف بقوة رجع الصدى وسؤاله أيصومون رمضان أم لا ؟ فيجيب الصدى بالكلمة الأخيرة « لا » فيصبحون فى حل من الصوم ويفطرون .

محمد بن على السنوسى

هو محمد بن على السنوسى بن العربى بن حمو بن عبد القـادر ابن محمد بن يوسف بن عبد الله بن خطاب ، الذى ينتهى نسبه الى ادريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ (١) . وهذا النسب يختصره السنوسيون ليصبح : محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الادريسى (١١) . وقد ولد فى ناحية الواسطة من بلدة مستغانم بالجزائر فى ١٢ ربيع الأول عام ١٢٠٢ هـ الموافق ٢٢ ديسمبر ١٧٨٧ م كما تؤكد أكثر المصادر التاريخية دقة .

وكان البيت الذى نشأ فيه صاحب الدعوة بيت علم ودين ، فوالده وجده وأعمامه وأبناء أعمامه وكثير من نساء هذا البيت الكريم مثل جدة السيد (صاحب الدعوة) لأبيه السيدة الزهراء وعمته السيدة فاطمة ، كانوا جميعا علماء (١٢) . ومن ثم لا عجب أن نجد صاحب الدعوة منذ طفولته يترعرع فى جو علمى فى مسقط رأسه ، ثم يستزيد من العـلم بالانتقال الى جامع القرويين فى فاس الذى كان مركزا من مراكز العلم والعلماء فى ذلك الوقت ، فأقام به سبع سنوات (١٨٢٢ — ١٨٢٩)

---

(١٠) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٢٠ .

(١١) محمد بن على السنوسى : الدرر السنية فى اخبـار السـلالة الادريسـية .

(١٢) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١١ .

طالبا للعلم ثم مدرسا ، وقد اهتم بالصوفية اهتماما أساسه اعتقاده بأن سبيل الاصلاح الأول هو ايجاد التفاهم بين جميع المهتمين بالاسلام أفرادا وجماعات على تباعد الأقطار والديار ، فدرس القادرية والشاذلية والفاصرية والحبيبية (١٣) .

ومن فاس انتقل صاحب الدعوة الى الجزائر حيث خالط أهل القوافل من السودان الغربى وعاش بينهم جنوبى الجزائر معلما وموجها ، ثم واصل تنقلاته الى تونس فطرابلس فبنى غازى فالقاهرة التى لم تطل اقامته بها أكثر من عدة أسابيع بارحها مغاضبا بسبب عـدم الترحيب بأفكاره من قبل مشايخ وعلماء الأزهر الذين يسيطر عليهم وقتذاك والى مصر محمد على بعد أن مهدوا لولايته على مصر ، ولم يكن والى مصر ليرحب « بالسنوسى » ، ولعل موقف علماء الأزهر منه موقف موعز به(١٤)

ونتيجة لذلك سافر صاحب الدعوة الى الحجاز حيث بقى هناك حوالى ثمانى سنوات يدرس الفقه الاسلامى على يد علماء مكة والمدينة المنورة ، ويدرس أحوال المسلمين الذين يفدون كل سنة للحج من مختلف الشعوب والأقطار ، ويقوم بنشر العلوم والمناظرة فيها ودراسة المذاهب الاسلامية ، كل ذلك فى الوقت الذى كان هناك عداء بين أشراف مكـة والعثمانيين من ناحية وبين الوهابيين فى نجد من ناحية أخرى ، مما جعل موقفه حرجا فى دعوته الاصلاحية فترك الحجاز عام ١٨٤٠ م عائدا الى الجزائر عن طريق مصر (واحة سيوة) فبرقة وطرابلس ، ولكنه خشى الفرنسيين الذين احتلوا الجزائر منذ عام ١٨٣٠ م فعاد الى برقة حيث نزل بالجبل الأخضر ليتخذ منه مقرا لدعوته .

ومما تجدر ملاحظته أنه توفرت عوامل شكلت شخصية السيد محمد ابن على السنوسى ، أولى هذه العوامل نشأته الدينية فى وسط أسرة

---

(١٣) د . نقولا زيادة : المرجع السابع ص ٦٤ .

(١٤) مصطفى بعيو : نفس المرجع ص ٢٤ .

زاخرة بالعلماء فى الدين ، وثانى هذه العوامل رحلاته المتعددة التى تنقل فيها بين مغرب الوطن العربى الى مشرقه التقى خلالها بأهل البلاد ودرس أحوالهم الاجتماعية والدينية ووقف على أسباب ضعف الاسـلام فى نفوس العرب المسلمين ، وضعف البلاد العربية نتيجة لشـدة حرص العثمانيين على حكم العالم العربى واضطهاد العرب ومحو شخصيتهم ، والاستخفاف بالحقوق الاسلامية والاحتقار للجنسية العربية وقد جعلته رحـلاته يدرك أن الدولة العثمانيـة العظيمـة فى طريق الانحطاط والاضمحلال [15] •

وكان من هذه العوامل كذلك أولئك العلماء الذين احتك بهـم فى رحلاته وتأثر بعلمهم أو نفر منهم ونفروا منه ، فعندما كان بفاس بالمغرب التقى بعدة علماء على رأسهم الشيخ العربى بن أحمد الدرقاوى أحد مشايخ الطريقة الشاذلية ، ورغم ما لقيه من العلماء ومن طلاب العلم من تكريم فان سلطنة مراكش شددت فى مراقبته حتى لا تنقلب أفكاره الدنيية الى أفكار سياسية تعصف بالسلطنة •

وعندما وصل صاحب الدعوة الى مصر اجتمع مع علماء من الأزهر كان من بينهم الشيخ حسن العطار والشيخ الأمير والشيخ الصاوى وغيرهم الذين رأوا فى آراء صاحب الدعوة خروجا عن المألوف وجرأة لم يعهدوها ، فانتهزوا فرصة تصديه لالقاء الدروس بالجـامع الأزهر وانتقاده لحكومة الباشا فى القاهرة (محمد على) وللحكومة العثمانية وطلبوا من طلاب العلم والمستمعين لآرائه الابتعاد عن حلقاته لأنه يبتدع فى الدين ، ويتطرف فى آرائه •

وعندما زار مكة التقى بعدد من العلماء المسلمين على رأسهم الامام أبى العباس أحمد بن ادريس الفاسى مؤسس الطريقة الادريسية الذى ظل صاحب الدعوة ملازما له بمكة حتى توفى ابن ادريس الفاسى فى

---

(١٥) د. محمد فؤاد شكرى : نفس المرجع ص ١٧ •

عام ١٠٣٥ م ودرس على يديه أصول الطريقة الشاذلية • ودرس التيجانية على يدى أبى العباس التيجانى والطريقة القادرية (١٦) على يد الامام العرائشى ، ولكنه وجد تعنتا من أشراف مكة ومن العثمانيين فى الحجاز ، كما وجد أستاذه ابن ادريس الفاسى من قبل • وقد كان من زملاء صاحب الدعوة فى التتلمذ على يدى بن ادريس الفاسى بمكة السيد صالح الميرغنى السودانى الأصل ، فلما توفى الأستاذ تحمل التلميذان أمانة الاستمرار فى الرسالة فوجدت الطريقتان المعروفتان : الطريقة الميرغنية بالسودان ، والطريقة السنوسية فى برقة •

وكان من العوامل المؤثرة فى تكوين شخصية صاحب الدعوة كذلك ظهور الأطماع الفرنسية فى بلاده الجزائر ، تلك الأطماع التى تحققت نتيجة ضعف الدولة العثمانية وعدم اتخاذها وسائل حماية الأقطار العربية والاسلامية من خطر المد الاستعمارى ، ومن ثم رأى عدم الاصطدام بالسلطات الفرنسية فى الجزائر حتى لا يعطيها الفرصة للقضاء على حركته الاصلاحية فى مهدها ، ولكن أسس دعوته أظهرت تأثره بالعدوان الفرنسى على الجزائر ••

أسس الدعوة السنوسية

يمكن أن تحدد أسس الدعوة السنوسية فى ثلاث : أساس دينى ، وأساس اجتماعى ، وأساس سياسى • وهذه الأسس اتضحت فى كتابات صاحب الدعوة سواء كانت كتبا مؤلفة أو رسائل الى القبائل والمريدين

---

(١٦) تعتبر الطريقة القادرية من أوسع الطوائف الاسلامية انتشارا ، اسسها الولى الشهير عبد القادر الجيلانى فى القرن الثانى عشر — السادس الهجرى — وقبره فى بغداد . وقد دخلت الطريقة القادرية الى بلاد المغرب فى القرن الخامس عشر على أيدى مهاجرى واحة توات فى جنوب الجزائر، والمعروف أن الزعيم العراقى رشيد عالى الكيلانى صاحب الثورة المعروفة فى العراق من أحفاد مؤسس هذه الطريقة . مصطفى بعيو ص ٢٦ .

والاخوان • ولقد تعددت كتب صاحب الدعوة حتى بلغت أكثر من أربعين مؤلفا بقى بعضها وفقد البعض الآخر أثناء الاحتلال الايطالى لليبيـــا ومن أشهر هذه المؤلفات : الدرر السنية فى أخبار السلالة الادريسية ، وهو كتاب تاريخى يتناول فيه ملوك الادارسة ودولهم بالمغرب ، وكتاب ريحانة الجبوب فى عمل السطوح والجيوب ، وهو كتاب فى الرياضيات • وكتاب فى العلوم بعنوان المنهل الروى الرائق فى أسانيد العلوم وأصول الطرائق • وكتاب بعنوان : السلسبيل المعين فى الطرائق الأربعين ، وهو كتاب تصوف يسرد حقائق عن أربعين طريقة صوفية ، ويؤكد أن الطرق الى الله كثيرة ولكنها فى الحقيقة واحدة اذ مطلوب الكل واحد (١٧) •

كما ألف صاحب الدعوة كتب ومؤلفات أخرى دينية فى موضوعها مثل : المسائل العشر وبغية المقاصد فى خلاصة الراصد • وكتاب : أيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن ، ومقدمة لموطأ الامام مالك ، وغيرها من المؤلفات التى حوت أفكاره وأسس دعوته الاصلاحية ذات الثلاثة دعائم دينية واجتماعية وسياسية •

أولا — الأســاس الدينـــى :

تمثل هذا الأساس فى الدعوة الى الرجوع بالدين الاسلامى الى ما كان عليه فى عهد الرسول ﷺ وخلفائه من بعده ، ولذلك كان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأصلين الذين يصح الاعتماد عليهما فى فهم الاسلام دون الأجماع والقياس المتأخرين (١٨) • وقد وضحت دعوته هذه فى كتبه ورسائله فمن ذلك ما جاء فى رسالة بعث بها الى أهل « واجنقة » قوله : أسألكم باسم الاسلام أن تطيعوا الله ورسوله ، فقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « يأيها الذين آمنو أطيعوا الله

(١٧) احمد الدجانى • احاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ ، ص ٧٥ •

(١٨) نقولا زيادة : نفس المرجع ص ٧٠ •

وأطيعوا الرسول ، ويقول كذلك « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » نسألكم أن تطيعوا أوامر الله ورسوله فتؤدون الصلوات الخمس كل يوم وتصومون شهر رمضان وتؤتون الزكاة وتؤدون فريضة الحج الى بيت الله الحرام ، وتجتنبون ما نهى الله عنه من قول الكذب والغيبة وابتزاز أموال الناس بغير حق ، وشرب الخمر ، وتأدية شهادة الزور وغير ذلك مما أمر الله باجتنابه ، فاذا فعلتم ما أمر الله به ورجعتم عما نهى عنه أسبل عليكم نعمة الاسلام ومنحكم الخير والرزق الدائمين [19] .

ولم تكن هذه الدعوة الاصلاحية بالرجوع بالاسلام الى ما كان عليه فى أيامه الأولى فقط ، بل قرن صاحب الدعوة بضرورة العمل بالقرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة قرن ذلك بعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد — كما تسير الطرق الصوفية — أو الاعتماد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل الجدى ، ومرعاة أحكام الشريعة الاسلامية فى الأعمال الخاصة والعامة كما كان العهد فى أيام الرسول والخلفاء الراشدين من بعده [20] .

ويؤكد ذلك أيضا ما حمله شيوخ السنوسية الى القبائل من وصايا صاحب الدعوة بتلاوة الذكر سرا وعلانية وأن تجعلوا اعتمادكم كله على الله تعالى وعلى كتابه الحكيم وسنة نبيه الكريم ، اذ يجب أن نتوجه دائما الى المولى عز وجل ونطلب منه تعالى العون والمؤازرة واخشوا الله دائما ولا تفعلوا الا ما أمر به وابتعدوا عما نهى عن فعله ، وعظموا كلمة الحق سبحانه وتعالى . ان رحمة الله واسعة ، وعند الله نعيم مقيم لا أول له ولا آخر [21] .

---

(19) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٥ — ٤٦ .
(20) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٣٦ .
(21) د . محمد فؤاد شكرى . المرجع السابق ص ٤٦ .

وواضح من هذه العبارات التى تستند اليها الدعوة السنوسية كأساس دينى تطهير الاسلام من البدع والخرافات التى علقت به ، وذلك يتم بالعودة الى أصول الاسلام الأولى والبعد عن الحركات المسموح بها فى الطرق الصوفية الأخرى كالغناء والرقص واظهار الكرامات والمعجزات أو الشطح والتمايل • وأيضا الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كأصلين للدين الاسلامى ، الى جانب عدم الشرك بالله لأنه جلت قدرته الواحد الأحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ويتم ذلك بعدم التضرع الى الأولياء أو الشخوص الحجرية التى لا تنفع ولا تضر ولأن ذلك ينهى الله عنه •

وتضمن الأساس الدينى للطريقة السنوسية كذلك اعتبار باب الاجتهاد ما زال مفتوحا ومن ثم يجوز الاجتهاد فى مسائل الدين الاسلامى التى تواجه المسلمين بشرط أن يراعى المجتهد أصلى الدين الاسلامى الوحيدين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والأحكام التى نصا عليها •

واذا كان صاحب الطريقة قد اتفق مع ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب فى فتح باب الاجتهاد ، فقد كانت دعوة لها ما يبررها خاصة وقد تحجرت الأفكار عند علماء المسلمين بسبب اتجاههم نحو التقليد لا التجديد وفى هذا المقام فقد دافع صاحب الدعوة عن المتصوفين الخالصين ومذهب التصوف الحق فذكر أنه : قد يسرى فى وهم من ليس له رسوخ قدم فى علم القوم أن أحوال الصوفية بعضها مباين لما عليه علماء الشريعة ، كما فاه فيه بعض الجهلة تغاليا أو تنقيصا ، فأعلم أن سبيل القوم رضى الله عنهم أتباع النبى ﷺ فى • (الجليل والحقير ، وكلما ازداد أحدهم أتباعا كلما ازداد كمالا لكون الكمال الكلى عندهم فى كمال الاتباع والا فليس منهم أو ناقص عندهم فان أعمالهم موزونة بميزان الشريعة فما رجح فيه قبلوه وما لا يرجح نبذوه[٢٢] •

---

(٢٢) احمد الدجانى : نفس المرجع ٧٨ — ٧٩ .

ومن هذا المنطلق منع صاحب الدعوة كل أشكال المبالغة فى الحماسة الخاصة بالذكر كما هى العادة فى معظم الطرق الأخرى وقصر الذكر فى طريقته على اسم الجلالة ، وجعل لها ما يعرف (بالورد) ومنــع الاستعانة بالدفوف والمواكب والحركات العنيفة التى ترمى الى ازدياد حماسة الأشخاص فى الذكر بهز الأجسام بشكل خاص[٣٣] وبهــذا وضع أساسا صحيحــا للتصوف يبعده عن الابتذال ويقربه من العبادة • وكان ذلك نجاحا للدعوة السنوسية ليس فقط فى برقة ولكن أيضا فى الحجاز حيث توجد الدعوة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية ، تلك الدعوة المعروفة بشدة موقفها من أصحاب الطرق الصوفية المختلفة •

ثانيا — الأساس الاجتماعى :

لم يكن الأساس الاجتماعى للدعوة السنوسية ببعيد عن الأساس الدينى لها ذلك أن الأساس الاجتماعى يتمثل فى نشر فضائل الاســلام عن طريق الزوايا التى مارست دورا كبيرا بل الدور كله تقريبا فى نشر الدعوة السنوسية ليس فقط فى برقة وغيرها من الأقطار العربية بــل وأيضا نشر الدين الاسلامى بين شعوب غرب ووسط أفريقيا الوثنيين •

ويتضح الأساس الاجتماعى للدعوة السنوسية من كلمات صاحبها الى أهل واجنقة التى جاء فيها : يا أهل واجنقة انا نريد أن ننشر الاسلام بينكم وبين الاعراب الذين يغيرون على بلادكم ويستعبدون أولادكــم وينتزون أموالكم ، وانا بعملنا هذا نقوم بما أمر الله به فى كتابه العزيز حيث قال سبحانه وتعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » ويقول سبحانه وتعالى : « أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار الجنــب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم »[٣٤] •

---

(٣٣) مصطفى بعيو • المرجع السابق ص ٤١ •
(٣٤) د • محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٦ •

كما أن الأساس الاجتماعى للدعوة تمثل فى عدم الاقتصار على العبادة والتصوف بل دفع المسلمين الى أن يكونوا عبادا عاملين منتجين فى الزوايا التى تضم الى جانب المسجد والمدرسة والمزرعة والمتجر:يقوم فيها المسلمون بالعمل فى شتى المجالات التى تحويها الزوايا ولعل خير ما يمثل هذه الروح التى أرادها صاحب الدعوة أن تكون روح الجميع هـو أن بناء الزواية نفسه كان يقوم به أهلها ، فالزواية اذن منذ وضع حجرها الأساسى كانت رمزا للنشاط والانتاج [٢٥] .

وقد أمكن للدعوة السنوسية بفضل دعاتها وزواياها المنتشرة بـين القبائل فى برقة أو غيرها من الأقطار العربية والأفريقية أن تؤاخى بين القبائل المتدابرة وان تؤلف بينها وتعلمها كيف يكون الاخاء وكيف يكون الايثار ، حتى أصبحت كلمة « الاخوان » تعنى الوفاء والاخـلاص وتذكرنا بالاخوة الاسلامية فى عهدها الأول[٢٦] .. الى جانب تحويـل المناطق المقفرة ومعاقل قطاع الطرق الى أماكن أمن يأوى اليها الناس للاهتداء الى سواء السبيل وحفظ القـرآن الكريم ومدارسـة العلوم الدينية واللغوية .

على هذا فان تأثير الدعوة السنوسـية على أهل برقة اتصـالا بالأساس الاجتماعى أن انقطعت الخلافات بين القبائل الضاربة فى أنحاء الأقليم وارتبطت فيما بينها برباط الدعوة السنوسية والأخوة الاسلامية ، وانقطعت الاغارات على المضارب وأمن المسافرون فى الصحراء من غزوات قطاع الطرق ونهبهم للامتعة فانصرف الناس الى الانتاج الزراعى فى الزوايا والى الرعى فى المراعى المجاورة للزوايا ، وسارت قوافـل التجارة فى أمان لخير الناس دون أن تتعرض لما كانت تتعرض له من قبل من مصـاعب فى الوقـت الـذى تعـددت فيـه الزوايـا بتعـدد القبـائل .

---

(٢٥) د . نقولا زيادة . المرجع السابق ص ٧٠ .
(٢٦) جامعة السيد محمد بن على السنوسى الاسلامية ص ١٦ .

ثالثا ـ الأساس السياسى :

يقوم هذا الأساس على مبدأ أن الدين الاسلامى لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو الزعيم الدينى والزعيم السياسى فى نفس الوقت : وخلفه من بعده الخلفاء الراشدون وخلفاء بنى أمية وبنى العباس ، وحتى سلاطين آل عثمان فى تركيا جمعوا السلطتين الدينية والزمنية فأصبح السلطان العثمانى خليفة للمسلمين فى نفس الوقت ، وعلى هذا كانت الدعوة السنوسية تستند الى مبدأ سياسى مع استنادها الى المبادىء الدينية والاجتماعية ، انطلاقا من أنه طالما كان الاسلام دينا وسياسة فانه منوط بصاحب الدعوة الذى يجمع بين الصفتين الدينية والسياسية تدبير شئون الدنيا للمسلمين الى جانب شئون الدين .

وعلى هذا كانت الدعوة السنوسية وسيلة لانشاء الامارات لأنها أوجدت بفضل النظام الدقيق الذى وضعته لأتباع الطريقة نوعا من السيادة الدينية والدنيوية معا على خير ما يقيمه الاسلام من أسس لذلك ، حتى أصبحت السنوسية تسيطر على أفئدة المسلمين الذين بلغتهم هذه الدعوة[٢٧] ، عن طريق الشيوخ والاخوان الذين يختارهم صاحب الدعوة ويعدهم اعدادا دينيا وسياسيا يؤهلهم لقيادة أهل القبيلة أو القبائل التى توجد الزوايا فى أرضها ، بالاضافة الى وضع تعليمات يسير عليها كل هؤلاء الشيوخ فى الاشراف على الزوايا وربط الزوايا ، ببعضها البعض وبالزاوية الأم فى البيضاء أو الجغبوب فيما بعد برباط محكم من المراسلات حتى يستمر اشراف صاحب الطريقة ومتابعته لأعمال شيوخ الزوايا والاخوان فى أداء رسالتهم المتعددة دينية كانت أو سياسية أو تعليمية .

---

(٢٧) د . محمد فؤاد شكرى . المرجع السابق ص ٤٥ .

ومما يؤكد الأساس السياسى للدعوة السنوسية الى جانب التنظيم المحكم للزوايا دعوة صاحب الطريقة أتباعه بالاستعداد الحربى بتعلم الرماية واستخدام السلاح وركوب الخيل وعدم الاكتفاء بتعليم العام أو ممارسة العبادات والشعائر الدينية لأن المؤمن القوى أفضل عند الله من المؤمن الضعيف ، ثم أن دعوة صاحب الطريقة هذه انصبت أساسا على أهالى ليبيا وأفريقيا •• فعلى كل فرد من الاخوان ما دام قادرا وغير عاجز أو مشغول أن يكون مستعدا للطوارىء متهيئا للحرب منتظرا للامر منفذا له بكمال طاعته • ومن كان فقيرا فسلاحه وراحلته من الزوايا التابع لها أو من أغنياء الاخوان أنفسهم[٢٨] •

وكان تسليح الاخوان فى ليبيا دليلا على وضع الأساس المـادى للامارة السنوسية بوجود قوة عسكرية جاهزة ومستعدة للدفاع عن الدعوة والامارة ضد أعدائها سواء كانوا من القوى المحلية أو الخارجية، ولقد أثبت هؤلاء الاخوان وجودهم فى مواجهة الغزو الايطالى لليبيـا أوائل القرن العشرين • كما أثبتوا من قبل وجودهم أيضا فى صـد التقدم الفرنسى من وسط القارة الأفريقية نحو الحدود الجنوبية لليبيا •

كمااستندت دعوة الأفارقة للاستعداد الحربى كذلك الى اقتناع صاحب الدعوة بأن الاستعماريين الأوروبيين لن يوقف أطماعهم سوى قوة أهل الأقطار الأفريقية واستعدادهم للدفاع عن بلادهم ضد الأطماع الاستعمارية ، وان كان لم يلجأ الى اثارة الاضطرابات ضد القوى المسيحية فانه ما كان يضمن نجاح الثورات ولمـا لم يتهيأ النـاس ويستعدوا للقيام بها ، ومن ثم سارت دعوته للاستعداد الحربى سواء فى ليبيا أو فى الأقطار الأفريقية المجاورة بهدوء ودون أن تثير الشكوك من قبل الدول الأوروبية الاستعمارية ومن قبل تركيا ذاتها ••

---

(٢٨) نفس المرجع ص ٥٢ •

ولعل اعتراف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على ليبيا بزعامة صاحب الدعوة السنوسية وامارته ثم الاعتراف بزعامة وامارة خلفائـــه دليلا على قوة الأساس السياسى للدعوة السنوسية • ولم يكن هذا الاعتراف العثمانى غريبا لأن صاحب الدعوة حرص على اقامة العلاقات الطيبة مع الدولة العثمانية وعدم اثارة شكوكها فى تحركاته وتعليماتـــه لشيوخ زواياه والاخوان من أتباعه بما أكد قوة صاحب الدعوة ونفوذه على القبائل التى فشل الحكم العثمانى فى اخضاعها ، وما دام صاحب الدعوة يعترف بالسيادة العثمانية فلم يكن اعتراف الدولة العثمانيـــة بالامارة السنوسية أمرا غريبا أو منافيا لمصلحة الدولة[٢٩] •

وأخيرا فان وصية صاحب الدعوة باسناد رئاسة الطريقة والامارة الى الأكبر الأرشد من الأسرة السنوسية ، بالاضافة الى اتبـــاع نظـــام البيعة الاسلامى •• كل ذلك دليل حى وعملى على تأكيد الجانب السياسى للدعوة السنوسية • وذلك أن صاحب الدعوة عمل فى حياته على تقديم ابنه الأكبر « السيد محمد المهدى » للصلاة وألبسه السيف وخلع عليـــه عباءة « جردا » وصافحه دليلا على المبايعة ومن ثم تقدم كل الحاضرين من أفراد الأسرة السنوسية ومن الاخوان الى مصافحة « مبايعـــة » السيد محمد المهدى ••• فكانت تلك المبايعة قبولا منهم فى حياة صاحب الدعوة نفسه • وبذلك جمعت السنوسية فى نظام الحكم بين مبدأ الوراثة الصلبية والعمل بمبدأ الشورى،وحققت فى هذا بعض شروط الامامة[٣٠] •

* * *

(٢٩) د . محمد فؤاد شكرى : نفس المرجع ص ٥١ •

(٣٠) نفس المرجع ص ٥٥ •

نشر الدعـــوة

أولا ــ طبيعتها :

تميزت الدعوة السنوسية بأسلوب انفردت به فى نشر مبادئهـــا الدينية والاجتماعية والسياسية ، تمثل ذلك الأسلوب فى التدرج والمسالمة واللين من ناحية وابتداع أداة لتحقيق تلك المبادىء تحقيقا عمليا وأعنى بها نظام الزوايا من ناحية أخرى .

أما أسلوب التدرج والمسالمة واللين فيتضح من كتب صاحـــب الدعوة ورسائله ، فمن ذلك ما جاء فى رسالته الى العلامة ابن الشفيع خليفته بزاوية المدينة المنورة حيث قال .. وحسنوا أخلاقكم ولينـــوا جانبكم للكبير والصغير ، قال تعالى : « وقولوا للناس حسنا » وقـــال جل وعلا : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » وقال ﷺ : (ارفقوا فان الرفق ما كان فى شىء الا زانه وأن الحمق ما كان فى شىء الا شانه ، وارفعوا هممتكم عن الخلق) وقال ﷺ : (ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى النـــاس يحبك الناس . . عليكم بالمناصحة والمذاكرة وارشاد عباد الله اليـــه والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد فيما بينكم ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى البر أعوانا)[٣١]

وهذه الدعوة السلمية التى نأت بالسنوسية عن الدخول فى صراع مع القبائل من ناحية ، ومع الدولة العثمانية صاحبة السيادة على القطر الليبى من ناحية ثانية جعلها تختلف عن دعوة كل من العلامة ابن تيمية والامام محمد بن عبد الوهاب ، على الرغم من اشتراك السنوسية مـــع أفكار كل من ابن تيمية وابن عبد الوهاب فى عوامل واحدة .

---

(٣١) جامعة السيد محمد بن على السنوسى الاسلامية .. من رســـالة بتاريخ ١٢ ربيع الاول ١٦٢٤ هـ .

ثانيا — الزوايا :

وأما الأداة التى استخدمها صاحب الدعوة كأسلوب سلمى وعملى فى نفس الوقت لنشر دعوته بين الناس فكان ما عرف باسم « الزاوية » ولم يكن اسم الزاوية من ابتداع صاحب الطريقة السنوسية ، فلقد سبقته الطرق الصوفية الأخرى الى استخدام هذا الاسم رمزا لمكان يختلى فيه أتباع الطريقة والقائمون عليها بأنفسهم ويتقربون الى الله بالعبادة ليلا ونهارا منقطعين عن الناس وعن الحياة مكتفين بكفالة مسبب الأسباب (الله) لهم أى بما يرسله الله لهم من رزق على يد رجال القوافل الذين يضربون فى الطرق الصحراوية وينزلون بهذه الزوايا التى غالبا ما كانت مواقعها فى أماكن خلوية بعيدا عن العمران . أو ما يوقف على الزاوية من أوقاف يحبسها مشايخ القبائل المجاورة للزاوية تقربا الى علمائها المشرفين على طريقتها الصوفية .

(ا) انتشارها :

ولكن الزوايا السنوسية اختلفت عن غيرها من الزوايا الصوفية الأخرى من حيث الشكل والمضمون أى من حيث مواقعها وبنائها ، ومن حيث تنظيمها ورسالتها الى جانب انتشارها خارج برقة وبدء هذا الانتشار . فكانت زاوية أبى قبيس بمكة المكرمة أولى الزوايا السنوسية على الاطلاق قد تم تأسيسها عام ١٢٥٢ هـ الموافق ١٨٣٧م ، وكانت الزاوية البيضاء — فى برقة — أول مركز رئيسى للدعوة السنوسية فى ليبيا وأنشئت عام ١٢٥٨هـ [٣٢] الموافق ١٨٤٣ م ثم سرعان ما انتشرت الزوايا فى أنحاء العالم الاسلامى فنجد أن مؤسس الدعوة محمد بن على السنوسى قد انتقل الى جوار ربه تاركا ٦ زوايا بالحجاز بمكة والمدينة المنورة وجدة والطائف ومنى وبدر . و ٩ زوايا بمصر فى

(٣٢) محمد الطيب الاشهب : السنوسى الكبير ص ٣٢ .

واحات صحراء مصر الغربية ، و ١٤ زاوية فى برقة مركزها الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر أولا ثم زاوية الجغبوب بعد ذلك و ٧ زوايا باقليم طرابلس ، و ٥ زوايا باقليم فزان ، وزاوية واحدة بتونس • وأضاف الى هذا العدد السيد محمد المهدى ابن صاحب الدعوة وخليفته زوايا أخرى منها ٧ زوايا بالحجاز ، ١١ زاوية بمصر ، و ٢٣ زاوية باقليم برقة ، و ٥ زوايا باقليم طرابلس وزاوية واحدة بفزان ، وزاوية واحدة بالجزائر ، و ٥ زوايا فى تشاد ، وزاوية واحدة بالسودان ، وزاوية واحدة فى نيجيريا •

وواضح من هذا الانتشار أن الدعوة اقتصرت فى بدء عهدها على الأقطار العربية فى المشرق أو المغرب ، ولكنها ما لبثت أن امتدت الى الأقطار الافريقية المجاورة ، كما أن ازدياد عددها بصورة واضحة فى عهد السيد محمد المهدى دليل على تقبل الناس للدعوة واسهامهم فى بنـاء الزوايا فى كل مكان تصل اليه الدعوة • كما أن رئاسة هذه الزوايا وجدت حيث يوجد صاحب الدعوة • فقد انتقلت الرئاسة من مكة بانتقاله الى الزاوية البيضاء فى برقة ثم الى زاوية الجغبوب وكل هذا الانتقـال فى عهد السـيد محمد بن على السنوسى ، ثم انتقلت الرئاسة الى زاوية الكفرة فى عهد خليفته ومن جاء بعده عندما اصطدمت الدعوة بقـوى الاستعمار الغربى جنوبا — مع فرنسا — وشمالا مع ايطاليا •

(ب) مواقعها :

وأما مواقع هذه الزوايا فقد تميزت بصفات سياسية وتجـريبـة واستراتيجية • فمن الناحية السياسية نجد الزوايا تنتشر فى الدواخل أكثر من انتشارها فى السواحل ، وذلك راجع الى السيادة العثمانية التى كانت أكثر ما تكون نفوذا فى المدن الساحلية بعكس ما كانت عليه الحال بين القبائل البدوية وسكان الواحات حيث كانوا لا يعرفون السلطة العثمانية أى وجود [٣٣] • وعلى هذا اختار صاحب الدعوة المناطـق

(٣٣) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٥٩ •

الصحراوية الداخلية ليقيم فيها الزوايا تحاشيا لأى صدام يقع بين السنوسيين والعثمانيين ، وبعدا عن تتبع العثمانيين لنشاطه .

وفى هذا المقام حرص صاحب الدعوة على توضيح الغرض الدينى من بناء الزوايا لسلطات الحكم العثمانى فى ليبيا ، فوجدناه يذكر لمصطفى باشا حاكم فزان عند بناء زاوية هناك ، ان الزاوية فى الحقيقة انما هى بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده ، والزاوية اذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة ، وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية لأنها ما أسست الا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان [٣٤] . وأوضح نفس الغرض الدينى للزاوية للمشير محمد أمين باشا والى طرابلس الغرب العثمانى فقال : وأما نحن فقد ألفنا من اعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ، ليحصل المقصود منها ويدوم من تعلم العلم وتعليمه واقراء القرآن وتفهيمه ، واقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها [٣٥] .

والى جانب الأهمية السياسية لمواقع الزوايا فقد كانت لهذه المواقع أهمية تجارية واقتصادية بصفة عامة ، فقد أقيمت معظم الزوايا فى طريق تجارة القوافل ، وكان هناك ثلاثة طرق رئيسية فى الأراضى الليبية الطريق الأول للقوافل يتجه جنوبا من الساحل الليبى عبر واحة فزان الى بحيرة تشاد ، والطريق الثانى ينعطف جنوبا غربا عبر غدامس وغات الى تمبكتو الأسطورية ، والطريق الثالث يسير جنوبا شرقا عبر واحة الجفرة ثم سواكن وزيلا الى وادى ودارفور الغنى بخصبه وثرواته [٣٦] .

---

(٣٤) محمد الطيب الاشهب : المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣٥) نفس المرجع ص ٢٥ .

(٣٦) ريتشارد توللى : عشر سنوات فى بلاط طرابلس ص ٨ .

والمتتبع لمواقع هذه الزوايا فى الأراضى الليبية مثلا يلاحظ ارتباطها بطرق قوافل التجارة مما جعل صاحب الدعوة يستخدم زواياه والقبائل التى توجد الزوايا فى أراضيها لاستغلال التجارة وتنشيطها مما كان له أثر كبير غير مباشر فى ازدياد ثروة البلاد الاقتصادية بما لعبته الزوايا من دور كبير فى تشجيع تجارة القوافل التى كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين موردا هاما فى حياة البلاد الاقتصادية [٣٧] زد على ذلك الاهتمام بالزراعة الذى حث اليه صاحب الدعوة أهل القبيلة أو القبائل الواقعة فى أرضها الزاوية أو الزوايا .

ولا تقل الأهمية الاستراتيجية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسية والاقتصادية فقد وجدنا معظم الزوايا تقام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمكن للاخوان السنوسيين الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الأعداء من الخارج ومن ثم رأينا الكثير من الزوايا يقام على أنقاض الأطلال الاغريقية والرومانية أو على مقربة منها حتى يمكن الاستفادة من أحجارها فى عملية البناء . وبعبارة أخرى أقيمت الزوايا حيث وجد الاغريق والرومان فيما مضى والأتراك العثمانيون فيما بعد من الضرورى بناء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصد الهجمات التى تقوم بها القبائل المتوغلة فى الصحراء ، وبالمثل استعان الايطاليون فيما بعد بهذه المراكز لتثبيت حكمهم فى البلاد باتخاذها مركزا لحركتهم الاستعمارية التوطنية[٣٨] ولعل كل ذلك دليل على الأهمية الاستراتيجية التى أولاها صاحب الدعوة عنايته فى اختيار مواقع الزوايا .

هذا الى جانب أن صاحب الدعوة اتبع فى انشاء الزوايا نظاما خاصا يدل على الأهمية الاستراتيجية للمواقع التى اختارها للزوايا ، فبدأ من مواقع على شاطىء البحر المتوسط وبنى بهذه المواقع الحصينة

---

(٣٧) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٦٠ .
(٣٨) نفس المرجع ص ٥٨ .

زوايا تبعد كل زاوية عن التى تجاورها مسافة ست ساعات ، ثم أنشأ خلفها جميعا زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسافة نفسها ، حتى اذا هوجمت الزوايا الأمامية التى بالشاطىء استطاع الاخوان وأهل الزاوية أن ينتقلوا بسهولة الى الزوايا الخلفية[٣٩] وبمعنـى آخـر أنه أقام من الزوايا خطوط دفاع متتالية يساند الخط الثانى الخط الأول، ويساند الخط الثالث الخط الثانى ، وهكذا .. وكل هذا تم دون أن يثير صاحب الدعوة ثائرة أو شكوك سلطات الحكم العثمانى .

وأما بناء الزاوية فقد كان يتم فى الغالب بناء على طلب احـدى القبائل التى ترى قيام زاوية فى أرض قبيلة مجاورة ، فترسل القبيلة الراغبة فى اقامة زاوية فى أراضيها الى صاحب الدعوة برسول يحمل رغبة أهل القبيلة ويرحب صاحب الدعوة بهذه الرغبة وأمثالها ويرسـل الى القبيلة شيخا يختاره من بين رجاله المتعلمين المحيطين به ومعه بعض الرفقاء لمساعدته فى الاشراف على عملية البناء التى يقوم بها رجـال القبيلة أنفسهم فى الموقع الذى يحقق أهداف الدعوة سياسيا واقتصاديا واستراتيجيا .

ومن الطبيعى أن يستغرق البناء وقتا يطول أكثر من العام ومن ثم يهتم الشيخ ورجال القبيلة ببناء المسجد أولا ثم دارا لاقامة الشيخ وأسرته ، ويتبع ذلك استكمال بقية البناء لتشمل الزاوية فى النهايـة بيوتا لوكيل الزاوية ومعلم الأطفال ومساكن للضيوف والخدم ومخزنـا لحفظ المؤن واصطبل وبستان ومتجر على الأقل وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا عائل لهم ولا مأوى لهم ، وفرن لسد حاجة السكان بالخبز[٤٠] هذا بالاضافة الى المبانى الأخرى التى تلزم تطور الزاوية فى أداء رسالتها والمبانى التى يقيمها المقتدرون من أهل القبيلة والمهاجرون الى الزاوية .

---

(٣٩) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٣٢ .
(٤٠) محمد الطيب الاشهب المرجع السابق ص ٢٨ .

ومما تجب ملاحظته أن بناء الزوايا — وبصفة خاصة فى برقة — قد ازداد التنافس حوله بين القبائل البرقاوية • بل بين بطون وأفخاذ القبيلة الواحدة ، ومن ثم سارع الجميع الى المساهمة فى البناء بالتبرع بالأرض التى يتم اختيارها موقعا لبناء الزاوية ، والقيام بعملية البناء نفسها ، بل وحبس الأوقاف على الزوايا للصرف على شئونها هذا الى جانب الخضوع الكامل لتعاليمها وتنظيماتها •

(جـ) تنظيم الزوايا :

وأما تنظيم الزوايا فقد وضعه صاحب الطريقة بأسلوب عملى لكى تؤدى الزاوية رسالتها على الوجه الصحيح ولتحـديد المسـئوليات ، فعلى رأس كل زاوية مقدم (الشيخ) وفوق المقدم — أى بعده — وكيل ووظيفته كوظيفة الحاكم المدنى وكلا المقدم والوكيل ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعا والقبيلة كافة ، فالأمر الذى يصدره أحدهما مقرونا باسم السيد السنوسى انما هو أمر واجب الطاعة على الجميع (٤١) •

وشيخ الزاوية أو مقدمها يعينه صاحب الدعوة بنفسه فى ضـوء رغبة أهل القبيلة باعتباره صاحب الحل والعقد فى الزاوية فهـو الذى يشرف على التعليم وهو الذى يحل الخصومات وهو الذى يحفظ النظام وهو الذى يعنى بالقوافل ، وقد يطلب منه تنظيم الدفاع عن الزاوية فى حالة الاعتداء لذلك كان مركزه هاما وكان يجب أن يتمتع باحترام الجميع ليتمكن من القيام بهذه المهمات ويضطلع بأعباء المسئوليات الجسام(٤٢) بينما يشرف الوكيل على دخل الزاوية وأوجه الصرف عليها وغير ذلك من الأمور المدنية •

وقد حددت التعليمات الصادرة من صاحب الدعوة نظام الزوايا من

---

(٤١) لوثروب ستودارد حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٩٨ .

(٤٢) د • نقولا زيادة : برقة الدولة العربية الثامنة ص ٧١ .

بدء بنائها الى أداء رسالة كل مسئول فيها ، فتذكر هذه التعليمات أن أرض الزاوية تعتبر وقفا والمساحة المتفق عليها من جهاتها الأربعة ، وأن تتحمل القبائل تكاليف أبنية الزوايا ، وأن يحترم أهل القبائل الحرم المتفق على تخطيطه حول الزوايا بحيث لا يجوز العبث فيه أو المساس بمن يستجير به ، وأن تتحمل القبيلة نفقات كسوة شيخ الزاوية وثمن سلاحه وغرسه ونفقات زواجه ، وأن ينوب شيخ الزاوية عن صاحب الدعوة فى تعيين من يحتاجه العمل فى الزاوية ، وأن يحتفظ من واردات الزاوية بما يكفى للصرف على مشروعات ونشاط الزاوية ويرسل الباقى الى الزاوية الأم حيث يوجد صاحب الدعوة ، وأن تحدد الحدود بين أرض كل زاوية والزاوية المجاورة، وأن يجتمع شيوخ الزوايا سنويا (كلهم أو بعضهم) اذا ما رأو وجوب ذلك « وعليهم أن يتشاوروا فى تحديد موعد الاجتماع ومكانه ان لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الداعى لعقد الاجتماع [٤٣] أو اذا لم يكن صاحب الدعوة نفسه هو الذى قرر مكان وزمان هذا الاجتماع .

(د) وظائف الزاوية :

وأما وظائف الزاوية فهى متعددة النواحى .. ذلك أن الزاوية مارست وظيفة دينية وتعليمية واجتماعية واقتصادية وعسكرية فى المجتمع الذى وجدت فيه ، فى عهد مؤسس الدعوة وخلفائه من بعده. فأما الوظيفة الدينية فاستحوذت على اهتمام الزاوية الأولى وتمثلت فى التنفيذ العملى لأحكام الاسلام ومبادئه بالحكم الشرعى بين المواطنين والتربية الدينية والخلقية للمريدين والاخوان واعداد الدعاة والمواطنين [٤٤] ، هذا الى جانب الدعوة الى التزام الفضائل وتجنب الرذائل والقدوة الحسنة التى وجدها الناس فى صاحب الدعوة وأتباعها

---

(٤٣) محمد الطيب الاشهب : المرجع السابق ص ٢١ .

(٤٤) التعليم الدينى فى ليبيا ص ١٢ .

المشرفين على الزوايا بالاضافة الى نشر الرسالة المحمدية السامية ، وحمل هذه الرسالة على وجه الخصوص الى الشعوب الوثنية (الزنوج) فى قلب افريقية الغربية والسودان والصحراء الكبرى حتى اهتدت هذه القبائل المتوحشة البدوية الى الاسلام طائعة مختارة(٤٥) •

ومما كان له أثره فى ذيوع رسالة الزاوية الدينية أن صـــاحب الدعوة لم تكن له تعليمات خاصة أو آراء شخصية فى الفقه أو فى تفسير القواعد الاسلامية ، بل كان أكبر همه تنفيذ المسلمين للقواعـــد التى نص عليها الدين الاسلامى لا الاكثار من هذه القواعد ، والشىء الوحيد الذى أضافه الى العبادات الدينية دعاء وضعه ورده السنوسيون بعد ذلك وهو « حزب » على نحو الأحزاب المعروفة بين طوائف الطرق الصوفية • وليس فيه ما يناقض تعاليم أئمة الفقه السابقين أو يزيد عما نزل به القرآن (٤٦) وبذلك نجد أن الزوايا خدمت الدين الاسلامى خدمة جليلة بتنقيته مما علق به على يد غلاة المتصوفين من بدع وتعاليم تبعده عن أصوله المحكمة وبساطته الأولى ، كما خدمت الاسلام بنشره بين الوثنيين فى أفريقيا وهدايتهم الى أحكام الاسلام فى صـــورته الحقيقية الاصلية •

ولقد أدت الزاوية دورا تعليميا كبيرا ، فقد كانت ـــ كما يذكر بريتشارد (٤٧) أشبه بالمراكز الثقافية التى تنتشر فى العصر الحـــاضر فى أنحـــاء الدول • وكانت الزاوية تشمل مدرسة قرآنيـــة لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ومبادىء الدين الاسلامى واللغة العربية ، ومن يمتاز من الأطفال يلتحق بالزاوية الأم سواء كانت البيضاء أو الجغبوب

(٤٥) د • محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٠ •

(٤٦) احمد حسنين : فى صحراء ليبيا ص ٥٢ •

(٤٧) E. E. Evans Pritchard, The Sanusi of Cyrenaica, p. 79 .

التى صارت مناخ العلوم ومنبع القرآن العظيم ، والتى حوت مكتبتها على ثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية(٤٨) .

وكانت مواد الدراسة بالزاوية تشمل جميع العلوم الاسلامية من تفسير وحديث وفقه وأصول الفقه والفرائض والتصوف والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والأدب وغيرها ، كما كان طلاب العلم يتدربون على اتقان بعض الحرف والصناعات مثل صناعة البارود والأسلحة(٤٩) وكانت زاوية الجغبوب بمثابة المعهد الاعلى الذى يقوم بالتدريس فيه صاحب الدعوة بنفسه وغيره من كبار العلماء ، وكان صاحب الدعوة يطمع فى أن يصل بهذا المعهد الى مستوى الجامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس بالمغرب الأقصى .

ولقد حافظت الزوايا على التراث الثقافى العربى الاسلامى فى ليبيا أثناء الاحتلال الايطالى ، بل وقبل هذا الاحتلال عندما لم تكن هناك مدارس حكومية فى البلاد ، اذ كانت الثقافة الشعبية كلها ممتدة من هذه المدارس القرآنية الملحقة بمبنى الزاوية ، وتتضح قيمة رسالتها الثقافية أيضا اذا عرفنا أنها كانت بمثابة المدارس التى تقوم الآن بفتحها الحكومات الحالية دون أن تكلف من يلتحق بها شيئا من النفقات بل كثيرا ما كان يستعين بعضهم بما تقدمه له الزاوية من معونة لمقابلة تكاليف الحياة(٥٠) .

وانطلاقا من كون الزوايا خلايا حية نشطة منتجة فقد أدت دورا اجتماعيا كبيرا بما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة بعد التوفيق والمصالحة

---

(٤٨) رحلة الحشائشى الى ليبيا ص ١٥١ .

(٤٩) التعليم الدينى فى ليبيا ص ١٣ .

(٥٠) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٣٠ .

بين القبائل ، وبما أشاعته بين القبائل من استقرار ، اذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها ، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة الى ذلك ، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعا من حياة الاستقرار والاقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلا [٥١] هذا الى جانب تساوى الجميع فى الواجبات مع تساويهم فى الحقوق فكل طالب علم فى الزاوية عليه أن يؤدى ما أنيط به من عمل مساء يومى الخميس والاثنين — ويوم الجمعة راحة — ويستوى فى ذلك الصغير والكبير ، والغنى والفقير ، اذ ليس هناك نظام الطبقـات المفرق عادة بين صفوف الأمة[٥٢] • فالكل يخضع لتقسيم أيام الأسبوع بين طلب العلم والعمل والراحة •

وأما الوظيفة الاقتصادية للزاوية فقد تمثلت فى تشجيع التجـارة والزراعة بين القبائل فاستقرار الأمن فى البلاد ساعد على نشاط حركة التجارة ، وعمرت الطرق بالقوافل المحملة بالمواد والسلع التجارية ، وهذا الى ما كانت تقدمه الزوايا من مساعدات وتسهيلات لاراحـة المسافرين مع التجارة مما شجع على التبادل التجارى بين منتجـات الزاوية وبين ما تحمله القوافل من سلع لا تتوفر فى أرض الزاوية •

كما شجع صاحب الدعوة على الزراعة فى أرض الزوايا ، ومن المأثور عن السيد المهدى أنه فى اهتمامه بالتعمير والغرس أنه يقول للاخوان والمريدين الذين كانوا يطلبون اليه أن يعلمهم الكيمياء : أن هذه — أى الكيمياء — تحت سكة المحراث ، وأنها هى كد اليمين وعرق الجبين • بل كان يعمل مع العاملين فى الزراعة والحرف ويقول يظن

---

(٥١) نفس المرجع ص ٦٢ •

(٥٢) محمد الطيب الاشهب : المرجع السابق ص ٥٠ •

أهل الأوريقات والسبيحات (أى العابدين والقانتين) أنهم يسبقوننا عند لله ، لا والله مايسبقوننا [٣٥] .

وكانت وظيفة الزاوية العسكرية واضحة منذ أن استقر نظـام الزوايا فى ليبيا ، حيث رأينا الزوايا تبنى فى أماكن مرتفعة ، والناس فيها يتعلمون صناعة السلاح والفروسية والرماية ، وذلك استعدادا للوقوف ضد المعتدين ، ولقد نجحت الزوايا بالفعل فى مواجهة الغزو الفرنسى المتقدم وسط أفريقيـا وفى الكفاح ضد الاحتلال الايطالى لليبيا ، ولولا استعداد الزوايا العسكرى لما صمدت برقة فى الكفـاح ضد الايطاليين أكثر عن عشرين سنة .

وجدير بالذكر أنه ما كان للزوايا أن تؤدى رسالتها المتعددة الجوانب بنجاح لولا الرجال الذين تعهدوا بأداء هذه الرسالة ونشرها ، وهؤلاء الرجال ينقسمون الى قسمين : المنتسبين الذين يمثلون الأكثرية الساحقة من السنوسيين ، والاخوان أو المريدين وهم يعيشون فى الزوايا نفسها، ويأتى بعد ذلك شيوخ الزوايا وهم الذين تلقوا العلم وتبحروا فيه فعهد اليهم بعد تخرجهم فى مدرسة الجغبوب الأشراف على الزوايا[٥٤] . وكان هناك مجلس خاص حول صاحب الدعوة عرف باسم « مجلس الاخوان » اعتمد عليه السيد السنوسى الكبير فى حركته الاصلاحيـة بأخذ رأيه والتشاور مع أفراده بعد أن أحسن اختيارهم فكانوا خـير مخلصين له ولدعوته[٥٥] .

أى أن هؤلاء الاخوان كانوا ينقسمون الى أربعة أقسام من حيث مكانتهم العلمية والاجتماعية ، ومع ذلك فكلهم متحدون قلبا وقالبا على

---

(٥٣) د . محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ص ٥٩ .
(٥٤) د . نقولا زيادة (ليبيا) ص ٧٥ .
(٥٥) مصطفى بعيو ، المرجع السابق ص ٦٤ .

حب شيخهم يرونه هو عمدتهم فى الطريق الموصل الى الله ورسوله[٥٦].
هذه الاقسام هى طبقة العلماء التى يتكون منها مجلس الاخوان وطبقة العلماء التى تقوم بالقاء الدروس فى المعهد الجغبوبى ، وطبقـــة مشايخ الزوايا ، والطبقة الاحتياطية وهى التى تتكون عادة من صغار خريجى المعهد السنوسى ومن حفظة القرآن ومن مهاجرى البـــلاد الاسلامية ، وممن يتجردون عن أعمالهم الخاصة للالتحاق بخدمة صاحب الدعوة[٥٧] . وجميع أفراد هذه الطبقات يطلق عليهم لفظة الاخــوان وهى تعنى كل انسان أخذ الطريقة السنوسية وتمسك بوردها وتسمى هاته الطريقة بالطريقة المحمدية ، كما عرفها بذلك الشيخ نفسه فى تأليفه المسمى « السلسبيل المعين فى ذكر الطرائق الأربعين » فيقال فيما بينهم فلان من الاخوان يعنى سنوسى الطريقة ، هكذا فى عرفهم[٥٨].

علاقة السنوسية بالدولة العثمانية

ولعل أول صلة لصاحب الدعوةبالدولة العثمانية نشأت عندما تفتح عقله للتفكير فى احوال العالم الاسلامى الخاضع للعثمانيين ، ســواء وهو فى الجزائر أو عندما مر بمصر ثم فى الحجاز وحتى وصل الى برقة . . وقد أدرك أن الدولة العثمانية فى طريقها الى الانحـــلال والتدهور خاصة بعد أن عجزت عن مقاومة الغزو الفرسى لبلاده الجزائر عام ١٨٣٠م وبهذا أخذ عليها تقصيرها فى دمع الأذى عن أحد الأقطار الاسلامية ، واحقاقها فى الاضطلاع بالمسئولية الملقاة على عاتقها كدولة الخلافة والامامة العظمى ، وبسبب ما جرته على نفسها من ضعف وعجز ا

---

(٥٦) رحلة الحشائشى . ص ١٧٥ .

(٥٧) محمد الطيب الاشهب ، عمر المختار ص ٣٥ .

(٥٨) رحلة الحشائشى . ص ١٧٤ .

فهى مسئولة أيضا عن تمكين العناصر التركية من الغلبة على شعوبها العربية واقامة الحكومة الاستبدادية فى بلاد هذه الشعوب (٥٩) •

ورغم انتقاد صاحب الدعوة للدولة العثمانية بسبب سياستها نحو الأقطار العربية ، ورغم أنه صرح أنه يجب أن تكون الخلافة الاسلامية فى يد شريف قرشى — عربى من قريش ينتسب الى بيت الرسول مثله — الا أنه أدرك أنه من الخطأ مناصبتها العداء أو الخروج عليها ، حتى لا يدخل فى صراع معها يؤثر على دعوته كما حدث للدعوة الوهابية فى نجد ، ومن ثم رأيناه يتوغل فى الصحراء الليبية ليكون بعيدا عن المناطق الساحلية التى يحكم العثمانيون السيطرة عليها • ولم يبد من السيد السنوسى الكبير — صاحب الدعوة — من الأعمال والشعور ما يجعله عرضة للمؤاخذة : بل عمل على المحافظة على اظهار الولاء للخلافة العثمانية وسلطانها فى كل المناسبات والظروف(٦٠) •

وانطلاقا من هذا ضمن صاحب الدعوة للدولة العثمانية استقرار الأمور بين القبائل التى تنتشر بينها زواياه ، بل وضمن للحكم العثمانى المتمركز فى السواحل والمدن الليبية تحصيل الضرائب والقضاء بين الناس فى الصحارى الليبية ومن ثم كانت علاقة القبائل بالسنوسية لا بالدولة العثمانية وكان ذلك فى مصلحة البلاد ، فتأمين الضرائب كان يحول دون الحكومة العثمانية ومحاولة فرض سلطانها الأمر الذى كان من الممكن أن يؤدى الى ثورات كثيرة مسلحة واصطدام بين الحاكم والمحكوم ، كانت البلاد فى غنى عنه(٦١) • وقد ساعد على حسن العلاقة بين السنوسية والدولة العثمانية استمرار المراسلات بين صاحب الدعوة

---

(٥٩) د • محمد فؤاد شكرى • المرجع السابق ص ١٧ •

(٦٠) مصطفى بعيو • المرجع السابق ص ٦٩ •

(٦١) د • نقولا زيادة • ليبيا • ص ٧٧ •

والسلطان العثمانى ، فجاءت رسل السلطان الى محمد بن على السنوسى فى الجغبوب ، والى السيد المهدى فى الكفرة ، ووصلت الى استانبول رسل السنوسية .

ونتيجة للعلاقات الطيبة بين الطرفين منح السلطان عبد المجيد الأول السنوسية فى سنة ١٨٥٦ ، فرمانا يعفى جميع أملاكها من دفع الضرائب ويسمح لرئيسها بجمع الأعشار الدينية من أتباعها(٦٢) . وفى أيام السلطان عبد العزيز أخى السلطان عبد المجيد أرسل فرمان ثان الى حاكم طرابلس الغرب – الذى كانت برقة فى ايالته – ثبتت فيه امتيازات السنوسية ، وأضيف اليها أن اعتبرت الزوايا السنوسية «حمى» يمكن أن يلجأ الناس اليه (٦٣) .

وفى عهد السيد المهدى حرصت السنوسية على حسن العلاقة مع الدولة العثمانية دون الانغماس فى مشكلات الدولة العثمانية الخارجية ، فبينما اشتعلت الحرب بين تركيا وروسيا عام ١٨٧٧ م وطلب السلطان العثمانى من السيد المهدى امداده بقوات لمساعدة الدولة فى حربها ، لم يرفض السيد المهدى طلب السلطان ولكنه لم يشأ التدخل فى هذا النزاع المسلح ومن ثم انتهت الحرب بين الطرفين الروسى والعثمانى دون أن تصل نجدات عسكرية سنوسية .

وفى نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد الذى اعتلى العرش عام ١٨٧٦م على بقاء علاقات المودة مع السنوسية انطلاقا من رغبة السلطان فى احتواء الامارة السنوسية وغيرها من الامارات فى الوطن العربى تحت شعار الجامعة الاسلامية التى كانت هدفا لسياسته

---

(٦٢) مصطفى بعيو : المرجع السابق ص ٧١ .

(٦٣) د . نقولا زيادة : ليبيا ص ٧٦ .

نحو الأقطار العربية والشرقية فى مواجهة المد الاستعمارى المحيط بالدولة العثمانية التى نظر اليها الأوروبيون كرجل مريض يحتضر سرعان ما يفارق الحياة .

استمرت العلاقات طيبة بين السنوسية والعثمانيين حتى عام ١٨٨٨م . وكان من آثار دعم هذه الروابط بين السلطان والسيد المهدى أن وجدت الدعوة السنوسية أتباعا أقوياء لها فى الآستانة وفى بلاط السلطان بصفة خاصة ، وكذلك وجدت السنوسية أتباعا لها بين كبار رجال الدولة الآخرين ، كما لم يلبث أن عظم شأن شيوخها ومقدمى زواياها فى الأقطار الليبية ، بل صار بعض الولاة العثمانيين من الاخوان السنوسيين . وكان من أثر ازدياد سطوة السنوسية فى برقة وطرابلس أن الاخوان فى الزوايا الساحلية صاروا معفين رسميا من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية ، بينما كانوا لا يقدمون الى الحكومة فى الزوايا الأخرى الكبيرة فى طرابلس والخمس وبنغازى الا ما يرونه ملائما لمصالحهم (٦٤) . هذا بالاضافة الى أن السلطة الفعلية فى برقة بصفة خاصة دينية وزمنية صارت بيد شيوخ الزوايا السنوسية .

ولكن منذ عام ١٨٨٨م بدأت الشكوك تساور السلطان عبد الحميد فى نوايا وأغراض السيد المهدى وكان السلطان فى ذلك واقعا تحت تأثير دعايات الدول الأوروبية التى رأت فى امتداد السنوسية الى وسط وغرب أفريقيا ونشر الدين الاسلامى بين الأفارقة على يد السنوسيين ما يعارض ويعطل نشاط المبشرين المسيحيين وهم فى الواقع فرق استطلاع للدول الاستعمارية الأوروبية .

ونتيجة لوشايات الأوروبيين عند السلطان عبد الحميد ارسل الوفد الى مركز السيد المهدى فى الجغبوب للوقوف على مدى استعداده العسكرى ونشاطه الحربى ورغم أن هذه الوفود عادت الى

(٦٤) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٧٩ .

السلطان تطمئنه الا أن السيد المهدى رأى من الصواب ترك الجغبوب والانتقال الى الكفرة فى يونيو عام ١٨٩٥ م خصوصا بعد أن اتجهت اليه أنظار الدول الاستعمارية وكثرت شكاياتها من السنوسية ونشطت فى الآستانة مساعيها ضده ، كما أن السيد المهدى ساءته معاملة بعض مأمورى الترك والتنقيب عن السلاح وكبس زوايا السنوسية فى الجبل الأخضر ، وشاع أن الدولة أخذت تشتبه فى أمره وتتوجس خيفـــة ادعائه الخلافة(٦٥) .

ولم يكن الصفاء كاملا بين العثمانيين والسنوسيين . اذ رأينا الدولة العثمانية تصدر أوامرها الى موظفيهـــا فى ليبيا لجمـــع ضرائب على ما تنتجه أرض الزوايا خلال عام ١٩٠٤ وعام ١٩٠٨ م ، ولـــكن السنوسيين رفضوا بقوة مما جعل الدولة تعدل عن ذلك . وعندما حدثت الثورة التركية التى انتهت بخلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ م والتى قادها « جماعة الاتحاد والترقى » لم تكن السنوسية ترضى بما كانت ترمى اليه جمعية « تركيا الفتاة » من محاولة تتريك العرب أو امكان الغاء الخلافة (٦٦) .

وعندما حدث الغزو الايطالى لليبيا وقبول تركيا لمعاهدة أوشى (لوزان) مع ايطاليا عام ١٩١٢م التى سحبت تركيا بموجبها جنودها من ليبيا ، أذاع السلطان العثمانى منشورا يمنح فيه الليبيين استقلالهم وهو استقلال لا يملكه السلطان العثمانى بعد أن اعترف بالوجود الايطالى فى ليبيا ، رفض السيد أحمد الشريف زعيم السنوســية آنذاك هــذا الصلح وأعلن عدم قبول صلح يكون تسليم البلاد الى العدو ثمنا !» ، معنى هذا اظهار الغضب من تصرف الـــدولة العثمانية .. وحـــاول العثمانيون تخفيف صدمة موقفهم المتخاذل هذا أمام الايطاليين بايفاد

---

(٦٥) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٨٥ .

(٦٦) د . نقولا زيادة : المرجع السابق ص ٧٨ .

أنور باشا القائد العثمانى الى السيد أحمد الشريف فى الجغبوب ليبلغه اسناد أمر الأمة الليبية الى سيادته واخباره بأن الخليفة قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركا لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافـــع عن نفسها (٦٧) .

ولكن عندما صدرت الأوامر العثمانية الى القائد عزيز المصرى للانسحاب من برقة بجنوده الى السلوم حيث تنتظرهم باخرة تنقلهم الى تركيا ، عارض السنوسيون هذا الانسحاب واشتبكوا مع عزيز المصرى ، وكاد يحدث التحام كبـــير لولا أن عزيز المصرى استطاع الوصول الى السلوم وفى ١٦ يولية ١٩١٣ م بلغ الاسكندرية ومنها ذهب الى الآستانة (٦٨) .

ومما تجب الاشارة اليه أن محمد أحمد المهدى صاحب الثورة المعروفة فى السودان منذ عام ١٨٨١ م حاول أن يجذب اليه السيد محمد المهدى زعيم السنوسية واعدا اياه بوضعه فى مقام الخليفة الثالث (عثمان ابن عفان) فى نظير أن يشترك زعيم السنوسية فى محاربة الانجليز فى مصر والسودان . الا أن السيد المهدى رفض التعاون مع محمد أحمد المهدى ولا مع خليفته لأنه — أى الزعيم السنوسى — يعنى بالدعوة الى اصلاح الدين الحنيف سلما لا حربا بينمـــا تنفر الملة التى يراد احياؤها نفورا عظيما بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التى يهدرها والجرائم التى يرتكبها فى الســـودان مثـــل هذا المتمهدى ، ولذلك فانه لا يريد ولا يفكر فى أن يتدخل فى شىء مما يحدث (٦٩) .

---

(٦٧) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١٤٦ .

(٦٨) نفس المرجع ص ١٥٦ .

(٦٩) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

موقف السنوسية من القوى الأجنبية

كانت للسنوسـيـة مواقف من القـوى الأجنبيـة تتفـق مـع أطماع هذه القوى فى الأقطار العربية والاسلامية ، من ذلك موقفها من الفرنسيين فى الجزائر وغرب أفريقيا ، وموقفها من الأيطاليين فى ليبيا ، ومن الانجليز فى مصر ثم ليبيا • •

أولا ـ من فرنسـا :

أما موقف السنوسية من فرنسا فبدأ منذ احتلت القوات الفرنسية الجزائر أرض وبلد صاحب الدعوة نفسه ـ محمد بن على السنوسى ـ الذى شعر بالغضب عندما عاد من الحجاز ليجد الاحتلال الفرنسى قد اكتمل بالجزائر فآثر الانسحاب وعدم الاصطدام مع الاحتلال الفرنسى لأن عدم الحيطة والتعجل باجراء حركته قبل حلولها تنسف صروح أعماله العظيمة التى بناها وأنفق عليها جهوده الجبارة وعلق عليها آماله نسفا لا تقوم لها بعده قائمة • ولذلك أجل ذلك ـ مقاومة الفرنسيين ـ الى أن يصل العالم الاسلامى الى درجة الانتباه التام [٧٠] •

ولقد أبدى من مشاعر السخط على الدولة العثمانية الشىء الكثير بسبب ضعفها وتخاذلها فى مقاومة الغزو الفرنسى لبلاده الجزائر ، ومن ثم رأيناه فى زواياه يعد أتباعه اعدادا حربيا الى جانب الاعداد الدينى حتى يكون المسلمون على استعداد لمقاومة امتداد الأطماع الفرنسية خارج الجزائر ولمقاومة أية أطماع لأية دولة أوروبية أخرى • وعندما احتلت القوات الفرنسية تونس عام ١٨٨١ م وصارت تتوغل من غرب أفريقيـا الى وسـطها حتى وصـل نفوذها الى « واداى » التى كان للسنوسية فيها نفوذ كبير بفضل انتشار الزوايا السنوسـية والأتباع

---

(٧٠) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٥٤ .

الكثيرون هناك ، بات الصدام وشيكا بين السنوسيين من جهة وبين الفرنسيين من جهة أخرى (٧١) .

ذلك أنه بعد أن انتصر الفرنسيون على رابح السودانى — عام ١٩٠٠ م — الذى أقام له ملكا مستقلا منذ عام ١٨٩٠ م حول بحيرة تشاد، أدرك السنوسيون الخطر الفرنسى على نشاطهم فى واداى وغيرها من البلاد المجاورة وبسبب اقتراب الفرنسيين من الأراضى الليبية ، ومن ثم دارت الحرب بين السنوسيين وبين الفرنسيين ، وقاد السنوسيين سيدى محمد البرانى والسيد عمر المختار الا أنه ظهر منذ اللحظة الأولى أن الكفاح لم يكن متكافئا ، ولذا سرعان ما سقطت المراكز السنوسية فى أيدى الفرنسيين خلال سنتى ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، وانتهى الأمر بانسحاب السنوسيين نحو الشمال تاركين الجنوب غنيمة للفرنسيين (٧٢) .

وقد استمر الصراع بين السنوسيين والفرنسيين طويلا ومريرا بعد وفاة السيد المهدى وتسلم السيد أحمد الشريف امارة السنوسية فى عام ١٩٠٢ م ، وحتى عام ١٩١١ م عندما انشغلت السنوسية بالغزو الأيطالى لليبيا ، وتوقف الغزو الفرنسى عند حدود برقة الجنوبية بسبب الاتفاقات بين فرنسا وانجلترا منذ عام ١٨٩٨ م والتى تحدد الممتلكات الفرنسية والانجليزية فى غرب ووسط القارة الأفريقية .

ثانيا — من ايطاليا :

أما بالنسبة للأيطاليين فقد اشتبكت السنوسية مع قواتهم عندما نزلت الى الأرض الليبية عام ١٩١١ م وكانت مقاومة السنوسية

---

(٧١) د . زاهر رياض : استعمار أفريقيا ص ١٥٩ ..

(٧٢) هو رابح بن فضل الله احد رجال سليمان بن الزبير رحمت الزعيم السودانى . وبعد مقتل سليمان بايعاز من غوردون باشا حكمدار السودان بمن معه من رجال الى السلطات الاسلامية حول بحيرة تشاد واقام سلطنة عرفت باسمه .

للايطاليين مقاومة منظمة بحكم تنظيم الزوايا السنوسية ، فقـد كان لبوادر اليقظة الشعبية التى بذر السنوسى بزواياه وتعاليمها وجهود شيوخها بذرتها الأولى ، فقد هب الشعب الليبى ومنــذ الوهلة الأولى الدفاع عن أرض الوطن [٧٣] ، تحت زعامة السنوسية فى برقة بصفة خاصــة .

وكانت ايطاليا تدرك أن انتشار الزوايا السنوسية فى أنحاء عدة من ليبيا وغيرها من الأقطار العربية والأفريقية مما سيزيد من مقاومة السنوسيين للغزو الأيطالى ، وقد أوضحت تقارير عملاء وجواسيس السنيور جوليتى Giolitti — رئيس الوزارة الايطالية — فى ليبيا أن السنوسية عقيدة دينية قوية تتغلغل فى أعماق نفوس الليبيين فتطهرها لتجعل منها نفوسا سامية شامخة الهمة قوية العزيمة لا تعرف الخــوف ولا التردد وتضحى بكل شىء فى سبيل الله والوطن ، وهى تتميز بالنظام والدقة فى تنظيماتها القوية المتينة التى تشــبه التنظيمات العسكرية الحديثة [٧٤] .

واذا كانت تركيا قد عقدت مع ايطاليا معاهدة صــلح فى لوزان بسويسرا عام ١٩١٢ م تركت بمقتضاها الليبيين لمواجهة الغزو الايطالى الغاشم ، فان اخواننا الطرابلسيين — يقصد الليبيين —وعلى الخصوص السنوسيين منهم قد تحالفوا على مقاومة العدو ومقاتلته الى آخر رمق، وقد تواترت الأخبار بأنهم حشدوا زهاء العشرين ألف مقاتل مع ما يلزمهم من الزاد والذخيرة [٧٥] . ومن ثم أدار الســيد أحمد الشريف زعيم

---

(٧٣) محمد مصطفى بازامة : العدوان او الحرب بين ايطاليا وتركيا فى ليبيا ص ١٦١ .

(٧٤) خيفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها ص ٧٩ .

(٧٥) صفحات خالدة للمجاهد الليبى سليمان البارونى ص ٢١٣ .

السنوسية آنذاك الحرب ضد الأيطاليين ، وحتى عندما أصبح زعيم السنوسية السيد محمد ادريس عام ١٩١٨ واصل السنوسيون الجهاد المنظم ضد قوات الأحتلال الأيطالى فى برقة •

وقد بلغ من قوة وتنظيم السنوسية فى مقاومتها للاحتلال الأيطالى أن هذه المقاومة استمرت بقيادتهم فى برقة حتى عام ١٩٣١ م بعد أن عهد زعيم السنوسية بأمر قيادة الجهاد للقائد عمر المختار وانتقل هو الى مصر عام ١٩٢٢ م ، فى الوقت الذى توقف فيه الجهاد أو كاد فى طرابلس بعد سنوات قليلة من بدايته ، اذ أن المقاومة فى طرابلس كانت تتولاها القبائل الطرابلسية الكثيرة الخلافات والمنازعات فيما بينها • وخلال مقاومة السنوسية للأيطاليين استطاعت السنوسية أن تحصل من ايطاليا على اعتراف بقيام الأمارة السنوسية فى برقة خلال المفاوضات التى أدت الى اتفاق « الرجمة » فى أكتوبر ١٩٢٠ م •

ورغم نقض الأيطاليين للاتفاق فانه كان دليلا على اعتراف سلطات الاحتلال بمكانة السنوسية كقوة عسكرية وسياسية ، وقد ظلت القوات السنوسية تحارب القوات الأيطالية فى برقة حتى استشهد قائد السنوسيين عمر المختار عام ١٩٣١ م وظل عداء السنوسية للأيطاليين حتى اشتعلت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م وأصبحت ليبيا مسرحا للمعارك التى شارك فيها الليبيون مع قوات الحلفاء ضد القوات الأيطالية الألمانية المشتركة حتى جلت هذه القوات المشتركة عن الأرض الليبية عام ١٩٤٣ م

ثالثا — من انجلترا :

أما بالنسبة لانجلترا وموقف السنوسية منها فقد كانت تقف من السنوسية وانتشارها فى أفريقيا موقفا عدائيا وان لم يكن عداؤها صريحا أو مباشرا كالعداء الفرنسى ، ومن ذلك أن انجلترا سهلت لفرنسا

أثناء صدامها مع رابح السوداني والسنوسيين في وادای الانتقال مى مستعمراتها الأفريقية وقفل طريق السودان فی وجه أعداء فرنسا ، هذا على الرغم من أن السيد المهدى رفض التحالف مع محمد أحمد المهدى ضد انجلترا • وعندما أثارت تركيا السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية أثناء الحرب العالمية الأولى لتدبير حملة سنوسية ضد الانجليز فی مصر وفشلت هذه الحملة ، أدرك السيد محمد ادريس منذ عام ١٩١٦ م ضرورة عقد صلح بين السنوسية وبين انجلترا حتى تتفرغ السنوسية لمواجهة الخطر الأيطالى وحده •

ومن ثم اتصل السيد محمد ادريس بانجلترا التى طلبت أن يكون هناك فی نفس الوقت تفاوض بين السنوسيين وكل من ايطاليا وانجلترا، وبالفعل تم عقد اتفاقية الرجمة مع ايطاليا ، وعقد اتفاق السيد محمد ادريس وتالبوت الكولونيل الانجليزى ، ونص الاتفاق على أن يسلم السنوسيون جميع الرعايا البريطانيين والمصريين والتابعين لدول الحلفاء لبريطانيا ، وأن يقصى جميع الأشخاص الذين من شأنهم أن يعكروا صفو الاتفاق عن أفريقيا ، وأن يخرج جميع السنوسيين المسلحين من مصر وأن تفتح طريق السلوم — الاسكندرية (٧٦) •

وكان أبرز مواقف السنوسية من انجلترا عندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية وشاركت فيها انجلترا ضد ألمانيا وايطاليا ، وفی ميدان شمال أفريقيا ساهم السنوسيون مساهمة كبيرة الى جانب قوات الحلفاء الذين تتزعمهم انجلترا فی محاربة قوات المحور — ألمانيا وايطاليا — لدرجة أشاد بها الانجليز أنفسهم واعترفوا بأنه لولا مساعدة السنوسيين فی برقة للحلفاء لما استطاع هؤلاء الحلفاء أن يتغلبوا على قوات المحور بالصورة التى تمت بها •

---

(٧٦) د • نقولا زيادة : ليبيا ص ٩١ •

هذا الى جانب اشراف ضباط انجليز على تكوين الجيش السنوسى فى مصر منذ عام ١٩٤٠ م ، الذى شارك مع القوات البريطانية فى مطاردة العدو — قوات ايطاليا وألمانيا — واحتلال المواقع فى برقة الشمالية ، حتى اعترف المستر ايدن وزير الخارجية البريطانية فى ٨ يناير ١٩٤٢ م بأن الجيش السنوسى قام بمساعدات قيمة أثناء القيام بتلك العمليات الحربية الموفقة فى الصحراء الغربية فى شتاء عام ١٩٤٠ وعام ١٩٤١ م ، وهو الآن يقوم أيضا بنصيب قيم فى الحملة العسكرية الحالية فأنتهز هذه الفرصة لأعبر عن التقدير التام الذى تحمله حكومة صاحب الجلالة البريطانية للنصيب الذى قام به ومازال يقوم به السيد ادريس السنوسى وأتباعه فى المجهود البريطانى الحربى ، واننا نرحب بتعاونهم مع قوات صاحب الجلالة البريطانية فى مهمة سحق العدو المشترك ، وقد وطدت حكومة صاحب الجلالة البريطانية عزمها على أنه متى انتهت الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين فى برقة تحت النير الايطالى مرة أخرى بأى حال من الأحوال [٧٧] .

وبعد خروج الأيطاليين من ليبيا عام ١٩٤٣ م بقيت القوات الأنجليزية فى كل من برقة وطرابلس والقوات الفرنسية فى فزان حتى حصلت ليبيا على استقلالها فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ م ، وبهذا استمرت صلة السنوسية بانجلترا ، وهى الصلة التى ساعدت الأمير ادريس على اعلان استقلال برقة يونيو عام ١٩٤٩ م عندما تعثرت المفاوضات بين الطرابلسيين والسنوسيين حول وحدة ليبيا واستقلالها تحت زعامة الأمير محمد ادريس .. وعندما اتفقت كلمة معظم الليبيين على وحدة ليبيا وامارة محمد ادريس استمرت علاقة الدولة الجديدة التى يتزعمها الملك محد ادريس السنوسى ع انجلترا علاقة طيبة ومتينة .

---

(٧٧) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

تقييم الدعوة السنوسية

بدأت الدعوة السنوسية كما عرفنا على يد مؤسسها السيد محمد ابن على السنوسى الذى وضع التنظيم الذى سارت عليه فى أيامه وفى عهود خلفائه ، وقد ظل مؤسس الدعوة يشرف عليها حتى انتهت حياته فى اليوم السابع من شهر سبتمبر عام ١٨٥٩ م ودفن بزاوية الجغبوب ، وخلفه ابنه السيد محمد المهدى فى زعامة السنوسية يعاونه شقيقه السيد محمد الشريف ، وعندما توفى السيد المهدى عام ١٩٠٢ م خلفه السيد أحمد الشريف بن السيد محمد الشريف وصيا على الزعيم الشرعى السيد محمد ادريس بن السيد المهدى لصغر سنه ، وحصلت ليبيا على استقلالها وحكمت بيد السيد محمد ادريس الذى أطاحت به ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ م ٠

وفى تقييمنا للدعوة السنوسية يمكن أن نقول أنهـا كانت من الحركات الدينية الاصلاحية الرئيسية فى الأقطار العربية والاسلامية حيث دعت الى الرجوع الى الدين الاســلامى بأصوله دون تطرف أو شطط ، كما أنها لم تصطدم بالقوة الاسلامية المسيطرة فى العالم العربى آنذاك وأعنى الدولة العثمانية ، بالاضافة الى أنها كانت طريقة عمل بمعنى أنها وضعت مبادئها موضع التطبيق سواء فى التعليم أو نشر الدين الاسلامى صحيحا بين القبائل العربية والأفريقية ، واحلال الصلح والسلام محل البغضاء والحروب ومواجهة أعداء الاسلام سواء كانوا فرنسيين أو ايطاليين ٠

لقد استفاد محمد بن على السنوسى من رحلاته واحتكاكه بمختلف الفئات فى الأقطار التى زارها ، فنأى بنفسه وبدعوته عن الخوض فى خلافات جانبية تعوقه عن تحقيق أهداف دعوته ، فلم يستطيع المهديون

فى السودان جر السنوسية الى المشاركة فى ثورتهم الدموية والعدائية ضد مصر وتركيا ، وحافظت السنوسية على قوتها انتظارا للوقوف أمام العدو الطبيعى للأمة العربية والشعوب الاسلامية وهو الاستعمار الأوروبى الذى نزل بالجزائر عام ١٨٣٠ كمقدمة لزحفه الى أجزاء أخرى من الأقطار العربية والاسلامية كما تنبأ بذلك صاحب الدعوة السنوسية نفسه .

ومبعث نجاح الدعوة السنوسية أنها نشرت دعوتها عن طريق أداتها — الزوايا فى الحجاز — بالقرب من الدعوة الوهابية — وفى مصر وفى السودان الغربى — بالقرب من الخلاوات المهدوية — دون أن تصطدم بأى طرف ، ومن ثم لم يقدر لها الانهيار رغم كثرة الضربات التى وجهت اليها من قبل الفرنسيين ثم الأيطاليين . وانما استمرت مؤسساتها قائمة تؤدى رسالتها ، وما ذلك الا لأن السنوسية تغلغت فى النفوس وجعلت من البرقاويين خصوصا حماتها والمدافعين عنها .

* * *

الفصل الخامس

الدعوة المهـدية

- مقـــدمة
- ظروف السودان
- محمـد أحمـد
- أسس المهـدية
- أسلوب الدعـوة
- علاقة المهدية بالقوى الخارجية
- تقييم الدعوة المهـدية

مقـــدمة

هذا نموذج ثالث من نماذج اليقظة العربية الاسلامية كان القطر السوداني مسرحا له ، وانطلق من منطلق دينى أيضا بهـدف تحقيق اصلاح دينى سياسى واجتماعى للسودانيين يكون بداية لاصلاح أحوال العالم العربى والاسلامى ومواجهة القوى الاستعمارية المتربصة بالأقطار العربيــة •

وقد كانت شخصية محمد أحمد بن عبد الله الملقب بالمهدى المنتظر من القوة بحيث استطاع أن يجمع حوله الأنصار ، وان كان قد تجاوز الحدود المقبولة من جمهرة المسلمين بادعائه بأنه المهدى المنتظر وباباحة دماء وأموال الذين يرفضون الاعتراف بالمهدية •

وقد كان الصدام بين المهدية والحكم المصرى فى الخرطوم المسيطر عليه الأجانب سببا فى فشل دعوة المهدية الى جانب تجاوزات المهدى بالاضافة الى أن المهدية لم تنجح فى تكوين الكوادر العلمية الدينيــة التى تستطيع حمل الأمانة والرسالة حتى بعد وفاة المهدى •

واذا كانت الدعوة الوهابية قد نجحت فى الانتشار وفى اقامة الدولة السعودية بالجزيرة العربية • واذا كانت الدعوة السنوسية قـد نجحت فى الانتشار عن طريق زواياها فى برقة وطرابلس وبقية أقطار شمال وغرب أفريقيا حتى قامت دولة ليبيا المستقلة بزعامة الملك ادريس السنوسى ، فان المهدية لم تستطع أن تقيم دولة معترف بها رغم حكومة الخليفة عبد الله التعايشى قصيرة العمر،بل أن السودانيين أنفسهم رحبوا بالخلاص من المهدية والعودة الى الحكم المصرى •

ظروف الســودان

ولد محمد أحمد صاحب الحركة المهدية فى جزيرة لبب الى الجنوب من مدينة دنقلة بنحو ١٥ كيلو متر ، فى ١٢ أغسطس ١٨٤٤م ، ودنقلة مدينة تقع فى السودان الشمالى على نهر النيل ، وهى اقليم صحراوى نادر المطر ، وتسكنه الجماعات الحامية كالنوبيين الذين اختلطوا بالعرب وتأثروا بهم ، والى الجنوب من دنقلة نجد السودان الأوسط حيث المناخ الصحراوى يسود أيضا مع سقوط أمطار فى شهرى يوليو وأغسطس ويســكنه العرب الذين يحتلون دارفور وكردفان والخرطوم والنيــل الأزرق والأجزاء الجنوبية من كسلا [١] ويشتغل هؤلاء العرب بالزراعة حول النيل ورعى الأبل والبقر فى كردفان ودارفور ومن أشهر القبائل الرعوية البقارة فى وسط وجنوب كردفان .

تلك ظروف السودان الذى ظهر فيه محمد أحمد وعلى أرضه أعلن ثورته ، وتنقل بين أجزائه من دنقلة الى جزيرة آبا فى النيل الأبيض الى جبل قدير بجنوب كردفان ، فوسط كردفان فدارفور ثم الخرطوم ومعظمها أرض صحراوية تسكنها قبائل عربية بصــفاتها الاجتماعية الانتاجية ، وهذه القبائل العربية جاءت الى السودان من طريقين : الطريق الأول هو الباب الشمالى الذى يفضى الى مجرى النيل متابعا النهر من جنوب أسوان الى كرسكو ثم مخترقا صحراء العطمور مباشرة الى أبى حمــد ، ثم متابعا النهر مرة أخرى منتهيــا الى الجنوب [٢] والطريق الثانى هو الباب الشرقى المنحدر من ساحل البحر الأحمــر عبرته الهجرات من جزيرة العرب فى طريقها صوب الغرب الى السودان الأوسط [٣] .

---

(١) د . فيليب رفله : الجغرافية السياسية لافريقية ص ٢٩٢ .

(٢) د . حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ٣٠٤ .

(٣) د . محمد عوض : السودان الشمالى ص ١٥٩ .

وقد انقسمت هذه القبائل العربية الوافدة الى ثلاثة مجموعات : المجموعة الأولى هى مجموعة الجعليين وهى أكثر المجموعات العربية نفوذا وعددا • فقد انتشرت فى المنطقة الممتدة من وادى حلفا حتى جنوب أم درمان • والمجموعة الثانية هى مجموعة جهينة ، وهم عرب وفدوا الى مصر أولا حتى اذا كان القرن الرابع عشر الميلادى اتجهوا جنوبا نحو السودان حيث استقروا فى شرق السودان وعلى حدود الحبشة وفى الجهات الشرقية والوسطى من كردفان ، ومن أشهر قبائل هذه المجموعة الشكرية ، البقارة ، الكبابيش والمجموعة الثالثة تعرف بالكواهلة ومنازلهم فى العطبرة والنيل الأزرق وحول النيل الأبيض وكردفان فى الغرب •

وقد شاركت هذه المجموعات القبلية فى أحداث السودان الاجتماعية والسياسية ، فكونت بعض الأمارات العربية الخاضعة لنفوذ غيرها أكثر قوة أو المستقلة بأمرها ، وكان أشهر هذه الأمارات والسلطنات الاسلامية العربية سلطنتان احداهما على النيل الأزرق أسسها الفونج فى سنار ومؤسس هذه السلطنة وعاصمتها زعيم الفونج «عمارة دونقس» أول القرن العاشر أى سنة عشر بعد التسعمائة (٩١٠ هـ [٤] ١٥٠٥م) والسلطنة الأخرى عرفت بسلطة دارفور فى السودان الغربى • وقد ظل الفونج يعتمدون على مصر فى غذائهم الروحى ، فدرس نخبة من أبناء هذه الدولة فى الجامع الأزهر ثم عادوا الى بلادهم ينشرون بها ما تلقوه من علوم ومعارف دينية اسلامية [٥] •

ومما يلفت النظر أن القبائل العربية التى دخلت السودان لم يكن وسيلتها فى نشر الاسلام بين أهل البلاد التبشير أو الدعوة الى الدين • انما توسلت بالوسيلة الاجتماعية والتسرب السلمى ، بالأصهار الى

(٤) د • مكى شبيكه : مملكة الفونج الاسلامية ص ٢٢ •

(٥) د • السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص٢٤٨.

الشعوب المحلية ، ثم أفناه هذه الشعوب فى الدماء العربية الوافدة ، ثم اندماج هذه القبائل فى الحياة القبلية الجديدة [٦] . وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاندماج الاجتماعى اعتناق جيل المولدين دين الأمهات ودين القبيلة صاحبة النفوذ ، ثم ازدياد التيار الاسلامى عمقاً بمضى الزمن [٧] وقد ساعد على ذلك أن العرب لم يكونوا طبقة حاكمة متعالية ومنعزلة عن السكان الأصليين ، ولم يطالبوا بحكم ذاتى أو مملكة خاصة ولكن كانت لهم أحياؤهم الخاصة فى المدن الكبيرة ولهم قراهم الخاصة ، والدلائل واضحة على أنهم فى بعض المناطق خضعوا لحكام البلاد [٨] .

ظل السودان مجزءا حتى الفتح المصرى على يد محمد على أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر ، ورغم محاولات سـلطنة الفونج الأسلامية لتوحيد السودان تحت سيطرتها الا أنهـا فشلت أمام قوة سلطنة دارفور فى الغرب ، التى لم تستطع هى الأخرى ابتلاع مملكة الفونج وتوحيد السودان تحت سيطرتها هذا بالاضافة الى ظهور زعامات دينية صوفية متنافسة دون الأهتمام بأصول الدين وقواعده الأساسية ، ومن ثم سادت حياة السودانيين الأسلامية العاطفة والخرافات ، ونسب السودانيون الى رجال الدين المعجزات بل وقدسوهم أكثر من تقديس الأنبيـاء ، فى الوقت الذى ضعف فيه مسـتواهم العلمى فلم يكن باستطاعتهم التمييز بين الخرافات والعقيدة الصحيحة [٩] .

لم يكن مجىء قوات محمد على الى السودان عام ١٨٢٠ م بداية الاهتمام المصرى بالسودان ، بل ان العثمانيين فى مصر احتلوا بـلاد

---

(٦) عبد العزيز عبد المجيد : التربية فى السودان والاسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها جـ ١ ص ٢٥ .

(٧) د . حسن محمود : المرجع السابق ص ٣٣٩ .

(٨) د . مكى شبيكه : مملكة الفونج . ص ١٩ .

(٩) Hilleson : Anglo - Egyption Sudan. p. 101.

النوبة بعد احتلالهم لمصر واستقرارهم فيها ، بالأضافة الى احتلالهم لما أطلقوا عليه « ايالة الحبش » فى نفس الفترة تقريبا أى فى النصف الأول من القرن السادس عشر والحقوها بباشوية جدة كما أن المماليك فروا من مصر بعد مذبحة القلعة عام ١٨١١ الى السودان ، وحاولوا السيطرة على دنقلة والانتقال منها تدريجيا نحو الجنوب حتى تتم لهم الزعامة الكاملة [١٠] .

تم فتح أهم أجزاء السودان تقريبا عام ١٨٢٥ م ، ومنذ ذلك التــاريخ استمرت عمليات الفتح فى عهد محمــد على وخلفائه حتى استكملفى عهــد الخديوى اسماعيل وفى ظل الحكم المصرى أنشئت عاصمة للسودان هى مدينة الخرطوم عام ١٨٣٠ م وغيرها من المدن ، كما استقر الأمن فى ربوع السودان مما جعل النــاس ينصرفون الى أعمالهم فى الزراعة والتجارة والرعى ، كما أن الحكم المصرى شجع العلماء والمستكشفين للقيام بالرحلات العلمية لكشف منابع النيل وهى أمنية كانت تجول بخاطر محمد على وابنه ابراهيم وحققت أمل علماء الجغرافيا فى أوروبا ، ولكن استعانة الحكم المصرى وخاصة فى عهد الخديوى اسماعيل بالأجانب فى عمليات الكشف وفى حكم أقاليم السودان كان له تأثير سىء على السودانيين وعلى الحكم المصرى وبما أدى فى النهاية الى حدوث تلك الثورة التى قادها الفقيه محمد أحمد بن عبد الله .

ورغم الجهود التى بذلها الحكم المصرى فى الســـودان من أجل النهوض بالسودانيين فى مجالات التعليم والزراعة والصناعة واستخدام وسائل منظمة للنقل كخطوط السكك الحديدية ، وتوفير اصلاح ادارى ومالى يخدم السودانيين ، كل ذلك على نفس النسق الذى طبق فى مصر، الا أن هذه الجهود كانت تسير بخطى وئيدة تدريجية فى عهد محمد على ، ثم نجدها تكاد تتوقف فى عهد عباس وتعود لتنتعش فى أواخر

(١٠) د . حسن محمود : المرجع السابق ص ٣٨٣ .

عهد سعيد ثم تزدهر فى عهد اسماعيل الذى أسس ماعرف بالامبراطورية المصرية فى أفريقيا بعد أن استكمل فتح بقية أقاليم السودان وضم الصومال وســواحل البحر الأحمر العثمانية الى الحكم المصرى فى السودان .

ولكن مما قلل من الدور والمجهود المصرى فى الســودان تدفق الأوروبيين الى هذا الاقليم لأحكام السيطرة الاستعمارية عليه وليحققوا أهداف دولهم هناك ، فرأينا السير « صمويل بيكر » الانجليزى يعينــه اسماعيل مديرا لمديرية خط الأستواء لمدة خمس سنوات من ١٨٦٩ — ١٨٧٤ م يستثمرها لمصلحته مع ضم الأراضى المجاورة للمديرية ، وحل محله الجنرال غوردون Gordon الانجليزى أيضا الذى استولى باسم اسماعيل على منطقة حوض منابع النيل الأبيض بأسرها ، وصحب معه زمرة كبيرة من المغامرين الأوروبيين كالايطالى « روملوجيبسى » والألمانى دكتور « شنيتزر » الذى أسلم وسمى نفسه أمين ، والفرنسى لينــان والأمريكى « شاييه لونج » ، والسويسرى « منزنجر » الذى قاد التوسع المصرى فى أثيوبيا ، واســتولى على مناطق هــرر وزيلع وبربرة ، والدانماركى « أندروب » الذى اصطدام بقواته المصرية مع الأحباش واستولى على بعض الأقاليم الساحلية من أثيوبيا » .

وعندما عهد الخديوى اسماعيل بمنصب حاكم عام السودان لجنرال « غوردون » عام ١٨٧٧ م ، عين غوردون مكانه فى مديرية خط الأستواء أمين باشا « دكتور شنيتزر » حاكما عليها ، وعين زملاءه الأوروبيين حكاما على مديريات السودان الأخرى ، فأصبح الايطالى «روماوجيبسى» حاكما على مديرية كردفان ، والنمساوى « سلاطين » Slatin حاكما على مديرية دارفور ، والانجليزى « لبتون » حاكما لمديرية بحر الغزال ، وأصبح الألمانى « جيجلر » أقرب مساعد لغوردون .

وهكذا أصبح السودان قبيل اشتعال الثورة المهدية ، والذى كان رسميا تحت سلطة الحكومة المصرية ملكا لفئة من المغامرين الدوليين الطامعين فى الكسب ، ففرضـوا على أهل السـودان ضرائب باهظة لا تحتمل ، واتبعوا سياسة عنيفة فى محاربة تجارة الرقيق بصـورة ساعدت على انتشار السـخط على الحكم المصرى الذى أتى بالأجانب « الكفار » الى بلاد المسلمين فى السودان والتحكم فى رقاب أهل البلاد، خاصة والسودانيين مسلمين متمسكين أشد التمسك بدينهم وكانوا بطبيعة الحال لا يعترفون لغير المسـلم بأى حق فى ولاية أمورهم [11] ومن الطبيعى أن ينتج عن ذلك تجاوب السودانيين مع دعوة محمد أحمد الذى أعلن أنه جاء بصفته المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما.

محمـد أحمـد

هو محمد أحمد [12] بن عبد الله ، والده عبد الله كان نجارا يشتغل بصناعة السفن فى جزيرة « لبب » التى تبعد بنحو ١٥ كيلو مترا جنوب مدينة دنقلة [13] حيث ولد هناك محمد أحمد فى ١٢أغسطس عام ١٨٤٤م وتنقل مع والده من دنقلة الى شندى حتى حط بهم الرحال فى «كررى» شمالى أم درمان بقليل حيث توفى الوالد واسـتمر أبناؤه فى مزاولة صناعة بناء السفن فيما عدا محمد أحمد الذى مال نحو التعليم الدينى فدخل خلوة[14] القرية حيث تعلم القرآن الكريم ، ثم تنقل من «كررى» الى الخرطوم للاستزادة من العلم ، حيث سمع عن حلقات الشيخ محمد الدينية فى بربر فالتحق بها وأظهر تفوقا على أقرانه فى هذه الحلقات .

---

(١١) د . جلال يحيى : الثورة المهدية : ص ٥ .

(١٢) الاسم مكون من كلمتين محمد واحمد والاب اسمة عبد الله .

(١٣) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٩٠ .

(١٤) الخلوة تعنى المدرسة القرآنية : أو الزاوية التى يحتفظ بها طلاب العلم القرآن الكريم وبعض العلوم النقلية واللغوية .

وكانت حياة محمد أحمـد لا تقتصر على تلقى الدروس وانتظار ما يقدمه أهل الأحسان لطلاب العلم ، بل آل على نفسه منذ البدء أن ينقى النفس والبدن معا من الأدران وما يشتبه فيه فشيخه يتنـاول مرتبـا حكوميا من الذرة والمال ، ومثل هذا الرزق لا يضمن خلوه من الظلم والمحرمات فهو لا يبنى خلايا جسمه بالمشتبه فيه وما عليه الا أن يذهب فى بهيم الليل للصيد الحلال على شاطىء النهر لاصطياد السمك ، ويلقى فى سبيل ذلك من النصب ما يلاقى قبل أن يقع السـمك فى سنارته [١٥] كما أنه اشتغل بجمع الخشب وبيعه وذلك الى جانب دراسته الدينية [١٦] . كل ذلك الى جانب قضاء فترة من الليل فى التأمل والصلاة وتلاوة الأوراد ثم انضم الى السيد محمد الشريف نور الدايم شـيخ الطريقة السمانية [١٧] الذى سمح له بتكوين مريدين له رغم صغر سنه، وكان ذلك مما ساعده على التمرن فى الوعظ والارشاد [١٨] .

وانطلاقا من اتجاه محمد أحمد الانعزالى فقد آثر الابتعاد عن جو الخرطوم للاختلاء بعيدا للتأمل والتعبد فاتجه فى النيل الأبيض حتى جزيرة « آبا » عام ١٨٧١ م ذات الغابات المتشابكة وكان يسكنها عدد قليل من العرب الرحل وأنفار قلائل من « الشـلك » وهم سـكانها الأصليون [١٩] ، وكان هذا الجو ملائما لمحمد أحمد لكى يتعمق فى أمور الدين والدنيا ويفكر فى الكيفية التى تصلح بها أحوال المسـلمين فى الاتجاهين الدينى والدنيوى ، واختيار جزيرة آبا اختيار مناسب لكى

---

(١٥) د . مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٥١ .

(١٦) د . ابراهيم العدوى : يقظة السودان ص ٤٩ .

(١٧) احدى الطرق الصوفية التى ظهرت فى المدينة المنورة ونقلهـا الى السودان جد الشيخ محمد الشريف .

(١٨) د . جلال يحيى : الثورة المهدية ... ص ٢١ .

(١٩) د . مكى شبيكه : المرجع السابق ص ٢٥٣ .

تنطلق منه دعوة محمد أحمد التى عرفت باسم « المهدية » فى جزيرة بعيدة عن سلطة حكمدارية الخرطوم وأهلها يعيشون حياة قبلية وتنتشر بينهم الخرافات والبدع الى جانب تفشى الجهل والفقر بينهم مما يساعد صاحب الدعوة على نشر دعوته ويهيىء لها مناخ النجـاح ، خاصة اذا ارتبطت هـذه الظروف بمكونات شخصية محمـد الذى اذا صلى بكى واستبكى وأطال الوقوف والركوع والسجود واذا وعظ أثر فى النفس ، وعيشه عيش من زهدوا زخرف الدنيا واتجهوا بأنفسهم الى الأخرى[٢٠].

ذاع صيت محمد أحمد فى جزيرة « آبا » حتى أصبح ذكره على ألسنة كل من يتخذ من نهر النيل مجالا لعمله أو يسمع ممن زاروا «آبا» وكانت السفن النيلية المارة فى النيل الأبيض تتوقف عند الجزيرة حيث يسعى ركابها الى « الشيخ » لنوال بركاته ولتقديم الهدايا ليصرف منها على خلواته التى كثر عددها وعلى مريديه الذين ازداد عددهم ، مما ساعد على انتشار صيت هذا العابد المتصوف وسرت الأشاعات عن أنه يرى الرؤيا ويسمع الأصوات ، وكان هذا كافيا فى نظر العـامة من الأهالى الذين وجدوا فيه « المختار » من العناية الالهية لخلاصهم [٢١] .

استفاد محمد أحمد فى تعليمه الدينى من المشايخ الذين اتصل بهم وأخذ عليهم الدرس والطريقة ، وكما يذكر المثل « كل شيخ وله طريقة »، فقد تعلم على يد الشيخ محمد الخير ما استطاع أن ينهله من علوم النحو والتوحيد والفقه والتصوف ، وأخذ عن الشيخ محمد الشريف ولد نور الدايم مزيدا من الدروس فى العلوم الشرعية والتصوف على الطريقة السمانية واستمر محمد أحمد متصلا بشيخه محمد شريف بعد انتقال الأول الى آبا حتى حدثت جفوة بين الرجلين بسبب ازدياد شهرة التلميذ عن أستاذه ، فدخل محمد أحمد فى طريقة الشـيخ القرشى ود الزين

(٢٠) نفس المرجع والصفحة .

(٢١) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٢ .

بأرض الجزيرة ــ بين النيلين الأبيض والأزرق ــ وكان الشيخ القرشى من أتباع الطريقة السمانية ولكنه كان فى نظر محمد أحمد قائما بشروط الطريقة دون شبهة •

ورغم أن شهرة محمد أحمد آنذاك لم تكن فى حاجة الى شيخ غير أنه رأى من مستلزمات الطريق وهو لا يزال شابا دون الأربعين أن يعتمد على شيخ له قدم راسخ فى الحياة الصوفية ، وأبدى بالرغم من ذيوع صيته من الخضوع والانكسار لشيخه الجديد مثلما كان يبديه لأستاذه الأول (٢٢) • ولم تطل اقامة محمد أحمد كثيرا مع أستاذه الشيخ القرشى بسبب وفاة الأستاذ فعاد محمد أحمد الى جزيرة آبا لكى يستكمل بناء أسس دعوته •• ولا شك أن هذا الترحال ودخوله فى احــدى الطرق الصوفية ثم خروجه منها كان أحسن وسيلة للدعاية له ولفكرته وللعمل على تكوين جماعة جديدة تأتمر بأمره وتنفذ ارشاداته (٢٣) •

وكانت ارشادات محمد أحمد وأوامره هى ما يمكن أن نسميه أسس دعوته أو ثورته ضد الحكمدارية ــ أى ضد الحكم المصرى الخاضــع لنفوذ الأجانب فى السودان ــ وتلك الأسس لم تكن بدعة ابتدعها محمد أحمد وانما سبقه اليها أصحاب الحركات السلفية الأخرى : الوهابية والسنوسية ، وأعنى •• دعوة دينية ودنيوية فى نفس الوقت أى تنقية الدين الاسلامى مما شابه من خرافات وبدع فى نفس الوقت اشاعة نوع من الحكم العادل فى ظل امام عادل تفرزه الدعوة أو الطريقة ، أو بعبارة أخرى تصبح الدعوة دين ودولة •

* * *

(٢٢) د . مكى شبيكه : المرجع السابق ص ٢٥٤ •

(٢٣) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٢ •

أسس المهـدية

ظل محمد أحمد يلقب بالفقيه حتى ذاع صيته بجزيرة آبا حيث أعلن اختيار لقب « المهدى المنتظر » وصار يعرف به منذ ذلك الحين ، وهـذا اللقب استند فى رأى المهدى الى الآية الكريمة « يهدى الله لنوره من يشاء » فهو المهدى من عند الله أى شـاء الله له الهدى ، ولا جدال فى لقب المهـدى ينطبق تمام الانطباق على الامام محمد أحمد فى جهاده للعودة الى بساطة الاسلام وللقيام باصلاحات سياسية بين أهالى السودان فى تلك الفترة • ولكن اعتباره على أنه هو المهدى المنتظر كان شيئا آخر مختلفا تمام الاختلاف[٢٣] ذلك أنه بهذا الادعاء الذى يصور نفسه بأنه الشخصية المتواتر فى الأخبار نزولها فى آخر الزمان بعد أن تمتلىء الأرض فسقا وظلما وشرا ليملأ الأرض من جديد بالعدل والخير والرحمة والأمان ، قد صور دعوته بصورة تبعدها عن جوهرها الأصلى وتثير ثائرة المسلمين خارج السودان وتتهمه بالكفر والخروج عن الاسـلام الذى يدعى أنه انما جاء لحمايته واصلاح أحوال المسلمين •

وقد تمثلت أسس الدعوة المهدية فى الاصلاح الدينى ، والاصلاح السياسى والاصلاح الاجتماعى للمسلمين فى السودان وخارج السودان ، نسوقها فيما يلى •

أولا : الاصلاح الدينى :

تتمثل المهدية فى العودة بالتشريع الى عهوده الزاهرة ، الى عصر الاجتهاد الأول قبل افتراق الكلمة وظهور المذاهب الأربعة • وقال فى ذلك ان الاجتهاد هو الوسيلة الوحيدة لتقويم السنة والهجرة بالدين

(٢٤) د • جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٥ •

مما عليه من الانطباعات الزمنية[٢٥] . أى أنه هاجم توزع المسلمين بين أربعة مذاهب شافعية ومالكية وحنفية وحنابلة ثم تفرقهم بعد ذلك بين طرق صوفية مختلفة لم يؤد الا الى اضعاف الاسلام ، ووجد أن الطريق الى الله واضح جلى فى كل من القرآن والسنة وأن معرفتهما كافية للمؤمن الحق[٢٦] ، ومن ثم دعا الى الاجتهاد فى الاسلام قائلا : وما العبد الا الأعمال الموافقة للسنة والكتاب ، من لم يجتهد على ذلك بشق الأنفس خسر الدارين[٢٧] .

وأضاف المهدى الى فتح باب الاجتهاد فى الاسلام اقامة الحدود الشرعية مثل قطع يد السارق ، ورجم الزانى ، بل ينتهج طريقة المرابطين حين يعاقب على ترك الصلاة[٢٨] . وهاجم الفقهاء من رجال الدين وأحرق كل كتب الفقه والتفسير ، وحرم على أنصاره استخدام فاحش القول وشرب الخمر وتدخين الطباق والحشيش وكذلك الرقص والاستماع الى الموسيقى وأوصى بتبسيط حفلات الزواج[٢٩] . وبمعنى أوسع كانت المهدية تدعو الى تطبيق الشريعة الاسلامية فى السودان ، وأن الكفر بالمهدية كفر حيث قال : من شك فى مهديتنا وأنكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة[٣٠] .

وقد اتفقت المهــدية مع الوهابية فى ضرورة فرض الاصلاحات الدينية ولا تترك اختيارا للناس وقد تجلى ذلك فى نص البيعة التى

---

(٢٥) نعوم شقير : تاريخ السودان جـ ٣ ص ١٣٧ .

(٢٦) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٣ .

(٢٧) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٤٥ .

(٢٨) عبد المجيد عابدين : **الثقافة العربية فى السودان** ص ١٢٤ .

(٢٩) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٤ .

(٣٠) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٧ .

يبايعه بها مريدوه حيث تقول كلماتها : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله ، أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله ، وألا تشرك به أحداً ولا تسرق ولا تزنى ، ولا تأتى ببهتان ولا تعطيل فى معروف ، بايعناك على زهد الدنيا والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة ، وعلى أن تفرض الجهاد[٣١] .

معنى هـذا أن المهدى تشبه بمحمد بن عبد الوهاب فى التمسك بمبادىء التوحيد ، وجعل التعبد لله وحده ، وتحريم التطلع للأولياء وزيارة قبورهم ، والامتناع عن شرب الدخان ، وتوجيه الناس الى الكتاب والسنة ومحاربة البدع ، وغير ذلك كفرض الزكاة والعشـور وتوزيع الغنيمة والفيىء توزيعا شرعيا ، وتعيين القضاة الفصل فى الأمور الشرعية ، وهـذه كلها محاولات مخلصة للاصلاح لكنها كانت تتطلب الاستعانة بالعلم الأصيل والدراسة الفقهية العميقة ، والتعمق فى فهم النصوص التى وردت فى القرآن والسنة ، ومحاولة الاستنباط استنباطا يفوق جمهرة التابعين[٣٢] .

ثانيا : الاصلاح السياسى :

آمن المهدى بارتباط الدين بالسـياسة أى بين الظواهر الدينية والأمور السياسية اذ أنه قد اعتبر هذين الميدانين متصلين ومرتبطين أحدهما بالآخر تمام الارتباط كما كان عليه الحال فى العصور الاسلامية الأولى فكان رأس الدولة هو أمير المؤمنين وامامهم ، وكان على هـذا الشعب أن يطيعه ما لم يوصه بمعصية الخالق . وكان يهدف الى هدم الحكومة القائمة أولا ثم اقامة حكومة أخرى دينية فى مكانها تعمل على تطبيق الشريعة ، ويصبح هو رئيسها الدينى والزمنى[٣٣] .

---

(٣١) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ١٣٩ .
(٣٢) د . حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص٤٠٨
(٣٣) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٤ — ٢٥ .

ولم يتوجه محمد أحمد الى الحكومة القائمة بمبادئه الاصلاحية لأنه أخذ على رجال الحكم ابتعادهم عن تعاليم الاسلام ، وصار مقتنعا بأن النقمة تسود البلاد من أقصاها الى أقصاها ، فقد كان ثمة استياء من انغماس السلطات المصرية — الحاكمة في السودان — في الرشوة ، ومن توزيع الضرائب الثقيلة الى أبعد الحدود توزيعا غير عادل وجبايتها بالقوة وبالعنف — على يد الموظفين الأوروبيين والأتراك — أضف الى ذلك أن الحكومة المصرية كانت قد أعلنت الغاء الرقيق تحت ضغط الحكومة البريطانية الوصية عليها ، وبذلك أصيبت الحياة الاقتصادية كلها بالاضطراب(٣٤) وهكذا استغل المهدى هذه الظروف لتحقيق أهدافه ، فأنه مهما تكن ادعاءات المهدى الدينية — كما ذكر لورد دوفرين السفير الانجليزى فى القسطنطينية الى اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية فى ١٤ ديسمبر ١٨٨٣ م — فان قوته الرئيسية انما جاءت من بؤس ويأس السكان الوطنيين(٣٥) .

كان على المهدى اذن أن يستغل الحماسة الدينية للأهالى المتعصبين بشجاعة للمهدية ، وكراهيتهم العنيدة — للحكم المصرى — التى نشأت بسبب سوء الادارة لفترة طويلة(٣٦) وبسبب استخدام البريطانيين فى عمليات التوسع والحكم المصرى فى السودان(٣٧) ، فى الاطاحة بهذا الحكم واقامة الأمامة السياسية والدينية بزعامته وتحت لوائه ، ولقد أوضح تأثير النفوذ الأوروبى على الحكم بما أساء الى المسلمين فى السودان كتبه التى وجهها الى زعماء الأقطار العربية والاسلامية . فقد ذكر للخديوى توفيق ما نصه : واماتة ما حدث من البدع والضلال

---

(٣٤) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٦٤١ — ٦٤٢ .

(٣٥) Hamilton, : The Anglo — Egyptian Sudan , p. 67.

(٣٦) Cromer : Modern Egypt, Chap XIX, p. 276.

(٣٧) Sudan Notes & Records ; Vol. XL, 1959. p. 79.

والأنابة اليه تعالى فى كل الأحوال وقد تأكد فى هــذا الزمان الذى عم فيه الفساد سائر البلدان ، فان دسائس أهل الكفر التى أدخلوها على أهل الاسلام وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الأنام ، قد أفضت الى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين ، فصارت شـــعائر الاسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات ، وانتشرت البدع ، وأبيحت محارم الاسلام(٣٨) .

ومعنى هــذا أن المهدى يلقى باللائمة على الأوروبيين فيما حدث للدين الاسلامى وللمسلمين من أحداث بدلت أحوالهم الى الأسوأ ، وخاصة الانجليز الذين سيطروا على الأمور حتى فى مصر ذاتها وهاجم توفيق باشا لأنه أحل الانجليز الذين جاءوا بكبرهم وخيلائهم ، الدماء والأموال والأعراض ، وهــذا ليس من صفات الحاكم العادل المسلم الحق .. وأن الاسلام يدعو الى طرد هــذا العدو ، وأن يكون المسلمون يدا واحدة على اقامة الدين واخراج أعداء الله من بلاد المسلمين لأن هؤلاء الأعداء قد ظلموا أمة محمد ، وأن رد الظلم لا يتم الا بالقضاء عليــــه(٣٩) .

ولم يكتف المهدى بالدعوة لطرد الأوروبيين بل طالب بطرد المصريين من السودان باعتبار ذلك الوسيلة التى يمكن عن طريقها تقرير العدالة ورفع الظلم وليملأ السودانيون المناصب التى كان الأوروبيون والمصريون يشغلونها ، ومن ثم أعلن وجوب الامتناع عن دفع أية ضريبة غير العشور أو الزكاة فقط التى نص عليهـــا الكتاب الكريم . ثم دعا الى شـــيوع الملكية فلا يستأثر مؤمن بمال أو عقار دون أخيه المؤمن ، بل يجرى توزيع الثروة على الجميع بالتساوى(٤٠) .

---

(٣٨) Holt; Mahdiya, p. 184.

(٣٩) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٧٤ .

(٤٠) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٩١ .

ولا شك أن هـــذه الاصلاحات والمطالب تســـتهوى كثيرين من السودانيين وخاصة الفقراء الذين رأوا فى الدعوة المهدية تحقيقا لآمالهم واصلاحا لشأنهم ، وان كان الأغنياء من السودانيين قد ساءتهم دعوته لشيوع الملكية ، الا أن الخلاص من الحكم المصرى كان معناه الخلاص من سيطرة الأجانب والأتراك فى محاربة تجارة الرقيق واحتكار الاتجار فى السلع المهمة بالسودان ، وخلو المناصب والوظائف ليشغلها أبناء السودانيين ، وغير ذلك من المكاسب المعنوية التى ستعود على السودانيين من انتهاء الحكم المصرى واقامة حكم يتزعمه محمد أحمد المهدى •

وكان من الزعماء القبليين الذين استجابوا لدعوة المهدى وأقبلوا عليه بجزيرة آبا عبد الله التعايشى أخطر زعماء قبائل البقارة شأنا وأشدهم بأسا ، وهـــذه القبائل تسكن فى كردفان ، وهى قبائل عربية ساخطة على الحكم المصرى بسبب ملاحقـــة الحكومة لهم بالمطاردة والمصادرة لتجارتهم فى الرقيق وهم أكبر من يملكون الرقيق ويتاجرون فيه ، ومن ثم كانوا مستعدين للثورة أكثر من غيرهم ، وعندما قدم المهدى الى كردفان والتقى بزعماء القبائل هناك وعلى رأسهم زعماء قبائل البقارة عاد مقتنعا بتأييد هـــذه القبائل لدعوته ، ولقى تأييدا قويا من عبد الله التعايشى الذى حاول أن يجعل محمد أحمد يعلن أنه « المهدى المنتظر » على شريطة أن يستوزره[41] •

ورغم وجود ساخطين على الحكم المصرى الا أن المهدى لم يستطع أن يدفع بكل السودانيين للثورة ضد هـــذا الحكم ، لأن من السودانيين من كان يعزو ما أصابهم من أذى وضرر الى عمال الحكومة الأجانب والأوروبيين « الكفار » وأذنابهم والضالعين معهم من مواطنيهم أنفسهم ، مما عدوا حكومة المصريين براء منه ، ولا يسوغ شرعا الثورة عليها ،

---

(٤١) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٩٢ •

وتمسك كثيرون من كبار السودانيين بالولاء لها ، وكان لهؤلاء نفوذ ملحوظ على أتباعهم وكانت كلمتهم مسموعة(٤٢) .

ولكن المهدى استطاع أن يتغلب على معارضة هؤلاء لثورته بالقاء تبعات تلك المظالم والمصائب على عاتق الحكومة المصرية لأنها استخدمت أولئك الأجانب والدخلاء وولتهم أمور العباد فحكموا سيوفهم فى رقابهم وأتوا ما أتوه من الظلم وقتل النفوس وهتك الأعراض ، وهب أنهـا لا تسىء الظن فيهم ولا تعتقد أنهم يتطوحون مثل ذلك التطوح ويأتون كل تلك المنكرات والموبقات ، فهل لم يكن من الواجب أن تتجسس أعمالهم وتتنسم أخبارهم ، حاسبة السودان عضوا من أعضائها يؤلمها ما يؤلمه ، لا ريب فى ذلك ولا مراء ، لكنها أهملت هـذا الواجب ، كان اهمالها دليلا على تركها حبلها على غاربها ، وترك مقادير السودان تجرى فى أعنتها ، اذن ليس بدعا انتقاض أهل السودان عليها ، بل البدع والغرابة أن لا ينتقضوا ويثوروا لخلع ذلك النير القاسى ، وقلب تلك الهيئـة الحاكمة التى أبلغت أرواحهم حناجرهم وأحرجتهم فأخرجتهم ، ولم تعمل عمـلا يصلح دنياهم ويستجلب رضاهم بل وكلت أمورهم الى أناس يعتبرون السود أرقاء ويفرقونهم عن العجماوات ، ومن العبث أن يرضى المرء بالهوان والشقاء اذا كان قادرا على اصلاح حاله واسعاد ماله(٤٣) .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن دعوة المهدية كانت حركة عالمية تريد أن تمديد الاصلاح الى الأقطار الاسلامية كلها ، ويظهر ذلك من كتب المهدى ثم كتب خليفته عبد الله التعايشى الى الملوك والزعماء فى الأقطار العربية والاسلامية ، وقد اهتز لحركته المسلمون جميعا ورأوا فيها رغبة مخلصة لاصلاح أحوال المسلمين ، وقد جاءته الوفود من مصر والحجاز والهند وبلاد المغرب(٤٤) . كما تظهر تلك الدعوة العالمية من

(٤٢) نفس المرجع : ونفس الصفحة .
(٤٣) محمود القبانى : السودان المصرى والانجليز ص ٢٦ .
(٤٤) د . حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٩ .

فكرته بتأسيس دولة اســـلامية مترامية الأطراف تكون عاصــمتها مكة المكرمة .

ثالثا : الاصلاح الاجتماعى :

ينتسب محمد أحمد الى القبائل العربية الذين اختلطوا بالدماء النوبية ، ويذهب البعض الى أن أصله مصرى ، وأن موطن أسلافه فى مديرية أســوان[٤٥] ، وعلى أية حال فان انتماءه الى قبائل الكنوز النوبيين ، وانحداره من الكنوز كان له أهمية خاصـــة فى حياته ، فالكنوز ينتمون الى آل البيت ، ومن هنا كان انتساب المهدى الى البيت النبوى ، وكان لنسبه هــذا أثر كبير فى نجاح دعوته وتأليف القلوب حوله[٤٦] . والمهم فى ذلك أنه لم ينتسب لأحدى المجموعتين القبليتين العربيتين الكبيرتين فى السودان وهما الجهينية والجعلية فتجنب بذلك عداء من مجموعة لم ينتسب اليها ، واتجه بدعوته الى التنظيمات القبلية التى سارعت الى تأييــده كما رأينا بالنســبة لموقف قبائل البقــارة فى كردفان .

وانطلاقا من اختلاطه بالناس على جميع المستويات أثناء ترحاله فى طلب العلم أدرك مدى ما يقاسونه من مظالم وفقر وبؤس ، ومدى ما هم فيه من ضلالة وخرافات ، فشارك الدعوة السنوسية فى تبسيطها لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية مثل خفض المهر — عند الزواج — ومنع النساء من لبس الذهب والفضة ، والنهى عن شعر العارية أى خروج النسوة مكشوفات الرأس وعدم الاحتفال بالأعراس ومنع البكاء وراء الميت وابطال السحر والتعزيم[٤٧] ، وكل تلك مبادىء اجتماعية رأى

---

(٤٥) عبــد الرحمن الرافعى : مصر والســودان فى أوائل عهــد الاحتلال ص ١١٥ .

(٤٦) د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٣ .

(٤٧) نفس المرجع ص ٤٠٨ .

أنهـا تنقى المجتمع من الخرافات وتقـوى من عوده لكى يواجـه الحكام الظالمين .

اعتمد محمد أحمد منذ البداية على التنظيمات القبلية لانجاح دعوته ، ومن بعده سار خليفته عبد الله التعايشى على نفس السياسة . ومن ثم وجدنا المهدى لكى يزيد من أنصاره يحاول استرضاء القبائل كأباحة تجارة الرقيق بعد أن كانت الحكومة تحرم هـذه التجارة ، لأن تجار الرقيق كانوا يمثلون فى البلاد طبقة قوية من الأعيان والتجار الذين كانوا سـادة السودانيين الحقيقيين ، والذين رأوا فى الدعوة المهدية ما يحقق مصالحهم ، هـذا بالاضافة الى جهل الأهالى وسرعة تصديقهم للخرافات والأوهام واعتقادهم من قبل بقرب ظهور المهدى المنتظر ، فأقبلوا على دعاوى محمد أحمد يصدقونها ويؤمنون بها دون تفكير ولا تحقيق[٤٨] .

كان هـذا هو الأساس الاجتماعى للمهدية ، وهو أساس يستند الى جهل الناس وتصديقهم لما يلقى اليهم من الفقهاء أمثال محمد أحمد ، والى التنظيمات القبلية التى ساءها محاربة الحكومة لأرزاقها فى تجارة الرقيق واحتكار تجارة السلع الأخرى المهمة كالعاج مما زاد من سخط زعماء هـذه القبائل على الحكومة ، ومن ثم يمكن انضمامها الى دعوة محمد أحد للثورة على الحكومة .

* * *

(٤٨) عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق ص ١١١ .

أسـلوب الدعـوة

عول محمد أحمد من البداية على استخدام أسلوب الثورة لتحقيق مبادئه وأهدافه الدينية والسياسية والشخصية ، فاعتبر الجهاد ضد الحكومة وموظفيها جهاد فى سبيل الدين ، وكان محمد أحمد قد بدأ فى يوليو ١٨٨٠ م دعوته بطريقة سرية بالكتابة الى رجال الدين من مشايخ الطرق الصوفية بأسلوب غير صريح ، وانما لمح لهم فى كتبه الى أسس دعوته ، فبعضهم آمن واستعد الى صدور الأمر ، وبعضهم كفر بالدعوى ولم يعرها اهتماما .

ولكنه فى العام التالى — يونيو ١٨٨١ م — وجه كتبا صريحة الى رجال الدين يدعوهم لنصرة الدين والقيام لتأييد المهدية الكبرى التى خصه الله تعالى بها وعلى نصرة الكتاب والسنة ، وأخبرهم أنه أمر باعلانها وسيمشى النصر بين يديه[٤٩] وكتب الى المشايخ من مريديه وأصدقائه أنه رأى النبى الكريم عليه الصلاة والسـلام فى المنام ، وأنه عهد اليه احياء الاسلام ودعاهم الى الحضـور اليه فى جزيرة « آبا »[٥٠] .

وعندما بدأت دعوة المهدية الى المشايخ والعلماء وشى به أستاذه السابق الشيخ محمد شريف شيخ الطريقة السمانية الى رؤوف باشا حكمدار السودان الذى لم يعر الموضوع اهتماما جديا لأنه لم يتعود ولا من كانوا قبله من الحكـام أن يقوم درويش فقير ضعيف القوة والعون بمناصبة الحكومة العـداء بنفوذها وسيطرتها أو لعل هـذا الشيخ ان صح ما نسب اليه كتب ما كتب وادعى ما ادعى فى حالة

(٤٩) مكى شبيكه : المرجع السابق ص ١١٦ .

(٥٠) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٦ .

جذب قد تعترى مثــله من الدراويش أحيــانا[٥١] ومع ذلك أرسل رؤوف باشا رســولا يستطلع حقيقة الأمر ويستدعى هــذا الفقيه لمقابلة الحكمدار ، ولكن المهدى رفض الحضور الى الخرطوم ·

أدرك محمد أحمد أن دعوته فى خطر بعد موقفه هذا من الحكومة ، وتيقن أنها لكى تنجح عليه أن يعلن الثورة ضد الحكومة ويستعد لمقاومة رجال الحكم المصريين ، ومن هنا انتقلت الدعوة المهدية من المكاتبات الى الزعماء والمشايخ الى الثورة ضد الحكومة وتشكيل فرق الأنصار للمقاومة التى تبدأ بما عرف بموقعة آبا فى ١٢ أغسطس ١٨٨١ م والتى وقعت بين مائتين من جند الحكومة وبين حوالى أربعة آلاف من أنصار المهدى الذين عرفوا بالدراويش وكانت النتيجة هلاك معظم جند الحكومة ··

كانت معركة آبا أول صدام بين الطرفين ، وحينما جاءت نتيجته لصالح المهدية وضــد الحكومة فقد استغله المهدى فى انجاح دعوته وزيادة أنصاره ، كما ساعد هــذا الانتصار على قوات الحكومة بدون شك على أن يزداد ولاء أنصار المهدى له واعتقادهم بأنه مبعوث العناية الألهية ، وأنه مؤيد منها فى انتصاره على الحكومة[٥٢] ، وأن عليــه مواصلة السير لتخليص السودان من الحكومة القائمة لتحل محلها حكومة المهدية بمبادئها المؤيدة من الله ·

كانت موقعة آبا[٥٣] أول أحداث الثورة المهدية ضد الحكم المصرى

---

(٥١) مكى شبيكه : المرجع السابق ص ٢٥٥ ·

(٥٢) د · جلال يحيى : الثورة المهدية ص ٢٧ ·

(٥٣) كان جند المهدى فى المعركة يحملون خمس رايات كتب على كل منها عبــارة « لا اله الا الله محمد رســول الله » وعلى احداها أضيف « الجيلانى ولى الله » والثانية « الرفاعى ولى الله » والثالثة « ابراهيم الدسوقى ولى الله » والرابعة « أحمد البدوى ولى الله » والخامسة كتب عليها وعلى الرايات الأربع : « محمد المهدى خليفة رسول الله » فكانت تلك =

هناك ، وقد نبهت هـذه الموقعة الحكومة المصرية فى القاهرة الى حدوث ثورة — لم يعرفوا حقيقة قوتها — فى السودان وأنه يجب على حكمدار السودان القضاء عليها بسرعة لأن القاهرة مشغولة بالحركة العرابية ، كما نبهت هـذه الموقعة محمد أحمد بأن الحكومة لن تتركه يستقر فى جزيرة آبا ، ومن ثم عول على الهجـرة الى جبال النوبة فى جنوب كردفان حيث يكون هناك بعيدا عن متناول يد الحكومة ، واذا ما قصدته أية قوة تلاقى نصبا فى الوصول اليه ، والهجرة الى مكان يكون فيه قوام الدين ورد فى كل خطاباته سواء منها الأولى بالتلميح أو الصريحة باعلان مهديته[٥٤] .

وقد أدى هـذا الانسحاب الى جبال النوبة — وخاصة الى جبل قدير أوعر المناطق فى تلك الجبال — الى زيادة نفوذ المهدى لأنه وقع بعد انتصاره على الحكومة واعتبره المهديون هجرة تشبه هجرة الرسول من مكة الى المدينة ، وأعطى المهدى لقب « الأنصار » الى أعوانه الذين استقبلوه عند وصوله تشبها بالرسول فى هجرته وسمى من صحبه فى هجرته باسم المهاجرين[٥٥] وفى مكمنه الجديد انتصر على قوة حكومية أخرى بقيادة راشـد بك مدير فاشودة فى ٩ ديسـمبر ١٨٨١ م ، وقد انتشر خبر هـذا الانتصار أيضا ليقضى على تردد بعض السودانيين

= اللحظة الفارق بين الطريقة والمهدية ما بين المسالمة والجهاد ، وقد اصبح اسـمه بعدها محمد المهدى بدلا من الشيخ محمد احمد مكى . شبيكه .. ص ٢٥٨ .

(٥٤) روى رءوف باشا قصة الواقعة مختصرة فى تلغراف للحكومة المصرية جاء فيه « قصدت القوة محل اقامته — المهدى — لضبطه فوجدوا بعض اشخاص بهيئة دراويش ينفون عن المـائتين نفر مجتمعين وشاهرين بوارقهم ، فعند ذلك أمرهم الريس بضربهم بالرصـاص فلم يمتثلوا لأمره وقالوا له هؤلاء دراويش فقراء لا يصح ضربهم ولمـا قربوا منهم فهموا عليهم الدراويش وتمكنوا منهم وقتلوا مائة وعشرين عسكرى وستة ضباط ».

(٥٥) مكى شبيكه : المرجع السابق ص ٢٦٠ .

فى الانضمام الى المهدية المؤيدة من الله والمحققة لمعجزات انتصار هؤلاء الدراويش على جند الحكومة النظاميين ، بينما أدت هذه المعركة الى انزعاج حكمدارية السودان المترددة[٥٦] .

لم تكن حكومة القاهرة على استعداد للتضحية بقوات ترسلها الى السودان مددا فى الوقت الذى تتهدد فيه مصر نفسها أخطار غزو أجنبى ، فاكتفت الحكومة المصرية بعزل رءوف باشـا من الحكمدارية وتعيين عبد القادر باشا حلمى مكانه الذى وصل الى الخرطوم فى ١١ مايو ١٨٨٢ م ليجد جيجلر Giegler النمساوى يصرف أمور حكمدارية السودان بعد مغادرة رءوف باشا الخرطوم فى أوائل مارس ، ووصل عبد القادر ليجد حملة عسكرية أخرى يقودها يوسف باشا الشلالى مدير سنار تتجه لمقاتلة المهدى فى جبل قدير ، وقد لقيت هـذه الحملة هزيمة كبرى فى ٢٩ مايو ١٨٨٢ م وقتل يوسف باشا نفسه ، وغنم المهدى أسلحة الجيش وذخائره ، فازداد بها قوة ، وذاعت سطوته فى مختلف الأرجاء ، وخاصة فى كردفان وتضعضعت هيبة الحكومة ، وصدق الأهلون دعـوة محمد أحمد ، بعد هـذه الانتصارات المتوالية[٥٧] ، التى أحرزها المهـدى بجيوشه غير النظامية ضـد جيوش الحكومة النظامين المسـلحين .

كانت انتصارات المهدى المتتالية على قوات الحكومة مثار دهشة المراقبين ، فأن الجيش المصرى هو الذى فتح النيـل الأبيض وكردفان ودارفور ، وبحر الغزالى وخط الاستواء . ودان له السودان من أدناه الى أقصاه مدة ستين سنة متوالية ، فكيف به ينهزم أمام شراذم مجردة من السلاح والنظام ؟ ان هـذا حقا يدعو الى العجب ، ولكن سوء ادارة

---

(٥٦) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٧ .

(٥٧) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٩ .

الحكام وتعاقب المديرين وعدم كفايتهم وقلة اخلاصهم ، وافتقار الجيش الى قواد أكفاء كل ذلك كان له أثره فى اختلال نظام الجند وانهزامهم أمام جموع المهدى ثم ان شخصية المهدى كان لها بلا مراء أثر كبير فى انتصار جموعه ، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة ، ولولا ذلك لما استطاع أن يجمع حوله الأنصار والأعوان ، ويبعث فيهم روح الطاعة لأوامره ، والاستخفاف بالموت فى سبيل تأييد دعوته ، ولقد كان لمزاياه الشخصية وما عرف عنه من الزهد والصلاة والتقوى ، وايمانه بدعوته وذكائه وحزمه ، كل أولئك كان له أثره فى نجاحه وانتصـــاره على قوات الحكومة(٥٨) .

تم تعيين عبد القادر باشا حلمى ناظرا للسودان وملحقاته وحاكم عام السودان وملحقاته فى نفس الوقت ، بمعنى توحيد الادارة والحكم فى الأقاليم السودانية بانشاء وحدة ادارية تخضع لها كل هذه المناطق بما فى ذلك مديريات شرق السودان ومحافظات البحر الأحمر وحكمدارية هرر وزيلع وبربرة وتاجورا(٥٩) . وكان عليه مواجهة الثورة المهدية فى الوقت الذى كانت أحداث الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لمصر تشغل الحكومة المصرية عن الأمور فى السودان ، وفى الوقت الذى أصدر فيه الخديوى بعد الاحتلال أمرا عملا بنصيحة انجلترا بحل الجيش المصرى — جيش العرابيين — وبيع أسلحته أو تدميرها .

وكان عبد القادر باشا له من مقدرته وكفاءته ما يجعل منه رجل الساعة فى السودان ، وما كانت الوزارة لتجد رجلا أجدر بمثل تلك المهمة ، وما كان كغيره من الحكمداريين السابقين .. اذ كانت ثقته فى نجاح مهمته بالقضاء على الثورة المهدية كبيرة ، فبعث الى القاهرة يقول : ومأمول أن شاء الله الحصول على الغرض المقصود ، وبعد زمن

---

(٥٨) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٢٠ .
(٥٩) د . جلال يحيى : المرجع السابق ص ٢٩ .

قريب منظور حضور البوستة بالأخبار المبشرة بالظفر والنجاح[٦٠] .
وبالفعل استطاع اخماد الثورة في سنار والجزيرة كلها (الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض) ونكل بالثورة ، وملأ قلوبهم رعبا فانكمشوا أمام هيبته وسطوته ، وضيق على المهدى المسالك ، وشعر المهدى بخطره ، فكان يدعو الله هو وأصحابه عقب كل صلاة بقوله : اللهم يا قوى يا قادر اكفنا عبد القادر[٦١] .

ولكن عبد القادر حلمى لم يلبث أن صدر أمر خديوى باستدعائه والغاء نظارة السودان فغادر الخرطوم فى أواخر أبريل عام ١٨٨٣ م وسط استياء السودانيين فى الخرطوم والجزيرة والمصريين وقناصل الدول الأوروبية ورعاياها لأن الكل موقنون بأن الطريقة التى اتبعها عبد القادر باشا — بترك المهدى وأتباعه فى صحارى كردفان وحصارهم هناك حتى يتفرق شملهم — كانت هى السبب الوحيد فى نجاة الخرطوم وسنار والجزيرة كلها ، وكان من وراء أعماله ما قنط المهدى من التغلب على الخرطوم وأصدر منشورات لكل دعاته فى الجزيرة يأمرهم بكتمان الدعوة مادام عبد القادر باشا حاكما على السودان[٦٢] .

استمر الصراع بين المهديين وبين قوات الحكومة بعد استدعاء عبد القادر بدسيسة انجليزية عند الخديوى توفيق ، وأدرك المهدى أن استمرار الثورة وتقدمها من كردفان أصبح ممكنا بعد رحيل عبد القادر ورغم انتصار قوات الحكومة على الدراويش فى المرابيع بتاريخ ٢٩ أبريل ١٨٨٣ م ، فان الدراويش ما لبثوا أن سيطروا على كردفان وهزموا قوات الحكومة بقيادة جنرال هيكس Hicks الانجليزى هزيمة منكرة

---

(٦٠) مكى شبيكه : المرجع اسابق ص ٢٢٦ .

(٦١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٦٢) ابراهيم فوزى باشا : الســودان بين يدى غوردون وكتشنر ج ١ ص ١٢١ .

فى شيكان فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ م • وأصبح المهدى بعد هـذا الانتصار مسيطرا على السودان الغربى دون أى منازع وانقطعت مواصلات حامية الخرطوم الصـغيرة مع حامية بحر الغزال التى كانت تحت قيـادة « سلاتين بك »[٦٣] النمساوى • كما سيطرت المهدية على السودان الشرقى بقيادة زعيم المهديين هناك عثمان دقنة •

وهكذا استمر أسلوب الثورة المهدية للسيطرة على السودان حتى تم لها ذلك بسقوط الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ م ومقتل جنرال غوردون الانجليزى الذى كانت الحكومة البريطانية قد اختارته لتنفيـذ اجلاء المصريين من السودان • واستمرت الثورة المهدية فى حركتها العسكرية حتى بعد موت المهدى فى يونيو ١٨٨٥ وتولى عبد الله التعايشى زعامة المهدية بعده الذى قاد الجيوش لغزو مصر بدعوى تخليصها من الاحتلال الانجليزى المسـيطر على مقدرات الأمور فيهـا ، حتى تم استرجاع السودان بقوات مصرية انجليزية مشتركة من عام ١٨٩٦ الى عام ١٨٩٨ م حيث قضى على دولة المهدية ليقام حكم ثنائى فى السودان يصـبح بمقتضاه « السودان المصرى الانجليزى » •

علاقة المهدية بالقوى الخارجية

أولا — مع مصر :

وكان على المهدى وأنصاره التعامل مع قوى أخرى غير الشعب السودانى ، تمثلت هـذه القوى فى المصريين والانجليز وغيرهم من الأوروبيين أما بالنسبة للمصريين فقد أنتقد المهدى بشدة موقف الحكم المصرى فى السودان بسبب استعانته بالأتراك والأوروبيين فى حكم البلاد وهؤلاء أساءوا الى أهل البلاد ولم يراعوا أية مبادىء فى تعاملهم مع السودانيين ، لأنهم كانوا خليطا من الترك والشراكسة والأوروبيين

---

(٦٣) د • جلال يحيى : المرجع السابق ص ٩٨ .

الى جانب المصريين • واذا كان منهم من كان يرعى العـدل وينصف المظلومين • فلقد زاد فى ارتكاب المظالم أن السودان كان يعتبر منفى للحكام ، ولم تكن الحكومة ترسل اليه فى الغالب الا الموظفين المغضوب عليهم ، أضف الى هـذا أن حكام مصر فى ذلك العصر لم يكونوا فى الغالب مثال العدل والصلاح ورعاية مصالح المحكومين ، بل ان مظالمهم كانت كذلك من أسباب الثورة العرابية [٦٤] • وعلى هذا هاجم المهـدى الحكم المصرى فى السودان وانتقل هجومه الى أنصاره الذين ساهموا فى اقامة حمامات دم للمصريين المقيمين بالسودان ، ونسى المهدى فى غمرة معاداته وأنصاره للمصريين الأهداف الدينية لدعوته وانجر الى عمليات عسكرية ودموية ضد الحكم المصرى والمصريين المقيمين فى السودان •

ورغم ما أصاب المصريين الموجودين بالسودان على يد المهديين ، فقد كان المهدى يتطلع نحـو مصر لتخليصها كما قال من حكم الترك والأوروبيين اليهـود والنصارى ، فأرسل حسـين باشا خليفة مدير « بربر » السابق وصاحب النفوذ الواسع فى قبيلته العبابدة فى صعيد مصر وصحرائها بمنشور الى أهله وبقية أبناء الشعب المصرى يقول فيه : ولمـا كان موضوع أمرنا القيام بأمر الدين وجهاد أعدائه الكافرين ، وقد انتهى أمرهم بالسودان ، وعزمنا بارادة الله على التفرغ لغيرها من البلدان فقد أخترنا الله تعالى ووجهناك أمامنا عاملا عموميا على كافة قبائل جماعتك العبابدة الذين بالجهات البحرية (مصر) وعلى كافة من يرغب الانضمام عليك من القبائل الأخرى[٦٥] •

كما وجه المهدى رسـالة الى الخديوى توفيق ينعى عليه تسلط الأجانب على أحوال المصريين وتسلط البدع والخرافات وتعطيل أحكـام

---

(٦٤) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٠٩ •

(٦٥) مكى شبيكة : المرجع السابق ص ٣٦٤ — ٣٦٥ •

القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأنه بعث بالمهدية الكبرى لاحياء السنة ، وأن الواجب عدم موالاة اليهود والنصارى وأعداء الدين ، وطالبه بالهداية والايمان بالمهدية والا فأنا قادم على جهتك بجنود الله وعن قريب أن شاء الله تعالى فان أمر السودان قد انتهى ، فان بادرتنى بالتسليم لأمر المهدية والأنابة الى الله رب البرية فقد حزت السعادة الأبدية وأمنت على نفسك ومالك وعرضك أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك وان أبيت بعد هـذا الا الأعراض عن طريق الفلاح والرشاد فانما عليك اثمك واثم من معك ولابد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة . وهذا انذار منى اليك وفيه الكفاية لمن أدركته العنايـة والسلام على من اتبع الهدى[٦٦] .

واذا كان المهدى لم يوجه حملة عسكرية فى حياته لغزو مصر فقد كان ذلك فى نيته ، ومن ثم حرص خليفته عبد الله التعايشى على تحقيق نية المهدى ، فنجده فى مارس عام ١٨٨٧ م يرسل ثلاثة رسائل الى كل من السلطان عبد الحميد والملكة فيكتوريا والخديوى توفيق ، يدعوهم فيها الخليفة الى اعتناق المهدية قبل أن تطأ جيوشه بلادهم ، وتنتقم منهم ، وكان غرضه خصوصا من الكتابة الى هؤلاء الثلاثة الحصول على اعترافهم بحكومته [٦٥] حتى يأمن على بقاء السلطة فى يده وانتقالهـا الى ذريته من بعده ، ويحقق فى نفس الوقت أمل المهدية فى السيطرة على كل وادى النيل شماله وجنوبه .

وتنفيذا لتوجيهات الخليفة بغزو مصر قاد حملة الغزو عبد الرحمن النجومى من دنقلة فى ٣ مايو ١٨٨٩ م واتجه بقواته شمالا حتى بلد بلانة شمالى وادى حلفا وهناك تبودلت الرسائل بين النجومى وقـائد القوات المصرية المكلفة بالدفاع عن الحدود الجنوبية وهو سير جرنفيل

---

(٦٦) نفس المرجع ص ٣٦٥ — ٣٦٦ .

(٦٧) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان . ص ٤٢٥ .

Grenfell فبينما طالب الأخير من النجومى الاستسلام ، طالب النجومى منه التسليم واعتناق الدين الاسلامى والا فمصيره سوف يكون مصير هيكس وغوردون لأن المهدية تعتزم الاستيلاء على مصر بأكملها • ومن ثم تهيأت الأمور لوقوع معركة عند « طوشكى » فى ٣ أغسطس ١٨٨٩ التى انهزم فيها الدراويش هزيمة ساحقة وقتل فى المعركة عبد الرحمن النجومى نفسه ، وبهذه الهزيمة توقفت مشروعات المهدية لغزو مصر حتى يتم استرجاع السودان بقوات مصرية مشتركة عام ١٨٩٦ م •

وفى مجال العلاقات بين المهدية ومصر لابد أن نذكر توضيحا لموضوع الصلة بين المهدى وعرابى ذلك أن حدوث الثورتين فى وقت واحد ولهدف يكاد يكون واحدا قد أوحى الى البعض أن الثورتين من تدبير الانجليز لأنه نتج عن الثورتين تحقيق للمطامع الانجليزية ، ولكن انطلاقا من الحقيقة القائلة بأن الشعبين المصرى والسودانى كانا يعيشان حالة سيئة وكانوا فى البلوى سواء ، تطلع أهل الشمال الى زعيم ينقذهم مما كانوا فيه فوجدوه فى صورة زعيم عسكرى هو عرابى باشا، وتطلع أهل المنبع الى زعيم ينقذهم مما حل بهم فوجدوه فى صورة زعيم دينى هو محمد أحمد المهدى [٦٨] فانه كان هناك تعاطف بين الرجلين وان لم يتلاقيا •

كان العرابيون يفكرون فى التحالف مع المهدى ، ولم يخف عرابى وهو فى منفاة تأييده وميله الى المهدى ، وأعلن أنه كان ينوى تعيينه حاكما عاما على السودان [٦٩] • وكان المهدى يعطف على عرابى ولعل قيام عرابى ضد الحكومة المصرية قد صادف هوى فى نفسه مما شجعه

---

(٦٨) د • جلال يحيى : المرجع السابق ص ٤٠ •

(٦٩) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١١٤ •

على تقليده ، وجعله موضـــع عطفه وتقديره [٧٠] • ويذكر البعض أن المهدى أثناء حصار الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ م أمر رجاله بالمحافظة على حياة جنرال غوردون ، قائلا : أنى أريد أن أفتدى به أحمد عرابى باشـــــا [٧١] •

ثانيا ــ مع الدولة العثمانية :

ولم تكن علاقة المهدية بالدولة العثمانية بطبيعة الحال علاقة طيبة لأن السلطان العثمانى وخليفة المسلمين ساءه ظهور هذه الدعوة وثورتها على السيادة التركية ، ومن ثم نجد السلطان يصف المهدى بأنه نبى مزيف وأنه متمهدى وأنه شقى دنقلة • كل هذه الصفات لأن دعوة المهــدى فيها خروج على فكرة الخلافة العثمانية وأن ثورة السودان كانت تهدف ــ بمحاولتها تغيير الوضـــع القائم ــ الى رفع كل ســـيادة لتركيا على السودان • ومن ثم شعر السلطان العثمانى بأنه قد أهين فى شخصه كخليفة للمسلمين ، ومن الطبيعى أن يهاجم الخديوى فى مصر المهدية ويصفها بالتمرد على سلطة خليفة المسلمين وصاحب السيادة الشرعية على كل من مصر والسودان •

ثالثا ــ مع انجلترا :

أما علاقة المهدية بانجلترا فقد بدأت منـــذ كان بعض الموظفين الخديويين الانجليز يتولون وظائف الادارة والحكم فى السودان منذ عهد الخديوى اسماعيل وقد كره السودانيون شطط هؤلاء الموظفين الانجليز فى محاربة تجار الرقيق بشكل فيه قسوة وظلم صارخ ، الى جانب الروح الاستعمارية التى عمل بهـــا هؤلاء الموظفون فى مديرياتهم : غوردون فى خط الاستواء ثم حكمدارا للسودان بأكمله ، لبتون فى بحر

---

(٧٠) ابراهيم فوزى : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٩٨ •

(٧١) د • جلال يحيى : المرجع السابق ص ٤١ •

الغزال ، ومن قبلهم صمويل بيكر • وغيرهم الذين أساءوا الى وجه الحكم المصرى عند السودانيين فكرهوا هؤلاء وكرهوا معهم الحكم المصرى وشملت الثورة دعوة لأنهاء الحكم المصرى فى السودان الذى أتى بأجانب ليسيئوا معاملة السودانيين •

وعندما احتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢ م كانت ثورة المهدى مشتعلة فى السودان ، فاتخذت الحكومة الانجليزية قرارين — أصدرهما الخديوى بناء على نصيحة انجلترا — يقضيان بحل الجيش المصرى (جيش العرابيين الثائر على الخديوى) ، وبيع أسلحته أو تدميرها • وكان لهذين القرارين أثرهما الخطير على الموقف فى مصر والسودان فى الوقت الذى تحتاج فيه حكمدارية الخرطوم الى قوات مسلحة لتقضى بها على الثورة المهدية • ولكن انجلترا التى سيطرت على مقدرات الأمور فى مصر والسودان كان لها رأى آخر •

اكتفت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر بمعرفة حقيقة مايدور فى السودان فأرسلت بعثة برئاسة الكولونيل « ستيوارت » منذ ديسمبر ١٨٨٢ م ، فى الوقت الذى كان فيه عبد القادر باشا حلمى بالخرطوم ، فأرسل الى الخديوى تقريرا فى ٣٠ ديسمبر عن تصرفات ستيوارت جاء فيه : من اختبار أحوال المومى اليه — ستيوارت — تبين لنا أنه يريد اظهار سطوتهم بهذه الجهات ، وبناء عليه قد نصحناه بالمحسوس بتعريفه أن الحركات الحاصلة هى تحركات دينية ، وأن ذلك يفتح بابا للشقى — المهدى — لتأييد ما يوهم به على العربان ويوجههم للثبات على تصديقه وأتباعه (٧٢) • فكلف الخديوى ياوره أحمد حمدى بالتوجه الى الخرطوم ومعه تعليمات للحكمدار « بالاتحاد مع الكولونيل استاورت — ستيوارت — فى الآراء النافعة وأن يجاريه فى طلباته ولا يحصل له منه ما يتظاهر منه النفور أو التقصير (٧٣) •

---

(٧٢) وثائق السودان / ١ تلغرافات حكمدراية السودان .

(٧٣) وثائق السودان / ١ مأمورية احمد حمدى بك الى السودان / ١ بخصوص بعثة ستيوارت .

وفى الوقت الذى أظهرت فيه سلطات الاحتلال الانجليزية رغبتها فى عدم التدخل فى السودان سمحت لضباط انجليز بالعمل فى السودان وكان جنرال هيكس أحد هؤلاء الضباط الذين اســتفاد المهديون من وجودهم على رأس القوات المصرية فى اثارة الروح الوطنية والدينية عند السودانيين ، فى الوقت الذى انغمس فيه هيكس فى خلافات مع القادة المصريين فى السودان من أجل أن ينفرد بالقيادة والسيطرة ، فكان مصيره كما رأينا فى موقعة شيكان فى نوفمبر ١٨٨٣ م فكان هذا الموقف الانجليزى مبعث الكارثة التى وقعت لجنرال هيكس ، كما كان كذلك مبعث الكارثة الأدهى الأخرى بمقتل جنرال غوردون فى ينـــاير عام ١٨٨٥ م (٧٤) .

وكانت كارثة هيكس سببا فى أن الحكومة البريطانية تقرر سياسة اخلاء السودان وارسال غوردون الى السودان لتنفيذ هذه السياسة ، واجبار الحكومة المصرية على قبولها فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة المصرية قد وصلت الى قرار بالمحافظة على الخرطوم واعادة فتح الطريق بين سواكن وبربر (٧٥) . ولكن اختيار غوردون لم يكن اختيارا موفقا ذلك أن « جراهام » الذى كان يلازم غوردون أثناء وجوده بالقاهرة أوضح أن غوردون اعتقد أن المهدى مجرد رمز وأنه ليس فى استطاعته الهجوم طالما أن أتباعه لن يتقدموا بعد حدودهم القبلية وربما كان هذا أكبر عدم ادراك وتقدير للموقف الذى قاسى منه غوردون (٧٦)

وعندما كان غوردون فى الخرطوم ويتعرض لحصار من المهديين أرسل مدير دنقلة برقية الى المعية الســنية ــ بلاط الخديوى ــ بأن

---

(٧٤) Shibeika; British Policy in the Sudan. p, 79.

(٧٥) Cromer; Modern Egypt. p, 291.

(٧٦) Shibeika ; Ibid. p, 168.

المسموع عن الخرطوم أن العدو — المهديين — محاصرها وممنوع وصول المئونة اليها ، وأن المتمهدى مؤكد على جيوشه المحاصرين بضبط غوردون باشا حيا لاجعاله أسير مقابلة أسر الانجليز الى عرابى ، وأبلغه أن غوردون باشا قال بأنه ان لم تحضر اليه امدادية من دولة الانجليز يسلم ويسلم للمتمهدى ، والمأمول أنه اذا حضرت قوة كافية فيكون متكفل بانقاذهم بشرط أن يكون هو قايدهم » (٧٧) .

وبدأ سقوط الخرطوم فى يد المدى وظهور نوايا الدول الأوروبيـة وأطماعها فى اقتطاع أجزاء من السودان وملحقاته اتخـذت انجلترا سياسة متناقضة ، فبينما كان الانجليز يحاولون رد عدوان بعض الدول الأوروبية التى تطمع فى اقتطاع أجزاء من جنوبى السودان زاعمة أن تلك الأصقاع لم تكن ملكا لأحد Res Nullius أو أرضـا فضـاء يستطيع أن يستحوذ عليها من يشاء (وكانت خاضعة للسيادة المصرية) كانوا فى الوقت نفسه يحاولون أن يتخذوا من حقوق مصر فى السيادة على السودان رغم اخلائه تكئة يستندون اليها فى عقد اتفاقيات مع بعض الدول الأخرى لتقسيم الممتلكات المصرية ذاتهـا فى السودان الشرقى وعلى طول الساحل الصومالى (٧٨) .

وعندما تم استرجاع السودان بقوات مصرية انجليزية مشتركة وبقيادة جنرال كتشنر الانجليزى أمر القائد بتدمير قبة المهـدى فى أم درمان وتعقب المهديين ومصادرة أموالهم ، وهو يقصد بذلك أن يثير نفوس السودانيين من المصريين ، رغم أن الضباط المصريين استاءوا جدا لرفع العـلم الانجليزى — على سراى الحكومة بالخرطوم الى جانب العلم المصرى — واحتجوا على ذلك (٧٩) ثم لم تلبث الحكومة البريطانية

---

(٧٧) وثائق السـودان — تلغرافات ومكاتبات تتعلق بثورة المهدى ٤/٢/٢ .

(٧٨) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان ص ٦١ .

(٧٩) احمد شفيق بك : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ص ٢٨٨ .

أن أبلغت الحكومة المصرية أن لانجلترا حق الاشتراك فى حكم السودان بما ضحت فيه من المـــال والرجال •

كان على المهدية ـــ بعد وفاة المهدى بصفة خاصة ـــ مواجهة الأطماع الاستعمارية فدارت المعارك بين الدراويش والأحباش والايطاليين وهى معارك غير حاسمة فى الوقت الذى ظهرت فيه أطماع ليوبولد ملك بلجيكا وصاحب دولة الكنغو فى بحر الغزال ، وفرنسا فى أعالى النيل • وقد عبر الرئيس الفرنسى « كارنو » لوزير المستعمرات الفرنسى وذكر له : أننى سأكون مسرورا لأثارة المسألة المصرية ، فالسودان المصرى انما هو أرض خلاء ، وأن فرنسا فى حاجة الى منفذ على النيل لأملاكها فى « أوبانجى » وأطلعهم على تقرير حول التقدم نحو فاشودة التى تقرب من روافد السوباط والنيل ، وبواسطة هذا الموقع فان فى اســتطاعة فرنسا أن تعوق البلجيكيين ، وفى نفس الوقت تخيف البريطانيين خارج مصر بالتهديد بقطع مياه النيل عن مصر [٨٠] •

وفى فاشودة يحدث الصدام بين القوات الفرنسية التى سبقت واحتلت البلدة فى ١٠ يوليو ١٨٩٨ م ورفعت العلم الفرنسى عليها ، والقوات المصرية بقيادة كتشنر الانجليزى التى وصلت الى البلدة فى ٢١ سبتمبر بعد استرجاع الخرطوم ، لولا تراجع فرنسا فتأمر بسحب قواتها ـــ خلافات بين الاستعمار لمصلحة استعمارية لا مصلحة المصريين أو السودانيين ـــ ووجه الأهمية فى حادث فاشودة أنه كان أحد مظاهر المنافسة الشديدة وقتئذ بين انجلترا وفرنسا على الاستعمار فى أفريقيا عموما وحوض النيل خصوصا على حساب حكومة المهديين ، وهى كذلك مظهر للنزاع الفرنسى والانجليزى حول المسألة المصرية مسألة الاحتلال الانجليزى •

---

(٨٠) Langer; Diplomacy of Imperialisn, p, 129.

وحادث فاشودة كذلك أثار مسألة حقوق السيادة للفصل فيما اذا كان الخليفة عبد الله أقام دولة لها كل حوق السيادة على الأراضى الداخلة فى نطاقها ، وفيما اذا كانت نظرية الملك المباح هذه انما تنطبق على كل السودان بما فى ذلك الأقاليم موضع النزاع فى حوض النيل الأعلى وبحر الغزال ، أو فيما اذا كان لا يمكن مطلقا اعتبار السودان ملكا مباحا لأن المهدية حركة ثورية اغتصبت السلطة من الحكومة الشرعية فى البلاد ، وأن كل الأثر الذى ترتب على اخلاء المصريين للسودان أن حقوقهم فى السيادة عليه صارت معطلة فقط ، وفيما اذا كانت مصر تمارس حقوقا فى السيادة على السودان بسبب استرجاعها لهذه البلاد نتيجة للعمليات العسكرية التى انتهت بالفتح الجديد .

ومنذ أنهت موقعة أم درمان حكومة الخليفة عبد اللهالتعايشىأستأثر السودان باهتمام الأنجليز كمجال لاستعمارهم ، وذلك بتنظيم حكم هذا الأقليم بصورة تتيح لهم السيطرة الكاملة على ادارته ، وابعاد تركيا عن ممارسة حقوق السيادة القديمة التى كانت لها ، والسماح لمصر بالمشاركة فى الحكم على أساس أن مصر صاحبة سيادة قديمة منذ الفتح وجديرة باشتراك قواتها فى حملات الاسترجاع . ولقد توصل المسئولون الانجليز الى تدبير هذا النظام الذى يكفل كل الأغراض التى ذكرناها والذى عرف باسم النظام الثنائى للحكم فى السودان عام ١٨٩٩ م ، وكان اللورد كرومر — المعتمد البريطانى فى مصر — هو المسئول الأول عن ابتكار هذا النظام[٨١] .

ويدافع كرومر عن نظامه بقوله : ان مصر جنت فوائد ليس فى الاستطاعة تقديرها بالأرقام فقد زال خطر الغزو لمصر من الجنوب نهائيا وبذا تخلصت مصر من نفقات عسكرية باهظة . وكذلك ضمنت موارد مياهها ، وكان من المحتمل أن تقام مشروعات رى كبرى فى السودان

(٨١) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٥٤٤ .

تجعل حياة مصر الزراعية فى خطر ، كذلك انتعشت التجارة بين القطرين، وبعد ذلك كله يحق لمصر أن تفخر كما لبريطانيا أيضا بأن أعادت السودان الى حظيرة المدنية والحضارة [٨٢] • وهو دفاع لا يستند على أسس منطقية فضلا عن أنه يكشف النوايا الاستعمارية التى رأت أن الادارة الجديدة فى السودان يجب أن تسيطر عليها أيادى بريطانية حتى لاتعود المظالم التى ارتكبت فى العهد الماضى والتى يرى أنها رمت بالبلاد فى أتون الثورة المهدية [٨٣] •

تقييم الدعوة المهدية

انطلقت دعوة محمد أحمد من البداية منطلقا دينيا شأنها شأن غيرها من الحركات السلفية ، ولكنها سارت شوطا أبعد من غيرها فى عدائها للدولة صاحبة السلطة الشرعية ، كما أنها اختلفت مع الدعوة السنوسية فى الأسلوب واختلفت مع الدعوتين الوهابية والسنوسية فى الظهور بفكرة المهدى المنتظر وتكفير كل من لم يؤمن بها ، بل واشاعة اتصال المهدى بالنبى فى المنام وتحويل الخليفة قبة المهدى الى مكان يحج اليه السودانيون ويستعيضون به عن الحج الى مكة المكرمة •

لقد انشغل المهدى بالعمليات العسكرية عن التفرغ للناحية الدينية، فلم يتفرغ لوضعها وشرحها ولم يتواجد من أتباعه من يستطيع حمل هذه الأمانة كما أرادها المهدى ، فالعلماء ظاهرت غالبيتهم المهدية خوفا على أرواحهم وأرزاقهم ، والمؤمنون بها لم يكونوا بأهل علم ومعرفة ، هذا على عكس الدعوة الوهابية التى أسسها رجل علم ودين وقدر لابن عبد الوهاب أن يتوالى علماء من المذهب يتوافرون على شرحه وتفسيره

---

(٨٢) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٤٧٥ •

(٨٣) نفس المرجع ص ٤٦٣ •

وتأليف الكتب عنه [٨٤] . وحتى خليفته لم يفعل ما يزيد المهدية وضوحا بل اكتفى بما تركه المهدى من تراث فى منشوراته ، ورسائله وتعاليمه .

ومما يؤخذ على المهدية ما يلى :

أولا — الادعاء بفكرة المهدى المنتظر :

وهو ادعاء يجد له صدى فى نفوس المسلمين الذين يتناقلون عن الأجيال السابقة قصة ظهور المهدى المنتظر فى هذه الفترة من الزمان ، ورغم أن المهدى استطاع أن يلهب نفوس مواطنيه السذج بدعواه أنه انما جاء مبعوثا من أجل تخليص البلاد من الشرور والآثام واقامة صرح حكومة جديدة على أسس من الدين القويم ، فقد كان المستبعد أن يكون محمد أحمد هو ذلك المهدى ، وكان السنوسيون أعظم الناس ريبة فى ذلك [٨٥] .

وقد استنكر السنوسيون دعوى محمد أحمد هذه ورفض السيد محمد المهدى السنوسى زعيم السنوسية الاستجابة لنداءات محمد أحمد وخليفته من بعده بالانضمام الى الثورة السودانية لغز و مصر ، ولكن المهدى السنوسى الذى سمع عن عنف المهدية فى السودان بقتل الأنفس وسلب الأموال وهتك الأعراض عند الانتصار فى المعارك طلب الى الشعوب الاسلامية خصوصا فى واداى وبرنو والبلاد المجاورة أن تمتنع عن تأييد مدعى المهدية محمد أحمد الذى لم يكن الا مخادعا كاذبا [٨٦].

---

(٨٤) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٨٥) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٧٠ — ٧١ .

(٨٦) نفس المرجع ص ٧٣ .

ثانيا ــ التشبه بمحمد عليه الصلاة والسلام :

خالف المهدى كلا من محمــد بن عبد الوهاب ومحمــد بن على السنوسى فى هذه الناحية أيضا ، وذلك أنه ادعى أن النبى محمد ﷺ يأتيه فى المنام ، وعندما انتقل من « آبا » الى جبال النوبا جنـــوب كردفان أطلق على هذا الانتقال هجرة ومن صحبه مهاجرين ، كما أطلق على أهل كردفان الذين استقبلوه فى أرضهم وسمحوا له بالبقــاء فيها اسم الأنصار ، ثم أنه أخذ يرسل الكتب الى زعماء القبائل والدول الأخرى يطلب منهم اعتناق المهدية والدخول فى طاعتها حتى يفوزوا بالدارين الدنيا والأخرى . بل أكثر من هذا اتخذ له أربعة خلفاء أولهم عبد الله التعايشى ــ تشبها بالخلفاء الراشدين ــ وقد اختارهم من بين صحابته وعرض على السيد محمد المهدى السنوسى أن يضعه فى مقام الخليفة الثالث ــ عثمان بن عفان ــ فى نظير أن يقوم السيد السنوسى من جهته بشن الحرب على الأنجليز فى مصر ، ولكن السيد السنوسى رد على مهدى السودان بأن مقام عثمان لا يناله لا أنا ولا أنت [٨٧] .

ثالثا ــ عجز المهدية عن تحقيق مبادىء الدعوة الدينية :

يذكر مكى شبيكة[٨٨] أن الانتصارات الحربية للمهدى طغت على الناحية الدينية من رسالته ، وهو نفسه لم يتفرغ لوضعها وشرحها . وكان ينوى ذلك بعد سقوط الخرطوم لولا أن عاجلته المنية قبل أن يقطع شوطا فى ذلك ، واذا كان خلفاؤه وأنصاره قاموا بأعباء الرسالة من وجهتها الحربية فان الناحية الدينية لم تجد من يخصص جهوده ووقته لهــا .

---

(٨٧) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٧٢ .

(٨٨) مكى شبيكة : السودان فى قرن ص ٢٧٠ .

فنحن وان كنا نؤمن بأن وفاة المهدى أول نذير بإخفاق الثورة المهدية ، اذ كان هو بلامراء روحها وقوامها ، وكانت الانتصارات التى نالها قد رفعت شأنه وزادت مهابته فى النفوس ، فكانت شخصية هى دعامة الدولة المهدية المترامية الاطراف التى أسسها فى السودان[٨٩]، فاننا رأينا كثيرا من ادعاءات المهدية لم يتحقق فى حياة محمد أحمد ، فلا هو غزا مصر ، ولا هو فتح مكة ، بل ان نفوذ المهدى كان قد بـدأ يضعف فى الشهور الأخيرة من حياته لأسباب متعددة ، ومنها أنه ترك حياة الزهد والتقشف الأولى لينغمس فى حياة الترف والبذخ ، ومنها أنه ترك الأمور تفلت من يده فاستأثر بالسلطة الفعلية خليفته عبد الله التعايشى ، ومنها أنه لم يفعل شيئا بعد سقوط الخرطوم والاطمئنان الى زوال كل آثار الحكومة المصرية القديمة فى السودان ليبنى الدولـة الجديدة التى كان من واجب المهدية المبادرة بوضع أسسها من الآن ، وعجز المهدى عن استبدال سياسة التعمير والانشاء بأساليب العنف واثارة شعور التعصب الدينى[٩٠] .

وحقيقى أن الثورة المهدية فى عهد محمد أحمد لم تكن الا فورات دينية متتابعة وتعتمد فى انتشارها على سمعة المهدى وشهرته الشخصية كزعيم دينى قبل أى اعتبار آخر وأن زعامة المدى كفت عندئذ لتوجيـه الثورة ، فعاشت هذه من غير تنظيم لأن زعامة المهدى أغنت عن التنظيم فى هذه المرحلة ، ولأن النزاع كان لا يزال قائما بين المهديين وبـين السلطات الحكومية الشرعية [٩١] . فقد كان على الخليفة عبد الله التعايشى أن ينشىء نظاما حكوميا لمواجهة مشـكلات الحكـم والادارة

---

(٨٩) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى اوائل عهد الاحتلال ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٩٠) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤١٥ .

(٩١) نفس المرجع ونفس الصفحة .

والحرب ، الا أن الخليفة لم يكن له المقام الذى كان للمهدى ولا نفوذه المعنوى وكان ينقصه كثير من المزايا والصفات التى اجتذب بها المهدى أغلب أنصاره ، فلا غرو أن كانت ولايته ايذانا بتداعى الدولة المهدية ، ولم يكن يطمع الا فى استبقاء نفوذه فى البلاد التى دانت للمهدى(٩٢).

هذا بالاضافة الى عجز المهدية عن صد تيار الأطماع الاستعمارية الأوروبية الزاحف لاقتطاع أجزاء من السودان وملحقاته ، ففى عهد الخليفة ــ حكومة الخليفة عبد الله التعايشى ــ انتزعت أملاك مصر فى الصومال وساحل البحر الأحمر وفى السودان لتلتهمها القوى الأوروبية المتسابقة والمتنافسة .. فقد احتل الأحباش كلا من اقليمى بوغوص وهرر ، واقتسم الانجليز والفرنسيون والطليان بلاد الصومال فيما بينهم ، وأخلى الدراويش بحر الغزال ودارفور ، وتوغل الانجليز فى أوغنده ، والفرنسيون والبلجيكيون فى اقليم بحر الغزال حتى وصلوا الى حوض النيل الاعلى فى السنوات التالية . أى أن الدراويش عجزوا كل العجز عن الاحتفاظ بتلك الامبراطورية التى أسسها المصريون خلال ستين عاما فى شرق ووسط أفريقيا(٩٣) .

كل ذلك كان من الطبيعى أن يحقق انهيار المهدية تماما دون أن يكون هناك أمل فى قيامها مرة أخرى ، وذلك فانه بمجرد استرجاع السودان وفرض اتفاقية الحكم الثنائى لم يدافع عن المهدية الكثير من السودانيين الذين عاشوا فى كنفها وتحت سلطتها ، ولعل سبب ذلك أن المهدية لم تجد من رجالها فلاسفة يؤصلون أفكارها ويشرحون تعاليمها ويكونون صفوفا من أنصارها يحملون رسالتها ويتناقلونها جيلا بعد جيل ، كما أن المهدية بعد موت صاحبها عاشت فترة من الخلافات

---

(٩٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٩٣) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤١٤ .

والانقسامات بين القبائل وبين حكومة الخليفة حتى صار السودانيون يأسفون على زوال عهد الحكم المصرى .

وكان يمكن للثورة المهدية أن تصبح حركة وطنية ناجحة لولا ماشابها من عنف وبطش ليس فقط بالأوروبيين والأتراك والمصريين بل وبالسودانيين أيضا ، ولولا ادعاء أمور لا تجد قبولا حتى من السودانيين أنفسهم الذين كان معظمهم يدخلون فى طاعة المهدية رغبة فى مغنم أو خوفا من بطش رجالها . وقد كان وقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م من الكوارث التى حلت بمصر والسودان ، حيث عمل الانجليز على التفرقة بين أبناء وادى النيل شماله عن جنوبه .

* * *



الفصل السادس

الجامعة الاسلامية

- مقدمة .
- ظروف العالم الاسلامي .
- فكرة الجامعة الاسلامية .
- دعاة الفكرة .
  ١ - السيد محمد جمال الدين الافغاني .
  ٢ - الشيخ محمد عبده المصري .
  ٣ - السيد محمد رشيد رضا .
  ٤ - السلطان عبد الحميد الثاني .
- تقييم فكرة الجامعة الاسلامية .

مقـــدمة

تعتبر فكرة الجامعة الاسلامية التى روج لها الداعية الاسلامى السيد جمال الدين الافغانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مظهرا آخر من مظاهر اليقظة العربية الاسلامية ، حيث أنها استندت الى ظروف العالم الاسلامى المتردية لكى تهيب بالمسلمين لمواجهة أعدائهم سواء كان التخلف الحضارى أو التوسع الاســتعمارى أو الفرقة بين شعوب الأمة الاسلامية على اختلاف أجناسها .

ذلك أن ظروف العـــالم الاسلامى خلال القرن التاسع عشر كانت قد وصلت الى حالة من السوء بسبب تسلط الحكم العثمانى بسلبياته على أجزاء من الوطن العربى ، وبسبب فقر وجهل المسلمين مما جعـــل اسلامهم تشوبه الشوائب ، وبسبب الغزو الاستعمارى الأوروبى لاجزاء من العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب .

ومن ثم جاءت فكرة الجامعة الاسلامية التى يعتبر السيد جمال الدين الأفغانى الأب الروحى لها والداعية الأكبر لتحقيقها بين حكــام الأقطار الاسلامية لكى تواجه ظروف العالم الاســـلامى وتتجاوزها وتنطلق بالمسلمين الى يقظة تعيد اليهم أمجادهم التى كانوا عليهـــا فى العصور الاسلامية الأولى .

ولقد ارتبط بفكرة الجامعة الاسلامية شخصيات أدت دورا بارزا فى الترويج لها وكانت لها مواقفها المعينة من الفكرة ومن الداعية لها ، فالى جانب السيد جمال الدين الأفغانى كان الشيخ محمد عبده أكبر نصير للفكرة فى مصر ، وشاركه السيد محمد رشيد رضا ، أما السلطان عبد الحميد سلطان الدولة العثمانية فقد تحمس للفكرة على أنها محققة مجـــدا شخصيا له .

ولكن هذه الفكرة لم يقدر لهـــا التطبيق كما دعا لها أنصـــارها والمؤمنون لها بسبب عدة عوامل لعل أهمها الاستعمار الأوروبى المتحفز لالتهام الأقطار الاسلامية والسلطان عبد الحميد الذى فقـــد الحماس للفكرة عندما وجد أنها تطالب بحكم شورى يأخذ بأسباب الحضارة •

وهكذا أصبحت فكرة الجامعة الاسلامية مجرد ذكرى يســـجلها التاريخ ، ولو تحققت كما كان يرجو المسلمون فى كل أنحاء العـــالم الاسلامى لكان للمسلمين فى أقطارهم شأن آخر •

* * *

ظروف العـــالم الاسلامى

يمكن القول أن العالم الاسلامى تعرض منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى لعوامل تخلف وفوضى نتيجة الغزو الصليبى والوجـــود التركى فى آسيا الصغرى ، ثم جاءت الغزوة المغولية عام ١٢٥٨ م / ٦٥٦ هـ على الجناح الشرقى للعالم الاسلامى حتى وصلت الى فلسطين فأوقفها سلاطين المماليك فيما عرف بموقعة عين جالوت عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م •• كل ذلك زاد من تخلف المسلمين وضرب الحضارة العربيـــة الاسلامية بضربة قاصمة غير تلك الضربة التى لحقت بالعرب والمسلمين بخسارتهم للأندلس لصالح الكاثوليك الأسبان •

وكان سقوط العالم العربى تحت الحكم العثمانى منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى عاملا آخر لتدهور أحوال المسلمين بسبب ما اتصف به الحكم العثمانى من سلبيات أهمها العزلة التى فرضت على العرب ، فى الوقت الذى لم تكن فيه للأتراك حضارة يفيدون بها العرب، وفى الوقت الذى أخذت فيه أوروبا تنهض وتسير فى طريق التقـــدم والعمران ، الى جانب الاستبداد والظلم التركى (العثمانى) بالعرب

المسلمين المحكومين الذين تخلفوا فى كل نواحى الحياة حتى فقــدوا قوتهم وباتوا لا قبل لهم بملاقاة الغرب فى أى ميدان [١] .

وزاد الطين بلة أن القرن الثامن عشر الميلادى شهد تدهورا أكبــر فى أحوال العرب والمسلمين بظهور العصبيات المحليــة فى الولايات العربية الخاضعة للحكم العثمانى ، تلك العصبيات التى كانت فى جملتها مغامرات شخصية لأفراد معظمهم من العنصر التركى أو من المماليك المغامرين ، كان هدف كل منهم ارتقاء كرسى الحكم والحصول على مغانم مادية كبيرة ، وكانت الضحية فى كل الأحوال الشعوب العربية والاسلامية فى الوقت الذى ضعفت فيه الدولة العثمانية فلم تقو على السيطرة على ممتلكاتها وخضعت لمــا فرض عليهــا مقتنعة بما يلقيه اليهــا هؤلاء المغامرون من فتات الأموال التى يجمعونها قسرا وبشراهة من الرعايا العرب والمسلمين .

وفى نفس القرن ــ الثامن عشر ــ وفى القرن التالى (التاسع عشر) أخذ الاســتعمار الأوروبى يحقق وجوده بقــوة فى الأرض الاسلامية ، حيث تحققت السيطرة البريطانية فى شبه القارة الهندية وفى عدن وفى مصر والسودان وأقطار الخليج العربى ، بينما عبرت روسيا القوقاز وبسطت سيطرتها على أواسط آسيا ، فى الوقت الذى وجد فيه الاستعمار الفرنسى طريقه الى أقطار شمال أفريقيا العربيــة الاسلامية . وقد قاسى المسلمون تحت الحكم الاستعمارى الأوروبى فى حياتهم الاقتصــادية والدينية والعلمية بمــا أثر فى قوتهم وفى حضارتهم التى كانت مزدهرة يوما ما [٢] .

---

(١) محمود أبو ريه : جمال الدين الافغانى ص ٦ .

(٢) د . رأت الشيخ : قضايا اسلامية معاصرة ص ٨٨ .

كما كانت علاقة بقية القوى الاسلامية بالدولة العثمانية تسير على النحو التالى :

١ — خضعت كل من مصر وأقطار الشام والعراق والحجاز للسيادة العثمانية ، وأغلب مواطنى هذه الأقطار من المسلمين على المذهب السنى .

٢ — كانت دولة فارس الشيعية المذهب حكومة وشعبا على خلاف مع الدولة العثمانية ولا تقر لها بالزعامة على العالم الاسلامى .

٣ — كانت أفغانستان على الحياد بين فارس الشيعية والدولة العثمانية السنية ، وانشغلت بالأطماع الروسية فى وسط آسيا على حدودها الشمالية وبالأطماع البريطانية فى شبه القارة الهندية على حدودها الشرقية .

٤ — انتشرت الدعوة السنوسية فى ليبيا ومعظم أقطار شمال وغرب أفريقيا بصورة سلمية ولم تصطدم بالحكم العثمانى فى ليبيا أو تونس بعد سقوط الجزائر فى يد فرنسا عام ١٨٣٠ كما هو معلوم .

٥ — أخذت دعوة محمد أحمد المهدى تجد لها طريقا بين السودانيين حتى اصطدمت مع الحكم المصرى التركى ابتداء من عام ١٨٨١ م .

٦ — كان مسلمو شبه القارة الهندية يستندون الى الخلافة الاسلامية العثمانية فى مقاومتهم للاستعمار البريطانى المسيحى الذى بدأ بسيطرة شركة الهند البريطانية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، ثم باعتبار شبه القارة الهندية (الهند والباكستان وبنجلاديش حالية) ، مستعمرة بريطانية تخضع للتاج البريطانى منذ منتصف القرن التاسع عشر [٣] .

---

(٣) نصر الدين عبد الحميد : مصر وحركة الجامعة الاسلامية ص ١١

ويمكن أن نضيف الى ذلك تصويرا لأحوال المسلمين تحت الحكم العثمانى والأوروبى ، حيث خضع المسلمون لسوء الحكم وقسوة الحكام الذين ساهموا فى سوء أحوال المسلمين بابتزاز أموالهم بكل قسوة ، وفرض الجهل والأهمـال بينما يعطون المغامرين الأوروبيين امتيازات اقتصادية ودينية وقضائية وتعليمية وسياسية فى بلاد المسلمين لا يتمتع بها المسلمون أنفسهم •

وهكذا صارت حياة المسلمين نهبا للحكام الأتراك والأجـانب المحتمين بالامتيازات ، فكانت تلك الأيام وبالا على الحكام المسلمين وعلى الأهالى جميعا ، وكانت سعدا وربيعا للتجار وأرباب البنوكة (المصارف) الغرباء الدخـلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشـار الذئاب بين الأغنام ، فقأثقلت كواهل اللاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة ، واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم أو الانسلاخ منها بالكلية وأحاط بهم الفقر وصاروا فى أسوأ حال[٤] •

وكانت أحوال الشرق الاسلامى عامة تسير من سىء الى أسوأ ، فالجهل والخرافات والأوهام والعادات والبدع انتشرت بين المسلمين ، كما انتشر بينهم داء الفرقة والخلاف فـلا رابطة اجتماعية تجمعهم لتحقيق الخير لهم ، فأخذهم الفقر فى كل أقطارهم على غنى بلادهم واتساعها وخصبها ، ولكنهم بجهلهم لا يعملون على الانتفاع ، وشملهم الذل والهوان على قوتهم وكثرة عددهم ، وتركوا بلادهم نهبا مقسما بين الأوروبيين ، ورضوا بأن يكونوا له خداما طائعين [٥] •

وكانت مصر منارة العالم الاسلامى آنذاك بوجود الجامع الأزهر بعلمائه ومؤسسات التعليم الحديث التى أوجدها محمد على وحفيده

---

(٤) رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده جا ص ٥٦—٥٧

(٥) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ١١ .

اسماعيل ، تعيش هى الأخرى عصرا من الفوضى وسوء الحكم ، فلم يكن المصريون آنذاك يرون شئونهم العامة بل الخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ومن ينيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها بحسب ارادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى ادارة بلاده ، أو ارادة يتقدم بها الى عمل من الأعمال يرى فيه صالحا لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة وتضربه عليهم ، وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت اسلامية أو أوروبية (٦) .

وفى حياة المسلمين الدينية والاجتماعية لعب رجال الدين المستبدون وغير الأمناء دورا سيئا ، حيث كثر عدد الأدعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويز والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن الكريم ، فصاروا يشربون الخمــر ، وانتشرت الرذائل ، فقلت الأيدى وقعدت عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بوارا شديدا وأهملت الزراعة أيما اهمال (٧) .

كما أصاب المســـلمين رذائل الأسراف والتبذير فى الانفاق على أفراحهم وأمواتهم حتى يخسرون أموالهم وممتلكاتهم التى يأخــذها الأجانب ، الى جانب داء التواكل الذى كبل عقولهم عن التفكير وأيديهم وأرجلهم عن العمل والسعى ، وأسلموا أمرهم للأجنبى ، وصـــاروا

(٦) رشيد رضا : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٥ .

(٧) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ٨ .

يتمسكون بأمثال مثبطة للهم مؤدية للشلل الاجتماعى مثل قولهم : « سيبها على الله » و « لا تفكر ولها مدبر » و « اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » و « مراد الخالق من الخلق ما هم عليه » و « لهم — أى الاجانب — الدنيا ولنا الآخرة » و « اذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور » [٨] .

وخير تصوير لحال المسلمين فى القرن التاسع عشر ما ذكره الكاتب الأمريكى « لوثروب ستودارد » عند حديثه عن اليقظة الاسلامية فى القرن التاسع عشر ، حيث قال : كان العالم الاسلامى فى القرن الثامن عشر الميلادى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربى ، واستغرقت الأمم الاسلامية فى اتباع الأهواء والشهوات ، ماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، فليس يرى فى العالم الاسلامى — فى ذلك العهد — سوى المستبدين الغاشمين ، كسلطان الدولة الثمانية وأواخر ملوك المغول فى الهند يحكمون حكما واهنا [٩] .

كانت تلك أحوال المسلمين التى أثارت مصلحا مثل السيد جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده المصرى للتقدم بفكرة الجامعة الاسلامية لعلاج تلك الأحوال التى كان أخطر ما فيها الاعتقاد الذى ساد بين المسلمين بوجود تعارض بين الاسلام كدين وعقيدة وبين التقدم العلمى والمادى الحديث ، والنظر الى الحضارة الأوروبية الحديثة نظرة شك وخوف مما يدفعهم الى الابتعاد عن الأخذ بأسبابها،

---

(٨) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٠ .

(٩) لوثروب ستودارد (مترجم) : حاضر العالم الاسلامى ص٢٥٩

وساعدهم على ذلك وجود الحكم العثمانى الذى عمل على ابعاد العرب والمسلمين عن الأخذ بأسباب التقدم الحضارى الأوروبى ، وفى نفس الوقت اعطاء الأجانب امتيازات متنوعة فى الأقطار الاسلامية حيث يمارسون الاستغلال والاحتكار ويكرسون فى المسلمين تخلفهم الحضارى (١٠) .

ويمكن أن نلخص ظروف العالم الاسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، التى جاءت فكرة الجامعة الاسلامية لمعالجتها ، فيما يلى :

أولا : الحكم الاستبدادى العثمانى لكثير من الاقطار العربية الاسلامية البعيد عن الشورى الاسلامية وروح الديمقراطية الغربية .

ثانيا : الجهل والفقر الذى خيم على المسلمين فانصرفوا عن الفضائل الى الرذائل ، وبعدوا عن جوهر الدين الاسلامى وحياة السلف الصالح .

ثالثا : البعد عن الأخذ بأسباب التقدم الحضارى الأوربى اما خوفا على الدين واما لأن الحكام العثمانيين فرضوا العزلة على المسلمين فى الوقت الذى عملت فيه البعثات التبشيرية المسيحية على نشر التعليم الحديث بين المسيحيين العرب .

رابعا : التعرض للغزو الاستعمارى الأوروبى الذى اهتم باضعاف نفوس المسلمين حتى يبعدوا عن الجهاد الاسلامى والوطنى ضد المعتدين .

* * *

---

(١٠) د. رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٠ .

فكرة الجامعة الاسلامية

قامت فكرة الجامعة الاسلامية التى نادى بها السيد جمال الدين الافغانى على الأسس الآتية :

أولا — التحرر من التخلف :

ويدعو هذا الأساس الى ابعاد شبح الجمود الذى ران على أفكار المسلمين وكسر العزلة التى فرضت عليهم لكى يصلوا الى ما وصلت اليه الشعوب الأوروبية فى ميادين الحياة المختلفة ، والاعتماد فى ذلك على التعليم بمؤسساته التى تأخذ بأسباب العلم الحديث ، وتنفض عن نفسها الجمود فى الفكر وفى الأسلوب ، واظهار مرونة الاسلام أى أن الاسلام دين كل زمان وكل مكان ، وأنه لا تعارض مع التقدم العلمى الحديث بل يؤكده (١١) .

وأن التحرر من التخلف يتأتى من استخدام العقل للملاءمة بين الاسلام والمسلمين من جهة ، ومتطلبات العصر الحديث من جهة أخرى ، الرد على من يدعى أن الاسلام قد ذهب عهده ، وأنه اذا نشطت العقول وتمسكت الأمة الاسلامية بالدين واللغة قويت وتخلصت من التخلف الذى فرض عليها (١٢) . هذا الى جانب تخليص الاسلام من الشوائب التى علقت به واصلاح المساوىء الدينية والاجتماعية التى تفشت بين المسلمين (١٣) .

---

(١١) د . رأفت الشيخ : نفس المرجع ص ٩٧ .

(١٢) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٢٨ — ٤١ .

(١٣) د . محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية ص ٥٨ .

ثانيا – التحرر من استبداد الحكام :

وهذا يعنى انهاء الحكم الاستبدادى المفروض على المسلمين سواء كان من سلاطين الدولة العثمانية أو من غيرهم من حكام الأقطار الاسلامية الأخرى ، لأن هذا الحكم الاستبدادى لا يتفق مع الشورى التى دعا اليها الاسلام .

وفى هذا السبيل فقد دعا السيد جمال الدين الافغانى الى النظام الدستورى وحكم الشورى فى مواجهة استبداد الحكام ، وقد تحولت الشورى التى نادى بها الى اداة لازمة لانقاذ البلاد مما حل بها من المصائب وسوء الأحوال (١٤) .

ثالثا – تحقيق الوحدة الاسلامية :

كانت دعوة السيد جمال الدين الأفغانى تركز على الوحدة الاسلامية باعتبارها ضرورة تقضى بها الطبيعة والعادة ويؤيدها العقل والنقل ، وتقرها شواهد التاريخ وعوامل الاجتماع والألفة بين الأمم والشعوب ، وكان يضرب لذلك الأمثال والسوابق فى تاريخ الوحدة الاسلامية فى العهد الأول ، والوحدة الجرمانية فى العصر الحديث(١٥) .

وتحقيق الوحدة الاسلامية فى رأس السيد جمال الدين الأفغانى أمر ممكن اذا انضوت جميع شعوب الأمة الاسلامية على اختلاف أوطانها وجنسياتها تحت حكم خليفة واحد تتجمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية ، وبذلك يعود للمسلمين ما كان لهم من قوة ومنعة زمن الخلفاء

---

(١٤) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٣٢ .

(١٥) نفس المرجع ص ٤٠ .

الراشدين والخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين ، ولكن بشرط أن يتبنى الخليفة الواحد حكما حديثا يأخذ بأسباب الحضارة الغربية المـادية التى لا تتعارض مع الدين الاسلامى الحنيف [١٦] .

وفى هذا المقام ذكر الأفغانى فى جريدة العروة الوثقى ما نصه : واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيهـا العربى بالتركى ، والفارسى بالهندى ، والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية ، حتى أن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخـاه من عاديات الدهر ، وأن تناءت دياره وتقاصت أقطاره ... وأن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل الى قبيل ، مادام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبهـا [١٧] .

وهكذا رأى السيد جمال الدين الأفغانى فى عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين « الأب الأكبر لعموم المسلمين، وأن خلافته الكافلة للشريعة الحافظة للدين » هى أجـد الناس بالالتفات الى حركة الأعداء (يقصد الغزوات الاستعمارية الأوروبية) فى البلاد الاسلامية . وأن الانضواء تحت راية الخليفة الأعظم يسانده فى شدة جذوره واعداده العدة لابطال مكايد أوروبا [١٨] .

رابعا — مقاومة الاستعمار :

يقول السيد جمال الدين الأفغانى فى العروة الوثقى : لقد نظرت الى الشرق وأهله فوجدت أقتل أدوائه انقسام أهله وتشتت آرائهم ،

---

(١٦) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٦٨ .

(١٧) د . محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٥٩ .

(١٨) نفس المرجع ص ٦٠ .

واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم [19] .

اذن الوحـــدة طريق مقاومة الاستعمار الزاحف نحو الأقطـــار الاسلامية والذى كون مستعمرات فى تلك الأقطار فى آسيا وأفريقيا ، خاصة أنه صاحب الغزو الاستعمارى غزو تبشيرى هدد الفكر الاسلامى ، وكان المبشرون يستخدمون أدوات الحضارة الحديثة فى التعليم والطب وخلافه ، وهى أشياء يجهلها المسلمون ، ومن ثم وجب مقاومة الاستعمار بنفس أدواته أى بنفس السلاح الحضارى المـادى الذى لا يتعارض مع الاسلام ومبادئه .

وكان جمال الدين الأفغانى يرى فى الخط الأوروبى ليس فقط موجها ضد الأوطان الاسلامية ولكنه فى المقام الأول خطر يقـوم على أساس دينى ، بل هو حركة نصرانية موجهة ضد الاسلام [20] . وأن هذا الخطر ليس مجرد استعمار انجليزى أو استعمار فرنســى أو استعمار روسى بل ان أدوات الاستعمار الحضارية خطر على الاسلام والمسلمين لا يمكن التصدى له الا بتجمع اسلامى [21] .

* * *

---

(19) العروة الوثقى ص ١٣ .

(20) محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٥٨ .

(21) نصر الدين عبد الحميد : ص ٣٩ .

دعـــاة الفكـــرة

ساد الاعتقاد بأن فكرة الجامعة الاسلامية كظاهرة من ظواهـر اليقظة الاسلامية فى القرن التاسع عشر ارتبطت بشـخصية السـيد جمال الدين الأفغانى وأنها ماتت بموته ، والحقيقة غير ذلك ، اذ أن فكرة الاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى وجدت عند السيد جمال الدين وهو فى بلاده أفغانستان ، كما وجدت عند تليمذه وصديقه الشـيخ محمد عبده فى مصر ، وعند السيد محمد رشيد رضا بعد اتصاله بالشيخ محمد عبده .

كما أن السلطان عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين ارتبط اسمه أيضا بفكرة الجامعة الاسلامية حين أراد استغلالها لتدعيم سلطانه وفرض نفوذه على كل المسلمين حتى على أولئك الذين لم يخضعوا من قبل لسلطان الدولة العثمانية .

ولهذا كان علينا ونحن ندرس ظاهرة الجامعة الاسلامية أن نعرف مكونات كل شخصية من الشخصيات التى ارتبطت بها بشكل أو بآخر ، والجهود التى بذلتها كل شخصية فى سبيل تحقيق فكرة الجامعـة الاسلامية .

أولا — السيد جمال الدين :

ظهرت فكرة الجامعة الاسلامية على يد السيد جمال الدين الأفغانى الذى يعتبر من رواد حركة الاصلاح الدينى والاجتماعى فى العـالم الاسلامى ، وقد ترك أثرا عميقا على المسلمين فى الأقطار الاسلامية فى العصر الحديث ، وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على وجه الخصوص [٢٢] .. فمن هو جمال الدين الأفغانى وما هى شخصيته ؟

---

(٢٢) د . محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٥٧ .

هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسينى الأفغانى . ولد بمدينة « أسعد أباد » من أعمال « كابل » فى عام ١٢٥٤هـ الموافق لعام ١٨٣٨ (٢٣) ، من أسرة تنتسب الى آل البيت حيث ينتهى نسـبه الى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وهذا هو السبب فى تسميته بالسـيد ، ولعشيرته منزلة عالية فى قلوب الأفغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف (٢٤) .

وبهذا نشأ السيد محمد جمال الدين فى بيت شريف وبيت علم ودين ، وقد استزاد علما من مدارس « كابل » القديمة بأخذه علوم اللغة العربية والتاريخ والعلوم الدينية والفلسفة على أيديهم ، الى جانب علوم الطب والفنون الرياضية ، وأضاف الى دراسته لهذه العلوم استفادته من دراسة أحوال الشعوب الاسلامية بتنقله بين أفغانستان والهند وفارس والحجاز ومصر وتركيا ، وتمرسه فى الأعمال الادارية والسياسية بارتباطه بالأمير الأفغانى « دوست محمد خان » والأمير « محمد أعظم خان » ، والخديوى اسماعيل بمصر لمدة ثمان سنوات من عام ١٨٧١ الى عام ١٨٧٩ م وحكام الدولة العثمانية بالآستانة وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد الثانى (٢٥) .

وكانت شخصية السيد محمد جمال الدين بما تميزت به من أسلوب عملى واخلاص علمى منارة له فى كل قطر اسلامى ينزل فيه . ففى مكة المكرمة أنشأ جمعية أطلق عليها اسم جمعية « أم القرى » عام ١٨٥٧م،

---

(٢٣) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الاسلام ص ٤٩٠ .

(٢٤) محمود ابو ريه : المرجع السابق ص ١٥ ، ويذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق ان والد جمال الدين اسمه « صفدر » وهى كلمة فارسية من ألقاب الامام على بن أبى طالب مركبة من كلمة « صف » العربية و « در » من فعل « دريدان » الفارسى بمعنى افترس أو اقتحم . . العروة الوثقى ص ١٧ .

(٢٥) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٢ .

وأصدر لها مجلة تنطق باسمها عرفت باسم « أم القرى » ، وتدافع عن أهداف الجمعية المتمثلة فى وحدة المسلمين لمواجهة الأخطار المحيقة بهـــم (٢٦) .

وعندما انتقل الى الهند وأثناء وجوده فى بلده أفغانستان أثار السيد جمال الدين المسلمين هناك ضد الحكم البريطانى وســـياسته الاستبداديةو الاستغلالية ، وفى استانبول استقبل هناك عام ١٨٧٠م استقبالا وديا من قبل الحكومة والأوساط العلمية ، هذه الأوســـاط التى استطاع أن يحدث فيها تأثيرا بعيدا بما ألقى من دروس ومحاضرات فى الجامعة المنشأة حديثا (٢٧) .

وقد عاش السيد جمال الدين ثمانى سنوات فى مصر فى ظـــل رعاية وترحيب من الخديوى اسماعيل الذى شجعه على المضى فى دعوته الاصلاحية ، لأن ذلك يوافق غرض اسماعيل فى التصدى للنفوذ الأجنبى الذى يحاول سلب السلطة من صاحبها الشرعى ، وعلى هذا فقد نجـــح السيد جمال الدين فى تشكيل حزب من أنصاره وتلاميذه عرف بالحزب الوطنى أو الحزب الأهلى أو حزب الفلاحين (٢٨) .

وقد ساعد السيد جمال الدين على تشكيل هذا الحزب وجـــود جمعيات ناشئة مثل الجمعية السرية التى ألفها على الروبى سنة ١٨٧٦ م من ضباط الجيش ، وكان من بين أعضائها أحمد عرابى ، وكان هدف هذه الجمعية تخليص الجيش المصرى من العناصر التركية والشركسية التى كانت تستأثر بالمناصب دون المصريين ، وتتمتع وحـــدها بالترقيـــات والعلاوات والمناصب القيادية . هذا الى جانب جمعية مصر الفتـــاة

---

(٢٦) عبد المتعال الصعيدى : المرجع السابق ص ٤٩١ .

(٢٧) كارل بروكلمان « مترجم » : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٦١٧ .

(٢٨) محمود أبو ريه : المرجع السابق ص ١٨ .

التى تشكلت بمدينة الاسكندرية عام ١٨٧٩م من المتعلمين الذين تأثروا بأفكار الأفغانى مثل أديب اسحاق وسليم النقاش • وكانت تطالب بحياة نيابية سليمة ، وجمعية حلوان التى تكونت عام ١٨٧٩م أيضا من كبار ملاك الأراضى الزراعية • وكان من نتيجة الاتصال بين تنظيـــم الجيش وجمعية حلوان أن أعلن عن قيام الحزب الوطنى الســـابق ذكره[٢٩] •

وعندما نجحت بريطانيا فى حمل السلطان العثمانى على عـــزل الخديوى اسماعيل وتولية ابنه محمد توفيق مكانه عام ١٨٧٩م ، غضب توفيق من دعوة السيد جمال الدين الى الشورى لأن الخديوى الجديد اعتقد أن هذه الدعوى سوف تؤدى الى الحكم الجمهورى ، كما أن دعوة السيد جمال الدين المنطقية هيجت عليه شيوخ الأزهر المتحفظين فرموه بالفســـوق ، كما أن دعوته أوغرت عليه كذلك صدر قنصل بريطانيـــا العام فى مصر • وانتهى الأمر بنفى السيد جمال الدين من مصر الى الهند عام ١٨٧٩م[٣٠] •

ترك السيد جمال الدين مصر بعد أن استطاع أن يبث فى نفوس الشبان المصريين الأمل فى التحرر من السيادة الأوروبية اذ ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه التعليمية ابتغاء الدفاع عن الاســـلام بوصفه دينا أكثر امعانافى مضمار الرقى[٣١] • وقد جاءت تأثيرات السيد جمال الدين الأكثر وضوحا على طلاب الجامع الأزهر أثناء اقامته بمصر فى الفترة من شهر مارس ١٨٧١ م الى شهر سبتمبر ١٨٧٩ م[٣٢] •

---

(٢٩) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٣٢ •

(٣٠) محمود ابو رية : المرجع السابق ص ١٨ •

(٣١) كارل بروكلمان : المرجع السابق ص ٦١٨ •

(٣٢) — Holt. P. M. : Egypt and the Fertile Crescent; p. 212.

وقد انتقل السيد جمال الدين من الهند الى أوروبا حيث أقام فى باريس منذ عام ١٨٨٣م ، وهناك التقى بالشيخ محمد عبده حيث أصدرا جريدة « العروة الوثقى » التى نطقت بأفكارهما الداعية الى محاربة تدخل الدول الاستعمارية الأوروبية فى شئون الأمة الاسلامية ، ومن باريس انتقل السيد جمال الدين الى لندن عام ١٨٨٦م ، ثم عاد اليها مرة أخرى فى عام ١٨٩٢ ، واشترك فى تأسيس مجلة شهرية سميت « أخبار الخافقين » التى كانت تصدر باللغتين العربية والانجليزية[٣٣] .

وعندما انتقل السيد جمال الدين من فرنسا عا ١٨٨٦م الى لندن اتجه الى فارس ثم زار روسيا ، وقد بقى فى فارس (ايران) حتى اضطر لمغادرتها بسبب هجومه على شركة الدخان الانجليزية العاملة فى فارس ، فسافر الى أوروبا ، حتى اذا كان عام ١٨٩٢م استدعاه السلطان عبد الحميد الثانى الى الآستانة حيث بقى بها لمدة خمس سنوات وافته المنية بعدها فى ٩ مارس عام ١٨٩٧م ، وقد ذكر أنه مات مسموما .

كان هذا هو السيد محمد جال الدين الأفغانى الذى نذر نفسه للدفاع عن حقوق الشعوب الاسلامية فى مواجهة قوى الاستبداد المحلية وقوى الاستعمار الأوروبى ، وتلك كانت صفاته التى جعلت الجميع يعرفونه بلقب « حكيم الشرق » وصارت هذه الصفة تتردد فى كتب الأدب العربى [٣٤] ، ذلك أنه كان يدعو الى اصلاح أحوال المسلمين فى الدنيا والدين ، ويقصد به جميع المسلمين فى كل الأقطار ، وقد تأثر بدعوته هذه بعض طلاب الاصلاح فى مصر وفارس والدولة العثمانية[٣٥] وكان يتصور عودة الشعوب الاسلامية للعيش فى ظل حكومة اسلامية واحدة تتخلص من تأثيرات وتدخلات الأجانب السيئة .

(٣٣) محمود أبو رية : المرجع السابق ص ١٩ .

(٣٤) kedaurie, E. : Afghani and Abduh, p. 1.

(٣٥) عبد المتعال الصعيدى : المرجع السابق ص ٤٩٥ .

ورغم أن السيد جمال الدين من أفغانستان وأنه زار كثيرا من الأقطار الاسلامية والأوروبية الا أنه لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى فى مذهبه الاجتماعى[٣٦] • على الرغم من أنه أكد على أهمية تحدث كل المسلمين اللغـة العربية بالرغم من اختلاف جنسياتهم لأن اللسان العربى هو لسان الدين ، وأنه كان لغير المسلمين ولم يزل من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، ومن ثم أخذ يردد عبارة « جامعة اللسان » وأنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم [٣٧] •

وكان السيد جمال الدين يسعى الى تحويل الامبراطورية العثمانية الى « مملكة الممالك » أى مركز لاتحاد اسلامى ، بتنظيمها على أساس لا مركزى حقيقى ، وأن هذا الاتحاد ــ الى جانب الخوف من الاستعمار الأوروبى ــ سيدفع فارس وأفغانستان والامارات الاسلامية فى الهنـد الى الانضمام الى الامبراطورية العثمانية فى شكلها الجديد ، وبذلك يصبح السلطان العثمانى ــ فى نظر السيد جمال الدين ــ ملك الملوك ، ويصير سيدا على دولة قوية تستطيع أن تعيد للاسلام أمجاده ، وتحمى البلاد الاسلامية من السيطرة الأجنبية ، الا أن السلطان عبد الحميد لم يستجب لأفكار الأفغانى [٣٨] •

واشترط السيد جمال الدين لتحقيق فكرة الدولة الاتحـادية الاسلامية بزعامة السلطان عبد الحميد الثانى : أن يستعرب العثمانيون ويعدلوا فى أهل هذه الدولة وأن يسيروا سيرة المسلمين الأول حتـى يصبحوا أغنى دول العالم وأعزها منعة وقوة •

---

(٣٦) مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى ص ٢٨ •

(٣٧) د • محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٦١ •

(٣٨) نفس المرجع ص ٦٤ •

كما اشترط تحويل الممالك الاسلامية القائمة الى ممالك دستورية، ومن ثم تصبح الدولة الاتحادية الاسلامية دولة دستورية ، ويفضل العمل على زيادة الوعى الدستورى بين الشعوب الاسلامية حتى ترغم حكامها على اصدار دساتير فتبدو من صنع الشعب وبذلك يكون الشعب المسلم مستعدا للدفاع عنها ، بعكس ما اذا كانت الدساتير منحة من الحكـــام يستطيعون حجبها عن شعوبهم كلما شاءوا ، وضرب مثلا لذلك بقـــول مدحت باشا من أنه لا مانع من أن يكون الدستور منحة من السلطان ، ثم ألغاه السلطان [٣٩] .

ثانيا ــ الشـــيخ محمد عبـــده :

هو محمد عبده بن حسن خير الدين المصرى ولد بقرية « شبشير » من قرى مديرية الغربية ، ونشأ ببلدة « محلة نصر » احدى قرى مركز شبراخيت بمديرية البحيرة سنة ١٢٢٦هـ / ١٨٤٩م حيث نشأ والده ونشأت أسرته من قبله [٤٠] . وقد تعلم كما تعلم أبناء مصر آنذاك فى القرى حيث حفظ القرآن الكريم ثم انتقل الى الجامع الأحمدى بطنطا فالجامع الأزهر بالقاهرة عام ١٨٦٦ م ، وقد تعلم على يد مشايخ الجامعين (الأحمدى والأزهرى) وعلى طريقتهم فى التعليم ، وان كان قد وقف على أحوال هؤلاء المشايخ الذين يعيشون فى عزلة عن العالم فلا يشعرون بما أصاب الاسلام والمسلمين ، ولا يهمهم الا أنفسهم داخل الأزهر ، وبقوا على الجمود فى العلوم القديمة[٤١] .

وقد استفاد محمد عبده من علم وتوجيه بعض المشايخ المتنورين أمثال الشيخ درويش الصوفى النزعة السلفى المذهب والذى كان يكره

---

(٣٩) نفس المرجع ص ٦٤ .

(٤٠) د . زكريا سليمان : التيارات السياسية والاجتماعية ... ص٣١ .

(٤١) عبد المتعال الصعيدى : المرجع السابق ص ٥٣١ .

الجهل والبدع والشعوذة ، وأمثال الشيخ حسن الطويل من علماء التجديد ، وفى نفس الوقت ضاق ذرعا ببعض المشايخ الجامدين أمثال الشيخ « عليش » الذى كان معروفا بجموده الفكرى .

ونتيجة لموقف محمد عبده من المشايخ الجامدين المتحفظين ذلك الموقف المتسم بالضيق والنقد ، فقد نال شهادة العالمية من الدرجة الثانية بعد امتحان ظهر فيه أن المشـايخ ينقمون عليه نزعاته الفكرية المتأثرة بمذهب أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى [٤٢] .

وقد انتقد محمد عبده طريقة التعليم فى الأزهر ووصفها بأنها كانت فى أغلبها جامدة وعقيمة ومحصـورة فى مختصرات لا تهم وشروح وحواش وتقارير ، كما أنها لم تكن تصل فى أغلبها بالحياة اليومية الا فى اطار العبادات ، فضلا عن ان أغلب مشايخ الأزهر لا يشعرون بما أصاب الاسلام والمسلمين من تدهور ، وانحصرت أهميتهم على أنفسهم [٤٣] .

كما استفاد محمد عبده من أفكار السيد جمال الدين الأفغانى فارتبط به وبشخصيته ليتم معه الرسالة الاصلاحية للمسلمين التى يعمل من أجلها ، ومن ثم تعاون الرجلان خلال فترة وجود الأفغانى فى مصر ، وعندما رحل الأفغانى عن مصر استمر محمد عبده يدعو الى الاصلاح حتى نفاه الخديوى توفيق الى لبنان ، ومن هناك ذهب الى باريس والتقى بالأفغانى وأصدرا هناك مجلة العروة الوثقى الناطقة باسان جمعيـة العروة الوثقى ، ثم عاد الى مصر بعد أن عفا عنه الخديوى توفيق [٤٤] .

وكان الشيخ محمد عبده بعد حصوله على العالمية من الجامـع الأزهر عام ١٨٧٧ م قد شغل عدة وظائف بدأها بالتدريس فى الجامع

---

(٤٢) مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى ص ٣٢ .

(٤٣) د. زكريا سليمان : المرجع السابق ص ٣٨ .

(٤٤) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٤ .

الأزهر ، ثم نقل للتدريس بمدرسة دار العلوم فى العام التالى (١٨٧٨م) لتدريس التاريخ ، ثم عمل مدرسا للغة العربية بمدرسة الألسن ، الى جانب أنه كان يكتب مقالات أدبية واجتماعية بجريدة الأهرام تؤكد ميله الى العلوم العصرية والبحث فى الأصول الدينية (٤٥) .

وبسبب خضوع الشيخ محمد عبده لتأثيرات أفكار الأفغانى — تلك التأثيرات التى بدأت قبل أن يحصل محمد عبده على العالمية — فقد فصل من التدريس عام ١٨٧٩م وهو العام الذى نفى فيه الأفغانى من مصر ، ثم عمل فى العام التالى بجريدة الوقائع المصرية ، ثم صار عضوا بمجلس ادارة الأزهر ، وقد اشترك فى الحزب الوطنى وأيد مطالب العرابيين . وبعد الاحتلال البريطانى نفى الى لبنان وبعد عودته من المنفى عين عام ١٨٩٩م مفتيا للديار المصرية . وفى عام ١٩٠٠ أسس جمعية احياء العلوم الاسلامية (٤٦) .

ومن الثابت أن السيد جمال الدين الأفغانى استفاد من بلاغة وفصاحة الشيخ محمد عبده فى الترويج للافكار الاصلاحية التى شارك الرجلان فى اظهارها ، وبذلك استحق الشيخ محمد عبده اسم « الأستاذ الامام » الذى أطلق عليه . (٤٧) .

ويرجع السبب فى تسمية الشيخ محمد عبده بالأستاذ الامام الى أن دعوته الاصلاحية كانت تقوم على أمور ثلاثة هى :

١ — تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لا يخضع لسلطان غير سلطان البرهان ، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الأديان .

---

(٤٥) د . زكريا سليمان : المرجع السابق ص ٣٩ .

(٤٦) نفس المرجع .

(٤٧) kedourie, E. : ibid, p. 1.

٢ — اعتبار الدين صديقا للعلم لا موضع لتصادمهما ، اذ لكل منهما وظيفة يؤديها ، وهما حاجتان من حاجات البشر لا تغنى احداهما عن الأخرى •

٣ — فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى •

كما كان الشيخ محمد عبده محبوبا معظما معترفا له بمقام الامامة الذى لا يساميه مقام بين الطوائف الراقية من المصريين ، وبين طوائف الأجانب فى مصر (٤٨) •

وقد اتفق الشيخ محمد عبده مع السيد جمال الدين فى أفكاره الداعية الى تحرير العقل الاسلامى من الجمود الفكرى والسخط على حكام المسلمين المستبدين ، وبأن وحدة المسلمين تحقق نهضتهم ، وأن تكون الوحدة قائمة على مبادىء دستورية مع الأخذ بالعلم الحديث الذى نهضت به شعوب أوروبا •

ورغم اتفاق الرجلين حول هذه الأمور فانهما اختلفا فى الوسائل المحققة للاصلاح المنشود ، فبينما كان السيد جمال الدين يريد الاصلاح عن طريق السياسة وتحرير الشعوب الاسلامية من الاستعمار الاوروبى وجمع كلمتها تحت ظل الخلافة العثمانية ، كان الشيخ محمد عبده يؤمن برسالة العلم والموعظة الحسنة ، وينادى بضرورة تثقيف المسلمين وأخذهم بأسباب الحضارة الأوروبية الحديثة ، والنهوض بالأمة بالتدريج دون تهور أو اندفاع وبعيدا عن السياسة ، ولذلك كان يقول : ما دخلت السياسة شيئاالا أفسدته (٤٩) •

---

(٤٩) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٤٤ •

(٤٨) مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى ص ٣٦ — ٣٧ •

وهذا الأسلوب السلمى جر عليه غضب العرابيين وهو لا يقلل من قيمته أو جهوده ، التى قصرها على اصلاح الأزهر والأوقاف، الاسلامية والمحاكم الشرعية التى تولى الاشراف عليها فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى ، حيث كان الشيخ محمد عبده يعتقد أنه لتجنب الصدام مع الانجليز المسيطرين بقوات احتلالهم على مقدرات الأمور فى مصر فان اصلاح هذه النواحى يؤدى الى نهضة دينية واجتماعية تصلح بها نفوس الناس ، واذا صلحت نفوس الناس تمسكوا بحقهم فى تحرير بلادهم من السيطرة البريطانية[50] •

ورغم أن الشيخ محمد عبده حرص على الاصلاح الدينى والاجتماعى والثقافى وتجنب الخوض فى الاصلاح السياسى ، الا أنه كان شديد الحرص على تحقيق برامجه الاصلاحية فى هذه المجالات، وقد أنتج هذا الحرص حربا لا هوادة فيها من رجال الدين الجامدين الذين كان يحركهم الخديوى عباس حلمى الثانى ، حيث حاربوه ورموه بالالحاد والكفر ، واعتبروا الدعوة التى كان يدعو اليها دعوة الحادية وجدير بصاحبها أن يبوء بغضب صاحب العرش والجمهور [51] •

ونتيجة لما لاقاه الشيخ محمد عبده من عنت المشايخ الجامدين ومن تعسف الأتراك الحاكمين لاشتراكه فى الثورة العرابية حتى نفى خارج مصر ، ونتيجة لما بذله من جهود كبيرة لتحقيق برنامجه الاصلاحى ، فقد تأثرت صحته حتى وافته المنية عام ١٩٠٥ م • وله من العمر حوالى ستين سنة فقط •

وقد اتفق الشيخ محمد عبده مع استاذه السيد جمال الدين الأفغانى فى الدعوة الى الجامعة الاسلامية بزعامة الدولة العثمانية

---

(٥٠) د . رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٥ •

(٥١) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٤٢ •

التى اعتبر أن المحافظة عليها ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها — فى رأيه — المحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته ، وليس للدين سلطان سواها[٥٢] .

ثالثا — السيد محمد رشيد رضا :

كون الشيخ محمد عبده مدرسة فكرية للاصلاح كان أكبر تلاميذها السيد محمد رشيد رضا صاحب جريدة المنار ، والذى يعزى اليه الفضل فى الدعوة الى الجامعة الاسلامية على صفحات جريدة المنار وبجولاته فى البلاد الاسلامية . وبهذا يمكن اعتبار السيد محمد رشيد رضـا حامل أفكار كل من السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبـده معـا [٥٣] .

والسيد محمد رشيد رضا لبنانى المولد حيث ولد بقرية قـرب طرابلس الشام ، تعلم فيها القرآن الكريم والخط وقواعد الحسـاب ، ثم دخل المدرسة الرشدية ، كان التعليم فيها باللغة التركية كما دخـل عدة مدارس دينية ، وأخذ بشىء من التصوف فبعد عن الوظائف الحكومية [٥٤] .

وهكذا تكونت شخصية السيد محمد رشيد رضا تكوينا عصريا دينيا معا ، فان دراسته بالمدارس الابتدائية الحديثة التى أنشأهـا الحكم العثمانى فى الشام على غرار المدارس الحديثة التى بدأ محمد على فى انشائها بمصر ، ثم التحاقه بالمدرسة الرشدية التى تقابـل الآن المدرسة الاعدادية أو المتوسطة ، وهى مدرسة من مدارس السلم

---

(٥٢) د . زكريا سليمان : المرجع السابق ص ٨٦ .

(٥٣) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٥٤) عبد المتعال الصعيدى : المرجع السابق ص ٥٣٩ .

التعليمى الحديث أيضا ، ثم دراسته ببعض المدارس الدينية ، كل ذلك جعل شخصية السيد محمد رشيد رضا أقرب الى الأفكار الاصلاحية وجعله يتصل بالشيخ محمد عبده ويلازمه حوالى سبع سنوات فى مصر .

وكان السيد محمد رشـيد رضا يتابع الحركة الاصلاحية التى يقودها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، ويقرأ كل ما يصدر عنهما خاصة فى مجلة العروة الوثقى ، والتقى بالامام الشيخ محمد عبده فى طرابلس الشام مرتين عندما كان الامام منفيا فى لبنان .

وقد رحل السيد محمد رشيد رضا الى مصر عام ١٨٩٨م ولازم الأستاذ الامام ، وأصدر مجلة « المنار » التى حلت من حيث رسالتها محل مجلة العروة الوثقى . وبعد وفاة الشيخ محمد عبده استمر السيد محمد رشيد رضا فى حمل الأمانة ، وان كان قد داهن الساسة كما فعل عنـدما أيد الملك فؤاد ملك مصر فى اتخاذ لقب خليفة بعد الغاء الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك .

ويعتبر البعض السيد محمد رشيد رضا داعية للحركة الوهابيـة باعتبارها دعوة سلفية وأنه جند مجلة المنار للدفاع عن دعوة التوحيـد (المعروفة بالدعوة الوهابية) ، ومع ذلك فان السيد محمد رشيد رضا كان يخالف بعض أئمة هذه الدعوة انطلاقا من تأثره بالطرق الصوفيـة . وقد ظلت مجلة المنار تنطق باسم دعوة الاصلاح التى بدأها السـيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، حتى وفاة السيد محمد رشيد رضا عام ١٩٣٥ م [٥٥] .

رابعا — السلطان عبد الحميد :

صادفت فكرة الجامعة الاسلامية هـوى فى نفس السـلطان عبد الحميد سلطان الدولة العثمانية والذى تقلد السلطنة منذ عـام

(٥٥) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٦ .

١٨٧٦م ، ورأى أن السلاطين الذين سبقوه فقدوا مكانتهم الدينيـة نتيجة لتفكك العالم الاسلامى ، واستيلاء دول الاستعمار الأوروبى على مناطق تسكنها شعوب اسلامية منها مناطق كانت من ممتلكات الدولـة العثانية كمصر والسودان التى احتلتها قوات بريطانية ، والجـزائر وتونس التى صارت مستعمرات فرنسية هذا الى جانب سيطرة انجلترا على الهند وسيطرة روسيا على وسط آسيا •

وكان سقوط هذه الاقطار ــ وخاصة العربية منها ــ فى يـد الاستعمار الأوروبى يعنى خروج هذه الأقطار عن السيادة العثمانيـة المطلقة ، وبالتالى لم يعد للخليفة العثمانى زعيم المسلمين سلطة كاملة على هذه الأقطار ، ومن ثم حاول السلطان عبد الحميد أن يجعل للسلطان العثمانى سلطة مطلقة أكثر مما كانت متاحة للسلاطين العثمـانيين السابقين ، تكون مؤيدة بفكرة الخلافة الاسلامية والجامعة الاسلامية[٥٦]

ورغم أن فكرة الجامعة الاسلامية عند السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده لم تكن بالضرورة لتتحقق فى ظل الخلافة العثمانية، فان السلطان عبد الحميد الثانى استخدم الفكرة من أجل تقوية مركزه كسلطان للامبراطورية العثمانية يتمتع بمكانة خاصة فى قلوب رعاياه المسلمين باعتباره خليفتهم وظل الله على الأرض وحامى حمى الحرمين الشريفين •

وقد أحاط السلطان عبد الحميد ــ تبعا لذلك ــ نفسه بالعلمـاء واستخدم الوعاظ للدعاية لشخصه ، كما أبعد عن مجالسه وقصوره كل ما لا يتفق مع تعاليم الاسلام ، واستخدم شريف مكة نفسه فى الدعاية لـه • خاصة وأنه أظهر الكرم فى الأنفاق على المؤسسات الاسلامية داخل ولايات الدولة العثمانية وخارجها ، حيث اعتقد بتحسين مركز

(٥٦) Holt, P. M. op. cit., p. 172.

الامبراطورية العثمانية بين الشعوب الاسلامية الخاضعة للحكم الانجليزى والفرنسى والروسى ، فينال هو شخصيا رئاسة كل مسلمى العـــالم الاسلامى (٥٧) .

وكان يمكن لفكرة الجامعة الاسلامية أن تجد قبولا وصدى أوسع وتنتشر بين الشعوب الاسلامية لو لم يتسم حكم السلطان عبد الحميـــد الثانى بالاستبداد مما جعل المعارضة لمشروعاته تتسع لتشمل الى جانب الأتراك ، العرب والفرس والهنود ، بل وغير المسلمين من أهل الولايات العثمانية ، هذا الى جانب الدول الأوروبية التى أخذت تستغل أخطاء السلطان عبد الحميد فى ضرب أفكاره ومنعها من التطبيق باثارة العرب ضد الأتراك ، وكشف ادعاءات السلطان عبد الحميد الاصلاحية باظهار استبداده وكبته للحريات ، والغائه للاصلاحات الدستورية ، وابعـــاد الشخصيات المصلحة من على مسرح السياسة العثمانية بل والاسلامية.

وعندما قامت الثورة التركية عام ١٩٠٨م أجبر حزب تركيا الفتاة السلطان عبد الحميد الثانى على اعادة الدستور العثمانى الـــذى كان قد صدر بجهد مدحت باشا الصدر الأعظم فى ٢٣ ديسمبر عام ١٨٧٦م. بعد طول ايقافه ـــ حيث أوقف السلطان عبد الحميد العمل بالدسور وعزل مدحت باشا فى ١٤ فبراير سنة ١٨٧٧ أى بعد أقل من شهرين ـــ ولكن لم يؤد تمسكه بالخلافة الاســـلامية الى نجاحه الدائم اذ قامت ضده الحركة الانقلابية بزعامة جماعة الاتحاد والترقى التى تم خلعه على أثرها الذى تم فى ابريل عام ١٩٠٩ م (٥٨) .

* * *

(٥٧) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٨ .

(٥٨) نصر الدين عبد الحميد : المرجع السابق ص ٦٢ .

تقييم فكرة الجامعة الاسلامية

لم يتهيأ لفكرة الجامعة الاسلامية أن تصبح حقيقة واقعة وظلت مجرد فكرة سجلتها صفحات التاريخ مع جهود الدعاة الذين نشطوا لكى يضعونها موضع التنفيذ ، ولكن حال دون ذلك العوامل الآتية :

أولا : حقيقة كانت الفكرة الاسلامية هى الفكرة السائدة بين الشعوب العربية والاسلامية ولم تكن الفكرة القومية أو الفكرة الوطنية تفرض وجودها ، ولذلك لم يألف المسلمون عربا أو فرسا أو هنودا من ان يحكمهم حكاما أتراك طالما كانوا مسلمين ، ومع ذلك لم يتحمس المسلمون بصفة عامة للفكرة بسبب سلبيات الحكم العثمانى فى المنطقة العربية .

ثانيا : عمل الاستعمار الأوروبى خاصة الانجليزى والفرنسى والروسى على عدم تحقيق فكرة الجامعة الاسلامية ، لأن الفكرة من أهدافها مواجهة الأطماع الاستعمارية الأوروبية ولأن الدول الأوروبية وخاصة منذ مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م قد بدأت سياسة تقطيع أوصال الامبراطورية العثمانية وتحقيق الأطماع الاستعمارية فى الأقطار العربية والاسلامية .

ثالثا : سعت بعض القطاعات فى الأقطار الاسلامية التى تأكيد الروح الوطنية وعدم التحمس لفكرة الجامعة الاسلامية ، مثل حزب الأمة المصرى الذى أخذ يروج لفكرة القومية المصرية[٥٩] . ومثل سكان جبل لبنان من الموارنة والدروز وغيرهم ، هذا الى جانب غلاة المسيحيين (الأقباط) فى مصر الذين نادوا بالقومية الفرعونية ردا على فكرة الجامعة الاسلامية . وسعوا الى احياء اللغة القبطية ، لأنها كما

---

(٥٩) نفس المرجع ص ٧٧ .

قالوا لغة البلاد المصرية ولغة العبادة المسيحية ولغة المدينة القديمة والجديدة فى رأيهم[٦٠] •

رابعا : موقف السلطان عبد الحميد الثانى الذى أراد استخدام فكرة الجامعة الاسلامية لتحقيق أغراضه هو ولم يعمل على وضعها موضع التنفيذ ، فعلى سبيل المثال لم يحقق مبدأ تحرر المسلمين من استبداد الحكام ، ولم يحقق مبدأ تحرر المسلمين من التخلف والبدع ، ولم يحقق مبدأ الحكم الدستورى ، ولم يحقق الحكم العصرى أسوة بالمجتمعات الناهضة فى أوروبا ، ومن ثم انصرف الناس عن الفكرة رغم تعلق بعض المثقفين بها أمثال زعامة الحزب الوطنى فى مصر ، وكان هذا التعلق بهدف ضرب المحتلين البريطانيين استنادا الى الوحدة الاسلامية بزعامة الخليفة العثمانى •

هذه هى الجامعة الاسلامية التى هى مظهر من مظاهر اليقظة العربية الاسلامية ، أقول العربية الاسلامية حيث أن السيد جمال الدين الأفغانى حاول التوفيق بين فكرة الاسلام وفكرة العروبة ، فكان يرى أن الاسلام كعقيدة انما هو طريق التعرب واكتساب خصائص الأمة العربية •

ولذلك نجد السيد جمال الدين الأفغانى يقول : لو أن العثمانيين اتخذوا اللغة العربية لغة لكل الامبراطورية فان كل شعوبها سوف يصبحون وقد جمعتهم رابطتان بدلا من رابطة واحدة فتقوى وحدتهم •

ويقول كذلك : لو تعربت الدولة العثمانية وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية وزال داعى النفور والانقسام بالتركى والعربى وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى وما فى الدين الاسلامى من عدل ، وما فى سيرة أفاضل العرب من أخلاق وفى مكارمهم من عادات لكان

(٦٠) المرجع السابق ص ٨٤ •

اعادة عصر الرشيد (يقصد هارون الرشيد الخليفة العباسى) للمسلمين ميســـورا (٦١) .

ولكن شاءت ارادة الله ألا تتحقق فكرة الجامعة الاسلامية لا فـــى صورة وحدة أو اتحاد كما دعا اليها السيد جمال الدين الأفغانى ، حتى أحييت فيما عرف بمنظمة المؤتمر الاسلامى الذى يحقق الوحدة الاسلامية الأشمل فى قارات العالم ، تلك المنظمة التى بدأت تمارس وجودهـــا من مكة المكرمة منذ عام ١٩٦٩م وما زالت وستظل ان شاء الله ..

* * *

(٦١) د . محمود صالح منسى : المرجع السابق ص ٦١ — ٦٢ .

الباب الثالث

مقومات اليقظة العربية الاسلامية

(مرحلة التدهور الثانية فى التاريخ الحديث)

- مقدمة ٠
- الفصل السابع : الاستعمار الأوروبى ٠
- الفصل الثامن : الصهيونية العالمية ٠

مقـــــدمة

توفرت ظروف وعوامل ساعدت على زحف الدول الاستعمارية نحو أقطار الوطن العربى أثناء الحكم العثمانى لهذه الأقطار ، فكما توفـــرت ظروف وعوامل أدت الى قيام الحركات الاستقلالية فى أنحاء من الوطن العربى متفرقة ، وكما توفرت كذلك ظروف وعوامل ساعدت على ظهور دعوات الاصلاح الدينى المعروفة بالحركات السلفية ، فكان من الطبيعى أن نجد الزحف الاستعمارى فى أقطار الوطن العربى نتيجة ظروف وعوامل يمكن تصنيفها على النحو الآتى :

أولا : عوامل تتعلق بالدولة العثمانية صاحبة السيادة ونظـــام حكمها فى الأقطار العربية ، فقد كانت الدولة العثمانية ذات الامبراطورية المترامية الأطراف فى الغرب والشرق — فى أوروبا وآسيا وأفريقيــا — تضم شعوبا مختلفة عنها وفيما بينها من النواحى الجنسية والثقافية ، ومن الطبيعى أن يحدث تحلل لهذه الامبراطورية عندما تضعف وعندما تنضج الشعوب الداخلة فى حوزة الامبراطورية ، ومن ثم وجدنا أنـــه فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر أقوى دول أوروبا والعالم من الناحية الحربية أخذت هذه القوة فى الاضمحلال لانحلال نظمها الداخلية من ناحية وعدم مجاراتها روح العصر ولظهور الروح القومى ونموه وللحروب الكثيرة التى خاضتها وللعداء المقيـــم بينها وبين روسيا والنمسا [1] .

وعلى هذا أصبحت الدولة العثمانية منـــذ النصف الثانى للقـــرن الثامن عشر رجل أوروبا المريض ، وأصبحت معظم ولاياتها شبه مستقلة

---

(1) د . محمد مصطفى صفوت ، مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره فى البلاد العربية ص ٥ .

عن الدولة أو خاضعة للنفوذ الأجنبى حتى يمكن القول أنه لم يكن للدولة من سلطة فعلية الا فى العاصمة (الآستانة) وما حولها فى كل من أوروبا وآسيا الصغرى .

ولقد ساعدت الدولة العثمانية بضعفها على انتزاع أقاليم من ولاياتها لصالح النفوذ الأجنبى اقتصاديا وثقافيا وذلك نتيجة لما منحته القوى الأوروبية من امتيازات فى الولايات العثمانية حققت قدرا كبيرا من السيطرة فى تلك الولايات وبالتالى حققت لهذه القوى الأوروبية مصالحها على حساب المصالح العثمانية للدولة أو الولايات .

ثانيا : عوامل تتعلق بالأقطار العربية ، ذلك أن معظم أقطار الوطن العربى خضعت للسيطرة العثمانية منذ أوائل القرن السادس عشر أثناء قوة الدولة،فلما ضعفت ظهرت حركات استقلاليةفىأنحاء من الوطن العربى ساهم بعضها الى جانب التنظيمات العثمانية للحكم فى وقوع الأقطار العربية كلها فى النهاية فى يد القوى الأوروبية الاستعمارية ، كما أن العزلة التى فرضتها الدولة العثمانية على الأقطار العربية وخاصة العزلة الثقافية قد خلقت سلبية عند الشعوب العربية فلم ينضج فيها الوعى القومى العربى الا متأخرا جدا وبعد أن سقطت أقطار الوطن العربى الواحد بعد الآخر فى أيدى الاستعمار الأوروبى .

ثالثا : عوامل تتعلق بالدول الأوروبية الاستعمارية : فقد كانت الدول الأوروبية تتخذ فى مبدأ الأمر عند ضعف الدولة العثمانية سياسة المحافظة على الأمبراطورية العثمانية ضد القوى الطامعة فيها أو الخارجة على سلطتها . وذلك تحقيقا لمبدأ التوازن الدولى ، فى الوقت الذى تناصب فيه بعض الدول الأوروبية الدولة العثمانية العداء ، فلقد كانت سياسة روسيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عاملة على تقويض ملك آل عثمان وتقسيم دولتهم[٢] . وكذلك النمسا التى تريد أن تثأر

(٢) المرجع السابق ص ٥ .

من الدولة العثمانية التى توسعت فى أوروبا على حساب الممتلكات النمسوية المجرية ، بل انه بعد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م تخلت كل من انجلترا وفرنسا صاحبتا التاريخ الطويل فى سياسة التكامل السياسى للدولة العثمانية بصفة واضحة عن هذه السياسة فأخذت هاتان الدولتان تنتزعان من الدولة نفسها ولاياتها وأقاليمها(٣) ، وبالتالى لم تنقطع الاعتداءات الأوروبية على الممتلكات العثمانية حتى تم التهام كل هذه الممتلكات لمصلحة الدول الأوروبية الاستعمارية .

وكان مما شجع الدول الأوروبية الى المسارعة باقتسام الممتلكات العثمانية ، سيطرة الدولة العثمانية على ولايات ذات موقع استراتيجى واقتصادى مهم كمصر التى تمر فى أرضها قناة السويس ذات الأهمية الكبرى فى ربط الشرق بالغرب ، وسيطرة الدولة العثمانية على المنطقة العربية الجنوبية المطلة على المحيط الهندى والخليج العربى ، والمنطقة العربية فى شمال أفريقيا المواجهة لأوروبا على الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط ، بالاضافة الى سيطرة الدولة العثمانية على مضيقى البسفور والدردنيل وكل تلك المناطق تستهوى القوى الاستعمارية لتحل سيطرتها محل السيطرة العثمانية .

وكانت صورة أقطار الوطن العربى السياسية عقب الحرب العالمية الأولى على النحو التالى .

— مصر تخضع لاحتلال انجليزى منذ عام ١٨٨٢ م ثم فرضت عليها الحماية الانجليزية عام ١٩١٤ م وقطعت كل صلة بين مصر والدولة العثمانية بحجة اشتراك تركيا صاحبة السيادة الشرعية على مصر فى الحرب الى جانب ألمانيا .

---

(٣) د . محمد أنيس ، د : رجب حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٧٧ .

ـ السودان يخضع لاتفاقية الحكم الثنائى المصرى الانجليزى اسما والانجليزى فعلا منذ عام ١٨٩٩م ، عام توقيع الاتفاقية عقب استرجاع السودان من المهديين •

ـ العراق يخضع لانتداب انجليزى رغم وجود نظام ملكى على رأسه فيصل بن حسين ، وذلك تحقيقا لاتفاق سايكس – بيكو بين انجلترا وفرنسا • وقرارات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ •

ـ فلسطين تخضع لانتداب انجليزى بعد طرد الأتراك منها فى معارك الحرب العالمية الأولى ، ومن ثم مساعدة الحركة الصهيونية العالمية على اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين •

ـ اليمن الجنوبية (عدن) تخضع لاحتلال انجليزى منذ عام ١٨٣٩م

ـ امارات ومشيخات الخليج تخضع لسيطرة انجليزية بموجب معاهدات الحماية •

ـ خلقت انجلترا امارة شرقى نهر الأردن ارضاء للشريف حسين ابن على شريف مكة ووضعت على رأسها الأمير عبد الله بن حسين ، تحت النفوذ الانجليزى •

ـ اقتسمت كل من انجلترا وفرنسا وايطاليا وأثيوبيا الصومال منذ أواخر القرن التاسع عشر واستمرت تجزئة الصومال تحت السيطرة الأجنبية •

ـ الجزائر تخضع لاحتلال فرنسى منذ عام ١٨٣٠ م •

ـ وتونس تخضع أيضا لاحتلال فرنسى منذ عام ١٨٨١م •

ـ ومراكش (المغرب) تخضع لانتداب فرنسى تحقيقا لاتفاق سايكس – بيكو ، وذلك عقب معارك الحرب العالمية الأولى ، وطبقا لقرارات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ م •

— ليبيا تخضع لاحتلال ايطالى منذ عام ١٩١١ م ٠

وبقيت كل من سلطنة نجد بزعامة عبد العزيز آل سعود واليمن تعيش مستقلة دون أن يكون للاستعمار فيهما نفوذ كبير ٠

هذه هى الصورة السياسية لأقطار الوطن العربى فى أعقاب معارك الحرب العالمية الأولى ، ولكن كيف تكونت هذه الصورة ؟ الاجابة على هذا السؤال نجدها فى الصفحات التالية ٠

* * *

الفصل السابع

الاســـتعمار الأوروبى

- مقـــدمة .
- الاستعمار البريطانى .
- الاستعمار الفرنسى .
- الاستعمار الايطالى .

مقـــــدمة

تعرضت أقطار الوطن العربى لحركة الاستعمار العالمى فى القرن التاسع عشر حيث تسابقت الدول الأوروبية لاقتطاع أجزاء من قارتى آســـيا وأفريقيا العربية وغير العربية ، فاستحوذ الاستعمار البريطانى على مصر والســـودان والعراق وأقطار الخليج والجنوب العربى كما استحوذ على فلسطين وشرقى الأردن •

كما فرضت فرنســـا سيطرتها على الجـــزائر وتونس وموريتانيا وجيبوتى وسوريا ولبنان خـــلال مائة عام تقريبا من ١٨٣٠ الى عام ١٩٢٠ م • وأما ايطاليا فقد سيطرت على كل من الصـــومال الجنوبى وليبيـــا •

وفى الصفحات التاليـــة نعالج الطرق والوسائل التى استخدمها الاستعمار الأوروبى البريطانى والفرنسى والايطالى فى السيطرة على أقطار الوطن العربى خلال ما يقرب من مائة عام قبل أن تفيق شعوب هـــذه الأقطار لتقاوم الوجود الاستعمارى •

* * *

الاســـتعمار البريطانى

أولا — فى مصر والسودان :

كانت انجلترا أسبق الدول الأوروبية اهتماما بالمنطقــة العربية وبالتالى فرض السيطرة الاستعمارية على أجزاء كثيرة فى الوطن العربى . ففى مصر تم تعيين أول قنصل لانجلترا عام ١٦٩٧ بالقاهرة ووكيلا له بالاسكندرية ، وحصل الانجليز على امتيازات من السلطان العثمانى فى مصر ، ومن ثم دخل الانجليز فى منافسة مع الفرنسيين فى مصر . وفى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ازداد اهتمام انجلترا بمصر لا على أنها سوق تجارية ولكن لعاملين جديدين الأول ضعف الدولة العثمانية وهزائمها المتكررة فى البلقان وظهور الأطماع الفرنسية فى مصر بما يوحى بقرب غزو فرنسى لمصر ، والعامل الثانى هو ظهــور أهمية مصر كحلقة فى طريق المواصلات البرية والبحرية بين أوروبا والهنــد ، فقــد انتزعــت انجلترا من فرنســا أكبــر مستعمراتهــا بين أوروبا والهند ، فقد انتزعت انجلترا من فرنسا أكبر مستعمراتها فى الهند فى صلح باريس عام ١٧٦٣ م ، واتجه الاهتمام الى تيسير المواصلات بين انجلترا وامبراطوريتها الهندية ، ومن هنا انبعث التفكير الى احياء الطرق البرية القديمة وأهمها طريق البحر الأحمر ومصر ، وطريق الخليج والفرات[1] .

وقد حاول الانجليز أحياء طريق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر ، وقاموا بمحاولات متعددة لذلك بعضها مع الباب العالى وبعضها مع أمراء

---

(1) د . عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضـــة العربية الحديثة ، ص ٢٢١ .

المماليك ، وبصفة خاصة على بك الكبير الذى كان قد استولى على الحجاز فرحب بالفكرة لأنها ستدر عليه دخلا كبيرا بوصول السفن التجـارية الهندية الى السويس ثم تمر عبر الأراضى المصرية الى الاسكندرية حيث تحملها السفن الى انجلترا •• وهـذا المرور سوف ينعش مصر بعد أن تحولت التجـارة الى طريق رأس الرجاء الصالح منـذ أوائل القرن السادس عشر •

وهكذا تحكم فى السياسة الانجليزية نحو مصر والبحر الأحمر ما عرف بالعامل الهندى Indian Factor الذى اسـتخدم الطريق البرى عبر مصر الى الهند • وقد كان ذلك سببا يدفع السياسة الخارجية الانجليزية الى تقدير أهمية مصر من الناحية الجغرافية وتقدير أهمية موقعها بالنسبة للامبراطورية البريطانية فى الهند[٢] • ولكن اضطراب الأحوال فى مصر فى عهد سيطرة الأميرين ابراهيم بك ومراد بك على الأمور دفع الانجليز الى التخلى مؤقتا عن الاهتمام بمصر وبالطريق البرى عبرها •

ولكن حدوث الغزو الفرنسى لمصر عام ١٧٩٨ الى عام ١٨٠١ م قد نبه انجلترا الى ضرورة الاهتمام بمصر ، وكلنا يذكر موقف انجلترا من هـذا الغزو ومشاركتها فى اجلاء الفرنسيين عن مصر بالقوة عام ١٨٠١ م ، ثم محاولتها أن يكون لها النفوذ الأعلى فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر لدرجة تحتضن فيها فريقا من الأمراء والمماليك على رأسهم محمد بك الألفى ليكونوا رجالها وعملاءها فى مصر • وقد حاول الانجليز مع السلطان العثمانى أن يعهد بالحكم فى مصر لمحمد بك الألفى ، ولكن دون جدوى حتى توفى الألفى فى ينـاير ١٨٠٧ م ، ثم محاولة انجلترا احتلال مصر فيما عرف بحملة فريزر عام ١٨٠٧ م

(٢) Dr. M. Anis : England and the Suez - Route in 18th Century, p. 16.

أيضا التى فشلت وانسحبت تحت ضغط المقاومة الشـــعبية المصرية ؛ ولكنها لم تقف مكتوفة اليدين أو وقفت موقف المتفرج للبناء الحديث الذى يشيده محمد على معتمدا على الخبرة الفرنسية فى المقام الأول ، اذ أنها أخذت ترقب الموقف الى أن تتهيأ لها الفرصة لتضرب ضربتها .

ورغم أن محمد على شجع انجلترا على اعادة فتح الطريق عبر مصر والبحر الأحمر الى الهند ، فان ابراهيم باشا عارض مشروعا انجليزيا عام ١٨٣٦ م باستخدام السفن الانجليزية فى نهر الفرات لأن ذلك سوف يحد من امتداد الحكم المصرى الى العراق ، وكان ذلك من عوامل سوء العـــلاقة بين انجلترا ومحمد على ، كما زاد العلاقة سوءا اتصـــال ابراهيم باشا بأمراء المشيخات العربية فى الخليج والجنوب العربى وحثه اياهم على توثيق العلاقات الســـياسية والحربية والاقتصادية مع مصر . ومن ثم توترت العلاقات بين الطرفين حتى أنذرت الحكومة الانجليزية بأنها لن تقف مكتوفة اليدين ازاء زحف من جانب محمد على تجاه بغداد والخليج . وأن أى اعتداء على عدن التى احتلتها انجلترا عام ١٨٣٩ — يعد اعتداء على جزء من الأملاك البريطانية[٣] .

واستمرت محاولات انجلترا من أجل فرض النفـــوذ فى مصر ، ولم تكن هـــذه المحاولات تستقيم مع مشروعات محمد على الداخلية والخارجية ، ولذلك اتخذت انجلترا موقف المعارض لفكرة محمد على باعلان الاستقلال بمصر والانفصال عن الدولة العثمانية وأنها ترى من المستحيل تنفيذ هـــذه الفكرة وترى من نتائجها المحققة الدمار للباشا[٤] وقد استطاعت انجلترا أن تستغل رغبة محمد على فى تحسين علاقته معها فى توسيع تجارتها مع مصر ، ذلك أن المصانع الانجليزية اعتمدت على القطن المصرى منذ عام ١٨٢١ م . وقد أصبحت تجارة مصر مع

(٣) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ١٢٢ .

(٤) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة ص ١٢١

انجلترا منذ عام ١٨٣٠ م تفوق تجارتها مع أى بلاد أخرى ، حتى أنه فى سنة ١٨٤٩ م ، التى توفى فيها محمد على بلغ ما استوردته مصر من بريطانيا ٤١٪ من وارداتها ، وما أرسلته اليها ٤٩٪ من صادراتها[٥].

ورغم ذلك وقفت انجلترا موقفا عدائيا ضد مصر فى معركة نوارين البحرية ، وفى حروب الشام الى جانب السلطان العثمانى ، وعملت على تأليب الدول الأوروبية ضد مشروعات محمد على حتى انتهى الأمر بفرض معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م على محمد على والتى أفقدته جهوده ومشروعاته العربية بل والداخلية بتخليه عن بلاد الشام والحجاز وكريت، وبقتل التجربة الصناعية المصرية الحديثة والنهضة التعليمية والعسكرية .

استطاعت انجلترا فى عهد عباس باشا أن تحصل على امتياز مد خط حديدى بين القاهرة وكل من الاسكندرية والسويس ، رغم كراهية الباشا للنفوذ الأوروبى ، وواضح من هـذا الامتياز المواقع التى تهتم بها انجلترا فى مصر لتشجيع تجارتها وتسويق صناعتها . ولكنها فقدت هـذا النفوذ فى عهد محمد سعيد باشا ، ولكنها استطاعت اغراق الباشا فى الديون حتى تحكم السيطرة على مصر كما استغلت حاجة الخديوى اسماعيل الى الأموال لتحقيق مشروعات طموحه فى مصر فزادت من اقراضه حتى جاء الوقت لتتحكم اللجان المالية الانجليزية الفرنسية خاصة فى شئون الحكم ، وذلك التحكيم الذى أفضى فى النهاية الى حدوث الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ م .

حدث الاحتلال الانجليزى لمصر بدعوى انقاذ مصر من الفوضى التى ضربت أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، واعادة حياة الاستقرار والاطمئنان ، وادخال أساليب المدنية الحديثة الى مصر ذات الحضارة القديمة ، وحماية الأقليات والجاليات الأجنبية فى مصر والمحافظة على

---

(٥) جورج كيرك : نفس المرجع ص ١٢٣ .

مصالحهم ثم وهو الأهم حماية المصالح الانجليزية الخاصة السياسية والاقتصادية والاستراتيجية ، هـذه المصالح الناشئة من وقوع مصر فى ملتقى الطرق العالمية البرية والبحرية ، ثم المحافظة على قناة السويس ومصالح البريطانيين التجارية والمـالية[٦] •

وسياسة الاحتلال البريطانى فى مصر قامت على قاعدتين متناقضين فى الظاهر القاعدة الأولى أن الاحتلال مؤقت وسوف تجلو القوات البريطانية فى أقرب وقت تتهيأ الفرص لاستقرار الأمور فى مصر ، والقاعدة الثانية احكام السيطرة على كل الأمور فى مصر • ففيما يتعلق بالقاعدة الأولى لم تقم انجلترا بالحاق مصر اليها أو فرض حمايتها عليها ، ولم تقم بتغيير وضع مصر الدولى والشرعى حتى عام ١٩١٤ م بسـبب التناقضات بين الدول الاسـتعمارية ، وبقاء مصر جزءا من الامبراطورية العثمـانية ، وبقى الخديوى يترأس هيئات السـلطة الرسمية فى مصر •

وفيما يتعلق بالقاعدة الثانية ألغت انجلترا المراقبة الثنائية على شئون مصر المـالية ولم تشأ السماح بوجود مراقبين ماليين فرنسيين بعد أن أصبحت سيطرة الانجليز على البلاد كاملة ، وحولت مصر الى قاعدة لتزويد الصناعة البريطانية بالقطن ، وزاد عدد الموظفين الانجليز وزاد نفوذهم فى مصر لدرجة التعالى وممارسة الضغط بصورة وصفها اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فى تقريره سنة ١٩٠٣ م بقوله: يحسن بكل بريطانى موظف فى الحكومة المصرية أن يعرف الظروف الخاصة التى يعمل بها فى هـذه البلاد ، وهـذه الظروف ينتج عنها بالضرورة أن يكون الأوروبى متقدما والمصرى تابعا له حتى ولو كان

---

(٦) د • محمد مصطفى صفوت الاحتلال الانجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه ص ٣١٥ •

منصب الأوروبى دون منصب المصرى اسـما ، وأن القيادة للموظف الأوروبى بالضرورة[٧] •

وكانت سيطرة لورد كرومر (سير ايفلن بارنج) على مقدرات الأمور فى مصر شديد فقد حرم المصريين من كل سلطة واتخذ مواقف متشددة من الحركة الوطنية المصرية ، ورسم سياسة اجلاء المصريين من السودان واحلال السيطرة الانجليزية محلها ، ولعل معنى تقديمه تقارير سنوية دورية عن الحالة فى مصر والسودان لوزير الخارجية الانجليزى — لا للسلطان العثمانى أو الخديوى — خير دليل على مدى سـيطرة سلطات الاحتلال الانجليزى على مقدرات الأمور فى مصر لمصلحة الدولة التى تحتل قواتها أرض مصر •

وفى مصر عملت انجلترا على فصل السودان عن مصر منتهزة فرصة الثـورة المهدية عام ١٨٨١ م وقد فرضت على مصر سـياسة اخلاء السـودان عام ١٨٨٤ م من المصريين عسكريين ومدنيين ، ثم فرضت استرجاع السـودان عام ١٨٩٦ م بقوات مصرية انجليزية مشتركة ، انتهت بعقد ما عرف باتفاق الحكم الثنائى عام ١٨٩٩ م الذى جعل السـودان تحت السيطرة الكاملة للانجليز •

وقد نصت الاتفاقية على تعيين حاكم عام للسودان تختاره انجلترا ويصدر قرار تعيينه من الخديوى ، وتوضع فى يد هـذا الحاكم جميع السلطات المدنية والعسكرية والتشريعية والتنفيذية • ووضع موظفون انجليز على رأس جميع مديريات السودان ، وشغل عدد من الموظفين المصريين وظائف ثانوية واحتفظت مصر بكتيبة عسكرية فى السودان الى جانب القوات الانجليزية كرمز للمشاركة فى الحكم نظير أن تدفع

---

(٧) تقرير عن المـالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩٠٣ رفعه الايرل كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها السياسى فى مصر الى جناب المركيز لنسدون ناظر خارجيتها •

مصر ٧٥٠ ألف جنيه ســنوياً لسد نفقات ادارة السودان •• وظلت السيطرة الانجليزية على السودان حتى حصل على استقلاله بضغط وجهد من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بمصر ••

وقد استمرت الدعاوى الانجليزية بأن الاحتلال مؤقت حتى شبت الحرب العالمية الأولى فانتهزت انجلترا فرصة اشتراك تركيا الى جانب ألمــانيا فى الحرب ضد الحلفاء وأعلنت الحماية البريطانية على مصر وفصلت مصر عن تركيا أى الغاء الســيادة التركية على مصر وعزلت الخديوى عباس حلمى الذى كان موجوداً فى تركيــا والمعين بفرمان سلطانى منذ عام ١٨٩٢ م وعينت مكانه عام ١٩١٤ السلطان حسين كامل حتى عام ١٩١٧ ثم السلطان أحمد فؤاد ، وكلا الاثنين كانا ألعوبة فى يد السلطات الانجليزية صاحبة الفضل فى تعيينهما ••

وعندما انتهت معارك الحرب العالمية الأولى وشبت ثورة ١٩١٩ م فى مصر بسبب تعنت سلطات الاحتلال الانجليزى فى رفض مندوبين عن الشعب المصرى للمطالبة بالغاء الحماية الانجليزية وخروج قوات الاحتلال واستقلال مصر والسودان كدولة واحدة ، لجأت انجلترا الى المراوغة حتى صدر ما عرف بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م الذى ألغى الحماية واعترف باستقلال مصر دون السودان مع عدة تحفظات تنتقص من الاستقلال ••

ثانيا — فى العراق والخليج والجنوب العربى :

يمثل العراق بحكم موقعه على طريق الهنــد مركز اهتمام كبير ومتزايد لانجلترا منذ وطئت أقدام الانجليز الأرض الهندية واستغلال شعبها بصورة وصفها أهل البلاد من التجار أواخر القرن ١٨ بقولهم ان مصانع السادة الانجليز كثيرة كما أن كثيرا من مخازنهم التجارية موجودة فى كل مكان بكل قرية ، بل تكاد تكون موجودة بكل أرجاء

البنغال ، وهم يتجرون فى جميع أنواع الحبوب والمنسوجات وكل نوع آخر من أنواع السلع يوجد بالبلاد[٨] .

ومن الطبيعى أن ينطلق الانجليز من سيطرتهم على الهند التى استغرقت حوالى مائة عام ١٧٤٨ — ١٨٤٨ والتى أسسوها بحد السيف ولا ينازعهم فيها منازع ، وأصبحت شركة الهند الشرقية البريطانية هى المسيطرة حتى عام ١٨٥٨ م عندما اضطلعت الحكومة البريطانية بالادارة المباشرة لبـلاد الهند[٩] . ولما كانت حكومة شركة الهند الشرقية البريطانية قد وزعت ممتلكاتها على الحكومات الرئيسـية الثلاث التى أقامتها فى الهند وهى حكومات البنغال ومدراس وبومباى ، فقد كان من الطبيعى أن يدخل النشـاط البريطانى فى الخليج العربى ضـمن اختصاص حكومة بومباى[١٠] .

وكان النشاط الأوروبى بصفة عامة يسعى الى فتح أسواق تجارية فى أقطار الخليج العربى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكن ما أن نشبت الحرب الطويلة بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٧٩٣ م بقيام الثورة الفرنسية حتى تسابق الفريقان المتحاربان الى اكتساب نفوذ سياسى وعسكرى فى بعض هـذه الأقطار ، واتضح هـذا الاتجاه بصفة خاصة عند غزو الفرنسيين لمصر[١١] .

ويمكن القول أن أول نشاط دبلوماسى بريطانى مع عرب الخليج ومسقط بالذات جاء حيث كان يتنافس على مركز الصدارة فيها الفرنسيون

---

(٨) ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ١٠٤ .

(٩) نفس المرجع ص ١٠٧ .

(١٠) د. محمد أنيس ود. رجب حراز : المرجع السابق ص ٩٨ .

(١١) د. صلاح العقاد التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٦٠ .

والانجليز ، أى حين صار الخطر الفرنسى واضحا على طريق الهند وعلى الهند ذاتها فى الفترة النابليونية ١٧٩٨ — ١٨١٠ م وتمثل فى سفن القرصنة الفرنسية التى كانت تعمل فى أعالى البحار فى طريق الهند ، ومحاولات فرنسا لكسب نفوذ سياسى ظهر فى كتابات نابليون من مصر — ١٧ يناير ١٧٩٩ م — الى كل من صاحب مسقط سلطان بن أحمد ، والى تيبو صاحب فى الجنوب العربى[١٢] .

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد أنشأت خطوطا بريدية منتظمة عبر العراق ، وكان البريد ينقل بواسطة السفن البحرية من بومباى الى البصرة ومن هناك يمر بمدن بغداد فحلب حتى يصل الى استانبول عن طريق البر على ظهور الدواب . ومن ثم اهتم الانجليز بأن يكون لهم النفوذ الأعلى فى العراق . واستطاعوا بالفعل منافسة النفوذ الفرنسى هناك ويرغموا الباشوات المماليك فى العراق على اعطاء الشركة امتيازات واسعة بل وعدم التدخل فى نشاطها فى العراق .

ومنذ عام ١٧٦١ انتقل المركز الرئيسى للتجارة الانجليزية فى الخليج الى البصرة حيث رفع مركز المقيم الممثل لشركة الهند الشرقية الى مرتبة قنصل . وقد أصبح مركز بريطانيا التجارى فى الخليج لا يضارع وأخذت تجنى من ورائه نفوذا سياسيا أيضا ازداد على مر الأيام[١٣] . وهى فى هذا قد ورثت النفوذ البرتغالى والهولندى والفرنسى ، وقد وجد الانجليز فى العراق والخليج وبلاد العرب الجنوبية الخط الأمامى الذى يمكن بالمحافظة عليه أن يدرءوا به الخطر عن الهند

---

(١٢) د. أحمد أبو حاكمة : تاريخ شرق الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ص ١٨٠ .

(١٣) جورج كيرك : المرجع السابق ص ١٠٦ .

كما يمكن أن يكون نقطة خطر عليها اذ كان النفوذ فيه لأمة أخرى تطمع أن تنتزع تلك الدرة ــ الهند ــ من التاج البريطانى[١٤] •

وكان مما ساعد على تقوية نفوذ شركة الهند الشرقية البريطانية فى العراق والخليج والهنـــد أيضا أفول نجم الامبراطورية الهولندية وانحسار نفوذها فى جزر الهند الشرقية ، وكذلك انهيار النفوذ الفرنسى فى الهند بمعاهدة بارس عام ١٧٦٣م وهى المعاهدة التى تخلت بمقتضاها فرنسا عن أغلب ممتلكاتها فى الهند[١٥] • حتى أن نائب الملك فى الهند يكتب بعد مائة عام ــ ١٨٦٢ م يقول : تدخل بغداد بصورة غير مباشرة ضـــمن قواعد الخليج ، ويجب أن تضم الى منطقة النفوذ البريطانى المطلق[١٦] •

وكتبت جريدة الديلى ميل الانجليزية فى ٢٩ مارس عام ١٩١٥ م تقول : أن حوض ما بين النهرين يجب أن يكون ملكا لبريطانيا ومنفذا طبيعيا للانتقال من الهند • وعندما ظهرت المشـــاريع الألمـــانية فى العراق ذكرت صحيفة التايمز فى نفس الشهر ونفس العام تقول أن من الواجبات الأولى علينا لأجل المحافظة على الهند ألا نرى فى الخليج قوة مسلحة ما عدا القوة البريطانية ، ويجب أن نعلم أن جميع الدلائل تهدينا الى أن نوايا خط بغـــداد ليست اقتصادية وانما هى سياسية صرفة[١٧] •

وبهـــذا الفهم دخلت كل مناطق العراق لا البصرة فقط فى نطاق الاهتمام الاستراتيجى لانجلترا ومن ثم حرصت على أن تؤكد فى اتفاق

(١٤) د. عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦١ •

(١٥) د. محمد أنيس ود. رجب حراز : المرجع السابق ص ٩٩ •

(١٦) د. حسين فوزى النجار : الشرق العربى بين حربين ص ٥٤ •

(١٧) د. عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦٦ •

سايكس — بيكو مع فرنسا عام ١٩١٦ على دخول العراق تحت الانتداب الانجليزى بعد انتهاء معارك الحرب العالمية الأولى ، لأن العراق بموقعه مركز هام فى شبكة المواصلات البرية والجوية بين الشرق والغرب ، ثم كان ظهور البترول وما له من أهمية استراتيجية كمادة أولى فى تسيير آلة الحرب الميكانيكية الحديثة ، وأهمية اقتصادية فى استثمار رءوس الأموال الانجليزية ، والعراق خزان هائل لهذه المـــادة الهامة التى تعتبر وحدها عصب الحضارة فى القرن العشرين • وكان اهتمـــام انجلترا بالعراق بعد الحرب العالمية الأولى قائما على تقديرهم لهذه العوامل الجديدة مجتمعة فعملوا على أن يمتد نفوذهم الجديد على العراق كله[١٨] •

وقد أخذ الانجليز منذ أواخر القرن الثامن عشر يمارسون أنواعا من التدخل فى شـــئون امارات الخليج ، وجعلوا من مكافحة عمليات الجهاد البحرى وسيلة لعقد معاهدات مع شـــيوخ المقاطعات هناك ، وأهم ما يذكر فيها أنهم لا يتنازلون عن شبر من أرضـــهم لأية دولة كانت ولا يسمحون باعطاء أى حق فى أراضيهم لأحد ما عدا بريطانيا[١٩] • من أمثلة تلك المعاهدات المعاهدتين اللتين وقعتهما انجلترا مع سلطان ابن أحمد صاحب مسقط فى أكتوبر ١٧٩٨ م ، ويناير ١٨٠٠ م اللتين نصتا على انشاء وكالة تجارية فى بندر عباس (وكانت تابعة لحاكم مسقط) ، وتخلى مسقط عن أى اتصال بالفرنسيين أو السماح لهم أو لسفنهم بالنزول فيها فى حالة نشوب الحرب بين فرنسا وانجلترا ، وسماح سلطان بن أحمد للانجليز بارسال وكيل سياسى لهم فى مسقط ، وعلى هـــذا يكون سلطان بن أحمد أول أمير عربى يدخل فى معاهدة مع الانجليز[٢٠] •

(١٨) د• حسين النجار : المرجع السابق ص ٥٥ •

(١٩) عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦٥ •

(٢٠) د. احمد مصطفى ابو حاكمة : تاريخ شرقى الجزيرة العربية فى العصور الحديثة ص ١٨١ •

وقد اتخذ الانجليز فى الخليج سياسة عنيفة لمقاومة عمليات الجهاد البحرى العربية هناك ضد السفن الأوروبية ، من أمثلة ذلك ارسال حملة بحرية الى الخليج أجبرت القواسم فى رأس الخيمة على توقيع معاهدة مجحفة بهم فى ٦ فبراير ١٨٠٦ م تضمن عدم مهاجمتهم السفن الانجليزية ، ومن أمثلة ذلك أيضا الحملة البريطانية التى هدفت الى تدمير رأس الخيمة والقضاء كليا على نشاط القواسم فى مياه الخليج عام ١٨٠٩ م ، وحملة عام ١٨١٨ م على رأس الخيمة وكان هدفها القضاء على عمليات الجهاد البحرى أولا فى الظاهر ثم مراقبة التحركات المصرية فى الباطن ، وابرام معاهدة ١٨٢٠ م مع رأس الخيمة وغيرها من موانىء الخليج ، ثم أعقب ذلك توقيع الهدنة البحرية وغيرها فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وكل ذلك دليل على خشية الانجليز من الخطر المصرى فى الجزيرة[٢١] .

وطوال القرن التاسع عشر أخذ النفوذ البريطانى يتدعم فى الخليج فى ثلاثة صور هى : محاربة عمليات الجهاد البحرى التى كانت القواسم تمارسها من الساحل الداخلى لعمان ، ومحاربة تجارة الرقيق التى وجدت لها سوقا رائجة فى شبه الجزيرة العربية ، وفرض الحماية البريطانية على أهم المشيخات العربية فى الخليج وهى مسقط والبحرين والكويت . فبدأت مشروعات انجلترا الاستعمارية مع مسقط منذ عام ١٨٥٤ م بحصولها من سعيد بن سلطان شيخ مسقط على جزائر كوريا موريا ، ولم يأت عام ١٨٩٨ م حتى وقعت المعاهدة المشهورة التى حددت بشكل نهائى الحماية البريطانية على مسقط وعمان ، وتعرف بمعاهدة الصداقة والتجارة والملاحة ، وهى تنص صراحة على أن يلتزم حاكم مسقط — فيصل بن تركى — هو وخلفاؤه بعدم التنازل عن أى أرض من أملاك مسقط الا للحكومة البريطانية[٢٢] .

---

(٢١) نفس المرجع ص ١٩٠ .

(٢٢) د. أنيس ، د. حراز : المرجع السابق ص ١٠٩ .

وكانت المشيخة الثانية التى خضعت للحماية هى البحرين التى شاركت منذ عام ١٨٢٠ م مع انجلترا فى عقد معاهدات لمحاربة تجارة الرقيق وأعمال الجهاد البحرى ، وأمام رغبة تركيا فى ضم البحرين عام ١٨٧١ م بعد استيلائها على الأحساء أعلن الانجليز فرض الحماية على البحرين ، وتم توقيع معاهدتين مع الشيخ عيسى فى عامى ١٨٨٠ م ، ١٨٩٢ م تضع البحرين بمقتضاها تحت الحماية الانجليزية حيث تعهد الشيخ بالامتناع عن عقد معاهدات مع أية دولة أخرى الا بموافقة الحكومة البريطانية ، وألا يتنازل عن أية أرض فى البحرين الا للحكومة البريطانية .

وكانت المشيخة الثالثة التى فرضت انجلترا عليهـا حمايتها هى الكويت ، التى وصل اليها آل الصباح لأول مرة عام ١٧٥٠ م قادمين من الجنوب بعد أن أمضوا على شاطىء الخليج بقطر والأحساء نحو نصف قرن[٢٣] . ولقد كان لآل صباح علاقة طيبة مع الانجليز من ممثلى شركة الهند الشرقية الانجليزية الذين استفادوا من الكويت منذ عام ١٧٧٥ م فى ارسال واستلام مراسلات الشركة ، واستمرت العلاقات طيبة حتى نقلت وكالة الشركة من البصرة الى الكويت ، وساعدت الشركة آل صباح فى صد غارات الوهابين على الكويت وأظهر شيخ الكويت استعداده للمشاركة مع الانجليز فى حملاتهم ضد القواسم .

واتساقا مع هــذه العلاقات عرض الشيخ مبارك آل صباح منذ أن وصل الى السلطة فى الكويت عام ١٨٩٦ أن يدخل فى حماية انجلترا ورغم تردد انجلترا فى قبول هــذا العرض حرصا على علاقتها مع تركيا ، الا أنها سارعت عام ١٨٩٩ م الى عقد معاهدة مع أمير الكويت على نفس نسق المعاهدات مع كل من مسقط والبحرين ، تضع الكويت تحت حماية انجلترا ، وجاءت هــذه المسارعة الانجليزية بسبب ظهور

(٢٣) د. احمد ابو حاكمة ، المرجع السابق ص ٦٧ .

نشاط روسى فى الخليج عام ١٨٩٨ م لمد خط حديدى من البحر المتوسط الى الخليج ، وبناء محطة للفحم وميناء فى الكويت •

كان لظهور النشاط الألمانى فى العراق وتوقع امتداده الى الخليج ، والمتمثل فى الامتياز الذى حصلت عليه ألمانيا من الدولة العثمانية بمد خط حديدى من برلين الى بغداد فالبصرة ، كان لذلك أثره فى تدعيم الوجود الانجليزى فى الخليج والعراق ، فعقدت انجلترا مع الكويت عدة اتفاقيات أحكمت النفوذ الانجليزى هناك نظير اعتراف انجلترا بامارة الكويت بحدودها الحالية • واعترافها كذلك بآل الصباح حكاما يتوارثون السلطة هناك • وظل الحال كذلك أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها •

وكان نشاط انجلترا فى الجنوب العربى قد بدأ منذ عام ١٦١٨ م بتأسيس مركز تجارى فى « مخا » وفى عام ١٧٧٠ م هاجم الانجليز عدن انتقاما لاهانة لحقت بقائد سفينة انجليزية ، وفى عام ١٧٩٩ م احتل الانجليز جزيرة بريم ، وفى عام ١٨٠٢ م عقدت انجلترا مع سلطان عدن ــ أحمد بن عبد الكريم ــ معاهدة صداقة وتجارة ، وكانت هــذه المعاهدة القنطرة الأولى للسيطرة على هــذه المدينة التى تمت عام ١٨٣٩ م بعد مقاومة عنيفة من أهلها وقصف بحرى شديد من قبل البريطانيين[٢٤] • وجاء احتلال عدن كخطوة مضادة للنفوذ المصرى فى اليمن على أيام محمد على[٢٥] •

ومن عدن انطلق الانجليز للسيطرة على بقية أجزاء الجنوب العربى باللين تارة وبالشدة تارة أخرى وأخذوا يعقدون المعاهدات التى تضع هــذه الأجزاء تحت الحماية البريطانية • ولم يأت عام ١٨٩٥ م حتى

(٢٤) د. احمد عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢٦٣ •

(٢٥) د. انيس ، ود. حراز : المرجع السابق ص ١١٢ •

فرضت الحماية البريطانية على ميناءى المكلا وشحر ، ولحج وحضرموت، والضالع ، والموالق السفلى والحواشب وغيرها ، واستولت انجلترا على جزيرة سوقطرى عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وهكـذا أصبح الجنوب العربى ملتحما مع مسقط وعمان ممتدا مع مشيخات الخليج خاضعة كلها للسيطرة الانجليزية لا الى نهاية الحرب العالمية الأولى فقط بل الى أن حصلت على استقلالها مؤخرا .

ثالثا ــ شرق الأردن :

لم تكن شرقى الأردن قبل عام ١٩٢٠ م سوى تعبير جغرافى يطلق على البلاد الواقعة الى الشرق من نهر الأردن ، وكانت تابعة فى ادارتها للحكومة العثمانية بصفة تكاد تكون اسمية ، ثم انتقلت ادارتها ابتداء من عام ١٩١٨ الى يد حكومة فيصل العربية بدمشق[٢٦] .

وكانت دول الوفاق قد رأت أن تستولى على تلك البلاد لقطع الطريق أمام جيش تركيا المتجه للهجوم على مصر ، فدخل الكولونيل البريطانى « لورنس » مدينة العقبة عام ١٩١٧ م ، وفى العام التالى نقل الأمير فيصل بن الحسين ــ وكان يقود جيشا يمثل الثورة العربية ــ الى العقبة وتمكن مع أعوانه من احتلال قسم كبير من الأرض الأردنية ، وذلك بعد معارك عديدة منها تخريب الخط الحجازى ، وزحف الانجليز المفتك بالجيش التركى حتى احتلوا الأردن فى ٩ ديسمبر ١٩١٩ م[٢٧] .

وفى مؤتمر سان ريمو المنعقد فى أبريل عام ١٩٢٠ م جعلت منطقة شرقى الأردن من نصيب بريطانيا كجزء من دائرة الوصاية على فلسطين مع الاحتفاظ بشرط أساسى هو أنه فى الأراضى الواقعة بين نهر الأردن والحـدود الشرقية لفلسطين حسب تحديدها النهائى ، يكون للدولة

(٢٦) جورج كيرك : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٢٧) د. عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٤٥٨ــ٤٥٩

المنتدبة — انجلترا — الحق بموافقة مجلس عصبة الأمم فى تأجيل أو وقف تنفيذ شروط الانتداب التى ترى سريانها غير ملائم الظروف المحلية بهذه الجهات ، وأن تعد تدابير الحكم التى تراها ملائمة لهذه الظروف(٢٨) .

وعندما وصل الأمير عبد الله بن الحسين الى معان يوم ٢١ نوفمبر ١٩٢٠ م قادما من مكة ، وفى نيته التقدم نحو عمان ، ومن معان بعث لأهل سوريا بمنشور هاجم فيه الغزو الفرنسى ويعضد السوريين فى كفاحهم ضد الفرنسيين . وعندما وصل الى عمان رحبت به المجالس المحلية التى أقامها الانجليز والتى سيطر عليها الموظفون الانجليز ، وقد عبر المندوب الانجليزى لرؤساء القبائل وشيوخ الشعب الأردنى حين زار مدينة السلط بقوله : تسألونى عن نوع المساعدة التى تريد انجلترا أن تقدمها لكم فأجيبكم بأنها لا تريد أن تضمكم الى الادارة الموجودة الآن بفلسطين بل تنشىء لكم ادارة منفردة تساعدكم على أن تحكموا أنفسكم بأنفسكم(٢٩) .

وتحقيقا لنصوص الانتداب الذى صدر فى مؤتمر سان ريمو فقد اتفق الأمير عبد الله مع تشرشل وزير الخارجية عندما اجتمعا فى القدس على الأسس التى تقوم عليها ادارة شرق الأردن ، وهى اقامة حكومة عربية وطنية هناك برئاسة الأمير عبد الله تكون هــذه الحكومة مستقلة استقلالا اداريا مع الاسترشاد برأى مندوب سامى بريطانى فى عمان ، وأن يتعهد الأمير بالمحافظة على حدود سوريا وفلسطين من كل اعتداء على أن تتوسط بريطانيا لتحسين العلاقات بين الأمير وبين ســلطات الاحتلال الفرنسى فى سوريا ، وأن تنشىء بريطانيا قاعدتين للطيران فى عمان والكرك .

(٢٨) جورج كيرك : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٢٩) د. عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٤٦٢

ورغم اشتمال قرار الانتداب على شرق الأردن الى جانب فلسطين ، فقد استثنت بريطانيا شرق الأردن من التزامات الوطن القومى لليهود فى فلسطين بحصولها على هــذا الاستثناء من عصبة الأمم فى سبتمبر ١٩٢٢ م ثم اعترمت انجلترا فى العام التالى — ١٩٢٣ م بقيام حكومة مســتقلة فى شرقى الأردن يرأسها الأمير عبــد الله تحت الانتداب الانجليزى .

لقد أقامت انجلترا امارة شرق الأردن تحقيقا لمآرب ســياسية واستراتيجية تخصها من أهمها تأمين القطاع العربى فى الطريق البرى الى الهند ، فيما بين الخليج والبحر المتوسط خاصة بعد أن أثبتت وسائل المواصلات السريعة أهمية الوطن العربى بالنسبة لاتصالات انجلترا بالهند ، وأيضا انشاء قاعدة لنفوذها السياسى والاستراتيجى فى هذه المنطقة تشرف منها على بقية أجزاء الوطن العربى خاصة المشرقية وخاصة بعد ظهور البترول وازدياد المصالح البريطانية فى أقطار الوطن العربى.

واهتمت الحكومة البريطانية بتحديد كيان مستقل لامارة شرق الأردن فحثت الأمير عبد الله على أن يطلب من أبيه الملك حســين فى الحجاز ضم عمان والعقبة الى امارته وكانتا تابعتين للحجاز ، كمــا استطاعت نفس الحكومة أن تقنع الملك عبد العزيز ال سعود بعد استيلائه على الحجاز بقبول الوضع القائم بهما ، وأقنعته بالتنازل عن ممرأرضى من شمالى نجد يضم الى امارة شرق الأردن يصل بينها وبين العراق ويفصل بين نجد وسوريا وحققت بريطانيا بذلك الوحدة الاستراتيجية التى تنشرها فى منطقة انتدابها فى البلاد العربية ، وأصبح اشرافها على الطريق البرى بين الخليج والبحر المتوسط تاما كاملا [٣٠] .

* * *

---

(٣٠) د. حسين النجار : المرجع السابق ص ٦٥ .

أولا — فى الجزائر :

كانت الجزائر جزءا من الامبراطورية العثمانية منذ عام ١٥١٨ م ، ولكن سلطة الدايات جعلت من البلاد دولة مستقلة يكاد يكون تاما حيث كان لهم حق عقد المعــاهدات مع الدول الأجنبيــة دون الرجوع الى السلطان العثمانى كما كان الداى ينتخب ويعين ويباشر سلطته دون الرجوع الى السلطان وايرادات البلاد — وان كانت كلها من عمليات الجاد البحرى — تصرف على مصارف الحكم وان كانت غير منظمة ، ولم تكن ترسل شيئا من الجزية الى السلطان (٣١) .

ورغم هذا الاستقلال فأن الجزائر شهدت خلال القرن الثامن عشر انهيارا فى الاقتصاد بسبب كساد الحركة التجــارية ومقاومة الدول الأوروبية للقرصنة الجزائرية ، كما شهدت فوضى سياسية بسبب النزاع بين الدايات بعضهم وبعض ومع رجال الجيش ومع القراصنة حتى فقدت البلاد تقدمها واضطرب الأمن فيها وأصبحت بفضل المعاهدات مع الدول الأوروبية مجالا للنفوذ الأوروبى على حساب اســتقلال البلاد وعلى حساب مصلحة أهلها .

كانت تلك ظروف الجزائر التى هيأت للغزو الفرنسى الفرصــة لتحقيق أهدافه أما ظروف فرنسا نفسها فقد كانت تتمثل فى اضطراب الأحوال الداخلية منذ تولى الملك شارل العاشر العرش عام ١٨٢٤ ، نتيجة لمــا تميز به هذا الملك من روح رجعية حتى أحس بسخط الشعب عليه وعدم محبته ، وخاصة أن الشعب الفرنسى كان ينظر اليه على أنه أتى

---

(٣١) د. زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصر الحديث ص ١٦٩ .

الى الحكم بتأييد من الأجانب ، وقد كان اختيار الملك « لبولينياك » رئيسا لوزرائه رغم سخط الناس عليه لموقفه الرجعى من الدستور والحياة النيابية دافعا لمزيد من تبرم الشعب الفرنسى من الحكم ومن ثم عمل الحكم فى فرنسا على احراز نصر فى الخارج لتغطية الموقف الداخلى وقدر أن المغامرة الحربية فى الجزائر سوف تزيد من الشعور الوطنى عند الفرنسيين وتعطل انفجار الثورة .

هذا على الرغم من أنه كانت لكبار الملاك الفرنسيين رغبة شديدة فى امتلاك أراض جديدة تدر عليهم دخلا يعوضهم عما فقدوه أثناء الثورة وحكم نابليون الى جانب رغبة الحكومة الفرنسية فى تعويض ما فقدته فرنسا أثناء حروب الثورة ونابليون وفى معاهدة باريس عام ١٨١٥ م وهى معظم أجزاء امبراطوريتها الأولى التى تنازلت لانجلترا عن معظمها [٣٢] الى جانب استمرار الخلاف بين دايات الجزائر ومعظم الدول الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا حول قضيتى الجهاد البحرى والرق فالدول الأوربية تضغط من أجل أن يصدر اعلان رسمى فى الجزائر بالغاء الرق ، ومن أجل أن توقف الجزائر عمليات الجهاد البحرى، ولكن دايات الجزائر تمسكوا بموقفهم بامتلاك الرقيق وممارسا عمليات جهاد بحرى فى البحر المتوسط ولم ترهبهم تهديدات الأساطيل الحربية الانجليزية وغيرها ، بل زاد الدايات من عدائهم لرعايا انجلترا وغيرها من الدول الحليفة لها كأسانيا والبرتغال

وكانت العلاقات بين الجزائر وفرنسا قبل عام ١٨٢٦ لا يشوبها الجو العدائى الذى كان بين الجزائر وانجلترا . وكانت الجزائر تتزعم الجناح الاسلامى فى شمال افريقيا وفرنسا تتزعم الجناح المسيحى الكاثوليكى فى أوروبا ، والصدام قائم ومستمر بين الجناحين فى البحر المتوسط كنوع من الحروب الصليبية . وكانت ذكرى فرنسا النابليونية

(٣٢) د. صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ص ٣

المعادية لأوروبا قد أخذت تتمحى بالتدريج ، فلما جاء دورها لتسوى مشاكلها بطريقتها مع الجزائر لم تصطدم بمعارضة فعالة [٣٣] من دول أوروبا ، هذا على الرغم من أن الرأى العام الفرنسى كان معاديا للتوسع الاستعمارى لأنه كان يرى فيه بعثرة لجهود الأمة التى يجب أن تتركز نحو العار الذى لحقها بسبب الهزيمة فى أوروبا .

ومهما قيل عن أسباب الغزو الفرنسى للجزائر الذى بدأ بحصار بحرى منذ مايو ١٨٢٧ م فان حدوثه بصورة تدريجية لم يثر معارضة أوروبية أمام انفراد فرنسا به ، وقد تذرعت فرنسا بعدة أعذار لتوهم الرأى العام الأوروبى والحكومات الأوروبية بأنها تدافع عن قضية أوروبية بقضائها على تهديدات الجزائر للأوروبيين ومعاداتها للمسيحيين، واستمرار الرق فى أراضيها . وغير ذلك مما يمكن أن يخفف من تأثير انفراد فرنسا بالغزو ويقنع الفرنسيين أنفسهم بأن حكومتهم تدافع عن العدالة والحرية والمسيحية .

ولقد كان للعامل الدينى أثره القوى فى احتلال فرنسا للجزائر ، فبعد ما عرف عن حادثة صفع الداى للقنصل الفرنسى فى الجزائر [٣٤] . ذكر تقرير قدمه وزير الحربية الفرنسية للملك شارل العاشر قوله : لقد أرادت العناية الالهية أن تستثار جلالتكم بشدة فى شخص قنصلكم بواسطة ألد أعداء المسيحية ، ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يدعى ابن لويس التقى لكى ينتقم للدين وللانسانية ولاهانته الشخصية فى نفس الوقت ، ولعل الزمن يسعدنا بأن ننتهز هذه الفرصة لننشر المدنية

---

(٣٣) د. صلاح العقاد : المغرب العربى ص ٨٥ .

(٣٤) تذكر المصادر أن الداى سأل القنصل الفرنسى عن سبب عدم الرد على رسالته الموجهة لوزير الخارجية الفرنسية فلما رد عليه القنصل بجفاء أشاح بمنشة كانت فى يده فى وجه القنصل الذى بالغ وصور لحكومته أنه ضرب أو صفع على وجهه ، رغم أن الداى أكد أن ذلك لم يحدث .

بين السكان الأصليين وتنصرهم بل أنه عند احتـلال الجزائر أقيمت صلوات قال فيها قسيس الجيش لقائد الحملة : لقد فتحت بابا للمسيحية فى أفريقية (٣٥) .

لقد استغرق قرار غزو الجزائر حوالى ثلاث سنوات ، فرغم أن الحكومة الفرنسية قررت ضرب حصار بحرى على الجزائر منذ صيف عام ١٨٢٧ م ، فأنها ترددت فى اتخاذ القرار ومرجع ترددها الى تخبط الحكم الفرنسى حول الطريقة والهدف من عملية الغزو للجزائر ، وهل تكتفى بالحصار لتأديب الداى أو تحتل الجزائر وتدخل فى صراع مع الجزائريين لا تعرف له نهاية ، كما أن الاحتلال سوف يزيد من النفقات العسكرية ، حتى ولو كان الاحتلال قاصرا على الشريط الساحلى ، وهو أمر — الاحتلال والنفقات — يلاقى معارضة كبيرة فى البرلمان الفرنسى .

وفى عام ١٨٢٩ م عرضت فرنسا كحل لترددها أن يقوم « محمد على » باشا مصر وحليفها القوى فى الشرق باحتلال الجزائر ويضمها الى ملكه فى الشرق على أن يكون لحليفته — فرنسا — امتيازات واسعة فى الجزائر ، الا أن العرض لم يكن مغريا لمحمد على فى الوقت الذى كان أسطوله القديم قد تحطم فى معركة نوارين عام ١٨٢٧ م ، ويعمل على بناء أسطول آخر لم يكتمل آنذاك ، الى جانب معارضـة كل من انجلترا والسلطان العثمانى للعرض الفرنسى .

وعلى هذا اتخذت الحكومة الفرنسية التى تزعمها « بولينياك » قرارا باحتلال الجزائر ، وأعلن الملك شارل العاشر عن اعتزامه انشـاء مستعمرة هامة فى شمال أفريقيا تكون نواتها الجزائر وفى ١٤ يونيه ١٨٣٠ م نزل الجيش الفرنسى المكون من حـوالى ٣٥ ألف مقاتل الى

---

(٣٥) د. صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ص ٤ — ٥ .

أرض الجزائر وأخذ يصطدم بالمقاومة التى يتزعمها الداى ، وقد دافع الجزائريون دفاعا قويا حصر الزحف الفرنسى فى شريط ساحلى لا يشمل كل الشاطىء الجزائرى . ومرت ثلاث سنوات على الاحتلال الفرنسى دون أن يستطيع فرض سلطته على أكثر من بضع موانى ساحلية بينما أصبح الداخل فى يد بعض الزعماء الذين أعلن بعضهم ولاءهم لتركيا ورفضهم الاعتراف بأى سلطة للمسيحيين [٣٦] ومن بين هؤلاء الرافضين الأمير عبد القادر [٣٧] الذى اتخذ من غرب الجزائر مقرا لامارته .

وخلال الأعوام من ١٨٣٠ الى ١٨٣٩ م قامت سياسة فرنسا فى الجزائر على فكرة الاحتلال المحدود المقتصر على الساحل دون الداخل ، وفى هذه الفترة اصطدمت قوات الاحتلال الفرنسى فى غرب الجزائر بالأمير عبد القادر ، وفى شرق الجزائر بأحمد باشا باى قسنطينة الذى أطلق عليه الناس آنذاك لقب بطل الاسلام ولعدم وجـود تعاون بين القوتين استطاعت قوات الاحتلال مصالحة عبد القادر ومهادنته ريثما يتم لها القضاء على أحمد باشا المتحصن فى قسنطينة .

تزعم عبد القادر النضال فى غرب الجزائر ضد قوات الاحتـلال الفرنسية ، وقد انقسم هذا النضال الى ثلاث مراحل تنتهى كل منها بمعاهدة ، فالمرحلة الأولى تنتهى بعقد معاهدة بين الطرفين عام ١٨٣٤ م انصبت على الاعتراف بكل غرب الجزائر ما عدا ثلاث مدن سـاحلية

---

(٣٦) زاهر رياض : المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٣٧) ينتسب الى قبيلة هاشم العربية النازلة فى اقليم وهران ، وكان لها استقلالها الداخلى اثناء الحكم العثمانى ، وكان عبد القادر ينتمى الى الطريقة القادرية فى التصوف ذات النفوذ فى شمال أفريقيا ، وقد حج الى مكة قبل الغزو الفرنسى للجزائر وزار بغداد فمصر حيث تركت اصلاحات محمد على تأثيرا كثيرا لديه كل هذا الى جانب ثقافته الدينية والعربية ، مما جعله يتزعم القبائل ويسعى لبنـاء دولة فى الجزائر على نفس أسس الدولة المصرية باستخدام خبراء فرنسيين أيضا .

خاضعة للدولة العربية الجديدة ذات السيادة برئاسة عبد القادر . والمرحلة الثانية من النضال تستمر حتى عام ١٨٣٧ م حيث عقدت معاهدة « التافنا » — نسبة الى نهر بهذا الاسم — التى اعترف فيها الفرنسيون لا بسلطة عبد القادر فى غربى الجزائر فقط بل وفى أواسطها كذلك ، وتوضح هذه المعاهدة بدقة الحدود الفاصلة بين الدولتين فى وهران — دولة عبد القادر — وفى الجزائر حيث توجد سلطات الاحتلال الفرنسى، ويلاحظ من صياغة المعاهدة أنها تتحدث عن مسلمين وفرنسيين ولاتذكر كلمة جزائريين ، فالقبائل التى تخضع للحكم الفرنسى كانت تعرف باسم المتصرة . كما تدل الصياغة على أن الأمير عبد القادر يعامل ملك فرنسا على قدم المساواة كرئيس دولة وطنية أمام رئيس دولة أخرى [٣٨] .

وأما المرحلة الثالثة من النضال فقد استمرت منذ عام ١٨٤٠ الى عام ١٨٤٧ م ، وذلك عندما أخذت فرنسا تطبق فى الجزائر سياسة الاحتلال الشامل ، وكان صاحب هذه السياسة المارشال « سولت » رئيس الحكومة الفرنسية منذ سنة ١٨٤٠ م فاختار لتنفيذها الجنرال «بيجو» الذى قامت سياسته على أساس اخضاع الشعب الجزائرى بأسره لا عن طريق مواجهة عسكرية بين القوات الفرنسية وقوات عبد القادر ولكن باتباع أسلوب الارهاب المتمثل فى احراق الحقول واختطاف قطعان الأغنام — وهى رأس مال القبائل — الى جانب احراق القرى بأهلها ومعاقبة كل من له صلة بالأمير عبد القادر . كما عمل « بيجو » على مصادرة أراضى جميع القبائل التى شاركت فى المقاومة وتوزيعها على جنوده والمستوطنين الفرنسيين الذين تدفقوا على الجزائر لزراعتها لمصلحتهم ومصلحة فرنسا .

وازاء تحركات « بيجو » هذه بقواته فى أنحاء الجزائر دارت

---

(٣٨) د. صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر ص ١٠ — ١١ .

صدامات دموية بين قوات الاحتلال الفرنسي وعبد القادر انتهت عـام ١٨٤٣ م بلجوء الأمير الى مراكش وبقى بها الى عام ١٨٤٥ م حيث تركها مرغما أمام ضربات الانتقام الفرنسية لمراكش ، وواصل النضال فى الجزائر لمدة عامين انتهت باستسلامه فى ديسمبر عام ١٨٤٧ ونصـح لأنصاره بأن يفعلوا مثله • وقد تم استسلام الأمير على أساس السماح له بالسفر الى الاسكندرية فقبلت سلطات الاحتلال هذا الشرط واستقبلوه استقبالا يليق بخصم شريف • وباستسلامه انتهت المقاومة الجزائرية ـــ المنظمة الرئيسية ـــ وأصبحت البلاد خاضعة للحكم الفرنسى (٣٩) •

ومما تجدر الاشارة اليه أن رجال القبائل البربر وزعماء الطرق الصوفية قد ظلوا غير معترفين بالاحتلال الفرنسى ، ومن ثم دارت معارك عنيفة بين القوات الفرنسية والمحاربين الجزائريين فى بـلاد القبائل انتهت باخضاع هذه البلاد عام ١٨٥٧ م ، ومع ذلك فقد كانت تقوم بين الحين والآخر ثورات محلية لا تلبث أن تختفى أمام القوة الفرنسية من أمثلتها ثورة الشيخ محمد المقرانى عام ١٨٧١ م فى شرق الجزائر التى استغل صاحبها هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ، وبدأت فى الموانى الشرقية حيث رفض بعض المجندين الجزائريين ركوب السفن الفرنسية الى ميدان القتال بأوروبا فكانت الشرارة الأولى لاندلاع ثورة عـامة تبلورت عندما وجدت زعيما لها فى شخص محمد المقرانى ومساعده الشيخ حداد ـــ من الطريقة الرحمانية ـــ مما يدل على أن البواعث الدينية كانت ماتزال تلعب الدور الرئيسى (٤٠) •

ورغم أن هذه الثورة نجحت فى أول الأمر الا أن مساعدة بسمارك للحكومة الفرنسية باطلاق سراح الأسرى الفرنسيين وأرسالهم الى الجزائر قد أنهى الثورة وأعاد الى الجزائر السيطرة الفرنسية الكاملة ،

---

(٣٩) د. زاهر رياض : المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٤٠) د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٨ .

رغم حدوث ثورة بعيدة فى الصحراء الجزائرية عـام ١٨٠١ م [٤١] انتهت كما حدث لسابقاتها ، وفى تلك السنة صدر مرسوم بالحاق الجزائر اداريا بفرنسا ، وحكمت فرنسا الجزائر حكما استعماريا بمعنى الكلمة حيث استغل الجزائريون فى حروب فرنسا ومصانعها ومزارعها دون المشاركة فى الحكم حتى بدأت تظهر حركة وطنية جزائرية عمالية بعـد الحرب العالمية الأولى

ثانيا — فى تونس :

كان احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ م نتيجة منطقية بعد احتلال الجزائر وبعد أن حصلت فرنسا على كثير من الامتيازات مثل امتياز احتكار مد الخطوط التلغرافية واصلاح القناطر وغير ذلك من الامتيازات المتعلقة بحماية الرعايا الفرنسيين فى احتكاراتهم واستغلالهم ومعتقداتهم مما كان ينقص من سلطات البايات فى تونس أمام قوة النفوذ الفرنسى المتزايدة .

وقد انتهزت ايطاليا فرصة تحقيق وحدتها القومية عام ١٨٧٠ م وهزيمة فرنسا أمام بروسيا فى نفس العام وحاولت — أمـام النفوذ الانجليزى المنافس — أن يكون لها النفوذ الأعلى فى تونس بل أن ترث نفوذ فرنسا هناك . وقد حصل القنصل الايطالى على امتيازات هامة كثيرة لمواطنيه مما جعل ايطاليا تكاد تكون وصية على تونس [٤٢] . ولكن ايطاليا لم يكن باستطاعتها السير فى الشوط الى آخره بسبب مشكلاتها الداخلية وعلاقتها غير الطيبة بالنمسا بسبب تطلع الايطاليين الى ضم اقليمى « ترنتينو » و « تريستا » .

---

(٤١) د. صلاح العقاد : الجزائر المعاصرة ص ٧ .

(٤٢) د . زاهر رياض : شمال افريقيا ص ١٨٩ .

ومنذ عام ۱۸۷۱ م وبسمارك المستشار الألمانى يعمل على تشجيع فرنسا على التوسع فى أفريقيا ضمانا لابعاد تفكير فرنسا عن الثــأر لهزيمتها فى الحرب السبعينية ، وقد قبلت فرنسا العرض الألمانى المؤيد بموافقة انجلترا ، وكان أمامها اما ضم تونس نهائيا للممتلكات الفرنسية أو فرض حماية عليها ، وكان الميل متجها الى الرأى الثانى ، فتستطيع فرنسا بالتدريج العمل على تفوق نفوذها فى تونس الى حد لا تستطيع معه أية دولة أخرى منافستها (٤٣) .

ورغم معارضة كل من ايطاليا وتركيا لاتجاه فرنسا الاستعمارى نحو تونس فقد زحفت القوات الفرنسية من الجزائر عبر الحدود وغزت تونس بدعوى احلال الأمن فى ۱۲ أبريل ۱۸۸۱ م ، ولم يمض شــهر حتى طوقت هذه القوات قصر سعيد مقرباى تونس الواقع فى «باردو» وهى احدى ضواحى مدينة تونس ، وأجبرت الباى على توقيع معاهدة قصر سعيد أو « باردو » ، التى نصت على اعتراف الباى باحتــلال القوات الفرنسية لتونس ، وأن تنظم فرنسا العلاقات الخارجيــة ، والشئون المــالية لتونس ، والتزمت فرنسا بحماية الباى من أى خطر ، وحددت علاقتها بتونس بتعيين وزير مقيم فى تونس ..

ورغم أن هذه المعاهدة ، لم تذكر كلمة الحماية صراحة ، الا أنها كانت حماية فعلية ، اذ كانت تونس أول تجربة لنظام الحماية فى تاريخ الاستعمار الفرنسى ، وقد استهدف واضع هذا النظام أمرين ، أولا : اسكات المعارضة الدولية بحجة أن فرنسا لم تقض على كيــان الدولة المحمية بالضم ، ثانيا : اقناع المعارضة الداخلية — فى فرنسا — بأن الحكومة لن تورط فى أعباء مالية جديدة لأن مميزات الحماية أنهــا تحمل الدولة المحمية نفقات الاحتلال وجميع ما يترتب على الاصلاحات الادارية والاقتصادية المفروض ادخالها بواسطة الدولة الحامية (٤٤).

---

(٤٣) د . محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين ۱۸۷۸م ص ٥٦ .
(٤٤) د . صلاح العقاد : المغرب العربى ص ۲۰٥ .

ولم تكتف فرنسا بقيود معاهدة « باردو » ، بل عرضت على الباى معاهدة جديدة فى ٨ يونيو ١٨٠٣ حملت فيها المـادة الأولى نص رضاء الباى عن الحماية الفرنسية للمصالح التونسية وخاصة المحافظة على الأمن الداخلى والتمثيل الخارجى بينما يحتفظ الباى بسيادته المطلقة وله ادارة الاقليم بموظفد وطنيين[٤٥] . وكانت حجة فرنسا فى فرض الحماية هو قيام ثورة وطنية مسلحة ضد قوات الاحتلال بمجرد أن أفاق التونسيون من غفوتهم [٤٦] .

تشجع التونسيون على القيام بالثورة بما رأوه من تخاذل الباى أمام الغزو الفرنسى ، فى الوقت الذى حدثت فيه ثورة جزائرية فى وهران فى صيف عام ١٨٨١ م ، وحدوث مظاهرات فى طرابلس الغرب ضد الاحتلال الفرنسى لتونس ، وموقف ايطاليا وتركيا المعادى لهذا الاحتلال . ومما يلفت النظر أن الثورة فى تونس ضد الاحتلال الفرنسى تزعمها رجال الدين وأصحاب الطرق الصوفية الذين اعتبروا الثورة ضد الفرنسيين جهادا اسلاميا ، واتخذت الثورة من مدينة القيروان ذات التاريخ الاسلامى العتيد مركزا لها .

وقد هاجم الثوار القوات الفرنسية واتهموا الباى محمد الصادق — من الأسرة الحسينية — بالتواطؤ والخيانة ، واشتدت اتهاماتهم للباى على أخى الباى السابق الذى نصبه الفرنسيون بايا عند وفاة محمد الصادق عام ١٨٨٢ ، بسبب ضعفه وخضوعه للفرنسيين ، وسيطرة المقيم العـام الفرنسى على الأمور حيث وقع الباى مع الفرنسيين معاهدة جديدة تعرف بمعاهدة « المرسى » وهى تهدف الى توسيع سلطات فرنسا فى تونس بشل يد الباى وموظفيه الوطنيين عن التصرف فى الأمور الادارية والمـالية والقضاء وغيرها من الأمور الداخلية .

---

(٤٥) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢٠٠ .
(٤٦) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

استمرت المقاومة بأسلوب سياسى حتى ظهر حزب « تونس الفتاة » عام ١٩٠٥ م الذى سعى الى الاصلاحات الدستورية الواسعة والى الاستقلال ، كما سعى الى تحقيق شعار « الأمة الجزائرية ـ التونسية » أى دعا الى وحدة المغرم العربى ، وظهر الزعماء « على باش جمعة » و « وعبد العزيز الثعالبى » اللذين استمرا فى المطالبة بالاستقلال والحياة الدستورية وتعرضا للنفى والحجر على نشاطهما ، حتى اذا قامت الحرب العالمية الأولى قامت ثورة فى تونس بتأييد من تركيا وألمانيا تزعمها حزب « تونس الفتاة » • ولكن هذه الثورة لم تحقق الأهداف القومية فى شمال أفريقيا •

لقد استغلت فرنسا اليد العاملة التونسية ، ومناجم الحديد والزنك والفوسفات المتوفرة فى تونس ، وامتلاك الأراضى الزراعية التى سيطر عليها المستوطنون الفرنسيون ، واحتكار الشركات الفرنسية لجميع الأعمال البحرية والبرية ، ولم يغفل الفرنسيون وضع النظم التى تضمن سيطرتهم على المجالس البلدية والوظائف الحكومية • وأعفى المستوطنون الفرنسيون من الضرائب التصاعدية ، وتمتعوا بالحماية الكاملة من قوات الاحتلال • كل ذلك الاستغلال لابد أن يثير كوامن الثورة الوطنية فى تونس خاصة وقد رأى التونسيون فرنسا تنهزم أمام ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى •

ثالثا ـ فى مراكش (المغرب) :

اختلفت مراكش عن كل من الجزائر وتونس فى أنها تمتعت باستقلال شكلى طوال القرن التاسع عشر اذ لم تدخل فى حوزة الأمبراطورية العثمانية ، وبقيت علاقاتها مع الدول الأجنبية تسير على قدم المساواة ، لذلك تطلب التمهيد لاحتلال فرنسا لها وقتا طويلا وسياسة معقدة ، هذا الى جانب كثرة الطامعين فيها مثل أسبانيا، وانجلترا، وألمانيا، وايطاليا وغيرها من الدول الأوروبية التى مارست سياسة الامتيازات

فى مراكش حتى أصبحت البلاد مسرحا للقوى الأجنبية التى تحـاول بسط نفوذها هناك •

وكانت فرنسا منذ غزت الجزائر عام ١٨٣٠ م قد اتخـذت من مراكش — حيث توجد سلطنة العلويين — موقفا عدائيا ، فقد احتجت الحكومة الفرنسية على وجود السلطة المراكشية فى تلمسان وأرسلت بعثة خاصة الى فاس للاحتجاج فى أوائل سنة ١٨٣٢ م ، فسارع مولاى عبد الرحمن بالانسحاب [٤٧] ، كما أن فرنسا اعتـدت على مراكش اعتداءات عسكرية بسبب تأييد القبائل المراكشية والسلطان لحركة الأمير عبد القادر الجزائرى ، ضد الغزو الفرنسى للجزائر ، حتى أن السلطان لقى هزيمة مروعة على يد القوات الفرنسية عام ١٨٤٤ م وقبل معاهدة مع فرنسا تقضى بتسريح جيشه من منطقة الحدود وطرد عبد القادر من البلاد أو القبض عليه ، وتخطيط الحدود بين الجزائر ومراكش واعطـاء فرنسا حق الدولة الأولى بالرعاية فى النشاط التجارى بمراكش •

وبهذه المعاهدة ظهرت أطماع فرنسا فى مراكش وتأكدت نيـة فرنسا نحو مراكش وأن تحقيقها يتطلب الوقت المناسـب والظروف الدولية المهيأة • وقد أخذت فرنسا تمهد لسياستها التوسعية فى مراكش بسلسلة من المعاهدات الدولية • ففى عام ١٩٠٢ م عقدت فرنسا مع ايطاليا اتفاقا تؤيد فيه اليد الايطالية المطلقة فى ليبيا نظير اطلاق اليد الفرنسية فى مراكش • وفى عام ١٩٠٤ م تم توقيع الاتفاق الودى بين كل من انجلترا وفرنسا الذى وافقت فيـه انجلترا على اطلاق اليـد الفرنسية فى مراكش نظير عدم اعتراض فرنسا على بقاء الاحتـلال الانجليزى بمصر • وفى أكتوبر من نفس العام صادقت أسـبانيا على الاتفاق الفرنسى البريطانى وحصلت نظير ذلك على الركن الشـمالى

---

(٤٧) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٢٢ •

المغربى من مراكش ليكون منطقة نفوذ لها [٤٨] ، والذى عرف بالريـــف الأسبانى .

ورغم محاولة سلطان مراكش استغلال معارضة ألمانيا لمشروعات فرنسا الاستعمارية فى مراكش . ورغم زيارة امبراطور ألمانيا لمينـــاء طنجة فى مارس ١٩٠١م ، ورغم عقد مؤتمر دولى فى ابريل ١٩٠٦م بمدينة الجزيرة بأسبانيا لبحث السيادة المستقلة لمراكش مع انفتاحها على جميع الدول وهو المؤتمر الذى ساندت فيه ألمانيا مراكش ، فأن قرارات المؤتمر اعترفت بمركز فرنسا الممتاز فى مراكش ، مع تأييد موقف السلطان المدافع عن استقلال بلاده .

وانطلاقا من هذا الموقف دفعت فرنسا شقيق السلطان المدعـــو عبد الحفيظ الى الثورة ضد أخيه السلطان عبد العزيز سنة ١٩٠٨ وتنحيته عن الحـــكم ، وقد نجح عبد الحفيظ فى ذلك ووضع نفسه تحت الحمايـــة الفرنسية بصورة فعلية وليست رسمية . وقد تأيدت هذه الحماية عندما استنجد عبد الحفيظ فى عام ١٩١١ م بالقوا تالفرنسية لاخماد ثورات القبائل ضده ، وقد نجحت هذه القوات فى اخماد الثائرين ضد السلطان وبقيت هناك تمارس احتلالا عسكريا وسيطرة على الحكم مما دفع ألمانيا الى الاحتجاج على بقاء القوات الفرنسية فى مراكش ، ولكن ما لبثت فرنسا وألمانيا أن توصلتا الى اتفاق بينهما فى نوفمبر سنة ١٩١١م نص على اطلاق يد فرنسا فى مراكش نظير تنازل فرنسا لألمانيا عن جـــزء من الكمرون الفرنسى .

ونتيجة لذلك رأت فرنسا جعل حمايتها على مراكش رسمية ، فتـــم توقيع معاهدة الحماية فى ٣٠ مارس ١٩١٢ م قبل السلطان بموجبهـــا حماية فرنسا على مراكش ما عدا منطقة طنجة والمنطقة الأسبانية . وفى

---

(٤٨) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢١٦ .

نوفمبر من نفس العام عقد اتفاق فرنسى أسبانى جديد من أجل تحديد المنطقة الأسبانية التى أطلق عليها لفظ الريف فأصبح يتولاها خليفة يعينه سلطان مراكش من بين اثنين ترشحهما أسبانيا على أن يخضع هذا الخليفة لتوجيهات المندوب الأسبانى(٤٩) .

لم تكن الحماية الفرنسية على مراكش لتثنى المراكشيين عن النضال ضد الاحتلال الفرنسى . خاصة وأن الظروف الطبيعية للبلاد تساعد على هذا النضال ، حيث تنتشر الجبال الوعرة المسالك والتى اعتاد أهلها من البربر الاحتفاظ باستقلالهم الداخلى أمام جميع الحكومات المركزية ، ومن ثم لم يتم اخضاع البلاد الا بعد مضى أكثر من عشرين عاما ، وتلعب شخصية الأمير عبد الكريم الخطابى الدور الرئيسى فى تاريخ المقاومة(٥٠) .

استنادا الى معاهدة الحماية مارس الفرنسيون استغلالا متنوعا فى البلاد ، وعملوا على التفرقة بين العرب والبربر ، وكونوا لهم صنائع من كبار الاقطاعيين الباشوات الذين مارسوا سلطات قضائية فى مقاطعاتهم ، كما سمحوا للشركات الامريكية والانجليزية أن تستثمر أموالها فى البلاد الى جانب الشركات الفرنسية . وعلى أية حال فقد كانت مراكش أقل أقطار شمال أفريقيا العربية تأثرا بالاستعمار الفرنسى بسبب تأخر احتلالها عن الجزائر وتونس ، ثم بسبب اشتعال الحرب العالمية الأولى بعد الاحتلال بعامين . حتى يمكن القول ان مراكش أقل هذه الأقطار نسبيا التى تغلغل فيها النفوذ الفرنسى اقتصاديا وثقافيا .

---

(٤٩) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٥٠) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

رابعا ـ فى سوريا ولبنـــان :

يعتقد البعض أن فرنسا كانت أسبق من انجلترا فى عملية الغزو الاستعمارى ، وهذا الاعتقاد له وجاهته ، لأن فرنسا شاركت بـــدور كبير ان لم يكن أكبر دور فى الحروب الصليبية ، وما حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر وأسره فى دار ابن لقمان فى المنصورة الا دليـــل اخر على هذا الغزو الاستعمارى الفرنسى الذى سبق انجلترا فى د... وبقية أقطار الوطن العربى ، بل وما الحملة الفرنسية على مصر والشام الا دليل ثالث على صحة هذا الرأى .

وبمعنى آخر لم يكن فرض الانتداب الفرنسى على كل من سوريا ولبنان بمقتضى قرارات مؤتمر « سان ريمو » فى ابريل سنة ١٩٢٠م الاجراء الاستعمارى الفرنسى الأول فى سوريا ولبنان ، بل هناك نشاطات استعمارية فرنسية فى بلاد الشام سبقت ذلك ومهدت له ، فقد حددت معاهدة التحالف الفرنسى العثمانى فى عام ١٥٣٥م الامتيازات الفرنسية فى الشرق العربى بصفة خاصة ، ولذلك كانت تجارة الحوض الشرقـــى للبحـــر المتوســط فى صـــالح فرنســـا بصفـــة عامـــة حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت فرنسا الدولة الأوروبية الأولى لدى البلاط العثمانى ، ولهـــا حق حمايـــة الرعايا الكاثوليك داخـــل الامبراطورية العثمانية [٥١] .

واستنادا الى الامتيازات التى حصلت عليها فرنسا فى الامبراطورية العثمانية عمدت الحكومة الفرنسيةالى التدخل فى أقطار المشرق العربى لصالح قوافل الحج الكاثوليكية الى بيت المقدس ، ثم تبنى لويس الرابع

---

(٥٠) د . انيس ، د . حراز : المرجع السابق ص ٩٥ .

عشر فى عام ١٦٤٦ م قضية الجالية المارونية فى لبنان فى أعقـاب زيارة الأساقفة المارونيين لفرنسا ، وقد رافق هذا الاتجاه ازدياد عـدد الكاثوليك فى بلاد الشام بسبب امتداد نشاط الجزويت والفرنسيسكان وغيرهما من المؤسسات الكاثوليكية الى الشرق[٥٢] • وبسبب انشـاء مدارس فرنسية لتعليم الموارنة ، وبسبب احتكار الفرنسيين لتجـارة الصادر والوارد فى جنوب سورية ، حتى صار التفوق — فى النفوذ السياسى والتجارى — للفرنسيين وتغلبوا على منافسة التجار مـن الشعوب الأخرى [٥٣] •

ونتيجة لذلك وجدنا الموارنة بصفة خاصة يميلون الى فرنسا ، ويرحبون بالبعثات التبشيرية الفرنسية ، بل ويتخذون من رجال هذه البعثات مستشارين لمشايخهم ، واستغلت فرنسا هذا الوضع للتقرب الى أصحاب العصبيات فى لبنان وخاصة المشايخ الموارنة ، كما استغلت بعض الأسر المارونية لتحقيق منافع خاصة ، كما كانت البعثات التبشيرية الفرنسية من أهم الدعائم التى بنت عليها فرنسا نفوذها الأدبى فـى لبنان فى تلك الأيام[٥٤] • وبلغ من الصـلة الوثيقـة بين الموارنـة والفرنسيين أن تعين شيخ مارونى نائبا لقنصل فرنسا فى بيروت عام ١٦٥٥م ثم قنصلا لها عام ١٦٦٢ م •

وعندما بدأت الأحداث الدامية بين الموارنة والدروز اعتبـارا من عام ١٨٥٧م بذلت الدولة العثمانية كل ما فى وسعها لاضعاف قوة الموارنة الذين كانوا يحظون بحماية فرنسا ، فشجع الأتراك الدروز على مهاجمة الموارنة وبدأت سلسلة الاضطرابات التى انتهت بمذابح سـنة

---

(٥٢) نفس المرجع ص ١١٥ •

(٥٣) د • عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٢١٣ •

(٥٤) نفس المرجع ص ٢٤٩ •

١٨٦٠[٥٥] بين الطرفين وامتدت لتشمل المسلمين والمسيحيين فى كل من سوريا ولبنان • وزادت وطأة الفتنة بينهما بما قام به عملاء الفرنسيين والبريطانيين من أعمال الدس فى اتجاهين مختلفين[٥٦] ، حتى حدثت المذابح بين الطرفين التى راح ضحيتها الآلاف من كلا الجانبين والتى تدخل فيها بعض الزعماء العرب لايقافها وتهدئة الأمور بين المتقاتلين ، وكان على رأس هؤلاء الزعماء العرب الأمير عبد القادر الجزائرى المقيم بدمشق منذ فشل المقاومة الجزائرية للغزو الفرنسى ••

ولقد كان للقنصل الفرنسى يد كبرى فى اثارة هذه المذابح التى قوبلت فى فرنسا بترحاب لما تتيحه لها من الفرص لمغامرة حربية فى لبنان[٥٧] ، اذ شعر الامبراطور الفرنسى نابليون الثالث بأن اللحظة المناسبة لتثبيت الاقدام الفرنسية فى سوريا قد أتت أخيرا ، فأعلن فى يوليو عام ١٨٦٠م عن عزمه ارسال قوات الى سوريا لحماية الكاثوليك ، ورغم أن السلطان العثمانى أوفد أحد رجاله لاقرار الأمور فى سوريا ، وقد استطاع بالفعل بعد أن أعدم رميا بالرصاص وشنقا وسجن وأبعد مئات من المسلمين ارضاء لفرنسا ، فان فرنسا لم تفلت من يدها هذه الفرصة ، ومن ثم عقد مؤتمر دولى فى باريس ضم كلا من انجلترا وفرنسا والنمسا وبروسيا والروسيا وتركيا درس الموقف فى سوريا وموقف فرنسا وأصدر قراراته فى سبتمبر ١٨٦٠م بالسماح لقوات فرنسية لا تتجاوز ١٢ ألف جندى بالنزول فى بيروت وألا تزيد مدة بقائها عن ستة شهور •

وقد نزلت القوات الفرنسية بالفعل فى بيروت فى آخر أغسطس ١٨٦٠ م فى الوقت الذى أوفد المؤتمر لجنة لتقصى الحقائق عن أسباب

---

(٥٥) د . أنيس د . حراز : المرجع السابق ص ١١٦ .

(٥٦) كانت بريطانيا تؤيد الدروز فى مواجهة تأييد فرنسا للموازنة .

(٥٧) جورج كيرك : المرجع السابق ص ١٢٨ •

الأحداث الدامية ، وتبحث امكانية تلافى هذه الأحداث بوضع نظـام جديد للبنان • ورغم أن الهدوء والنظام قد عادا الى سوريا فان فرنسـا رغبت فى بقاء قواتها هناك الى أجل غير مسمى بحجة ضمان عـدم تكرار الاضطرابات ، الا أن الحكومة البريطانية تمكنت بقرارات مؤتمر باريس القاضى بجلاء القوات الفرنسية خاصة وأن هـذه القوات قـد تجاوزت المدة المقررة لبقائها ، ومن ثم انسحبت هذه القوات فى يونيو ١٨٦١ دون أن تحقق أهدافها حتى قيل أن الحملة أخفقت فى تحقيـق ما كانت الدولة الحامية تصبو اليه [٥٨] ، من فرض سيطرتها ونفوذها على سوريا ولبنان •

عادت اللجنة الدولية من سوريا ولبنان فى مايو ١٨٦١م ووضعت تقريرا عرض على السلطان العثمانى فى شكل اتفاقية وقع عليهـا وزير الخارجية التركية وسفراء الدول الأوروبية الخمس فى يوليو ١٨٦١م تقضى بمنح الحكم الذاتى لسنجق لبنان على رأسه حاكم مسيحى غير لبنانى يتم تعيينه من قبل الدولة العثمانية بالتشاور مع الدول الأوروبية الخمس • وفى عام ١٨٦٤م استقر وضع لبنان كسنجق مستقل ذاتيا بمقتضى الاتفاقية السابقة التى صارت دستورا دائما للبنان حتى عـام ١٩١٤م وتم تنظيم لبنان بحيث يساعد الحاكم ١٢ شخصا منهم ٤ من الموارنة ، و ٣ من الدروز ، و ٣ من الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك، وسنى واحد ، وشيعى واحد • وصارت أقسام لبنان الادارية سبعة مديريات يترأس كل مديرية منها مدير وأربعة موارنـة وواحـد درزى وواحد من الروم الأرثوذكس ، ومدير من الروم الكاثوليك ، ويخضع لهؤلاء المديرين شيوخ النواحى والقرى والقضاة والكتبة الذين حـدد الدستور نسبة توزيع مناصبهم بين الطوائف الدينية المختلفة • •

وقد أسفرت هذه الاتفاقية عن استقرار الأمن والنظام فى سوريا ولبنان حتى نشوب الحرب العالمية الاولى ، وفى تلك الفترة باشرت

---

(٥٨) نفس المرجع ص ١٢٨ •

البعثات العلمية الفرنسية أعمالها العلمية ، حتى لقد قيل أنه فى سنة ١٩١٤م كان أكثر من نصف تلاميذ المدارس فى سوريا وفلسطين يتعلمون بمعاهد فرنسية[٥٩] • وحصلت فرنسا على اعتراف الدول الأوروبية المجتمعة فى مؤتمر عقد ببرلين عام ١٨٧٨م على الاحتفاظ بالحقوق التى تمتلكها فرنسا — فى حماية الأماكن المقدسة فى فلسطين — وعلى أنه من المفهوم أنه لن يجرى أى تعديل فى وضعية الأماكن المقدسة[٦٠]•

ظهرت المطامع الفرنسية فى سوريا ولبنان أثناء معارك الحرب العالمية الأولى فيما عرف باتفاق « سايكس — بيكو »[٦١] لعام ١٩١٦م الذى نص على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بحيث يكون نصيب فرنسا الجزء الأكبر من سوريا وجانب كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى العراق • وهذه المنطقة تشمل الشريط الساحلى لسوريا بما فى ذلك لبنان ثم ولاية أطنة ومرسين والأقاليم المعروفة أجمالا باسم كيليكيا ، وتدخل فى هذه المنطقة اسكندرونة • ولم يأت فى هذا الاتفاق ما يدل على أن فرنسا كانت ممنوعة من ضم هذه المنطقة اليها اذا أرادت ، كما لم يذكر الاتفاق أن من حق فرنسا ضمها الى ممتلكاتها مباشرة هذا بالاضافة الى المنطقة التى تشمل الموصل ثم مدن دمشق وحمص وحماه وحلب[٦٢] • •

وقد أكد الفرنسيون منذ هذا الاتفاق أن هناك وصاية أو حماية على سوريا ولبنان ، فان جورج بيكو خطب فى جمع من السوريين

---

(٥٩) جورج كيرك : المرجع السابق ص ١٢٩ •

(٦٠) د • محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ واثره فى البلاد العربية ، ص ٤٨ •

(٦١) شارك فى هذا الاتفاق مسيو جورج بيكو ، وسير مارك سايكس مندوبا فرنسا وانجلترا فى القاهرة وقنصل روسيا فى القاهرة كذلك ، وظل هذا الاتفاق سريا حتى اذاعته الثورة الروسية عام ١٩١٧م •

(٦٢) د • أنيس و د • حراز : المرجع السابق ص ٣٢٨ •

واللبنانيين فى فندق شبرد بالقاهرة فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٧٧م قائلا ان جميع دول الحلفاء قد انتخبوا فرنسا وصية على لبنان ، وأن الحكم سيكون فى البلاد التى كان لها امتيازها ، والتى كات محرومة من الامتياز سيمنح لها الامتياز والحكم العام الداخلى سيكون باستشارة الأهالى . وأشار الى قيام حماية فرنسية على سوريا(٦٣) .

وأثناء الحرب صدر تصريح الرئيس الأمريكى « ولسون » فى أوائل عام ١٩١٨م الذى يقضى بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وعقب انتهاء الحرب سيطرت القوات الفرنسية على المنطقة الساحلية فى سوريا من الناقورة جنوبا الى كيليكيا شمالا وتديرها فرنسا ، فى الوقت الذى احتلت القوات البريطانية فيه جنوب سوريا ، وتسيطر حكومة فيصل العربية بقواتها العربية على سوريا الداخلية . . وقد ظهرت النوايا الفرنسية واضحة فى موقفها من حضور مندوبين عرب جلسات مؤتمر الصلح فى باريس ، فقد استقبلت الحكومة الفرنسية الأمير فيصل كزائر كبير ، ليس له صفة الممثل السياسى أو المندوب الرسمى لحكومة معينة ، وكان لهذا مغزاه ، فان الحكومة الفرنسية لم تشأ أن تفترض للعرب حقوقا فى مؤتمر الصلح(٦٤) .

ونتيجة لفشل فيصل فى مؤتمر الصلح وعودته الى دمشق فى أوائل مايو ١٩١٩م تم تشكيل ما عرف بالمؤتمر السورى العام فى الشهر التالى وفى خريف نفس العام كان الاتفاق قد تم بين « لويد جورج » و « كليمنصو » بأحلال الجيوش الفرنسية محل الجيوش البريطانية فى كيليكيا والساحل السورى على أن تبقى فلسطين فى عهدة الجيش

---

(٦٣) نفس المرجع ص ٣٥٢ .

(٦٤) د . حسين النجار . المرجع السابق ص ٢٩ .

البريطانى ، وحصر سيادة العرب بالمنطقة الداخلية من سوريا ، واشتراط كليمنصو ألا تؤثر موافقته هذه فى التسوية النهائية المتعلقة بالانتدابات والحدود تأمينا لاستيلاء فرنسا على كامل سوريا(٦٥) .

وفى ٨ مارس عام ١٩٢٠م انعقد المؤتمر السورى العام وحضره مندوبون عن العراق ، واتخذ عدة قرارات تقضى باستقلال سوريا بحدودها الطبيعية وارتقاء فيصل عرش الملكية فى دمشق ، واستقلال العراق ، وشجب القرارات الاستعمارية والصهيونية كاتفاق سايكس — بيكو ووعد بلفور ، ورفض الوصاية السياسية التى تحاول الدول الاستعمارية فرضها باسم الانتداب ، ورفض معونة فرنسا تماما . ولكن هذه القرارات لم يكن لها صدى عند الدول الاستعمارية فقررت فرض الانتداب الفرنسى على كل سوريا ولبنان فى مؤتمر سان ريمو المنعقد فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٠م ، والانتداب الانجليزى على العراق وفلسطين .

وكان معنى ذلك اشتعال الثورة فى كل من سوريا ولبنان ضد الانتداب الفرنسى ، وبالثورة يستمر الصراع بين السوريين واللبنانيين من جهة ، وبين قوات الاستعمار الفرنسى من جهة أخرى حتى تنجح المقاومة العربية فى جعل الوجود الاستعمارى على الأرض العربية مستحيلا ومن ثم يسلم فى النهاية بانهاء هذا الوجود ، وبحصول سوريا ولبنان على استقلالهما عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية .

* * *

---

(٦٥) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

الاســــتعمار الايطــالى

أولا ـ فى ليبيـــا :

كان خروج ايطاليا الى الاستعمار متأخرا عن غيرها من الــدول الأوروبية ، وذلك بسبب تأخر وحدتها القومية ، وضعف امكانياتهــا ، ومشكلاتها الداخلية المعقدة .. وليس معنى هذا أن ايطاليا لم يفكــر أهلها فى اقامة مستعمرات لهم خارج حدودهم قبل الوحدة القوميــة اذ أن الايطاليين كانوا يرجون قبل اتمام الوحدة القومية أن تستطيــع مملكة نابولى ـ النابلطان كما سماهم السنوسيون الأوائل ـ الاضطلاع بمهمة هذا التوسع الخارجى ، وكان كل ما يعنيهم مجرد التوسع لذاته فحسب سواء جرى هذا فى القارة الأوروبية ذاتها أو فى بعض جزر البحر الأبيض أو فى قطر من أقطار أفريقية الشمالية (٦٦) .

ولعل من المفيد هنا أن نسجل الدوافع التى حدت بايطاليا غزو ليبيا ، ذلك أن ايطاليا خرجت من جهودها لتحقيق الوحدة القومية منهوكة القوى ومحملة بأعباء ومشكلات داخلية كالفقر وكثرة عدد العاطلين عن العمل (٦٧) ، الى جانب الشعور بالنقص ازاء الدول الكبرى ذات المستعمرات(٦٨) ، بالاضافة الى رغبة الايطاليين فى استخدام رؤوس أموالهم واستثمارها فى مشروعات تعود عليهم بالنفع ويتدرب الشباب الايطالى على الأعمال المنتجة .

---

(٦٦) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ١٠٣ .

(٦٧) د . محمد السروجى : العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية الى الاســـتقلال ص ٧٢ .

(٦٨) د . زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصر الحديث ص ٢٢١ .

ومما يجب ملاحظته أن اهتمام الايطاليين باقامة مستعمرات انصب فى المقام الأول على تونس أولا ثم طرابلس الغرب (ليبيــا) ثانيا ، لاسيما وأن تونس جعلها قربها من ايطاليا تتمتع بميزة لا تضارعهــا فيها طرابلس . هذا التقارب الذى أدى فى العصور القديمة الى وجود علاقت اقتصادية وسياسية هامة بين هذا الجزء من شمال أفريقيا الذى كان يطلق عليه اسم قرطاجنة وبين ايطاليا ومنذ ذلك الوقت أخذ كل من شمال أفريقية وايطاليا يؤثر فى الآخر ويتأثر به [٦٩] .

ولكن احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ م قد وجه ضربة لأطماع ايطاليا فى تونس مما أساء العلاقة بين فرنسا وايطاليا لدرجة جعلت الايطاليين يتجهون صوب دول وسط أوروبا ويتناسون العداء التقليدى مع النمسا بل ويدخلون فى تحالف مع ألمانيا والنمسا كان الفضــل فى ابرامه لبسمارك المستشار الألمانى الذى كان من المحبذين لفرنسا لكى تحتل تونس فتنصرف عن التفكير فى اقليمى الألزاس واللورين ، وقــد كسب بسمارك ايطاليا الى جانبه مع النمسا فى تحالف ثلاثى[٧٠] .

اتجه الايطاليون الى تحقيق مشروعات استعمارية فى شرق القارة الأفريقية بعد أن ضاع أملهم فى تونس ورغم ما صادفوه من نجاح فى أول الأمر باستيلائهم على اقليم ارتريا الا أن هزيمتهم فى موقعة عدوة على يد الأحباش قد جعلهم يعيدون التفكير فى امتلاك أراض جديدة فى شمال أفريقيا وخصوصا فى ولاية طرابلس الغرب ، وهى الولاية الوحيدة التى بقيت خاضعة للدولة العثمانية فى شمال أفريقيا[٧١] . وهكذا

---

(٦٩) د . محمد السروجى : الموقف الدولى والاحتلال الايطــــالى لطرابلس — مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد ٢٢ — ١٩٦٨م . ص ٢٧ .

(٧٠) د . رأفت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة ص ١٧٦ .

(٧١) نفس المرجع ص ١٧٧ .

استغرقت جهود ايطاليا بعيدا عن ليبيا منذ عام ١٨٨٥ حين احتلت مصوع الى عام ١٩٠٢ حين عقــدت مع فرنسا اتفاقيــة تحقق بهــا أهدافها الاستعمارية فى ليبيا .

وبعقد معاهدة ١٩٠٢ بين فرنسا وايطاليا التى قضت باطــلاق يــد ايطاليا فى ليبيا ويد فرنسا فى مراكش تبدأ سلسلة من الجهود الايطالية فى ليبيا من أجل السيطرة عليها ، بدأت بفتح المدارس فى طرابلس وبنى غازى ، وارسال الجماعات التبشيرية ، ولكن أهم من ذلك فتــح فروع لبنك دى روما الذى أخذ يقرض الأهلين أموالا كثيرة بفوائد وشروط مجحفة ، الى جانب أن القنصلية الايطالية فى كل من طرابلس وبنى غازى كانت مركزا للنشاط السياسى والدعاية الايطالية والتجســس على أهل البلاد ومراكز الدفاع عنها ووسائله(٧٢) .

هذا الى جانب وجود سياسيين ايطاليين يرسمون سياسة ايطاليــا الاستعمارية ويتحمسون لها أمثال السنيور « كرسبى » رئيس الوزراء الايطالية فى المدة من ١٨٨٧ — ١٨٩١ م ، ثم عودته للحكم من ١٨٩٣ — ١٨٩٦م حيث سقط بسبب الفشل فى الحرب ضد الحبشة (٧٣) ، ومثــل السنيور « جوليتى » الذى تولى الوزارة من عام ١٨٩٢ الى عام ١٨٩٣م ثم عاد للحكم مرة أخرى عام ١٩١١م حيث تم الغزو الايطالى لليبيا فى عهد وزارته (٧٤) .

وكل هذا هيأ الأذهان سواء فى ايطاليا أو خارجها لفكرة استيلاء ايطاليا على ليبيا ، بل بلغ من قوة الدعاية الايطالية أن صورت ليبيا بأن أراضيها مصدر خير وفير حتى بات الشباب الايطالى يتغنى بطرابلس

---

(٧٢) د . نقولا زيادة : ليبيــا ، ص ٨٠ .

(٧٣) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٧٤) خليفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها ص ١٠ .

الجميلة ، والعاطلون الايطاليون يتمنون الانتقال اليها فى ظل امتلاك ايطاليا لها ، ولذلك لا نعجب أن نرى الحكومة الايطالية تعلن الحرب على تركيا فى سبتمبر سنة ١٩١١م بحجة أن الضباط ورجال جمعيـــة الاتحاد والترقى الجهلة المتعصبين عرضوا الخطر الشديد أمن الرعايا الايطاليين بتحريضهم أهالى طرابلس الغرب وبنى غازى ضدهم[٧٥] .

لم يكن الغزو الايطالى لليبيا اذن مفاجئا لأن الأطماع الايطاليـــة فى ليبيا لم تكن خافية على الليبيين والأتراك ، وقد بادر الليبيون منـــذ عام ١٩١٠م بالابراق الى الصدر الأعظم ابراهيم حقى باشا يعلمونـــه بعزمهم على رد كل هجوم وطلبوا ارسال وسائل تحصينات طرابلس المهملة والذخائر الحربية والبحرية وأطعمة لمدة عام ، وأنهم سيدافعون عن وطنهم حتى آخر نقطة من دمائهم [٧٦] . ولكن ابراهيم حقى لـــم يعمل شيئا ، ولعل موقفه هذا يفسره أنه كان يعمل سفيرا لبلاده فى ايطاليا وزوجته ايطالية ، ومن ثم فهو متهم بالتواطؤ مع الطليان لتسليمهم الولاية[٧٧] .

ويمكن القول أن تولى جماعة الاتحاد والترقى فى تركيا قد عجل بضياع طرابلس الغرب ، فسياسة التتريك التى سارت عليها تلك الحكومة فى الولايات العربية لم تلق ترحيبا من قبل السنوسية فى طرابلس الغرب ، بـــل انها وقفت موقف عدم التأييد من انشاء جمعية الاتحـــاد والترقى فى بنى غازى [٧٨] ، بسبب رأى الاتحاديين فى بعض الأمور الدينية التى كان السنوسيون يخالفونهم فيها ، مما نفر الليبيين من الحكم العثمانى ، وجعل العثمانيين مسئولين عن حدوث الغزو الايطالى لليبيـــا .

---

(٧٥) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون فى أفريقيا الشمالية ص ٢١٤ .
(٧٦) نفس المرجع ص ٢٢١ .
(٧٧) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٤ .
(٧٨) د . محمد السروجى : المرجـــع الســـابق ص ٣٧ .

حدث الغزو الايطالى لليبيا فى سبتمبر ١٩١١م ، ولكن الليبيين لم يستسلموا بل قاوموا حتى بعد أن اضطرت تركيا المتهالكة الى استجداء الصلح مع ايطاليا ، والذى تم بوساطة انجلترا فى لوزان بسويسرا فى اكتوبر سنة ١٩١٢م ، واذا كانت القوات التركية قد شاركت فى صـــدر الغزو فى أوله الا أن هذه القوات كانت مبعثرة هنا وهناك ، وكانت تجهيزاتها الحربية وتدريباتها العسكرية ضعيفة وقليلة بحيث حمـــل المواطنون العرب فى ليبيا عبء القتال وحدهم بمساعدات مادية ومعنوية من الدول العربية والاسلامية وعلى رأسها مصر وتونس[٧٩] .

ونتيجة لمعاهدة لوزان منح السلطان العثمانى أهل ليبيا الاستقلال الذاتى فى الوقت الذى لا يملك فيه هذا الحق ، ولكنه منشور دعائى يحفظ به ماء وجهه أمام الشعوب العربية والاسلامية ، ذلك أن ملك ايطاليا أصدر فى الوقت نفسه منشورا الى الليبيين يذكر لهم فيه بأن بلادهم خاضعة خضوعا تاما للسيادة الملكية الايطالية ، ويعفو فيه عن الليبيين، ويعدهم بالمحافظة على الشعائر الدينية الاسلامية ويسمح لهم فيه بذكر اسم جلالة السلطان الأعظم بصفته خليفة المســلمين فى الصــلوات العامة [٨٠] . بل وسرعان ما صار الايطاليون يعتبرون المجاهدين الليبيين مجرد عصاة وثوار خارجين على الحكومة الشرعية — الحكومة الايطالية — فى مقاومتهم ، يستحقون لذلك الاعدام شنقا أو رميا بالرصاص اذا ما وقعوا فى أيديهم[٨١] .

ولكن الليبيين لم يرهبهم ما حدث لهم من مذابح دموية أو احراق مساكنهم ومزارعهم ومواشيهم ومن ثم استمر كفاحهم ضد قــوات الغزو الايطالى الغاشم رغم انسحاب القوات التركية ، وتحمـــل

---

(٧٩) د . رأفت الشيخ : المرجـــع السابق ص ١٨٢ .

(٨٠) د . نقولا زيادة : ليبيـــا . ص ٨٣ — ٨٤ .

(٨١) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ١٣١ .

السنوسيون عبء النضال فى برقة بأسلوب حرب العصابات فى الجبل الأخضر الذى سيطر الايطاليون على قسم كبير منه خاصة مدنه ، والذين صمموا على المضى فى الغزو رغم تكبدهم نفقات ودماء كثيرة ، فـى الوقت الذى عملت فيه السنوسية خصوصا حين تزعمهم السيد محمـد ادريس على عقد اتفاق مع ايطاليا لاقرار الأمور فى برقة لصالح أهلها الذين طحنتهم المعارك الحربية وسياسة التجويع والتشريد والابادة التى اتبعتها قوات الاحتـلال •

وقد تم بالفعل عقد عدة اتفاقيات بين السنوسية وايطاليا فـى السنوات من ١٩١٧ الى ١٩٢١م أمنت للبرقاويين عبادتهم وملكيتهم الفردية وانشاء المدارس واحترام لغة البلاد الى جانب انتخـاب مجلس نيابى يساعد الأمير السنوسى الذى اعترفت به كل من ايطاليـا وانجلترا أميرا لبرقة •• ولكن ايطاليا لم تكن مخلصة فى هذه الاتفاقيات بل سعت الى الوقيعة بين أهل البلاد حتى تضرب ضربتها بالتخلص من الحركة الوطنية الليبية ، وقد ضيقت حكومة الاحتلال على الأمـير السنوسى حتى ترك برقة وانتقل الى مصر عام ١٩٢٢ م تاركا قيـادة الجهاد فى برقة للسيد عمر المختار أحد شيوخ الزوايا ، خاصة وأن الحزب الفاشستى كان قد استولى على الحكم فى ايطاليا فى خريـف هذا العام ، واتبع سياسة العنف بصورة أشد مع الليبيين •

وأما فى طرابلس فقد استمر الكفاح يقوده زعماء القبائل أمام زحف القوات الايطالية وارهابها للاهالى حتى تم اختيار سليمان البارونى رئيسا لحكومة وطنية فى طرابلس ولكنه اضطر أمام ضغط الايطاليـين الى ترك البلاد الى الآستانة،ولكن الكفاح ظل مستمرا وتدفق المتطوعون الى ميادين القتال والتحقوا بالمعسكر العثمانى بضواحى طرابلس وقلوبهم تلتهب حماسة وغيرة واخلاصا ، وان الهمة مبذولة فى تأليف جيش كبير من المتطوعين تحت رئاسة ضباط مصر المتقاعدين وأكدت الصحـف

المصرية سفر قوافل عديدة من مطروح وبراني وأولاد على تحمل معها الذخيرة والزاد مدججة بالسلاح الحديث[٨٢] .

وحاول الطرابلسيون تنظيم صفوفهم أثناء انشغال ايطاليا بمعارك الحرب العالمية الأولى ورغبتها فى تسكين جبهة القتال فى طرابلس حتى تنتهى الحرب ، ومن ثم حصل الطرابلسيون على اعتراف من ايطاليا فى ٢١ ابريل ١٩١٩م بموجب صلح « بنى آدم » بالجمهورية الطرابلسية التى أقيمت منذ نوفمبر ١٩١٨ والتى اختير كل من سليمان البارونى ورمضان السويحلى وأحمد المريض وعبد النبى بلخير لرئاستها ، والتى عمل لها المجاهد المصرى عبد الرحمن عزام مستشارا بعد أن أسهم فى قيامها .

ولكن النزاعات الداخلية قد فتت فى وحدة المجاهدين وأعطت الفرصة للايطاليين ، وكان أهم هذه النزاعات النزاع بين السنوسية ورمضان السويحلى زعيم مصراتة التى اتخذت شكل التعصب القبلى . هذا الى جانب الخلافات بين زعماء الجهاد فى طرابلس مثل الخلاف بين رمضان السويحلى فى مصراتة وعبد النبى بلخير فى أورفلة وغيرهم[٨٣] . وبسبب عدم وجود الزعيم القوى كما هو الحال فى برقة جعل الحكومة الايطالية تتدخل فى كل كبيرة وصغيرة ، فوجد الزعماء من صالحهم الاعتراف لزعيم واحد بالسلطة العليا ورأوا فى السيد ادريس السنوسى أمير برقة الزعيم المسلم القوى[٨٤] ، فاتجهوا اليه يبايعونه بالزعامة فى نوفمبر ١٩٢٢م بوجود مجلس شورى من ٢٢ عضوا يمثلون الجهات المختلفة . وقد اعترفت ايطاليا بذلك فى بادىء الأمر ثم لم تلبث أن بدلت سياستها بسيطرة الفاشست على الحكم فى روما وطرابلس .

---

(٨٢) صفحات خالدة من الجهاد للمجاهد الليبى سليمان البارونى ص٢١٤
(٨٣) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٨٤ .
(٨٤) د . زاهر رياض : المرجع ص ٢٤٤ .

ولكن الليبيين لم يستسلموا للضغط والارهاب الفاشستى ، بل استمر كفاحهم حتى انتهى تقريبا عام ١٩٣١م بالتخلص من قائد النضال فى برقة عمر المختار ، وان ظل الأمل يراود الليبيين فى ازاحة الاحتلال الايطالى حتى انتهت الحرب العالمية الثانية وتنهزم ايطاليا وتجبرها قوات الحلفاء على ترك ليبيا .

ثانيا — فى الصومال :

تسابقت كل من انجلترا وفرنسا وايطاليا حول ممتلكات مصر الأفريقية بصفة خاصة وحول ساحل أفريقيا الشرقى وساحل البحر الأحمر الأفريقى بصفة عامة . فقد تأسست مستعمرة انجليزية على أنقاض الممتلكات المصرية عرفت بالصومال الانجليزى ضمت موانى زيلع وبلهار وبربره على خليج عدن ، وهى التى استولى عليها الانجليز منذ أن أخلاها المصريون بين عامى ١٨٨٥ ، ١٨٨٨م . وأبلغت بريطانيا الدول الأوروبية — تطبيقا لقرارات مؤتمر برلين — أن الساحل الصومالى ابتداء من رأس جيبوتى الى بندر زيادة قد وضع تحت الحماية البريطانية [٨٥] وكان هذا التبليغ ايذانا واعلانا بتأسيس المستعمرة البريطانية فى الصومال فى مواجهة المستعمرة البريطانية فى عدن ، ومعنى ذلك أن بريطانيا أمسكت بباب المندب مدخل البحر الأحمر الجنوبى فى الوقت الذى تسيطر فيه على مصر وقناة السيوس شمالا منذ احتلال قواتها لمصر عام ١٨٨٢ م .

وكانت انجلترا تبذل صارى جهدها لكى تبعد أطماع الدول الأوروبية عن حوض النيل وذلك منذ اخلائه من المصريين وسيطرة المهدية عليه . وذلك لكى يصبح منطقة نفوذ لها وحدها،وكانت فرنسا الدولة الاوروبية المعاندة لمشروعات بريطانيا عى مصر والسودان بل وفى شرق ووسط أفريقيا ، قد دأبت على مضايقة انجلترا فى مصر ، ورأت أن تدبر

(٨٥) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ٤٤٧ .

حملة عسكرية تغرس العلم الفرنسى فى فاشورة تستعمله سلاحا للضغط على انجلترا سياسيا لاجلائها عن مصر[٨٦]، وكانت انجلترا تدرك أطماع فرنسا ، ولذلك نجد السير « ادوارد جراى » وزير الخارجية البريطانية يرد على سؤال فى مجلس العموم البريطانى فى عام ١٨٩٥م قائلا : ان انجلترا لها صفة الوصية المكلفة بالدفاع عن مصالح مصر ، وبما أن مصر لها مطالب فى وادى النيل فان منطقة النفوذ البريطانى تشمل جميع وادى النيل [٨٧] .

وكانت فرنسا قد بدأت تأسيس مستعمرة لها فى الساحل الصومالى منذ أن استولت على ميناء أوبوك عام ١٨٨٥ م وفرضت الحماية على تاجورة وماجاورها وتأسيس ميناء جيبوتى [٨٨] ، ومن ثم تلامست مناطق النفوذ لكل من انجلترا وفرنسا فى الصومال فعقدت بين الدولتين معاهدة عام ١٨٨٨م • وكان التدخل الفرنسى فى الشئون الداخلية لسلطنة زنجبار وممتلكاتها على الساحل الصومالى عام ١٨٥٩م من أجل الحصول على مواقع فرنسية على الساحل الصومالى فى مواجهة المركز الاستعمارى الذى كانت بريطانيا قد حصلت عليه فى زنزبار ذاتها منذ عام ١٨٤١م[٨٩] • ونتيجة معهدة ١٨٨٨م مع انجلترا تأسس الصومال الفرنسى تحت ادارة موحدة جعلت عاصمته ميناء جيبوتى •

كانت انجلترا منذ أن فرضت على مصر سياسة اخلاء السودان تتخذ موقفا متناقضا • فبينما تعلن مصر أن السودان وأملاك مصر فى أفريقية قد صارت أرض خلاء لا مالك لها ، نجدها تقف أمام تحقيق الاطماع الاستعمارية الأوروبية فى أملاك مصر الأفريقية بدعوى أن حقوق

---

(٨٦) د • مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٤٢٤ .

(٨٧) د • محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر • ص ٢٣٤ .

(٨٨) د • رأفت الشيخ : أفريقيا فى العلاقات الدولية ص ١٣٠ .

(٨٩) Coupland, E. : Exploitation of East Africa, p. 338.

السيادة على هذه الأملاك لمصر ، ولا يعنى أنها معطلة الآن بسبب سيطرة الثورة المهدية انتهاؤها ومن ثم وجدنا انجلترا تتصرف فى هذه الأملاك وكأنها الوصية عليها تعطى لمن تشاء من الدول أجزاء من هذه الأملاك وتقف دون الدول الأخرى •

وكانت ايطاليا تطمع فى أجزاء من ممتلكات مصر على ساحل البحر الأحمر منذ أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر ، وكانت مصر تعارض مشروعات ايطاليا فى هذه الجهات التى اتخذت من النشاط التجارى ستارا تخفى به غرضها ، وقد أيدت انجلترا مصر فى معارضتها لنشاط ايطاليا ولكن فى عام ١٨٨١م وجدنا انجلترا تغير سياستها نحو ايطاليا ، والسر فى ذلك تكشف عنه مذكرة فى سجلات وزارة الخارجية الانجليزية كتبت فى سبتمبر تقول : ان الفرنسيين يبذلون أقصى جهد لاخراج مصر من قبضة انجلترا[٩٠] • وبناء على موافقة انجلترا تحولت ميناء عصب الى مستعمرة ايطالية فى يونيو ١٨٨٢م ، كما احتل الايطاليون بلدة «بيلول» الواقعة الى الشمال من خليج عصب وكانت بها حامية مصرية طردتها السلطات الايطالية وكان ذلك فى يناير ١٨٨٥ م ، وفى الشهر التالى احتلت ايطاليا مصوع ، وبذلك سيطرت على كل الساحل من عصب الى مصوع ، ومن ثم تأسست مستعمرة أرتريا الايطالية على حساب ممتلكات مصر •

تم تحقيق النشاط الايطالى فى ساحل البحر الأحمر المصرى بموافقة انجلترا ، التى لا تخشى من ايطاليا كما تخشى من فرنسا ، فمن الطبيعى اذن أن يتفق الطرفان حتى تصبح ايطاليا عونا للانجليز ضد الدراويش — المهديين — من ناحية والفرنسيين من ناحية أخرى : لهذه الأسباب أعطت مصوع لايطاليا ثم شجعت على تأسيس مستعمرة أرتريا وارسال بعثات علمية وتجارية الى اقليم هرر ، كذلك تفاهمت الدولتان

(٩٠) د • محمد صبرى : المرجع السابق ص ١٦٥ •

سرا على أن جميع الاراضى الحبشية تعتبر دائرة نفوذ لايطاليا وتستطيع أن تؤسس فيها امبراطورية[٩١] ، كما سمح الانجليز لايطاليا باحتلال مديرية كسلا السودانية التى كانت آنذاك فى دائرة سيطرة المهديين .

وما لبثت ايطاليا بعد أن تأسست مستعمرة أرتريا أن اتجهت أنظارها الى ساحل الصومال الشرقى فأرسلت سفينة حربية ايطالية الى مياه ساحـــل الصومال المطل على المحيط الهندى لكشف هذه الأصقـــاع تمهيدا لاحتلالها وضمها الى الممتلكات الايطالية التى كانت حكومـــة روما تعمل على تكوينها بمساعدة انجلترا فى شرق أفريقيا[٩٢] . وأعقب ذلك احتلال ايطاليا لبقية الساحل الجنوبى لخليج عدن بعد حـــدود الصومال الانجليزى . وفى فبراير سنة ١٨٨٩م قبلت سلطنة أوبيـــا — فى الصومال — الحماية الايطالية[٩٣] .

وقد بدأ تأسيس المستعمرة الايطالية فى الصومال بحصول شركة ايطالية فى عام ١٨٨٦م على حق استغلال موانى كيسمايو « قسمايو » وبراقا ومركة ومقديشو من شركة شرق أفريقية البريطانية لمدة خمس وعشرين سنة تتجدد لمدة أخرى اذا رغبت الحكومة الايطالية فى ذلك[٩٤] وقد توسعت ايطاليا فى استغلالها حتى اصطدمت بالحبشة ، فتم عقـــد معاهدة « أوتشيالى » بين ايطاليا والحبشة فى ٢ مايو ١٨٨٩ م ، وهى المعاهدة التى أثارت خلافا بين الطرفين بسبب تفسير المـــادة ١٧ منهـــا التى نصت على أنه يجوز لملك الحبشة أن يعتمد على الحكومة الايطاليـــة

---

(٩١) د . على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ص ١١٠ .

(٩٢) د . السيد حراز : التوسع الايطالى فى شرق أفريقيا ... ص ١٧٨

(٩٣) د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٤٤٩ .

(٩٤) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢٢٦ .

فى مباشرة السياسة الخارجية للحبشة . وكان هدف الايطاليين من ذلك هو تحقيق الادعاءات الحبشية على كل الاقليم من هرر حتى النيل[٩٥].

وقد أرادت ايطاليا أن تحصل على تأييد انجلترا وموافقتها على ادعاءاتها فى شرق أفريقيا بصفة عامة ، ومن ثم عقدت اتفاقات بين الطرفين فى مارس وأبريل عام ١٨٩١ م اعترفت فيها انجلترا بخضوع أكبر جزء من أراضى السودان المصرى التى تقع بين هضبة البحيرات « ورأس جردافوى » للنفوذ الايطالى كما اعترفت بكل أثيوبيا وجزء من التاكا وسنار التابعتين لمصر داخل منطقة النفوذ الايطالى فى شرق أفريقية [٩٦] . وهذه الاتفاقات تنظم الحدود بين مناطق النفوذ الانجليزى والايطالى فى الصومال بما يبعد عن الصومال الفرنسى وقد استكمل تخطيط الحدود بين الصومالين الانجليزى والايطالى فى اتفاق ٥ مايو ١٨٩٤ م بين انجلترا وايطاليا[٩٧] .

انطلقت ايطاليا تحقق ادعاءاتها على الحبشة متخذة من مستعمرة ارتريا مركزا لنشاطها ولكن الأحباش رفضوا التفسير الايطالى لمعاهدة أوتشيالى فدارت معركة حاسمة فى « عدوة » فى أول مارس ١٨٩٦م كانت نتيجتها فى صالح الأحباش مما اضطر الايطاليين الى ترك أحلامهم فى شرق أفريقيا ، وعقدت معاهدة بين ايطاليا والحبشة عرفت بمعاهدة أديس أبابا فى اكتوبر من السنة نفسها ، وفيها حددت الحدود نهائيا بين المستعمرة وأثيوبيا — الحبشة[٩٨] .

---

(٩٥) د . رأفت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ص ١٥٧ .

(٩٦) د . السيد حراز : المرجع السابق ص ٣٤١ .

(٩٧) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٤٥١ .

(٩٨) د . زاهر رياض : المرجع السابق ص ٢٢٧ .

ونتيجة لمعركة عدوة تحول الاهتمام الايطالى فى شرق أفريقيا من التوسع على حساب الممتلكات الحبشية الى التوسع فى الساحل الصومالى، وقد استطاعت ايطاليا بالفعل تدعيم نفوذها فى موانى قسمايو وبراتا ومركة ومقديشو حتى وصلت أملاكها الى رأس دلجادو فى الشمال ، وكونت من هذه الجهات مستعمرة ثانية فى أفريقيا عرفت بمستعمرة الصومال الايطالى ظهرت للوجود فى بداية القرن العشرين (٩٩) . وهكذا انتهى التنافس الدولى فى شرق أفريقية بخضوع الأجزاء الشمالية منه لسلطة ايطاليا وهى الأجزاء المعروفة بساحل البنادر — الساحل الصومالى — وستظل فى ادارة هذه حتى الحرب العالمية الثانية(١٠٠) .

* * *

(٩٩) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٥٨ .

(١٠٠) د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق أفريقيا ص ٢٨٢ .

الفصل الثامن

الصهيونيـــــة العالميـــــة

– مقـــــدمة :

– الصهيونية والعـــالم :

أولا – السياسة البريطانية ٠

ثانيا ة الهجرة اليهودية الى فلسطين ٠

ثالثا : رد الفعل العربى ٠

رابعا : موقف هيئة الأمم المتحدة ٠

خامسا : التأييد الأمريكى ٠



مقـــــــدمة

تعتبر الصهيونية العالمية حركة سياسية عنصرية أو هى شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصرى كما جاء فى قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة رقم ٣٣٧٩ فى دورتها رقم ٣٠ الصادر فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٧٥ م .

والصهيونية بهذا الفهم حركة معادية للانسانية وللديموقراطيــة حيث تعتبر اليهود شعب الله المختار أى الشعب الأسمى منزلة والارفع مكانة بالنسبة لجميع شعوب الأرض ، كما أن الصهيونية بهذا الفهــم تجعل الديانة قومية رغم الاختلاف فى الشكل والموضوع بين الدين والقوميـــة .

ويمكن أن نؤرخ لظهور الصهيونية العالمية كحركة سياسية عنصرية بعام ١٨٩٦م حين نشر « تيودور هرتزل » كتابه « الدولة اليهودية » . وقد تدعم موقف الصهيونية عندما وافق المؤتمر الصهيونى الأول الذى عقده « هرتزل » عام ١٨٩٧م على ما عرف باسم برنامج « بازل » الذى كان يدعو الى انشاء وطن قومى آمن ومعترف به قانونيا لليهود فـــى فلسطين (١)

وقد شجعت بريطانيا خطط الاستعمار الصهيونى لفلسطين ، ورغم أن عدد اليهود الموجودين بفلسطين فى منتصف القرن التاسع عشر يزيد قليلا عن عشرة آلاف يهودى جاء أكثرهم لممارسة شعائر دينية فـــى القدس ، فان القنصل البريطانى بمدينة القدس اهتم بمشروعات من شأنها المساعدة على هجرة يهودية كبيرة الى فلسطين واقامة دولــــة صهيونية فى النهاية تحت الحماية البريطانية .

---

(١) ريجينا الشريف : الصهيونية غير اليهودية ص ٨ .

وقد شجعت الحكومة البريطانية مشروعات قنصلها العام بالقدس واعتبرتها ضمانا لأمن مواصلات الامبراطورية البريطانية ، كما لقيت هذه المشروعات صدى عند « موسى مونتفيورى » رجل المال اليهودى البريطانى وقريب المليونير الصهيونى البريطانى « روتشيلد » الذى ذهب الى فلسطين وحاول استمالة المستوطنين اليهود هناك للفكرة الصهيونية •

وأخذ « روتشيلد » يدفع بفكرة اقامة وطن لليهود فى فلسطين ، وحث أثرياء العالم للتبرع لانشاء هذا الوطن حتى انعقد فى لندن مؤتمرا ضم عددا من أعلام الدول الأوروبية فى السياسة والاقتصاد والتاريخ والاجتماع وشئون الاستعمار عام ١٩٠٧م افتتحه « السير هنرى كامبل بانرمان » Sir Henry Campbell Bannerman رئيس حزب الأحرار ورئيس مجلس الوزراء البريطانى •

وقد انتهى المؤتمر الى عدة توصيات كان أهما بالنسبة لفلسطين : العمل على فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة العربية عن جزئها الأسيوى باقامة حاجز بشرى قوى وغريب على الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا ، ويربطهما معا بالبحر المتوسط ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة [٢] •

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى تركز النشاط الصهيونى فى لندن أكثر من أية عاصمة أوروبية أخرى ، على اعتبار التقاء الأهداف الصهيونية مع الاستراتيجية البريطانية فى المنطقة العربية ، ورأى أقطاب الصهيونية أن انتصار بريطانيا على تركيا سيؤدى الى ضم

---

(٢) د . حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، ص ١١٦ .

فلسطين الى حوزتها الأمر الذى ساعد على تحقيق حلم الصهيونية نتيجة تقسيم أملاك الدولة العثمانية بعد الحرب كما هى الحال بالنسبة لباقى الحروب ، خصوصا لو وضعنا فى الاعتبار سابق أفضال بريطانيا التى غمرت بها الصهيونية [٣] .

وأثناء الحرب تألفت لجنة بريطانية لفلسطين أصدرت صحيفة دورية شعارها اعادة أمجاد الأمة اليهودية القديمة فى ظلال الحرية التى تكفلها حكومة دومنيون بريطانية جديدة فى فلسطين[٤] . حتى تم توقيع الاتفاق المعروف باتفاق سايكس — بيكو بين انجلترا وفرنسا والروسيا من أجل تقسيم أملاك الدولة العثمانية بين الدول الثلاث عام ١٩١٦ م ، فيكون نصيب فرنسا الجزء الأكبر من سوريا وجانب كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى العراق ، ويكون لانجلترا البلاد الواقعة بين الخليج والمنطقة الفرنسية (العراق وشرق الأردن) ثم حيفا وعكا ونص الاتفاق على انشاء ادارة دولية فى فلسطين بسبب وجود الأماكن المقدسة فيها ، كما نص على بعض حقوق أخرى لروسيا فى الأناضول والمضايق .

ولم تتوقف محاولات الصهيونية للضغط على انجلترا لتحقيق قيام الدولة اليهودية فى فلسطين ، كما تطور الموقف الانجليزى لصالح الأهداف الصهيونية ، لنجد اللورد بلفور Balfour وزير الخارجية البريطانية يوجه الى اللورد الصهيونى الانجليزى روتشلد رسالة بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩١٧ م بعد مباحثات بين الرجلين استمرت عامين ولعب المال فيها دوره ، وجاء فى الرسالة :

---

(٣) نفس المرجع ص ١١٩ .

(٤) جورج كيرك : المرجع السابق ص ٢٣١ .

عزيزى اللورد روتشلد :

لى مزيد السرور أن أزف اليكم باســم حكومة صاحب الجلالة الوعد التالى بتأييدها الحركة اليهودية الصهيونية وأمانيها التى عرضت على مجلس الوزراء ووافق عليها ، وان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين التأييد الى انشاء وطن قومى للشعب اليهودى وستستخدم أفضل وسائلها وأقصى جهودها لتسهيل تحقيق هــذه المهمة • ومفهوم بوضوح أنه لن تتخذ أية اجراءات من شأنها الاضرار بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية المقيمة فى فلسطين أو الحقوق والنظم السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد يعيشون ، وأكون شاكرا لو تفضلتم باعلان هــذا التصريح الى الاتحاد الصهيونى[٥] •

لقد جاء وعد بلفور بعد انقضاء عامين على ارسال خطاب مكماهون الى الشريف حسين والذى حوى التعهدات التى دخل العرب على أساسها الحرب الى جانب بريطانيا وحلفائها ، وثمانية عشر شــهرا على قيام الثورة العربية حين انضم الشريف حسين علنا الى صف الحلفاء معتمدا على تعهدات بريطانيا بتأييد استقلال البلاد العربية ، تلك التعهدات التى كانت تشمل قطعاً فلسطين[٦] ، ولهذا صدر الوعد الذى راعى أن يكون لليهود وطن قومى فى فلسطين لا أن تكون كل فلسطين وطناً قومياً لهم كما كانوا يريدون •

ولعل الدوافع الحقيقية لصدور هذا الوعد هى :

أولا : عامل سياسى وهدفه استمالة اليهود فى ألمــانيا والنمسا والولايات المتحدة الأمريكية لتأييد الحلفاء •

---

(٥) د . عزت عبد الكريم وآخرون : المرجع السابق ص ٣٨٣ .

(٦) د • محمد انيس ود . حراز : المرجع السابق ص ٤٠٥ .

ثانياً — وعامل آخر يتعلق بأطماع بريطانيا الاستعمارية فى البلاد العربية ، ففى مقابل الوعد يؤيد اليهود ما تهدف اليه بريطانيا من الأنفراد بالسيطرة على فلسطين بعد آن نص اتفاق سايكس — بيكو على دوليتها ، فكأن اصدار الوعد كان فى نظر بريطانيا للتخلص من التزامها بقبول الادارة الدولية فى فلسطين .

ثالثاً : وثمة عامل آخر لا بد أنه كان موضع تقدير السياسة البريطانية هو خلق قوة مناوئة للعرب تفسح لبريطانيا مجال التدخل بين الطرفين وفق سياستها التقليدية فرق تسد(٧) .

كان وعد بلفور اذن بداية المأساة الدامية فى أبشع مؤامرة عرفها التاريخ ، وخلق تأييد انجلترا للمشروعات الصهيونية فى فلسطين عداءا مريرا لها فى البلاد وقد حققت انجلترا هـذا الوعد منذ أن تم لقواتها احتلال فلسطين عام ١٩١٧ م وأخضعتها لادارة عسكرية بريطانية تتلقى تعليماتها من سلطات الاحتلال ، وقد أسهمت هـذه الادارة فى اغراق فلسطين بالمهاجرين اليهود ، حتى اذا جاءت قرارات مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ م التى قضت بانتداب انجلترا على فلسطين حكمت فلسطين ادارة مدنية برئاسة السير هربرت صموئيل كمندوب سامى بريطانى . وقد ساعد بحكم تعصبه لاقامة دولة يهودية فى فلسطين على تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين والاعتراف بالوكالة اليهودية فى فلسطين كهيئة يهودية عامة حتى أصبحت قوة لها شأنها فى فلسطين ، ومنح هربرت صموئيل الوكالة اليهودية امتيازات اقتصادية وسياسية وادارية ، فأصبحت هـذه الوكالة تمثل دولة داخل الدولة . فأنشأ اليهـود الجامعة العبرية فى القدس ١٩١٨ وهى القاعدة الأولى فى الاستعمار الصهيونى الذى تكتل حوله سائر السياسات ومرت أعوام واذا أفضل

(٧) د . حسين فوزى النجار : المرجع السابق ص ٢٧ — ٢٨ .

البقاع الفلسطينية التى يملكها ذووها من أهل البلاد وما جاورها تغدو ملكا لليهود وفيها البساتين الخصبة والمزارع الواسعة والعمارات الشامخة • كل ذلك بفضل سياسة الانتداب البريطانى •

نجحت الحركة الصهيونية العالمية فى تحقيق كثير من أهدافها بفتح أبواب فلسطين أمام المهاجرين اليهود من أنحاء العالم ، وكانت الحركة الصهيونية العالمية أكثر تحركا وتنظيما من العرب ولها رجال ذوى نفوذ فى الأقطار الكبرى الأربعة : انجلترا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة الأمريكية ، وهى الأقطار المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن الحركة الصهيونية تبغى أن يظل وعد بلفور اتفاقا خاصا بينها وبين بريطانيا العظمى ، ولكن أن يصبح هذا الوعد عنصرا فعالا فى كل السياسات التى تخطط للشرق الأوسط (٨) •

وقد نجحت الحركة الصهيونية نجاحا كبيرا فى تحقيق أهدافها رغم وجود جماعات يهودية عالمية عارضت بشدة خطط الحركة الصهيونية، فقد أرسل حوالى ثلاثمائة من قادة اليهود الأمريكيين الى الرئيس ويلسون يعبرون عن استنكارهم لمطالب الحركة الصهيونية فى فلسطين ، كما كانت هناك قيادات يهودية فى أوروبا تعتقد أن الصهيونية انما تمثل خطرا على اليهود فى العالم وتسبب مزيدا من العداء للسامية (٩) •

وكانت سياسة الانتداب البريطانى فى فلسطين من العوامل المساعدة تماما لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية لاقامة وطن قومى فى فلسطين ، حيث نشطت حركة الهجرة اليهودية الى فلسطين ولم تفلح احتجاجات العرب ، حتى انتهى الأمر بقيام الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨ م التى انتهت بقيام دولة اسرائيل •

---

(٨) د . رأفت الشيخ : امريكا والعلاقات الدولية ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٩) Polk, w. : The U.S. and the Arab world p. 300.

وبعد عام ١٩٤٨ م استمر التأييــد الأوروبى والأمريكى لدولة اسرائيل التى لم تكن تملك مقومات الدولة ، ونجحت الدعاية الصهيونية فى غيبة الاعلام العربى فى كسب الرأى العام الأوروبى والأمريكى باظهار اسرائيل كواحة للديمقراطية واظهار العرب بالارهابيين الذين يريدون أن يقضوا على دولة اسرائيل وأن يلقوا باليهودية فى البحر .

ولذلك تحالفت دولتان من أوروبا هما انجلترا وفرنسا مع اسرائيل عام ١٩٥٦ م فى شن حرب ضد مصر أكبر دولة عربية والتى تمثل حجر الزاوية فى الكفاح العربى من أجل القضية الفلسطينية ، كما تحالفت الولايات المتحدة الأمريكية مع اسرائيل عام ١٩٦٧ م فى شن حرب ضد الأقطار العربية مصر والأردن وسوريا أدت الى ضياع أرض فلسطين فى الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة الى جانب مرتفعات الجولان السورية من أيدى العرب لتستولى عليها اسرائيل .

الا أن النتيجة الايجابية لحــرب عام ١٩٦٧ م هو ظهــور الكيان الفلسطينى المتمثل فى منظمة التحرير الفلسطينية التى تضم منظمات نضالية متعددة على رأسها منظمة فتح ، لتتولى قيادة العمل الفلسطينى العسكرى والسياسى بمساعدة الأقطار العربية حتى الوقت الحاضر . وهو التطور الطبيعى والمنطقى لقضيـــة فلسطين فان تولى القيــادة الفلسطينية للعمل الفلسطينى هو محور الكفاح لاقامة دولة فلسطينية على أرض فلسطين .. وهذا هو مركز المرحلة الثـــانية من القضـــية الفلسطينية . .

* * *

يجدر بنا أن نناقش هنا مواقف الأطراف المختلفة فى العالم من الصهيونية وتحقيق أهدافها بأقامة دولة يهودية بفلسطين .. وهــذه المواقف هى :

أولا — السياسة البريطانية :

من الطبيعى أن تتحيز بريطانيا نحو الحركة الصهيونية ، لأن بريطانيا صاحبة وعد بلفور الداعى لاقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، كما أنها صاحبة الانتداب على فلسطين الذى اعترف بالصلات التاريخية التى تربط « الشعب » اليهودى بفلسطين — وهم ليسوا شعبا — ، واعترف بوكالة يهودية لأسداء المشورة الى ادارة فلسطين والتعـــاون معها — فى غيبة هيئة عربية — ، وأوجب تسهيل هجرة اليهود الــى فلسطين فى أحوال ملائمة ، الى جانب الاعتراف باللغة العبريـــة كلغـــة رسمية بفلسطين بجانب اللغتين العربية والانجليزية والأعتراف بالأعياد اليهودية كأيا عطلة رسمية رغم أن عدد اليهود فى فلسطين آنذاك لم يتجاوز ٧٪ من مجموع السكان [١٠] .

وقد كان وجود هربرت صمويل أحد دعاة الصهيونية المشهورين فى بريطانيا كأول مندوب سامى بريطانى فى فلسطين دليلا آخر على تحيـــز بريطانيا الى جانب الحركة الصهيونية حيث ألحق كثيرين من اليهــود كموظفين فى ادارة فلسطين ، الى جانب منح آلاف الدونمات من الأراضى الزراعية الحكومية للمهاجرين اليهود ، ومنح امتيازات اقتصـــادية لشخصيات وشركات يهودية تعمل فى فلسطين .

---

(١٠) د . صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

وقد فتحت بريطانيا أبواب فلسطين للمهاجرين اليهود بصورة كبيرة رغم التظاهر بتقييد الجرة اليهودية ، ومما يؤكد هذه الحقيقة أن عدد اليهود فى فلسطين عام ١٩٢٠ م كان ٥٠ ألف يهودى فقط ، بينما قفز عددهم عام ١٩٤٨ م الى ٧٠٠ ألف يهودى .

كما أن التحيز البريطانى نحو الحركة الصهيونية اتضح كذلك فى اقرار الجانب البريطانى بأن لليهود حقا مساويا للعرب ، وذلك عند مناقشة قضايا التوظف فى الادارة الحكومية أو فى امتلاك أراض فلسطينية أو فى البحث عن حل للمشكلة ، وذلك الحل الذى تمثل فى مشروع التقسيم الأول لفلسطين بين العرب واليهود والذى وضعته لجنة « بيل » عام ١٩٣٧ م .

كما كان الكتاب الأبيض الذى أصدرته بريطانيا بشأن مستقبل فلسطين عام ١٩٣٩ م دليلا على السياسة البريطانية المتحيزة ، فالكتاب مد أجل الانتداب عشر سنوات أخرى ، ويسمح بهجرة ٧٥ ألف يهودى مما يرفع نسبة اليهود ، كما أن من أهداف الكتاب الأبيض احداث الفرقة بين الزعماء العرب « المعتدلين » منهم الذين قبلوا الكتاب وطالبوا بالتحالف مع بريطانيا بشرط تنفيذ الكتاب بصورة جدية مثل نورى السعيد ؛ وبين الزعماء العرب « المتطرفين » الذين أدركوا نوايا بريطانيا الحقيقية من نشر هذا الكتاب [١١] .

ورغم غضب اليهود من الكتاب الأبيض البريطانى الا أنهم كانوا مدركين أن بريطانيا ليست جادة فى تنفيذه وخاصة مسألة تقييد الهجرة اليهودية الى فلسطين بعدد محدد ، ومن ثم اشتركت العصابات اليهودية فى فلسطين فى عمليات الحرب العالمية الثانية الى جانب انجلترا، بل تم تجنيد اليهود فى الجيش البريطانى ، واشتركت فرقة يهودية فى الميدان الأوروبى الى جانب بريطانيا .

---

(١١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

وعندما نجح حزب العمال البريطانى فى الانتخابات عام ١٩٤٥ م أخذ فى تطبيق ما سبق أن نادى به أثناء الاعداد للانتخابات بفتح باب الهجرة اليهودية الى فلسطين دون قيود ، ولعلنا نتذكر أن قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ م حدث فى عهد تحكم فيه بريطانيا حكومة حزب العمال برئاسة المستر « أتلى » ، الذى بادر بالاعتراف بقيام الدولة اليهودية الجديدة بعد اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية •

كما أن بريطانيا وافقت على مشروع قرار تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية الذى عرض على هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٧م، وأعلنت فى ١١ ديسمبر ١٩٤٧ م أنتهاء انتدابها على فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ م • وهنا استعد الطرفان العربى واليهودى للمواجهة لتحقيق أهدافه فى فلسطين فكانت حرب عام ١٩٤٨ م •

وهنا ينتهى الدور البريطانى المباشر فى فلسطين ليستمر التعاطف البريطانى مع دولة اسرائيل سواء على المستوى السياسى أو على المستوى الاقتصادى ، وما اشتراك اسرائيل مع انجلترا وفرنسا فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ الا رمز لهذا التعاطف الانجليزى نحو الصهيونية العالمية فى الوقت الذى تتوتر فيه العلاقات العربية البريطانية بسبب مواقف مصر وغيرها من الأقطار الراديكالية فى العالم العربى المعادية للاستعمار البريطانى فى المنطقة العربية وفى أفريقيا وآسيا •

وتمثل التعاطف البريطانى أيضا مع اسرائيل فى اثناء حرب عام ١٩٦٧ م واصدار القرار رقم ٢٤٢ عن هيئة الأمم المتحدة والذى صاغه « لورد كارادون » مندوب بريطانيا فى الأمم المتحدة ، وكان هذا القرار غير ملزم لاسرائيل بالانسحاب الفورى من الاراضى العربية (الضفة الغربية وغزة وسيناء ومرتفعات الجولان السورية) التى احتلتها بالعدوان [١٢] •

---

(١٢) د • رافت الشيخ : أمريكا والعلاقات الدولية ص ٢١٣ •

ثانيا — الهجرة اليهودية الى فلسطين :

ارتبطت عملية الهجرة اليهودية الى فلسطين بأهـداف الحركة الصهيونية العالمية فى السيطرة على أرض فلسطين وتحقيق المزيد من المهاجرين اليهود حتى يصبحوا أغلبية فى فلسطين فتقوم الدولة اليهودية كأول دولة عنصرية دينية فى التاريخ الحديث والمعاصر ، وكان وعـد بلفور وسيلة من الوسائل التى توسلت بها الحركة الصهيونية لتحقيق أهدافها ، وبالتالى ارتبطت ببريطانيا ، كما سبق أن أشرنا .

واهتمت الحركة الصهيونية بعمل الاغراءات أمام يهود أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية من أجل حث هؤلاء اليهود للهجرة الى فلسطين . بل وسعت الى انتشارهم فى القرى وامتلاك الأراضى الزراعية وشرائها أو اغتصابها من أملاك الدولة أو من أصحابها العرب ، ولذلك أقامت المدارس الخاصة بالتدريب على أعمال الزراعة .

ونجحت الوكالة اليهودية فى فلسطين والتى اكتمل تشكيلها عام ١٩٢٨ م فى الحصول من سلطات الانتداب على مساحات شاسعة من الأراضى غير المستغلة عن طريق المنح أو التأجير ، كما اشترت مساحات كبيرة من أراضى كبار الملاك العرب الذين استقروا فى سوريا ولبنـان ، وقضت مصالحهم الخاصة أن يبيعوا هذه الأراضى ليستثمروا أموالهم فى مشروعات أخرى [١٣] .

من هذه الأسر العربية التى باعت أراضيها لليهود فى فلسطين « آل سلام » حول بحيرة السولة ، واسرة « بيهم » و « سرسق » فى مرج بنى عامر حيث أقام اليهود فوقها ٥٦ مستعمرة ، وأسرة «تيان» فى الساحل وقضاء طولكرم ، وأسرة « الجزايرلى » واسرة « القوتلى » وأسرة « شمعة » .

(١٣) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٠٩ .

كذلك لجأ بعض كبار الملاك العرب الى توقيع عقود مشاركة مع اليهود لاستغلال بعض القرى كما فعل السيد الأحرب رئيس وزراء لبنان قبل الاستقلال ، وذلك فى بعض القرى الواقعة على الحدود بين لبنان وفلسطين ، ومن المتوقع أن يكون السكان المقيمون فى أرض فلسطين ذاتها أكثر ادراكا لخطورة انتقال ملكية الأرض ، ولذلك قاوموا الاغراء ما استطاعوا الا أنهم فى بعض الأحيان كانوا يضطرون الى البيع تحت ضائقة الدين أو تحت تأثير الاغراء بالأسعار المرتفعة (١٤) .

ويهدف المخطط الصهيونى فى فلسطين الى انشاء مستعمرات فى الارض التى يستولى عليها ويسعى الى التوسع بطرد السكان الأصليين أو المستأجرين للأرض التى اشترتها الوكالة اليهودية ، بحجة أن طرد السكان الأصليين أمر حتمى يتسنى اقامة دولة يهودية خالصة ، ولذلك طالب زعماء الصهيونية امثال « هرتزل » بتفريغ فلسطين من سكانها ونقلهم الى البلاد المجاورة (١٥) .

شجعت الوكالة اليهودية فى فلسطين على اقامة القرى الجماعية المعروفة « بالكيبوتز » ولاشك أن عضو « الكيبوتز » يغدو أشد حرصا على قريته من الفلاح العربى الذى كان يتبع نظام المخامسة وهو يخصص خمس المحصول أو ما يعادله للعامل فى الأرض وأربعة أخماس للمالك ، يضاف الى ذلك أن الوكالة نظمت حرسا خاصا للدفاع عن تلك القرى الجماعية ، ويتم تدريب هذا الحرس على أحدث الأساليب العسكرية ، وقد عرف باسم الهاجاناة التى صارت نواة الجيش الرسمى عند قيام اسرائيل (١٦) .

---

(١٥) د . عبد الوهاب المسيرى : الأيديولوجية الصهيونية ، القسم الثانى ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(١٦) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣١١ .

وعندما حدثت الحرب العالمية الثانية وتعرض الصهيونيون فى أوروبا لاضطهاد من الألمان النازيين زادت ضغوط الحركة الصهيونية على حكومات دول الحلفاء وخاصة انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية من أجل فتح باب الهجـرة اليهودية الى فلسطين ، وصـورت الدعاية الصهيونية الاضطهاد الألمانى النازى للصهيونيين بأنها حرب ابادة ضد اليهود اضطرت الكثيرين منهم للفرار من ألمانيا،ولكن الى أين؟ألا بد من وطن قومى ، وهنـا أعلنت الحركة الصهيونية ما عرف ببرنامج « بلتيمور Biltmore Program عام ١٩٤٢ الذى يدعو الى اغتصاب كل فلسطين لصالح الدولة الصهيونية المزمع أنشاؤها بموجب وعد بلفور[١٧]

وقد نجح اليهود فى فلسطين فى الاستحواذ شيئا فشيئا على المزيد من أرض العرب فى فلسطين عن طريق سفك الدماء العربية باستخدام أسـلوب الحرب النفسية ، ففى حادثة مذبحة « دير ياسين » التى ارتكبتها العصابات اليهودية فى فلسطين ضد سكان هذه القرية العربية ، على سبيل المثال حرصت الوكالة اليهودية حرصا شديدا على اطـلاع جميع الفلسطينيين على الحادث لتقوم من خلاله الوكالة بغرس الخوف والذعر فى نفوس العرب ، هذا الى جانب استخدام مكبرات الصوت والاذاعات الموجهة للعرب فى فلسطين لتحطيم معنوياتهم خاصة أثناء حرب عام ١٩٤٨ م [١٨] .

ومازات قضية المستوطنات الاسرائيلية فى الضفة الغربية وقطاع غزة تمثل صورة من صور الاغتصاب الاسرائيلى للأراض العربية وللحق العربى فى فلسطين ..

---

(١٨) د . عبد الوهاب المسيرى : المرجع السابق ص ٣٩٦ — ٣٩٨ .

(١٧) The American Assembly : The united states and the Middle East,p. 155.

ثالثا — رد الفعـل العـربى :

يقتضينا الأنصاف أن نذكر أن عرب فلسطين والأقطار العربيـة لم تستسلم المؤمرات الاستعمارية والصهيونية لسـلب فلسطين من أهلها ، ومهما كانت هناك من مواقف سلبية للبعض فلا يمكن أن نعتبرها ظاهرة عامة نقيس عليها الحكم على الأطراف العربية .

فعلى الجانب الفلسطينى لا يمكن انكار حركات النضال للشعب الفلسطينى سواء على المستوى السياسى أو مستوى العمل الفدائى العسكرى ، من ذلك مثلا قيام أول محاولة عربية لمقاومة الهجرة اليهودية الى فلسطين بالقوة ، حيث بادرت مجموعة من الفلسطينيين عام ١٩٢١م بالهجوم على أحد المعسكرات اليهودية حيث قتلوا ١٢ مهاجرا ، ولكـن سرعان ما تدخلت القوات البريطانية بأمر سلطات الانتداب مما ساعد على أن تهدأ الأحوال بسرعة (١٩) .

كما اتخذت بعض الهيئات الفلسطينية أسلوب المقاطعة مع سلطات الانتداب البريطانى أو اللجان التى وصلت الى فلسطين ، ورغم أن هذا الأسلوب كان اسلوبا احتجاجيا بسبب تحيز الأطراف الأخرى نحـو اليهود ، فانه لم يكن مفيدا للقضية العربية ، خاصة وأن العرب افتقدوا الوعى والتنظيم السياسى والعسكرى الذى يؤهلهم لمجابهة المخططات الصهيونية المتحالفة مع الاستعمار الأوربى .

ومن أمثلة ردود الفعل الفلسطينية ثورة عام ١٩٢٩ م التى نجمت عن موقف اليهود عند حائط المبكى بمدينـة القدس وتضييق الطريق الموصل الى المسجد الأقصى مما أدى الى الاشتباك بين العرب واليهود

---

(١٩) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٠٥ .

ليس فى مدينة القدس فحسب بل فى بعض المدن الفلسطينية الأخرى كمدينة الخليل ، وقد استخدمت سلطات الانتداب البريطانى القسوة الشديدة ضد العرب حتى أنهت الاشتبكات وأرسلت بريطانيا لجنة لتقص الحقائق فكتبت تقريرا ينصف العرب مما دفع الحكومة البريطانية الى اصدار كتاب أبيض فى أكتوبر عام ١٩٣٠ م يعطى للعرب الفلسطينيين الحق فى العودة الى الأراضى التى طردوا منها وتحديد الهجرة اليهودية أو ايقافها حسب احتياجات البلاد ، ولكن نتيجة لضغوط الحركة الصهيونية تراجعت بريطانيا عما جاء بكتابها الأبيض هذا •

وكانت هناك انتفاضة فلسطينية أخرى عام ١٩٣٦ م • كانت نتيجة لاستسلام السلطات البريطانية للضغوط الصهيونية بالغاء الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٠م ، وللتحيز الذى تتبعـــه سلطان الانتداب البريطانى فى فلسطين الى جانب اليهود ، وقد ساعد على حدوث هذه الانتفاضة تكوين حركة وطنية فلسطينية سياسية منظمة ضمت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين والذى انتخب رئيسا للمجلس الاسلامى الأعلى ، الى جانب ظهور أحزاب سياسية مثل حزب فلسطين العربية برئاسة جمال الحسينى، وحزب الدفاع الوطنى ويرأسه راغب النشاشينى ، وحزب الاستقلال برئاسة عونى عبد الهادى ، وحزب الاصلاح برئاسة حسين الخالدى ، وحزب الكتلة الوطنية برئاسة عبد اللطيف صلاح •

ومن الملاحظ أن هذه الاحزاب تشابهت برامجها من حيث الدعوة لانهاء الانتداب البريطانى ومقاومة أهداف الصهيونية العالمية فى فلسطين، وتقوية الارتباط مع الأقطار العربية الأخرى • وقد اندمجت هذه الأحزاب السياسية فى ٢٥ أبريل ١٩٣٦ م تحت اسم اللجنة العربية العليـــا ، وأشرفت على حركة الاضراب العام للعرب فى فلسطين ومقاومة سلطات الانتداب البريطانى والمهاجرين اليهود بصورة منظمة أزعجت السلطات البريطانية وجعلت بعض الملوك العرب يتدخلون لانهاء هذه الثورة على أمل أن تحقق بريطانيا مطالب العرب العادلة ••

ولكن بريطانيا عرضت مشروعا لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود وجزء يظل خاضعا للانتداب البريطانى ، مما أثار العرب الذين أوقفوا ثورة ١٩٣٦ م على أمل أن يقام فى البلاد نظام ديموقراطى يحل محل الانتداب يتمتع فيه اليهود بحقوق المواطن فى ظــل الدولة العربيــة الفلسطينية التى تتسامح مع الأقليات .. لذلك كان رد الفعل عنيفــا باستمرار الثورة ، وفى سبتمبر ١٩٣٧ م انعقــد مؤتمر برلمانى عربى بمصيف « بلودان » للاحتجاج على مشروع التقسيم البريطانى ، وأسهم متطوعون من الأقطار العربيــة فى الثــورة الفلسطينية التى هاجمت معسكرات الانجليز والمســتعمرات اليهودية ، وقد اتخذت ســلطات الانتداب اجراءات تعسفية انتقامية من العرب بحل اللجنة العربيــة العليا وحظر انشاء منظمات سياسية عربية ، وتقديم المساعدات للعصابات الصهيونية فى فلسطين (٢٠) .

لم تتوقف حركة النضال الفلسطينى ضد سلطات الانتداب البريطانى وضد المهاجرين اليهود ، واستمرت عمليات حرب العصابات العربية قائمة رغم تحالف اليهود والبريطانيين ، وجاء انشاء الهيئة العربية العليــا عام ١٩٤٥ م بديلا للجنة العربية العليا التى حلتها سلطات الانتداب عام ١٩٣٧ م ، لتقود النضال السياسى والمسلح فى فلسطين ، وان أخذ عليها اتباعها سياسة المقاطعة للجان الدولية بحجة أن النظر الى مساوة اليهود بالعرب نظرة خاطئة .

وفى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ شارك جيش المجاهدين الفلسطينيين فى العمليات العسكرية ضد اليهود داخل فلسطين ، ونجح هذا الجيش فى البداية فى جعل المدن والقرى العربية بمثابة وحدات عسكرية تدافع عن نفسها ، ولولا الخلافات العربية وموقف الملك عبد الله الراغب فى ضم الجــزء الغربى من فلسطين الى مملكته وخلافه مع أمين الحسينى رئيس الهيئة

---

(٢٠) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣١٥ ــ ٣٢٩ .

العربية العليا ، لأمكن افساد الخطط الصهيونية فى الاستيلاء على جزء كبير من فلسطين .

نتج عن حرب عام ١٩٤٨ م تشريد مئات الآلاف من الفلسطينيين لاجئين الى الضفة الغربية لنهر الأردن والى لبنان وسوريا والأردن ومصر ، وأدمج الملك عبد الله الضفة الغربية فى مملكته ليصبح اسمها المملكة الاردنية الهاشمية بدل مملكة شرقى الأردن ، وأدارت مصر قطاع غزة الى أن تتهيأ للفلسطينيين اقامة دولتهم ، كما نتج عن تلك الحرب انتهاء المقاومة المسلحة لشعب فلسطين منذ ذلك الوقت حتى انطلقت منظمة فتح تعلن الكفاح ضد اسرائيل فى عام ١٩٦٥ م .

وأما بالنسبة للموقف العربى وأعنى موقف الأقطار العربية من سياسة الانتداب البريطانى ومن ثورات الشعب الفلسطينى فقد تمثل فى جهود فردية حيث ساهمت معظم الدول العربية بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية وبالمتطوعين وبالتأييد السياسى من أجل دعم كفاح الشعب الفلسطينى ، حتى اذا تأسست جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ م كان هناك مواقف شبه موحدة ظهرت فى اجتماع الملوك والرؤساء العرب بانشاص بمصر فى مايو ١٩٤٦ م لمناقشة القضية ، واجتماع مندوبى الدول الأعضاء بالجامعة العربية فى عاليه بلبنان فى أكتوبر ١٩٤٧ م لبحث وسائل مقاومة قرار التقسيم باستخدام الفلسطينيين أنفسم مع متطوعين من الأقطار العربية واجتماع مجلس الجامعة العربية فى أبريل ١٩٤٨ الذى تقرر فيه أشراك الجيوش العربية الرسمية فى الحرب ضد اليهود .

ولا شك أن المواقف المتضاربة أثناء حرب ١٩٤٨ م بين أطماع الملك عبد الله فى فلسطين وتفاهمه مع اليهود ، وتأييد العراق له ، وعدم اهتمام المملكة العربية السعودية اهتماما جديا ، وضعف الموقف اللبنانى ، كان كل ذلك سببا فى نكبة عام ١٩٤٨ م .. ولعل تحمس مصر أثناء

اجتماع مجلس الجامعة العربية فى يناير ١٩٤٨ وقبل الحرب لاصدار قرار يمنع أية دولة عربية من ضم أى جزء من فلسطين ، وتشكيل حكومة فلسطينية يختارها الفلسطينيون بأنفسهم من أسباب الخلاف بين الملك عبد الله ومصر لدرجة اتخاذ اجراءات أردنية أثناء الحرب أحرجت موقف الجيش المصرى فى فلسطين •

رابعا ـ موقف هيئة الأمم المتحدة :

تمثل موقف الهيئة الدولية من القضية الفلسطينية فى مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧ وفى قرارات الهدنة لعام ١٩٤٩ م •

بالنسبة لمشروع التقسيم ، فبناء على قرار بريطانيا فى فبراير ١٩٤٧ م بنقل القضية الى الهيئة الدولية التى شكلت فى أبريل من نفس العام لجنة دولية لبحث القضية وتقديم تقرير فى سبتمبر من نفس العام ، وبالفعل عادت اللجنة الى نيويورك بعد رحلة الى فلسطين وزارت العواصم العربية وقدمت اقتراحين الى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى أكتوبر ١٩٤٧ الاقتراح الأول قدمه أغلبية أعضـــاء اللجنة ويقضى بتقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية مســـاحة الدولة العـــربية ١٢ ألف كيلو متر مربع ، وتبلغ مســـاحة الدولة اليهودية ١٤٫٢٠٠ ألف كيلو متر ، وأن تبقى القدس تحت اشراف الأمم المتحدة • أما نص تقرير أقلية اللجنة فيدعو الى اقامة حكومتين عربية ويهودية مســـتقلتين استقلالا ذاتيا ، وتتشـــكل منهما دولة اتحادية باســـم دولة فلســـطين •

وبينما رفض العرب كلا المشروعين لأنهما يسويان بين العرب أهل البلاد وبين اليهود الطارئين عليهـــا ، فقد وافق اليهود على اقتراح الأغلبية ، ورغم معارضة العرب فقد ضغطت الولايات المتحدة الأمريكية على بعض الدول الأعضاء فى الجمعية العامة للأمم المتحدة حتى أصدرت فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ قراراً بالاغلبية بالموافقة على تقسيم فلسطين •

عول العرب على مقاومة قرار التقسيم ، فكانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ التى حققت لليهود أكثر مما حدده قرار التقسيم . وعندما تحرج موقف اليهود فى الحرب تدخلت الأمم المتحـدة وفرضت على المتحاربين الهدنة الأولى بقرار فى ٢٩ مايو ١٩٤٨ م ، ثم عندما استؤنف القتال فى ٩ يوليو كانت خسائر كبيرة وظهرت أطماع واتفاقات الملك عبد الله مع اليهود ، وفى ١٥ يوليو صدر قرار من مجلس الأمن بوقف القتال بين العرب واليهود الى أجل غير مسمى فقبله الطرفان .

ونتيجة للمواقف السلبية للقوات الأردنية والعراقية من الهجمات اليهودية ضد المواقع المصرية فى صحراء النقب رغم قرار مجلس الأمن بايقاف اطلاق النار قبلت مصر عقد هدنة دائمة مع اسرائيل فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩ بجزيرة رودس ، وعقدت لبنان اتفاقا للهدنة مع اسرائيل فى ٢٣ مارس من نفس العام وفعلت الأردن نفس الشىء فى ٣ أبريل ، وأما سوريا ففعلت نفس الشىء فى ٢٠ يوليو من نفس العام .

خامسا ــ التأييد الأمريكى :

من الملاحظ أن انجلترا هى التى أوجدت اسرائيل الى العالم ولكن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى تكفلت ببقائها على قيد الحياة ، وأثناء الحرب العالمية الثانية نشطت الحركة الصهيونية فى تذكير الدول الكبرى بتنفيذ وعد بلفور مستخدمة ما لاقاه الصهيونيون من اضطهاد على يد هتلر فى ألمـانيا ، وكان الرأى العام الأمريكى يجهل تمـاما الوضع القائم فى فلسـطين وما يمكن أن يؤدى اليه تحقيق مطالب الصـهيونية من صراع ، وبدت أمام الرأى العـام الأمريكى دعاوى الصـهيونية وكأنها حجج قانونية وعادلة ، بينما كانت أقلية من الشعب الأمريكى الذين عاشـوا فى منطقة الشرق الأوسط يرفعون أصـوات الاحتجاج ضد الدعاوى الصهيونية [٢١] .

(٢١) Polk, w. : op. cit. , p. 300.

وقد مارست الحركة الصهيونية فى الولايات المتحدة ضغوطا شديدة بحكم سيطرتها على أجهزة الأعلام وعلى كثير من الشركات الرأسمالية ، من أجل دفع الحكومة الأمريكية الى تبنى وجهة نظرها وتحقيق مخططاتها نحو فلسطين • وقد تمكنت الحركة الصهيونية من الحصول على تأييد الحزبين الديمقراطى والجمهورى لأهدافها ، وذلك أثناء انتخابات عام ١٩٤٤ ، ووصل الأمر أن يطلب الرئيس الأمريكى « ترومان » فى عامى ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ من المستر « أتلى » Atlee رئيس الوزراء البريطانى أن يسمح على وجه السرعة بدخول مائة ألف لاجىء يهودى الى فلسطين فارين من أوروبا دون الأخذ فى الاعتبار مصالح العرب[٢٢] •

وقد لعبت الولايات المتحدة الأمريكية فى نوفمبر ١٩٤٧ دورا كبيرا فى تحقيق أغلبية ثلثى أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة الى جانب مشروع تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، ولكن الحكومة الأمريكية لم تكن مستعدة لامداد هيئـة الأمم المتحدة بالقوة العسكرية اللازمة لتنفيذ قرار التقسيم لأن مشاركتها فى معارك الحرب العالمية الثانية قد استنزف قوتها العسكرية ولأنه من الصعب فى رأى السـياسيين الأمريكيين الحصول على موافقة الكونجرس على ارسال قوات أمريكية الى فلسطين[٢٣] •

ومع اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بقيام دولة اسرائيل ، دعت الى تشكيل لجنة دولية للتوفيق بين العرب واليهود فى فلسطين ، وتكونت اللجنة فى ديسمبر ١٩٤٨ من مندوبين عن كل من فرنسـا والولايات المتحدة الأمريكية وتركيا ، ولم تستطع هـذه اللجنة عمل شىء فى الوقت الذى اندلعت فيه الحرب بين عصابات الصهيونية من ناحية والعرب من ناحية أخرى •

(٢٢) The American Assembly, op. cit., p. 155.

(٢٣) Polk, W., op. cit., P. 2 — 64.

ونتيجة للمذابح التى ارتكبتها العصابات الصهيونية ضد العرب فى فلسطين فر كثيرون من نساء وشيوخ وأطفال من العرب الفلسطينيين ولجأوا الى الدول العربية المحيطة بفلسطين والى الضفة الغربية لنهر الأردن التى صارت تحت الادارة الأردنية والى قطاع غزة التى صارت تحت الادارة المصرية ، وعاش هؤلاء اللاجئون فى مخيمات تنقصها وسائل العيش الانسانى ، وهنا تبنت الولايات المتحدة فكرة تكوين هيئة تابعة للأمم المتحدة تعنى باغاثة وتوطين اللاجئين الفلسطينيين الذين طردتهم اسرائيل من أراضيهم بعد حرب عام ١٩٤٨ م • كما سارعت الولايات المتحدة بالاشتراك مع انجلترا وفرنسا باصدار ما عرف بالتصريح الثلاثى فى ٢٥ مايو ١٩٥٠ م بضمان حدود دول الشرق الأوسط ، وهذا معناه ضمان حدود اسرائيل وتهديد للعرب اذا حاولوا مهاجمتها (٣٤) •

وبينما ساهمت الولايات المتحدة بالأموال القليلة فى وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين أمدت اسرائيل بالمساعدات الاقتصادية والتكنولوجية والمالية العامة والخاصة التى شكلت ما يوازى ٣٥٪ من المساعدات التى تصل اسرائيل ، وبين عامى ١٩٤٨ و ١٩٦٢ م بلغت المساعدات الأمريكية لاسرائيل ٥ر١ بليون دولار بحيث كان نصيب كل اسرائيلى رجلا كان أو امرأة أو طفلا من المليونين ١٢٠٠ دولار (٣٥) •

ولكن أمام قيام حركات وطنية وقومية فى بعض الأقطار العربية كالوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ م وثورة العراق عام ١٩٥٨ أيضا ، وثورة اليمن عام ١٩٦٢ م ، واستقلال الجزائر عام ١٩٦٢ م زدات الولايات المتحدة الأمريكية من تدعيمها لاسرائيل من منطلق أن قوة

---

(٣٤) د . رأفت الشيخ : أمريكا .. ص ١٧٢ .

(٣٥) The American Assembly. op. cit. , p. 156 .

اسرائيل فى منطقة الشرق الاوسط تقلل من فعاليات الامكانيات العربية وتضعف من قوة العرب حيث ينصرف العرب عن تنمية مجتمعاتهم الى الدفاع عن أنفسهم ضد الخطر الاسرائيلى •

وعلى هــذا فيمكن القول بأن الولايات المتحدة ساهمت بشكل أو بآخر فى عدوان اسرائيل على العرب فى يونيو ١٩٦٧ م وظلت تؤيد مواقفها وتعارض قرارات الأمم المتحدة التى تدعو اسرائيل الى اعادة الفلسطينيين الى ديارهم وأراضيهم ، بل ان القرار رقم ٢٤٢ الذى أنهى عدوان اسرائيل عام ١٩٦٧ م والذى صدر عن هيئة الأمم المتحدة اعتبر أهل فلسطين مجرد لاجئين ، ولم تعترف الولايات المتحدة بفكرة اقامة دولة فلسطينية ، بل ولم توافق على اجلاء اسرائيل حتى من الأراضى العربية المصرية والسورية والأردنية التى احتلتها أثناء ذلك العدوان •

ولكن هــذا الموقف الأمريكى من القضية الفلسطيبية طرأ عليــه تغيير بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ م ، فأمكن أن يشارك مندوب فلسطينى فى منظمة الأمم المتحدة ، وصارت هناك اتصالات بين الرسميين الأمريكيين وبين مسئولين من منظمة التحرير الفلسطينية • وخلال شــهر مارس ١٩٧٧ م صدر تصريح من الرئيس الأمريكى « جيمى كارتر » يعترف فيه لأول مرة بأنه من حق الفلسطينيين أن يكون لهم وطن قومى فى فلســطين[٢٦] •

* * *

(٢٦) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٤ — ١٧٥ .

الباب الرابع

مرحلة اليقظة العربية والاسلامية الثانية

- مقـــدمة ..
- الفصل التاسع : استقلال الأقطار العربية والاسلامية .
- الفصل العاشر : قيام دول عربية واسلامية .
- الفصل الحادى عشر : جامعة الدول العربية .
- الفصل الثانى عشر : منظمة المؤتمر الاسلامى .

مقـــدمة

شهد تاريخ العرب الحديث والمعاصر يقظة ثانية بدأت بعد الحرب الحرب العالمية الأولى ومازالت مستمرة تقاوم عوامل الضعف فى الداخل وهجمات الأعداء من الخارج ، وبذلك تصدق نظرية ابن خلدون بأن مرحلة التدهور والأنهيار التى تمر بها الدول لا تؤدى الى الفناء المطلق كقاعدة ثابتة بل هناك من الدول ذات الحضارة العريقة من تأخذ من مرحلة الهرم والشيخوخة بداية لمرحلة التحضر والقوة ..

كما يصـدق ما ذكره المؤرخون من أن لكل حدث تاريخى بداية وذروة ونهاية ، ونهاية الحدث بداية لحدث آخر وهكذا ، ومن ثم نشهد حركة التاريخ فى الوطن العربى مستمرة لا تتوقف بل تتميز بالحيوية حيث تأخذ من أية انتكاسة دافعا للتقدم وتجاوز التخلف .

وفى هـذا الاطار سارت حركة التاريخ بعد الحرب العالمية الأولى لتسجل حدوث استقلال الأقطار العربية بعد كفاح ضد الاستعمار ، كما سجلت حركة التاريخ ظهور أقطار عربية واسـلامية جديدة مثل المملكة العربية السعودية واليمن والباكستان وأندونيسيا .

كما كان مسار التاريخ العربى الحديث والمعاصر مسجلا تحقيقا للفكرة العربية وتحقيقا لمفهوم القومية العربية فى شكل جامعة تضم الأقطار العربية فى تنظيم اقليمى يمثل الحد الأدنى من الوحدة العربية التى تطلع اليها جميع العرب ، ومن خلال الجامعة العربية ظهرت عدة مشروعات وحدوية للأمل العربى بتحقيق الوحدة العربية الشاملة .

وسجل مسار التاريخ كذلك تحقيقا ليقظة اسلامية تحدت الأحداث والعوامل المعوقة لهذه اليقظة ، ومن هنا ظهرت منظمة المؤتمر الاسلامى

التى تضم فى عضويتها جميع الأقطار الاســلامية استجابة لمشاعر المسلمين فى قارات الأرض الداعية للوحدة الاسلامية ٠

وفى الصفحات التالية تسجيل لمسار التاريخ الحديث والمعاصر للأقطار العربية والاسلامية تظهر فيه عوامل اليقظة التى نتمنى لهــا الاستمرار مع الازدهار وليس هذا على الله ببعيد ٠

* * *

الفصل التاسع

استقلال الأقطار العربية والاسلامية

- مقـــدمة ..
- الاستقلال عن الاستعمار البريطانى .
- الاستقلال عن الاستعمار الفرنسى .
- الاستقلال عن الاستعمار الايطالى .

مقـــــدمة

خضعت أقطار الوطن العربى فى مرحلة التدهور والانهيار لاستعمار أوروبى استغلالى فى القرن التاسع عشر كما رأينا ، وان كان هــذا الخضـــوع لم يحدث بســـهولة بل حدثت المقاومة العـــربية للوجود الاستعمارى منذ اليـــوم الأول الذى وطئت فيه أقدام قوات الاحتـــلال الأرض العـــربية •

وقد شهد مسار التاريخ بعد الحرب العالمية الأولى بصفة خاصـــة نضالا وطنيا عربيا ضد الاستعمار الأوروبى ، من ذلك كفاح الشعب المصرى والشعب السودانى والشعب العراقى والشعب الأردنى والشعب الصومالى والشعب اليمنى ضد الاستعمار البريطانى حتى حصلت هذه الشعوب على الاستقلال لأقطارها ••

كما كافح الشعب العربى فى ســـوريا والشعب العربى فى لبنـــان والشعب العربى فى المغرب والشعب العربى فى تونس والشعب العربى فى الجزائر والشعب العربى فى موريتانيا والشعب العربى فى جيبوتى حتى حصلت هـــذه الشعوب على اســـتقلال أقطارها من الاستعمار الفرنسى •

وناضل الشعب العربى فى ليبيا والشعب العربى فى الصـــومال ضد الاستعمار الايطالى حتى حصلت ليبيا على الاستقلال فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ وحصلت الصومال على الاستقلال فى عام ١٩٦٠ م •

واذا كانت خريطة الوطن العربى السياسية قد ظهرت بصورتها الكاملة الحالية بعد الحرب العالمية الثانية بحيث ظهرت ٢٢ دولة عربية هى مجموع أعضاء الجامعة العربية ، فان ذلك ناتج عن تعدد الاستعمار

الأوروبى فى الوطن العربى بين استعمار انجليزى واستعمار فرنسى واستعمار ايطالى ، كما يرجع هـذا التفتت العربى أيضا الى عدم التنسيق بين حركات الاستقلال بين الأقطار العربية •

ان غياب التنسيق أثناء النضـال ضد الاستعمار الأوروبى فى الوطن العربى الى جانب تأخر وتقدم حركات الاستقلال فى الأقطار العربية زمنيا يفسر لنا لمـاذا لم تتحقق الوحدة العربية أثناء الكفاح ضد الاستعمار ، كما حدث بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية حيث نسقت الحركات الوطنية فى الثلاث عشرة مستعمرة بريطانية ضد الوجود البريطانى كانت نتيجته ظهور الدولة الأمريكية الواحدة •

* * *

الاستقلال عن الاستعمار البريطانى

تحققت السيطرة البريطانية فى فترة التدهور المشار اليها سابقا فى بعض الأقطـار العربية مثل مصر والسـودان والعراق والأردن والصومال وعدن ، ومن هنا ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى بصفة أساسية حركات وطنية فى هـذه الأقطار عملت بالكفـاح على انهاء السـيطرة الاستعمارية البريطانية ، وبذلك ظهرت فى النهاية هـذه الأقطار ذات سـيادة ومستقلة لتؤكد ارادة المواطنين العرب وتصميمهم على نيل حقوقهم .

أولا — مصر والسودان :

لا يمكن معالجة تاريخ السودان بعيدا عن تاريخ مصر حيث كما ربط نهر النيل بين القطرين طبيعيا وارتبط السكان فى شمال وادى النيل مع السكان فى جنوب الوادى بروابط اجتماعية قوية ، فان القطرين تعرضا طوال تاريخهما الحديث والمعاصر لعوامل واحدة سـواء على المستوى الداخلى أو على المستوى الخارجى .

فاذا أخذنا الثورة العرابية فى مصر كمثل على مقـاومة الشعب المصرى ضد التدخل الأجنبى الأوروبى ، فان الثورة المهدية فى السودان كانت تعبيرا عن رفض السودانيين لمساوىء الحكم وأدواته الأجنبيـة الأوروبية ، أى أن الشعبين المصرى والسودانى تعرضا لعوامل التدخل الأوروبى بما يحقق مصالح المستعمرين ويحرم المواطنين من حقوقهم المشروعة ..

ولذلك لا نعجب أن يتطلع أهل شمال الوادى فى مصر الى زعيم ينقذهم مما هم فيه فوجدوه فى صورة زعيم عسكرى هو أحمد عرابى

ويتطلع أهل جنوب الوادى فى السودان الى زعيم يخلصهم من المساوىء التى يتعرضون لها فوجدوه فى صورة زعيم دينى هو محمد أحمد بن عبد الله المهدى ٠

(ا) مصر :

أعقب الثورة العرابية فى مصر حدوث الاحتـــلال البريطانى ، ولكن المصريين لم يستسلموا وبقيت الجذوة الوطنية موجودة فى نفس كل مصرى ليحملها من جاء بعد أحمد عرابى من قادة ، وأدرك الشعب المصرى أن فى مقدرته الاستمرار فى تبنى المطالب الوطنية التى سبق ونادى بها أحمد عرابى ٠

وليس أدل على صدق ما نقول من كلمات عبـــد الله النديم فى مذكراته التى سجلها بعـــد عشر سنوات من بدء الاحتلال البريطانى موجها حديثه لأحمد عرابى المنفى فى سيلان[1] ، وادرس أحوال مصر فى المدرسة التى أسستها واحفظ تاريخ الأمة التى أسستها ، فما كنا فيه كان مدرسة ابتدائية ، ونحن الآن فى التجهيزية ، وسندخل ان شاء الله المدرسة العليـــا ٠٠٠ الخ ٠

وقد صدقت نبوءة عبد الله النديم ، فقد تولى مصطفى كامل زعامة الحركة الوطنية المصرية فى التسعينات من القرن التاسع عشر حتى وفاته فى فبراير عام ١٩٠٨ م ، بعد أن نجحت سلطات الاحتلال البريطانى فى السيطرة على مقدرات الأمور فى مصر بصورة أشاعت روح اليأس فى نفوس المواطنين حتى كادوا لا يرون فكاكا من هـــذه السيطرة ، الى أن جاءت خطب ومقالات مصطفى كامل الموجهة الى عواطف ومشاعر المصريين لتجدد الشعور الوطنى فى مصر ٠

---

(١) بلغت مدة النفى التى قضاها أحمد عابى فى سيلان ١٩ سنة انتهت عام ١٩٠١ م ٠

وكانت سياسة مصطفى كامل ومن بعده محمد فريد تهدف الى تحقيق ثلاث غايات هى :

١ — كراهية الاحتلال البريطانى ورفض احتماله والسكوت عليه واعتباره بلاء وكارثة وعارا .

٢ — اقناع المصريين بأن اجلاء الاحتلال البريطانى عن مصر ممكن ومن هنا جاءت صيحة مصطفى كامل : لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحيــاة .

٣ — أن مصر عظيمــة وجليلة ورائعة وجديرة بكل حب وولاء ووفاء[٢] .

ورغم نجاح الاحتلال البريطانى بعــد وفاة مصطفى كامل فى التضييق على الحركة الوطنية المصرية مما أدى الى نفى محمد فريد الى أوروبا عام ١٩١٢ م الى أن توفى ببرلين فى ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩ م ، واعلان الحماية البريطانية رسميا وعلنا فى ١٨ ديسمبر عام ١٩١٤ م بحجة وجود حالة الحرب الناتجة عن دخول تركيا الحرب ضد دول الوفاق والى جانب ألمــانيا والنمسا ، وبذلك تحولت الحماية المقنعة القائمة منذ الاحتلال البريطانى لمصر الى حماية معلنة[٣] .

رغم ذلك فقد تحمل الشعب المصرى تحت نظام الحماية الكثير من الويلات مما دفعه الى رد الفعل على الاجراءات البريطانية ، فقامت مظاهرات طلابية وحدثت محاولات متكررة لاغتيال السلطان حسين كامل ، وحدوث مظاهرة الرديف أمام قصر عابدين فى ٢٩ يناير عام ١٩١٦ م ، واعتذار الأمير كمال الدين حسين عن قبول العرش الذى خلا بوفاة والده

---

(٢) فتحى رضوان : مصطفى كامل ص ٢٩٠ .

(٣) Chirol, V. : The Egyptian Problem, p. 296.

فى ٩ أكتوبر عام ١٩١٧ م ، مما حدا بالسلطات البريطانية الى اختيار أحمد فؤاد سلطانا على مصر يوم ١٠ أكتوبر فى ظل الحماية البريطانية ٠٠

واذا كان التحدى هو اعلان الحماية البريطانية على مصر والاجراءات التى اتخذتها سلطات الاحتلال البريطانى فقد استجاب الشعب المصرى بردود فعل قوية أشرنا اليها كانت قمتها انفجاره فى ثورة عارمة ضد كل ما هو بريطانى على أرض مصر فى مارس وأبريل عام ١٩١٩ م ، ثم استمرت حتى ديسمبر من نفس العام وشملت كل مدن مصر وقراها كانت مفاجأة مذهلة للبريطانيين لأن المصريين ظلوا طوال سنوات الحرب العالمية الأولى مسالمين وساعدوا البريطانيين حتى أحرزوا النصر[٤] ٠

وجاءت استجابة الاحتلال البريطانى للموقف الوطنى المصرى فى عام ١٩١٩ صدور ما عرف باسم تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ م الذى كانت أهم ايجابياته :

١ ــ الغاء الحماية البريطانية على مصر ٠

٢ ــ الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ٠

٣ ــ اعادة وزارة الخارجية ٠

٤ ــ انشـــاء برلمـــان ٠

٥ ــ تأييد حكومة دستورية ٠

٦ ــ الغاء الأحكام العسكرية[٥] ٠

ومع هــذه الايجابيات لتصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ م فقد كانت هناك ما عرف باسم التحفظات الأربعة والتى تمثلت فى :

(أ) ضمان مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر ٠

(٤) Op. Cit., p. 297.

(٥) د ٠ عبد العظيم رمضان : الجيش المصرى فى السياسة ص ١٤٧ ٠

(ب) الدفاع عن مصر ضد كل أنواع العدوان أو التدخل مباشرا أو غير مباشر .

(جـ) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

(د) السـودان .

وكان معنى هـذه التحفظات الأربعة الحقيقى أنه لن يكون هناك استقلال بالمعنى الصحيح سـواء فى الشئون الداخلية أو الخارجية ، وكانت هـذه التحفظات موضع مفاوضات متوالية ومضنية خلال الثلاثين عاما التالية . وان كان التحفظ الثالث قد تم الغاؤه بعد معاهدة ١٩٣٦ م وعقد مؤتمر مونترو بسويسرا عام ١٩٣٧ م . أى أن هذه التحفظات كانت التحدى الذى واجه الحركة الوطنية المصرية[٦] .

استمر التحدى بين الحركة الوطنية المصرية والسلطات البريطانية بعد اصدار دستور عام ١٩٢٣ وتشكيل أول وزارة دستورية هى وزارة سـعد زغلول فى أول عام ١٩٢٤ م بعد أن فاز حزبه ـ حزب الوفد ـ فى الانتخاب ، ثم جاءت حادثة مصرع السردار السيرلى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم عام السـودان فى ١٩ نوفمبر عام ١٩٢٤ م لتجهض أول وزارة دستورية فيستقيل سـعد زغلول لتظل مصر تحكم بواسطة وزارات لا تحصل على الأغلبية البرلمـانية حتى عقدت معاهدة عام ١٩٣٦ م .

ورغم أن معاهدة عام ١٩٣٦ م بين مصر وبريطانيا أكدت المطالب المصرية بالتخلص من سيطرة وتدخل الموظفين البريطانيين فى شـئون الجيش والبوليس المصرى ومن ادارة الأمن العام ، وأن مسـئولية حماية أرواح وممتلكات الأجانب تقع على عاتق الحكومة المصرية وحدها

---

(٦) Holt, p. M. : Egypt and the Fertile Crescent, P. 298.

دون سواها ، وأكدت أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة وأصبح المندوب السامى البريطانى فى مصر سفيرا ، فان بقاء قوات الاحتلال البريطانى فى مصر واستمرار بقاء السودان خاضعا لاتفاقية الحكم الثنائى كـان التحدى الذى أوجب على الحركة الوطنية المصرية أن تواجهه •

وقد ناضلت الحركة الوطنية المصرية من أجل جلاء الاحتـلال البريطانى عن أرض مصر وشهدت هيئـة الأمم المتحدة نضالا وطنيا سياسيا ، كما شهدت منطقة قناة السويس والمدن المصرية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ومن عام ١٩٤٥ م مظاهرات تهتف بالجلاء الكامل عن مصر والسودان ، كما شارك الشـباب فى عمليـات فدائية ضد معسكرات البريطانيين فى منطقة قناة السويس من عام ١٩٥١ م وحتى عقدت معاهدة بين مصر وبريطانيا فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ م نصت على جلاء القوات البريطانية جلاء تاما عن مصر خلال فترة عشرين شهرا ، وتحتفل مصر فى ١٨ يونيو من كل عام بذكرى جلاء القوات البريطانية الذى حدث فى ١٨ يونيو عام ١٩٥٦ م •

(ب) السـودان :

فرضت على شطرى وادى النيل مصر والسودان ما عرف باتفاقية الحكم الثنائى التى قلبت اسم السودان الى السودان المصرى البريطانى ، بخضوعه لنظام فى الحكم ليس له سوابق فى تاريخ الفكر السياسى ، وقد ظل السودان خاضعا لهذا النظام منـذ عام ١٨٩٩ م كان للبريطانيين السـلطة العليا فى تدبير أمور ذلك القطر حيث تولى الحاكم العـام البريطانى دائما السيطرة المطلقة دون مصر •

ورغم محاولات البريطانيين فى كبت الحركة الوطنية السودانية بالعنف ، ورغم نجاحهم فى خلق طبقة من المشايخ والنظار والأعيان على ولاء تام للسلطات البريطانية وكانت من أهم أسلحة بريطانيا للقضاء

على الحركة الوطنية السودانية ، فان هــذه الحركة اشتدت فيما بين عامى ١٩١٩ و ١٩٢٤م[٧] ، متأثرة بأحداث مصر بدءا بثورة عام ١٩١٩م .

وكان تطبيق اتفاقية الحكم الثنائى فى السودان هو التحدى الذى استجاب له الســودانيون بحركات ثورية فردية وجماعية من أمثلتها حركات أنصار المهدية عام ١٨٩٩ ، وحركة على عبد الكريم بأم درمان أول عام ١٩٠٠ وكان من أنصار المهدية ، وحركة الشريف محمد الأمين البرناوى الذى أعلن نفسه مهديا بجبال تقلى بشرق كردفان فى أبريل عام ١٩٠٣ م ، وحركة « محمد ود آدم » عام ١٩٠٤ م الذى ادعى انه النبى عيسى ، وثورة « تالودى » عام ١٩٠٦ م التى تقع فى جبال النوبا جنوب كردفان بزعامة « أحمد المدير » وحركة « موسى أحمد » من قبيلة « بورنو » عام ١٩٠٦ م أيضا ، وثورة « عبد القادر محمد امام ود حبوبة » من قبيلة الحلاوين ومن أكثر أنصار المهدى قوة فى ثورته ، وذلك عام ١٩٠٨ م ، وحركات أخرى كانت فى أغلبها ذات صبغة دينية مثل حركة « محمد الراضى » ، وحركة « الشريف مختار الهاشمى » عام ١٩١٠ م ، ثم كانت ثورة « على دينار » فى دارفور أحد رجال المهدية البارزين فى عام ١٩١٥ م حتى قتل عام ١٩١٦ م .

وكانت الحركة الوطنية السودانية الجماعية متأثرة بمثيلتها فى مصر ، حيث ظهر تعبير وحدة وادى النيل فى الشارع السودانى كما هو فى الشارع المصرى بمفهوم جديد لا يعيد السودان الى ما كان عليه حاله قبل الثورة المهدية بمعنى اســتقلال كل من مصر والسودان عن السيطرة البريطانية ومن ثم تحقيق وحدة بين شطرى وادى النيــل المســتقلين تربطهما علاقات قديمة وحديثة معا قوامها الجنس والدين واللغــة والتاريخ المشترك والترابط الاجتماعى .

---

(٧) د . يونان لبيب : السودان فى عهــد الحكم الثنائى الاول ١٨٩٩ — ١٩٢٤ م ص ١٧٦ .

وقد شاركت الوحدات العسكرية السودانية فى الثورة على السيطرة البريطانية ، وقد اتهمت السلطات البريطانية الضباط والجنود المصريين العاملين فى السودان بأنهم وراء ثورات الضباط والجنود السودانيين ، من أمثلة هـذه الثورات عصيان الأورطة الرابعة عشرة السودانية المعسكرة فى أى درمان ورفضها الرضوخ لأوامر الكولونيل « ماكسويل » قائد القوات المعسكرة فى الخرطوم ، وذلك فى يناير عام ١٩٠٠ م وما بعده [٨] •

كما كان لأحداث ثورة عام ١٩١٩ م فى مصر تأثيراتها على الحركة الوطنية السودانية فشهدت مدن السودان المظاهرات التى طالبت بالاستقلال التام لمصر والسودان ، وشارك فيها الضباط المصريون ، ورجال السكك الحديدية وموظفو البريد والبرق وغيرهم ، الى جانب الضباط والمثقفين والطلاب السودانيين •

ثم أخذت الجمعيات السرية السودانية دورها فى الحركة الوطنية للاستجابة للتحدى ضد السيطرة البريطانية الغاشمة ، من أمثلة هـذه الجمعيات « جمعية الاتحاد السودانى » التى ظهرت للوجود عام ١٩٢١م وتشكلت من أعضاء ينتسبون الى كلية غوردون وخريجى المدارس وبعض الشباب العاملين فى مجالات الأعمال الحرة الذين كانوا يجتمعون فى نادى الخريجين أى خريجى كلية غوردون بأم درمان ، وكان شعار الجمعية « السودان للسودانيين والمصريين أولى بالمعروف »[٩] •

وتعددت الجمعيات السرية الوطنية فى السودان مثل جمعية الأعمال المسلحة ، وجمعية العلماء ، واليد السوداء ، واليد البيضاء ، وجمعية العمل على خلاص البلاد ، وجمعية الدفاع عن الدين فى

(٨) مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ٤٤٢ •

(٩) نفس المرجع ص ٤٨٨ •

السودان ، وكل هـذه الجمعيات استخدمت سلاح المنشورات والخطب والمقالات الصحفية والمظاهرات وكلها تهاجم السيطرة البريطانية وتدعو للتعاون مع الحركة الوطنية المصرية ضد العدو المشترك •

وكانت أشهر الحركات الوطنية السودانية جمعيه اللواء الأبيض برئاسة الضابط السودانى على عبد اللطيف ، وجمعية الاتحاد القبلى عام ١٩٢١ م • وجمعية الدفاع عن السودان . وجمعية اتحاد السودان، وكانت هذه الجمعيات وعلى رأسها اللواء الأبيض تسعى الى انهـاء السيطرة البريطانية وتحقيق وحدة وادى النيل مع مصر وكان لهـذه الجمعية أنصار بين كل فئات الشعب السودانى والشعب المصرى [١٠]•

كما ظهرت جمعيات وطنيه سودانية مصاحبة لجمعية اللواء الأبيض ومتعاونة معها ومتفقة واياها فى برامجها ، مثل جمعية قبيلة الجعليين التى تمثل اتحاد قبليا ، وجمعية العمال التى تضم الحرفيين ، وجمعية وحـدة السودان ، هذا الى جانب الثورات الوطنية العارمة ضد البريطانيـين خلال عام ١٩٢٤ م وشارك فيها الوطنيون فى كل مدن السودان وكـان أخطرها ثورة طلاب المدرسة الحربية بالخرطوم فى أغسطس من نفس العـام •

ورغم أن السلطات البريطانية انتهزت فرصة حادثة مصر السردار السيرلى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان فى ١٩ نوفمبر عام ١٩٢٤ م وحاولت وأد الحركة الوطنية السودانية فقـد استجاب السودانيون لهذا التحدى بتنظيم صفوفهم من جديد من خـلال ما عرف باسم نادى الخريجين الذى لعب دورا بارزا فى الحركة الوطنيـة السودانية فى الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين حتى تحقق للسودان استقلاله • وقد اقتنع رئيس الوزراء المصرى على ماهر فى

---

(١٠) ضرار صالح : تاريخ السودان الحديث ص ٢٤٦ •

زيارته للسودان أواخر فبراير ١٩٤٠ م بأن مؤتمر الخريجين يمثل المعارضة للادارة البريطانية [11] •

ثم ظهرت أحزاب وطنية تتطلع الى مصر ابتداء من عام ١٩٤٢ مثل حزب الأشقاء الذى ضم قيادة مؤتمر الخريجين ، وحزب الاتحاديين ، وحزب الأحرار وحزب وحدة وادى النيل ، فى مقابل حزب الأمة تحت رعاية عبد الرحمن المهدى المطالب باستقلال السودان عن مصر وبريطانيا، وظل هذا الوضع قائما حتى استطاعت الحكومة المصرية بعد ثورة ١٩٥٢م الحصول على حق تقرير المصير للسودانيين من بريطانيا بموجب اتفاقية ١٢ فبراير عام ١٩٥٣ م ، والتى أدت الى اعلان استقلال السودان نهائيا واعتباره دولة مستقلة ذات سيادة فى أول يناير عام ١٩٥٦ م •

ثانيا — العراق :

انتهى الحكم التركى فى العراق بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، وقد حرصت بريطانيا على أن تؤكد فى اتفاق « سايكس — بيكو » مع فرنسا عام ١٩١٦ م على دخول العراق تحت انتدابها لموقع العراق الهام بين الشرق والغرب ولاكتشاف البترول فى أراضيه •

وقد وقع العراق فى يد القوات البريطانية عام ١٩١٧ م ، وقد حكم البريطانيون العراق حكما مباشرا متناسين وعودهم بتحرير العراق، ووعدوا الأكراد بنوع من الحكم الذاتى ومنحوا شيوخ القبائل العربية سلطات أكثر اتساعا •

ونتيجة لفرض الانتداب الانجليزى على العراق ثار العراقيون عام ١٩٢٠ م ثورة عنيفة كانت نتيجتها قيام حكومة ملكية برلمانية دستورية تعمل فى اطار الانتداب البريطانى على العراق • وعين فيصل ابن الشريف حسين ملكا على العراق •

---

(11) Holt, P. M. : A Modern History of the Sudan, P. 141.

ولكن الوطنيين العراقيين ساءهم أسلوب البريطانيين فى معاملة العراقيين ولذلك استمروا يطالبون بريطانيا بالاستقلال الكامل ، وقــد نجحت الضغوط الوطنية فى التمسك بأقليم الموصل وانهاء الادعاءات التركية على الأقليم وجاء ذلك بتدعيم من بريطانيا مما فتح الباب أمام كل من العراقيين والبريطانيين لتوقيع معاهدة عام ١٩٣٠ م التى قننت وضع الانجليز فى العراق •

ولكن التيار الوطنى لم يرض بشروط معاهدة ١٩٣٠ م ومن هنــا قاد « بكر صدقى » أحد ضباط الجيش العراقى انقلابا على الحكومة العراقية الموالية للانجليز وعلى الزعامات العراقية التقليدية التى رحبت بالمعاهدة العراقية البريطانية وكان ذلك عام١٩٣٦م،الا أنه تم اغتيال قائد الانقلاب وعاد الزعيم الســياسى التقليدى لحكم العراق وهو نورى السعيد •

وعندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية تبنى التيار الوطنى فكــرة استغلال اشتراك بريطانيا فى الحرب للضغط عليها لكى تمنح العراق استقلالا تاما ، وقاد هذا التيار رشيد الكيلانى فى مواجهة الانجليز ومواجهة الزعماء التقليديين أمثال نورى السعيد الداعين للوقوف الى جانب بريطانيا حتى النصر ثم المطالبة بعد ذلك بالاستقلال •

وقد نجح رشيد عالى الكيلانى فى تولى مسئولية الوزارة واتخذ سياسة متشددة ازاء الوجود البريطانى فى العراق ، وتحالف معه الجيش العراقى عندما قاد أربعة من الضباط العراقيين — عرفوا بالمربع الذهبى— انقلابا فى أول ابريل ١٩٤١ م حيث فر من البلاد الوصى على العرش الأمير عبد الاله كما فر الزعيم التقليدى نورى السعيد •

وتطلع هذا التيار الوطنى بزعامة رشيد عالى الكيلانى الى ألمانيا لكى تقف بجانب العراق ضد التهديدات البريطانية ، ولكن الألمــان لم

يتحركوا الا بعد الصدام الذى أنهى حركة رشيد عالى الكيلانى وأعـاد نورى السعيد والأمير عبد الاله الى مكانهما بالعراق ، ومن ثم أعلن نورى السعيد الحرب على المحور عام ١٩٤٣ م الى جانب بريطانيا ولذلك صار رجل الانجليز الأول فى المشرق العربى •

وفى نفس السنة — ١٩٤٣ م — زار نورى السعيد مصر والتقى برئيس الوزراء المصرى مصطفى النحاس للترويج لمشروع الهلال الخصيب الذى يضم العراق وشرق الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين فى اتحـاد عربى بزعامة العراق ، ولم ينجح نورى السعيد فى مسعاه هذا وكان البديل هو ظهور جامعة الدول العربية على أرض مصر التى ضمت كلا من العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية واليمن ومصر بمقتضى بروتوكول الاسكندرية سبتمبر / أكتوبر ١٩٤٤م وميثاق مارس ١٩٤٥م الذى تم توقيعه بمدينة القاهرة •

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قاد التيار الوطنى العراقى مرة أخرى فكرة الاستقلال التام والغاء معاهدة ١٩٣٠ م خاصة بعد اشتراك العراق فى حرب فلسطين التى شوهت سـمعة الزعماء التقليديين فى العراق ، وبعد قيام محمد مصدق فى ايران بحركته الوطنية ضـد الاحتكارات البترولية الغربية فى الفترة من ١٩٥١ — ١٩٥٣ م ، وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م فى مصر ضد النظام الملكى ، وبعد ظهور تيارات سياسية سرية وعلنية يسارية •

ونتيجة للعدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ م واشتراك حكومة العراق التقليدية قبل ذلك — عام ١٩٥٥م — فى حلف بغداد مع دولتـين من الدول المعتدية على مصر وهما بريطانيا وفرنسا ، ونتيجة لاعلان الوحدة الكاملة بين مصر وسوريا فى فبراير ١٩٥٨ م وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ثار الجيش العراقى فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ م منهيا النظام الملكى •

وعلى الرغم من نجاح ثورة ١٤ تموز — يوليو — فى العراق فى انهاء الوجود البريطانى المادى والمعنوى ، الا أن الخلاف الذى حدث بين قائد الثورة عبد الكريم قاسم ورفاقه شغل العراقيين عن تحقيق طموحاتهم فى الديموقراطية وفى الوحدة العربية ، ولم تنجح محاولة عبد السلام عارف الذى أطاح بعبد الكريم قاسم فى فبراير ١٩٦٣ م فى تحقيق هذا الطموح رغم مشروع اتفاق الوحدة الثلاثى بين العراق ومصر وسوريا الذى ظل مشروعا لم يتم تنفيذه بسبب موقف حـزب البعث من عبد الناصر وموقف عبد الناصر الرافض لسيطرة حزب البعث.

ولم تطل مدة حكم عبد السلام عارف الذى كان يميل بقوة نحو مصر ونحو فكرة الوحدة العربية ، حيث توفى فى حادث تحطم طائرة مروحية فى ظروف غامضة تحيط بها الشائعات ، وتولى رئاسة العراق بعده أخوه عبد الرحمن عارف الذى سقط فى انقلاب بعثى فى ١٤ يوليو ١٩٦٨ م قاده أحمد حسن البكر وصدام حسين الذى يتولى الآن حكم العراق .

هذه حقائق النضال فى العراق ضد الانجليز أولا من أجل الاستقلال ثم ضد بعض القوى فى الداخل ، ويعتبر حصول العراق على استقلاله التام اضافة لليقظة العربية ، ذلك الاستقلال الذى جاء بعد كفاح طويل سقط من أجله الشهداء ...

* * *

الاستقلال عن الاستعمار الفرنسى

كان الاستعمار الفرنسى فى الوطن العربى أكثر اتساعا من غيره ، حيث شمل سوريا ولبنـــان والجزائر وتونس ومراكش — المغرب — وموريتانيا ، كما شمل جيبوتى ، ويعتبر الكفاح الذى خاضته شـــعوب هذه الأقطار اضافة لليقظة العربية •

أولا — سوريا ولبنـــان :

ارتبطت الحركة الوطنية فى كل من سوريا ولبنان معا رغم وجود بعض الاختلافات فى الوسائل ، وما ذلك الا لأن البلدين يكونان اقليما عربيا واحدا منذ القدم هو بلاد الشام ، ومن ثم شهدت تلك البـــلاد ثورات متعددة ضد الانتداب الفرنسى الذى أعلن بمقتضى معـــاهدة « سان ريمو » عام ١٩٢٠ م ، كان منها الثورة السورية الكبرى عـــام ١٩٢٥ م التى قادها سلطان الأطرش وعبد الرحمن الشهبندر •

وشهد عام ١٩٣٦ عقد اتفاقية بين فرنسا وكل من سوريا ولبنان تقوم على اعتراف فرنسا بقيام نظام جمهورى فى كل من سوريا ولبنان وجمعية تأسيسية سورية فى دمشق ولبنانية فى بيروت كل ذلك تحت اشراف فرنسا ومع استمرار وجود القوات الفرنسية •

ورغم رفض حكومة فرنسا الجديدة التى أعقبت حكومة «ليون بلوم» التى وضعت الاتفاقيين مع كل من سوريا ولبنان ، الا أن الســـوريين واللبنانيين تمسكوا بها ، وانتهزوا اشتعال الحرب العالمية الثانية وهزيمة فرنسا أمام دول المحور واحتلال الألمان لفرنسا حيث حصلوا فى يناير ١٩٤٣ من فرنسا على فرصة اجراء انتخابات لجمعية وطنية فى كل من دمشق وبيروت • وظهر من زعامات سوريا آنذاك شكرى القوتلى ،

وفى لبنان بشارة الخورى رئيسا للجمهورية ورياض الصلح رئيســا للوزراء ، حتى خرجت القوات الفرنسية نهائيا من سوريا ولبنان فى ابريل عام ١٩٤٦ ، وبذلك صارت سوريا دولة مستقلة ، ولبنان دولة مستقلة وان ربط بينهما علاقات خاصة •

ثانيا — الجزائر وتونس ومراكش وموريتانيا وجيبوتى :

سقطت كل من الجزائر وتونس ومراكش تحت السيطرة الفرنسية تباعا م أعوام ١٩٣٠ ، ١٨٨١ ، ١٩١٢ م ، وانطلاقا من وحدة المغرب الكبير التى تربط هذه الأقطار معا فقد تأثرت الحركة الوطنية فى كل قطر بمثيلتها فى الأقطار الأخرى •

فقد قاد الكفاح فى الجزائر كل من الأمير عبد القادر من مركزه فى وهران غرب الجزائر وأحمد باشا باى قسطنطينة بشرق الجزائر الذى أطلق عليه الجزائريون آنذاك لقب بطل الاسلام ، وقد واجه الوطنيون خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر (١٨٣٠ — ١٨٣٩ م) سياسة فرنسا القائمة على الاحتلال المحدود القاصر على الساحل دون الداخل ، ولذلك اعترف الفرنسيون بدولة عبد القادر العربية لا فى غرب الجزائر فقط بل فى أوسطها كذلك •

وفى المرحلة الثانية من النضال (١٨٤٠ — ١٨٤٧م) طبقت فرنســا فى الجزائر سياسة الاحتلال الشامل حيث قام الجنرال « بيجو » باتباع أسلوب الارهاب المتمثل فى احراق الحقول واختطاف قطعان الأغنام واحراق القرى بأهلها ، وقد انتهى النضال عام ١٨٤٧ م باستسلام عبد القادر فى ديسمبر ١٨٤٧ م على أساس السماح له بالســفر الى مدينة الاسكندرية •

ورغم ذلك ظــل الكفاح موجودا حيث ســجل التاريخ ثورات الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسى من أمثلتها ثورات القبـــائل فـــى

الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، وثورة الشيخ محمد المقرانى عام ١٨٧١م فى شرق الجزائر ، وزميله الشيخ حداد ، ثم ثورة القبائل الصحراوية فى عام ١٨٨١م التى انتهت كسابقاتها بالعنف • وكانت نتيجة هذه الثورات صدور مرسوم بالحاق الجزائر اداريا بفرنسا فى هذا العام الأخير (١٨٨١م) •

وعقب الحرب العالمية الأولى تطلع الجزائريون للاستقلال وحق تقرير المصير استنادا الى مبادىء الرئيس الأمريكى ويلسون ولكن دون الوصول الى هذا الحق ، فبدأت تظهر الجمعيات الوطنية مثل « كتلة النخبة من الجزائريين المسلمين » ، « جمعية نجم شمال أفريقيا » التى نشأت على أرض فرنسا ذاتها بقيادة « مصالى الحاج » عام ١٩٢٧ م ، وحزب « النجم الثاقب » و « الاتحاد القومى لمسلمى شمال أفريقيا عام ١٩٣٤م ، « وجمعية علماء المسلمين » برئاسة الشيخ عبد الحميد ابن باديس ، « وحركة المؤتمر الاسلامى الجزائرى » فى عام ١٩٣٦م، وكل هذه الجمعيات طالبت بالاصلاح الاجتماعى والخلقى والدينى الى جانب المطالبة بالحقوق الوطنية السياسية ، ولذلك تعرضت للاضطهاد كل جمعية منها تتطرق للنواحى السياسية •

ونتيجة لاشتعال الحرب العالمية الثانية ترأس عباس فرحات زعامة الحركة الوطنية الجزائرية فشكل « جماعة أصدقاء البيان » فى فبراير ١٩٤٣ م المطالبة بالحقوق الوطنية والثقافية للشعب الجزائرى ، ثم تأسست أحزاب سياسية كان منها حزب « الاتحاد الديمقراطى لانصار البيان الجزائرى » بقيادة عباس فرحات ، وحزب « انتصار الحريات الديمقراطية» برئاسة مصالى الحاج ، التى انبثق عنها «المنظمة الخاصة» وكان من زعمائها البارزين أحمد بن بللا والتى آمنت بالكفاح المسلح •

وانطلق الكفاح المسلح فى الأول من نوفمبر ١٩٥٤ م على يد «جبهة التحرير الوطنى » التى ضمت فصائل الحركة الوطنية وأحزابها ، وقد مرت حرب التحرير الجزائرية بثلاث مراحل هى :

١ — فترة الايقاظ والاستنفار من عام ١٩٥٤ الى عام ١٩٥٧م .

٢ — فترة الارهاب الفرنسى من عام ١٩٥٧ الى عام ١٩٦٠ م

٣ — فترة الكفاح الأخير السابق للاستقلال من عام ١٩٦٠ الـى عام ١٩٦٢ م .

وخلال هذه الفترات الثلاث برزت زعامات وطنية بعضها شارك فى حرب التحرير والبعض الآخر قاد النضال السياسى ، وكان لموقف مصر وبعض الدول العربية دورا بارزا فى مواصلة الجزائريين لكفاحهم ضد الفرنسيين ، الذين ما لبثـوا بزعامة الرئيس ديجول فى ترك الأمـر للجزائريين ليختاروا بين الاندماج مع فرنسـا أو الاسـتقلال ، ولكن الجزائريين فضلوا الاستقلال ومن ثم تم التوصل الى معاهدة « ايفيان» فى مارس ١٩٦٢ التى مهدت لاعلان استقلال الجزائر فى يوليو من نفس العـام .

وأما تونس فقد تزعم رجال الدين وأصحاب الطرق الصوفية الحركة الوطنية ضد الحماية الفرنسية التى فرضت على تونس عام ١٨٠٣ ، حتى اذا ظهر عام ١٩٠٨ م حزب « تونس الفتاة » بزعامة كل من « على باش جمعة » و « عبد العزيز الثعالبى » اتجهت الحركة الوطنية التونسية الى المطالبة بحقوق العرب فى وحدة المغرب العربى .

واخذت ثورات التونسيين ضد الوجود الفرنسى كثورات العمال أثناء سنوات الحرب العالمية الأولى ، وبعد الحرب نشأ عـام ١٩١٩ م « حزب الدستور » ، ثم ظهر الحزب الدستورى الجديد الذى لعب فيه الحبيب بورقيبة دورا بارزا ، وكان ذلك سببا للخلاف بين الثعالبى زعيم حزب الدستور ، وبين بورقيبة زعيم حزب الدستور الجديد .

وتعرض زعماء الحركة الوطنية التونسية خلال الحرب العالميـة الثانية للسجن والنفى حتى انتهت الحرب وعقد الميثاق الوطنى عام ١٩٤٦

الذى جاء نتيجة اجتماع زعامات الحزب القديم والحزب الجديد ، وبدأ الكفاح التونسى المسلح حتى أعلن « منديس فرانس » رئيس وزراء فرنسا فى عام ١٩٥٤ م استقلال تونس الداخلى ، ثم اعترفت فرنسا بموجب أتفاق ٢٠ مارس ١٩٥٦ م باستقلال تونس استقلالا تاما .

وأما مراكش — المغرب — فقد شهدت مقاومة صلبة للحماية الفرنسية المفروضة على البلاد والوجود الاسبانى فى الريف قادها الأمير عبد الكريم الخطابى فى الجبال الشمالية فى العشرينات من القرن العشرين ، ورغم استسلام عبد الكريم ونفيه الا أن حركة الكفاح استمرت ضد الاحتلال الأجنبى .

وقاد الكفاح المراكشى جمعيات وأحزاب وطنية من أمثلتها : لجنة العمل الوطنى » التى صارت « حزب الاستقلال » عام ١٩٤٣ م . وظهرت روح السلطان محمد بن يوسف الوطنية منذ ارتقى العرش عام ١٩٢٧ م الذى رغم نفى السلطات الفرنسية له عام ١٩٥٢ م واستخدام عملاء أمثال « محمد بن عرفة » و « القائد الجلاوى » لم تفلح فرنسا فى القضاء على الحركة الوطنية المراكشية فاضطرت الى السماح بعودة السلطان الشرعى محمد بن يوسف من منفاه بجزيرة مدغشقر فى نوفمبر ١٩٥٥ م ، حتى حصلت مراكش على استقلالها الكامل فى ٢ مارس ١٩٥٦ م .

وأما موريتانيا التى خضعت للحماية الفرنسية عام ١٩١٠ م فقد وضعت بكاملها تحت سيطرة الحاكم العام الفرنسى لغرب أفريقيا الفرنسى ومقره مدينة « داكار » عاصمة السنغال وفى ديسمبر ١٩٢٠ م أصبحت مويتانيا مستعمرة تدار من مدينة « سانت لويس » بواسطة حاكم السنغال الفرنسى .

وبعد الحرب العالمية الثانية حاولت سلطات الحماية الفرنسية ادخال بعض الاصلاحات فتشكلت حكومة محلية فى عام ١٩٥٦ م ،

وتبع ذلك انضمام موريتانيا للجماعة الفرنسية الأفريقية ، ثم حصلت موريتانيا على استقلالها من فرنسا فى ٢٧ نوفمبر عام ١٩٦٠ م ، وصار « المختار ولد دادة » رئيســا للجمهورية الموريتانية الاســلامية رغم اعتراض المغرب ومطالبة المسئولين المغاربة بموريتانيا كأرض مغربية .

بدأت موريتانيا منذ استقلالها البناء الداخلى أمام صعوبات تمثلت فى الحساسية بين الشماليين الذين هم من أصل مغربى والجنوبيين الذين هم من أصل زنجى ، وصار هناك حزب واحــد هو « حزب الشعب الموريتانى » الذى خلفه فى ابريل ١٩٧٣م اتحاد العمال الموريتانى ، وفى ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣ صارت موريتانيا عضوا بجامعة الدول العربية .

وأما جيبوتى التى صارت مستعمرة فرنسية منذ عام ١٨٦٢ م ، فقد شهدت أول حركة وطنية بعد الحرب العالمية الثانية حيث قاد «محمود حربى » حزب « الاتحاد الديمقراطى » للمطالبة باستقلال جيبوتى منذ عام ١٩٥٧ م ، ولكنه توفى عام ١٩٦١ فى ظروف غامضة ، وظهر زعيم آخر موال لفرنسا هو « على عارف » ، حتى اعترفت فرنسا باستقلال جيبوتى فى ٢٧ يونيو ١٩٧٧ م برئاسة « حسن جوليد » رغم مطالبة جمهورية الصومال بضم جيبوتى اليها فى اطار الصومال الكبير باعتبارها من النواحى التاريخية والبشرية والطبيعية جزءا من الصومال .

* * *

الاستقلال عن الاستعمار الايطالى

كانت مستعمرات ايطاليا فى الوطن العربى متواضعة وقليلة بسبب تأخر ايطاليا فى وحدتها القومية وبالتالى تأخرها فى حركة التسابق الاستعمارى العالمية ، وقد تمثلت المستعمرات الايطالية فى الوطن العربى فى ليبيا والصومال •

أولا — ليبيـــا :

منذ نجت الايطاليون فى احتلال ليبيا بدءا بعام ١٩١١ م استمر كفاح الليبيين ضد الوجود الايطالى بقيادة السنوسية فى برقة والقبائل فى طرابلس وفزان ، ورغم استمرار كفاح الليبيين منذ الاحتلال الايطالى حتى استشهاد عمر المختار عام ١٩٣١ م ، فان الليبيين ســـاهموا فى هزيمة الطليان مع الألمان أثناء معارك الحرب العالمية الثانية وخاصة فى الميدان الأفريقى ، حتى خرج الايطاليون فى أوائل عام ١٩٤٣ م من ليبيـــا •

وعقب جلاء الايطاليين خضعت كل من طرابلس وبرقـــة لادارة عسكرية بريطانية بينما خضعت فزان لادارة عسكرية فرنسية حتى أخذ الوطنيون يطالبون بالاستقلال فى اطار ليبيا الموحدة ، وسعت مصر وجامعة الدول العربية فى المحافل الدولية حتى صدر قرار هيئة الأمم المتحدة فى نوفمبر عام ١٩٤٩ م باستقلال ليبيا بأقاليمها الثلاثة (برقة وطرابلس وفزان) فى موعد لا يتجاوز الأول من يناير عام ١٩٥٢ م ، وبالفعل أعلن استقلال ليبيا فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١م •

وباستقلال ليبيا الموحدة نودى بمحمد أدريس السنوسى ملكـــا للبلاد تحت اسم المملكة الليبية المتحدة ، وظلت تحمل هذا الاسم حتى

صدر قرار ملكى فى ٢٧ أبريل ١٩٦٣ م بانهاء النظام الاتحادى وأصبح الاسم المملكة الليبية حتى قامت ثورة فى الأول من سبتمبر ١٩٦٩ م أنهت النظام الملكى وأصبح اسم ليبيا الجمهورية العربية الليبية .

ثانيا — الصومال :

الصومال خمسة أقاليم خضعت كلها للاستعمار الأوروبى ، فهناك الاستعمار الانجليزى فى الصومال الشمالى ، والاستعمار الايطالى فى الصومال الجنوبى والصومال الفرنسى فى جيبوتى ، والاستعمار الانجليزى فى اقليم أنفدى بشمال كينيا . والاستعمار الاثيوبى فى الصومال الغربى أو أوجادين .

وقد نشأت الحركة الوطنية الصومالية فى أحضان رجال الدين ، حيث قاد السيد محمد عبد الله حسن حركة الجهاد ضد الوجود البريطانى فى الصومال الشمالى من عام ١٨٩٩ حتى عام ١٩٢٠ م عندما توفى محمد عبد الله حسن .

كما ثارت القبائل الصومالية فى منطقة بنادر ضد الايطاليين بالتعاون مع ثوار الصومال البريطانى ، ثم ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية احزاب وجمعيات وطنية مثل حزب « الشباب الصومالى » وحزب « الرابطة الصومالية » وكلها تدعو الى استقلال ووحدة الصومال الكبير .

وفى عام ١٩٤٩ م قررت هيئة الأمم المتحدة أن تصبح الصومال تحت وصاية الأمم المتحدة ثم دولة مستقلة ذات سيادة بعد عشر سنوات وأن تكون ايطاليا هى الدولة الوصية نيابة عن الأمم المتحدة وأن يكون للهيئة مجلس استشارى مقيم فى الصومال يضم ممثلين عن مصر والفلبين وكولومبيا ومهمته مراقبة عملية نقل الصومال من مرحلة الوصاية الى مرحلة الاستقلال .

ونتيجة لهذه الجهود أعلن استقلال الصومال الشمالي في ٢٦ يونيو عام ١٩٦٠ م بينما أعلن استقلال الصومال الجنوبي في أول يوليو من نفس العام ، وفي اليوم الثاني من يوليو ١٩٦٠ م اجتمعت الجمعية الوطنية في الصومال الجنوبي والمجلس التشريعي للصومال في قاعة البرلمان بمقديشو ، وفي جو يسوده الابتهاج والفرح تم اتحاد الاقليمين لتظهر الجمهورية الصومالية •

ومنذ عام ١٩٦٠ م أخذت جمهورية الصومال تسعى لتكوين الصومال الكبير ومن ثم توترت علاقتها مع كينيا بسبب اقليم انفدى ، واصطدمت مع اثيوبيا بسبب اقليم أوجادين ، كما عملت فرنسا على اعلان استقلال جيبوتي ، ومن ثم لم تتحقق وحدة الصومال الكبير حسبما حددت جمهورية الصومال في دستورها •

* * *

الفصل العاشر

قيام دول عربية واسلامية

- مقـــــدمة ٠
- قيام المملكة العربية السعودية ٠
- دولة اليمن ٠
- قيام باكستان الاسلامية ٠
- اندونيسيا الاسلامية ٠
- أقطار الخليج العربى ٠

مقـــــدمة

يعتبر ظهور دول عربية واسلامية على الخريطة السياسية لمنطقة المشرق بصفة عامة من مظاهر اليقظة التى دعمت الاستجابة العربيـــة الاسلامية للتحدى المتمثل فى التخلف والفرقة كما يتمثل فى الهجمات الاستعمارية والصهيونية ، ومن ثم كان ظهور هذه الدول ــ العربيــة والاسلامية ــ اثراء للتيار القومى وليس اضعافا لهذا التيار ، خاصة وان ظهور هذه الدول جاء بعد كفاح شديد ضد قوى داخلية وقوى خارجية •

فقيام المملكة العربية السعودية فى قلب شبه الجزيرة العربية جاء بعد كفاح ضد قوى داخلية وقوى خاجية مستندا الى ميراث آلسعود منذ منتصف القرن الثامن عشر عندما تحالف الامام محمد بن عبد الوهاب صاحب دعوة التوحيد السلفية مع الأمير محمد بن سعود حاكم الدرعية ، وانطلق آل سعود يبنون ملكهم فى أنحاء شبه الجزيرة العربية داعين الى التوحيد السلفى،كما كان قيام المملكة العربية السعودية الحديثة دفعا للتخلف وتمسكا بكل تقدم علمى وسياسى واقتصادى واجتماعى لايتعارض مع مبادىء دعوة التوحيد السلفية •

وقيام دولة اليمن فى الجنوب عاصمتها عدن تحررا من الاستعمار البريطانى مكسب لليقظة العربية ، واثراء الى جانب دولة اليمن وعاصمتها صنعاء لحراسة الجنوب العربى ومدخل البحر الأحمر الجنوبى بما يحقق أمن هذا البحر والأقطار العربية المطلة عليه •

كما أن ظهور دول عربية على شاطىء الخليج العربى يعد كسبا لليقظة العربية حيث جاء ظهورها مواكبا لاختفاء النفوذ الاستعمارى ومحققا لآمال عرب الخليج ومدعما لفكرة عروبة الخليج فى مواجهـــة

الاطماع الايرانية ، وبهذا جاء ظهور دول عربية خليجية لحراسة الحدود الشرقية للوطن العربى وهو كسب فى حد ذاته .

ويجىء قيام دولة باكستان الاسلامية فى شبه القارة الهندية كسبا لليقظة الاسلامية ودعما لشعوب العالم الاسلامى وحفاظا على حقوق مسلمى شبه القارة الهندية ، ونفس الشىء يقال بالنسبة لتحرر الجزر الأندونيسية من الاستعمار الهولندى وقيام دولة اندونيسيا الاسلامية فى جنوب شرق آسيا حيث كسب العالم الاسلامى دعما عالميا بقيامها .

وأخيرا يأتى ظهور مجلس التعاون الخليجى الذى يضم كلا من المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين ودولة الامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان استجابة للتحديات المعاصرة المتمثلة فى التهديدات الايرانية لأمن هذه الدول ودفعا للتخلف وعودة الى التوحيد والتكاتف .

أولا — المملكة العربية السعودية :

يقتضينا الانصاف القول بأن ملك آل سعود فى شبه الجزيرة العربية يمتد الى القرن الثامن عشر حيث كانت امارة الدرعية تمثل ذلك الملك حتى حدث التحالف بين أمير الدرعية محمد بن سعود والامام محمد ابن عبد الوهاب صاحب دعوة التوحيد السلفية فى منتصف ذلك القرن، وانطلاقا من هذا التحالف امتد ملك آل سعود ليشمل معظم شبه الجزيرة العربية باستثناء سلطنة عمان وبعض مشيخات الخليج .

ورغم سقوط الدرعية فى يد الجند العثمانيين بقيادة ابراهيم باشا ابن محمد على عام ١٨١٨ م فان آل سعود استمروا فى السعى لاعادة ملكهم حتى نجح فيصل بن تركى بن سعود عام ١٨٤٣ م فى اعادة

تأسيس الدولة السعودية بمدينة الرياض وشملت أراضى نجد وان كان تجنب الاصطدام بالعثمانيين المتواجدين فى الحجاز والأحساء فلم يسع الى ضم هذه الأراضى الى دولته •

ورغم انتهاء الدولة السعودية التى أقامها فيصل بن تركى بوفاته عام ١٨٦٦م ، فقد نجح عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركى ابن سعود عام ١٩٠١ م فى استخلاص مدينة الرياض وبدأ استعادة ملك آبائه وأجداده — كما قال — فى شبه الجزيرة العربية وقد استغرق ذلك منه حوالى ربع قرن باعلان نفسه ملكا على الحجاز الى جانب سلطنة نجد فى يناير ١٩٢٦ م •

ويميل بعض المؤرخين الى اطلاق اسم الدولة السعودية الأولى على المرحلة الأولى من تاريخ ملك آل سعود والتى انتهت عام ١٨١٨ م ، واطلاق اسم الدولة السعودية الثانية على الملك الذى شاده الامام فيصل ابن تركى والذى انتهى عام ١٨٦٦ م ، واطلاق اسم الدولة السعودية الثالثة على الملك القائم حتى الآن منذ شاده عبد العزيز بن عبد الرحمن أول القرن العشرين •

وهذا التقسيم شائع فى كتابات المؤرخين ويهدف الى تحديد وقائع واحداث كل مرحلة من المراحل التى مر بها ملك آل سعود فى شبه الجزيرة العربية ، وان كنت أميل الى الأخذ بفكرة وحدة التاريخ السعودى من القرن الثامن عشر وحتى الآن وذلك لسببين رئيسيين هما :

١ — كانت ومازالت وستظل ان شاء الله دعوة التوحيد السلفية التى رعاها الامام محمد بن عبد الوهاب فى نجد محور ثقافة المجتمع فى شبه الجزيرة العربية حتى فى الفترات التى توارى فيها ملك آل سعود الى حين •

٢ — استمر تسلسل الأمراء من آل سعود منذ منتصف القرن

الثامن عشر بدءا بمحمد بن سعود وحتى الآن بولاية فهد بن عبد العزيز لعرش آل سعود ٠

وعلى هذا فيمكن تقسيم التاريخ السعودى الموحد الى مراحل أو فترات زمنية مع ابراز الاستمرارية فى هذا التاريخ للأسباب التى ذكرتها ، ولذلك يمكن القول المرحلة الأولى لملك آل سعود (١٧٤٢ — ١٨١٨ م) ثم المرحلة الثانية (١٨٤٢ — ١٨٦٦ م) ثم المرحلة الثالثة من ١٩٠٢ حتى الآن وهى المرحلة التى زاد الاهتمام بها عند المؤرخين ومازال الاهتمام بها مستمرا ٠٠

واذا كنا قد تعرضنا للمرحلة الأولى ثم المرحلة الثانية لملك آل سعود أثناء معالجتنا لدعوة التوحية السلفية ، فاننا سنركز هنا على المرحلة الثالثة التى بدأت عام ١٩٠٢ على يد عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ٠

فقد استرد عبد العزيز مدينة الرياض عام ١٩٠٢ م من آل الرشيد ثم استطاع خلال السنوات القليلة التالية أن يوحد نجد تحت سيطرته ثم مد سلطته الى الاحساء التى دخلت فى حوزته عام ١٩١٣ م ، ثم تطلع الى الحجاز واستطاع أن يستولى عليها فى أواخر عام ١٩٢٥ م وأعلن نفسه ملكا للحجاز فى يناير ١٩٢٦ م ، كما ضم اقليم عسير عام ١٩٣٤ م ٠

وكان الملك عبد العزيز قد أطلق اسم المملكة العربية السعودية على ملكه عام ١٩٣٢ م وسعى للحصول على اعتراف العالم به وخاصة الأقطار العربية الشقيقة ، ولذلك وقع معاهدات صداقة وحسن الجوار منذ استولى على الحجاز من شريف مكة ، فعقد مع كل من تركيا وايران معاهدة عام ١٩٢٩ ، ومع العراق عام ١٩٣٠ ، ومع شرقى الأردن عام ١٩٣٣ ومع اليمن عام ١٩٣٤ ، ومع مصر عام ١٩٣٦ م ٠

كما اهتم الملك عبد العزيز بتحديث دولته فمنح الأمريكيين امتياز البحث عن المياه والمعادن والبترول فنجحت مشروعاته الزراعية والتعدينية كما نجحت عمليات التنقيب عن البترول لتؤكد وجود احتياطى بترولى كبير فى أرض المملكة ، اســتخدم عائده فى الصرف على المشروعات الانتاجية والخدمات •

وقد نجح الملك عبد العزيز فى خطواته التى بذل من أجلها الجهود الكبيرة وساعده فى ذلك الأساس الدينى الذى بنى عليه ملكه مستمدا اياه من دعوة التوحيد السلفية التى ظهرت على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذى تحالف مع الأمير محمد بن سعود فى منتصف القرن الثامن عشر كما ساعده خبرته بشئون القبائل وكيفية التعامل معها ، واعتماده على تنظيم عقائدى عسكرى عرف بالأخوان الى جانب نظرته العملية للأمور وتجنبه الاصطدام ببريطانيا صاحب أكبر نفوذ سياسى أجنبى فـــى المنطقة العربيـــة •

وعند وفاة الملك عبد العزيز عام ١٩٥٣ م كانت المملكة العربية السعودية من أكثر أقطار المنطقة العربية استقرارا وأمنا ، كما كانت أكثر تطلعا الى التحديث فى مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية •

ثانيا — اليمن :

لليمن تاريخ طويل وقديم حيث عرف فى التاريخ القديم باسم بلاد العرب السعيدة لمــا تميزت به من حضارة وازدهار فى ذلك العصر ، ومع بداية العصــور الحديثة انقسم سكان اليمن من حيث المذاهب الدينية الاسلامية الى اتباع المذهب الزيدى وهو أقرب المذاهب الشيعية الى السنة والذين سكنوا جبال اليمن ، وأتباع المذهب الشافعى — الذين عرفوا بالشوافع — السنى الذين سكنوا السهول الساحلية •

وقد اصطدم الأئمة الزيديون بقوى داخلية متمثلة فى القبائل

والأئمة الخارجين على الحاكم ، كما اصطدموا بقوى خارجية كان منها الأتراك الذين حاولوا السيطرة على اليمن منذ القرن السابع عشر حتى انتهت محاولات السيطرة التركية على اليمن بعقد معاهدة « درعا » فى عام ١٩١١ م ، وكان منها البريطانيون الذين نجحوا فى عام ١٨٣٩ م فى احتلال عدن ومنها امتد نفوذهم على قبائل الجنوب العربى •

ونتيجة لظهور جماعات من الشـــباب اليمنى المثقف قامت عدة محاولات ضـــد الأئمة لاغتيالهم بعضها نجح حيث تم اغتيال الامام يحيى حميد الدين عام ١٩٤٨ م وان تم القضاء على الثورة وتولى ابنه أحمد بن يحيى الذى تعرض هو الآخر لمحاولة انقلابية عام ١٩٥٥ م كان للمثقفين فيها دور رئيسى وان فشلت هى الأخرى •

وفى العام التالى ١٩٥٦ م دخلت اليمن مع كل من مصر والملكة العربية السعودية فيما عرف بميثاق أمن جدة وهو ميثاق دفاعى عسكرى مضاد للنفـــوذ البريطانى فى البوريمى والخليج والجنوب العربى ، كما انضمت الى الجمهورية العربية المتحدة فيما عرف باســـم ميثاق اتحاد الدول العربية فى مارس ١٩٥٨ م •

وكان للانفتاح المحدود الذى شهده اليمن فى الخمسينيات من القرن العشرين أثره فى تطلع المثقفين اليمنيين للتخلص من حكم الأئمة باعتبارهم عقبة فى سبيل تطور اليمن وتقدمه ، وحدث شبه تحالف بين المثقفين وضباط من جيش اليمن ، حتى انه عندما توفى الامام أحمد فجأة فى ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ م قام أحد الضباط اليمنيين وهو عبد الله السلال بانقلاب عسكرى ضد الامام البدر الذى فر الى السعودية ، وقد أعلن النظام الجمهورى وألغى النظام الملكى ، وانفتح اليمن على العالم وساهمت كل من الكويت والملكة العربية السعودية ومصر فى تقديم اليمن وتحضره •

ونتيجة لوجود الجيش المصرى فى اليمن منذ عام ١٩٦٣ لمساعدة الثورة اليمنية تشجعت الحركة الوطنية فى عدن والجنوب فى مقاومة الوجود البريطانى ولقيت كل مساعدة من الجمهورية العربية اليمنية ومن مصر حتى اضطرت انجلترا الى الجلاء عن عدن واعلان استقلالها مع مشيخات الجنوب تحت اسم جمهورية اليمن الجنوبية عام ١٩٦٧ م .

ثالثا — باكستان الاسلامية :

دخل الاسلام الى شبه القارة الهندية على أيدى التجار العــرب فى مطلع القرن العاشر الميلادى الذين وفدوا الى هــذه البلاد وأقاموا على طول الساحل الغربى وتزاوجوا مع أهل البلاد ، حتى اذا جاءت الفتوح الاسلامية فى عهد الأمويين وجدت الطريق ممهدا لنشر العقيدة الاسلامية ، ثم جاء أكبر فتح اسلامى لشــبه القارة الهندية بقيادة محمــود الغزنوى أمير الأفغان عام ١٠٠١ م حيث اتخذ من البنجاب مركزا انطلق منه الفاتحون الاسلاميون بعده لفتح بقية أجزاء شــبه القارة الهندية .

ثم كانت الدولة الاسلامية التى أسسها قطب الدين محمد الغورى عام ٥٨٩ هـ الموافق لعام ١١٩٣ م على أنقاض الدولة الغزنوية أقوى دولها ، ثم حكمت البلاد الدولة التيمورية المغولية عام ٩٣٢ هـ الموافق لعام ١٥٢٦ م التى كان عهدها أزهى عصور الحكم الاسلامى بشــبه القارة الهنــدية . كما أن الاســلام دخل اقليم البنغال الشرقية — جمهورية بنجلاديش الحالية — على يد التجار والدعاة المســلمين . وقد أقبل الفقراء الهندوس على اعتناق الاسلام لـما لمسوه من سماحة الاسلام وعدالته .

وخلال القرن السادس عشر أخذ التفكك يصيب الدولة الاسلامية التى عاصمتها « دهلى » وظهرت امارات للهندوس والسيخ على حساب تلك الدولة حتى اذا كان القرن الثامن عشر أصبحت شبه القارة الهندية

مطمعا للاستعمار الانجليزى عن طريق شركة الهند الشرقية البريطانية ثم اعتبار الهند مستعمرة بريطانية منذ منتصف القرن التاسع عشر ٠

وقد اتبع الحكم البريطانى فى الهند سياسة التفرقة بين المسلمين والهندوس ، حيث تمتع الهندوس بكثير من الامتيازات بينما حـرم المسلمون فآثروا العزلة ، حتى قام السيد أحمد خان يدعو المسلمين الى حياة جديدة وتفكير جديد فوضع أساس جامعة عليكرة باعتبار أن طريق العلم والمعرفة هو طريق تقدم المسلمين وقوتهم ٠

وحيث حث الانجليز الهندوس عام ١٨٨٥ م لتأسيس حزب المؤتمر ، فان المسلمين أسسوا عام ١٩٠٦ م حزب الرابطة الاسلامية الذى قاد الحركة الاستقلالية لدولة الباكستان ، والذى واجه التعصب الهندوسى ضد المسلمين ، وان تعاون مع حزب المؤتمر فى الدعوة لمقاومة الحكم الانجليزى للهند وخاصـة بالعصيان المـدنى أو المقاومة السـلبية أو « الساتياجراها » التى دعا اليها غاندى ٠

وقد بدأت الدعوة لقيام دولة اسلامية فى الهند عام ١٩٣٠ على لسان الشاعر محمد اقبال أثناء حضوره لاجتماع الرابطة الاسلامية السنوى فى مدينة « الله أباد » ، وان كان حزب الرابطة لم يتخذ هـذه الفكرة سـياسة له الا عام ١٩٤٠ م أثناء انعقاد دورته التاريخية فى مدينة « لاهور » ٠ وبعد وفاة محمد اقبال عام ١٩٤٢ م صار محمد على جناح قائدا لحزب الرابطة الاسلامية ومدافعا عن قيـام الباكستان ٠

ونتيجة لأن مائة مليون مسلم فى الهند صارت عقيدتهم اقامة دولة الباكستان فشلت المساعى البريطانية للتوفيق بين حزبى المؤتمر والرابطة الاسلامية ، ومن ثم أعلنت الحكومة البريطانية فى ٣ يونيـو ١٩٤٧ م قبول فكرة تأسيس الباكستان ، وفى منتصف أغسطس من نفس العام أعلن قيام دولة الباكسـتان بعد التقسيم ، فظهرت الى

الوجــود مرة أخرى دولة اســلامية كبرى فى العــالم هى دولة الباكستان الاسلامية .

وكلمة الباكستان من وحى الشاعر العظيم محمد اقبال ــ كما ذكرنا ــ ومعناها « أرض الطهر » وقد تكونت من قسمين شرقى هو البنغال ، وغربى هو ولايات الحدود الشــمالية الغربية وبلوخستان والســند والبنجاب الغربية ، ويفصل بين القسمين محيط من الأرض الهندية . ورغم قيام الباكستان ظل حوالى خمسين مليون مسلم داخل الهنــد ذاتها . كما كان الاختــلاف العرقى بين البنغاليين فى الشرق والبنجابيين فى الغرب سببا فى انقسام الباكستان عام ١٩٧١ الــى دولتين الباكستان وبنجلاديش .

رابعا ــ اندونيســيا :

تتكون اندونيسيا أو جزر الهند الشرقية من مجموعة من الجزر أكبرها جاوة ، وتمتد من سومطرة الى غينية الجديدة ، وقد عرفت هذه الجزر الاسلام فى أواسط القرن الثامن للهجرة الموافق للقرن الرابع عشر للميلاد وذلك عن طريق التجار المسلمين الذين وفدوا اليها من الهند .

ولم يؤسس المسلمون العرب فى جزر الهند الشرقية دولة أو سلطنة موحدة وظل الوجود الاسلامى قويا بين سكان تلك الجزر وعمل حكامها على نشر الاســلام بين الوثنيين ، حتى جاء الهولنديون فى القرن السابع عشر واستعمروا هــذه الجزر واتبعوا السياسة الاستغلالية الى جانب اضطهاد المسلمين .

ورغم السيطرة الهولندية فان المسلمين فى جزر الهند الشرقية استمروا ينشرون الاسلام بين الوثنيين من سكان الجزر والوافدين عليها ، وقد سبب ذلك ضيقا من جانب جمعيات التبشير الهولندية التى

أخذت تضغط على الحكومة لتوقف حركة انتشار الاسلام بل ولتضع العراقيل أمام المسلمين الراغبين فى الحج الى بيت الله الحرام •

وقد ظهرت جهود الوطنيين بتأسيس الجمعيات التى اهتمت بتعليم المسلمين تعليما حديثا يبعد عنهم التخلف ، ومن ثم يرجع فضل النهضة الوطنية فى جزر الهند الشرقية الى يقظة المسلمين وتأسيس أول جماعة من جماعات الاصلاح باسم « شركة اسلام » وجمعية صرخة الاسلام وغيرها من الجمعيات التى كان القائمون عليها من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقراء تفسيره بمجلة المنار التى تصدر فى مصر •

كما كان لهذه الجمعيات دور بارز فى نشر التعليم وابلاغ تعاليم الاسلام ، ومن هـذه الجمعيات كذلك : الجمعية المحمدية ، وجمعية نهضة العلماء ، وجمعية الارشاد ، وديوان الدعوة الاسلامية ، والمنظمة الاسلامية الدولية ، الى جانب بعض الأحزاب الاسلامية مثل : الحزب الاسلامى الأندونيسى ، وحزب برتى الاسلامى بالاضافة الى الصحف الاسلامية • وكل هذه المؤسسات دعمت الروح الاسلامية فى نفـوس أهالى جزر الهند الشرقية •

ونتيجة لتضافر جهـود الوطنيين فى هـذه الجزر فقد تحقق الاستقلال الكامل لجزر الهند الشرقية تحت اسم اندونيسيا وذلك فى عام ١٩٤٩ م وبهذا أصبحت دولة أندونيسيا الاسلامية اضافة لليقظة الاسلامية المعاصرة حيث يبلغ عدد سكانها ما يقرب من ١٥٠ مليون نسمة يؤلف المسلمون منهم ٩٥٪ من مجموع السكان •

خامسا ـ أقطار الخليج العربى :

نعنى بهذه الأقطار الكويت والبحرين وقطر ودولة الامارات العربية وسلطنة عمان ، التى ظهرت للوجود كدول مستقلة فى عام ١٩٧١ م باستثناء الكويت التى سبقت بقية أقطار الخليج العربى فى الاستقلال بعشر سـنوات •

وفيما عدا سـلطنة عمان فقد كانت أقطار الخليج العربى قبل الاستقلال عبارة عن مشيعات قبلية تعيش على ساحل الخليج تعمـل فى الصيد والغوص على اللؤلؤ وركوب البحر للتجارة أو لارشاد السفن ، حتى اذا ظهرت على سطح مياه الخليج سفن تحمل رايات مرسوم عليها الصليب ظهرت عمليات الجهاد البحرى الاسلامى حيث قاد رجال القبائل مراكبهم الصـغيرة وكانوا يخرجون فى جماعات لمواجهة تلك السفن الأجنبيـة .

وكانت عمليات الجهاد البحرى الاسلامى رد فعل لقسوة البرتغاليين فى التعامل مع سكان مشيخات الخليج العربى فى القرن السادس عشر ، ومن ثم انتقل رد الفعل العربى ضد السفن الهولندية ثم السفن البريطانية حتى حدث الصدام بين البريطانيين ومشيخة رأس الخيمة منذ عام ١٨٠٩ م ذلك الصدام الذى انتهى بتدمير رأس الخيمة عام ١٨١٩ م وفرض معاهدات الهدنة على رأس الخيمة والشارقة ودبى وأبى ظبى وغيرها من المشيخات عام ١٨٢٠ وما بعده .

وقد تحولت هـذه المعاهدات الى ما عرف بالمعاهدات المـانعة التى فرضتها بريطانيا على مشيخات الخليج العربى وكانت تمنع هذه المشيخات من أربعة أشـياء هى :

١ — عدم القيام بعمليات الجهاد البحرى أو أية عمليات بحرية تهدد السلم والأمن فى الخليج أو تعوق حركة الملاحة والمواصـلات للامبراطورية البريطانية .

٢ — عدم الاتجار فى السلاح أو ادخاله الى منطقة الخليج العربى.

٣ — عدم الاتجار فى الرقيق أو جلبه الى مشيخات الخليج .

٤ — عدم التنازل عن أية قطعة من الأرض من المشيخات لأية قوة أجنبية دون موافقة بريطانيا .

وبعد الحرب العالمية الأولى تحولت تلك المعاهدات المانعة الى ما عرف بمعاهدات الحماية التى فرضت على مشيخات الساحل العمانى كما فرضت على سلطنة عمان وعلى قطر والبحرين والكويت ، تلك المعاهدات التى ظلت سارية المفعول حتى أنهتها بريطانيا بالاعتراف باستقلال الكويت عام ١٩٦١ م ، ثم باعلانها عام ١٩٦٨ م بانها تنوى الانسحاب من منطقة الخليج العربى وتعترف باستقلال مشيخات الخليج العربى فى موعد لا يتجاوز نهاية عام ١٩٧١ م ، وبالفعل قامت فى خريف ذلك العام أقطار الخليج العربى المعروفة والسابق ذكرها وانتهت الحماية البريطانية •

ويجب أن نذكر أنه بمجرد اعلان بريطانيا عام ١٩٦٨ م برغبتها فى الانسحاب من منطقة الخليج العربى قبل نهاية عام ١٩٧١ م دارت مفاوضات بين الامارات التسع وهى البحرين وقطر وأبو ظبى ودبى والشارقة ورأس الخيمة وعجمان والفجيرة وأم القوين لتكوين دولة اتحادية فيما بينها ، ولكن نظرا لبعض الصعوبات فقد أعلنت كل من قطر والبحرين استقلالها فى سبتمبر ١٩٧١ ، ثم تكون اتحاد ضم الامارات السبع الباقية فى نفس العام تحت اسم دولة الامارات العربية المتحدة •

كما يجب أن نذكر أن سلطنة عمان كانت على الرغم من معاهدة الحماية البريطانية تتمتع بشىء من الاستقلال أكثر من أقطار الخليج الأخرى ، وفى عام ١٩٧١م تمت ازاحة السلطان سعيد بن تيمور لصالح ابنه قابوس بن سعيد الذى أنهى عزلة وانغلاق بلاده لتشهد نهضة عظيمة وتطورا كبيرا •

كما يجب أن نلاحظ أن أقطار الخليج العربى الخمس بالاضافة الى المملكة العربية السعودية كونت تنظيما اقليميا تحت اسم مجلس التعاون الخليجى منذ عام ١٩٨١ م وهو تنظيم ينسق العلاقات الأمنية والثقافية والاقتصادية لمصلحة تلك الأقطار وهو بهذا اضافة لليقظة العربية •

الفصل الحادي عشر

جامعـــة الدول العربيـــة

- مقـــــدمة .
- مشروع سوريا الكبرى .
- مشروع الهلال الخصيب .
- اعلان ميثاق الجامعة العربية .
- الوحـــدة العربيـــة .
- مصر وقضية الوحدة العربية .

مقـــــدمة

تعتبر فكرة القومية العربية فكرة حديثة جدا بالنسبة لتاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ذلك أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر أظهر المفكرون العرب المتأثرون بالمؤسسات التعليمية والثقافية فى أقطار الوطن العربى والمرتبطة بأوروبا ، أظهر هؤلاء المفكرون اتجاهات وطنية تهدف فى المقام الأول الاستقلال عن الدولة العثمانية[1] .

وكانت الفكرة الدينية هى السائدة بين المواطنين العرب ولم يجدوا غضاضة فى ان يحكمهم المماليك أو الأتراك العثمانيون ما داموا مسلمين ، فلما سقطت الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى تحول كثير من أنصار الجامعة الاسلامية الى فكرة الاتحاد العربى أو الجامعة العربية مع اختلاف كبير فى الرأى حول شكل هذه الدولة وزعامتها . وهل يمكن أن يكون الهاشميون هم رمز هــذه الرابطة أم أن زعامتهم غير مقبولة لأن الشام أكثر تحضرا من الحجاز موطن الأسرة الهاشمية[2] .

وهكذا نجد أن العرب فكروا فى جمع الشمل بعد الحرب العالمية الأولى تجاوزا للتجزئة التى فرضتها الدول الأوروبية الاســتعمارية عليهم ، وبعد أن فشلت مشروعات الشريف حسين بن على شريف مكــة وزعيم الهاشميين فى اقامة الدولة العربية الموحدة والتى تضم بلاد

---

(1) Memorandum by the Director of the Office of Near Eorstern and African Affairs (Henderson) , to the Secretary of State , Washington, August 29 - 1945, No. 890 p. 00/B. 00/8 — 2945.

(2) د . صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر ص ٦٠٣ .

الشام بأقسامها المعروفة حاليا : سوريا ولبنان وفلسطين والأردن الى جانب كل من العراق والحجاز[٣] .

ومن ثم تتالت مشروعات الاتحاد فى الساحة العربية انطلاقا من وجود شعور عام مشترك يشمل مختلف الأقطار العربية دون أن يكون هناك من يقصد ذلك أو يسعى اليه ، أوجدته حركة انتشار الصحافة والطباعة والنشر والاذاعة والتمثيل والشعر والآداب وغيرها من الوسائل التى تساعد على اتصال الأفكار وتدانيها[٤] .

وقد ساد اعتقاد بان تحقيق فكرة الاتحاد بين الأقطار العربية بأى شكل من أشكال الاتحاد انما جاءت أول مرة على لسان المستر أنتونى أيدن Anthony zden وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية فى تصريحه الذى أدلى به فى « المانشن هاوس » فى ٢٩ مايو ١٩٤١ م والذى جاء فيه ما نصـــه :

« ان العالم العربى قد سار أشواطا كبيرة منذ التسوية التى تمت عقب الحرب العالمية الأولى ، وأن كثيرين من مفكريه يرجون لشعوبهم درجة من الاتحاد أكثر مما هم فيه الآن ، وهم يتطلعون الى التأييد البريطانى ، ويجب ألا نخيب رجاء أصدقائنا ، وهنا أقرر أنه من الطبيعى كما أنه من حق العرب أن تتقوى الروابط الاقتصادية والثقافية بين الأقطار العربية ، وأيضا الروابط السياسية ، ومن ثم فان حكومة جلالة الملك ســتؤيد كل خطوة من هــذا القبيل تجــد استحسانا عاما بين العــرب[٥] .

---

(٣) د . رأفت الشــيخ : العرب دراســات فى التاريخ الحــديث والمعاصر ص ١٢٩ . Fisyer : The Middlzast, p. 511.

(٤) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٠٤ .

(٥) Lenczowski; G : The Middle zast in World Affairs 3rd ed. p. 6 33.

وقد بولغ فى تأثير تصريح ايدن هـذا لدرجة اعتباره الخطوة الأولى نحو انشاء الاتحاد العربى ، والحقيقة أن بريطانيا كانت فى ذلك الوقت[٦] تشعر بحاجتها الى تعاون العرب فرأت أن تلوح لهم بأمنية طالما راودتهم بالفعل خاصة وأن الألمان قد أصدروا تصريحا بتأييد استقلال الأقطار العربية فلا بأس من أن ينافسهم الانجليز بتصريح مشابه[٧] .

والصحيح أن العرب بعد الحرب العالمية الأولى نظروا الى الانتداب الانجليزى الفرنسى فى أقطار المشرق العربى باعتباره عقبة فى طريق تحقيق أمانيهم المتطلعة لقيام « امبراطورية » عربية مستقلة ، وهذه الأمانى تستند الى الوعود التى أعطيت للعرب أثناء الحرب العالمية الأولى ، ومن ثم كان هدفهم العمل على انهاء الادارة الانجليزية الفرنسية لبلادهم ، وقد استغرق الجهد العربى فى هـذا المجال طوال فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية[٨] .

وقد حدث بعض التقدم لتحقيق الهدف العربى المتمثل فى انهاء الانتداب الأجنبى على الأقطار العربية وتحقيق الاستقلال لكثير منها ، من ذلك أعلان استقلال مصر عام ١٩٢٢ ، والعراق عام ١٩٣٢ ، وتوقيع اتفاق بين فرنسا وكل من الوطنيين فى سوريا ولبنان عام ١٩٣٦ م يعطى لكل من سوريا ولبنان الحق فى أن تكونا دولتين مستقلتين ، وان كان الفرنسيون لم يحترموا هـذا الاتفاق ، وبالتالى لم يوضع موضع التنفيذ[٩] .

---

(٦) كانت بريطانيا آنذاك قد كادت تقضى على ثورة رشيد عالى الكيلانى بالعراق ، وتتهيأ لحملة مشتركة مع حكومة فرنسا الحرة على سوريا ولبنان .

(٧) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٠٩ .

(٨) Memorandum by the Director ... op. cit.

(٩) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٤١ .

كما أن الأقطار العـــربية التى مازالت تحت الانتداب الانجليزى والفرنسى رسميا أو تلك التى تتمتع باستقلال رسمى معترف به قد أخذت قبل الحرب العالمية الثانية تتمتع باستقلالها فى تصريف شئونها وبصورة شبه كاملة ، ومن بين هــذه النظرة العربية للاستقلال فى تدبير الأمور تعتبر الحركة السائدة بين العرب لتحقيق نوع من الاتحاد بين أقطارهم أمرا طبيعيا يتفق مع الحقــائق الأساسية والمقومات العربية بعــد الاســتقلال[10] .

مشروع ســوريا الكبرى

كان الأمير عبد الله بن الحسين أمير شرقى الأردن الوحيد الذى استجاب لتصريح المستر أنطونى ايدن ورأى فيه فرصة ذهبية لتحقيق طموحه والخروج عن نطاق امارته الصغيرة ، وكانت سياسته منذ مدة قد اتجهت الى استغلال ظروف الحرب لتحقيق ذلك الطموح ، فقد تطوع بارسال جزء من فرقته العربية التى يقودها ضباط بريطانيون للمساهمة فى قمع حركة رشيد عالى الكيلانى بالعــراق متحديا بذلك الشعور القومى . ولا شك أن هــذا التدخل أضر بسمعة الأمير ولم يحقق له فائدة اذ أن معظم الوطنيين العرب اعتبروا ثورة الكيلانى حركة وطنية تحررية[11] .

كما أن الأمير عبد الله انتهز فرصة استيلاء انجلترا وحكومة فرنسا الحرة على دمشــق فى يونيو ١٩٤١ م ، وبدأ يعمل من أجل تحقيق أطماعه فى تكوين ســوريا الكبرى تحت حكمه بضم ســوريا ولبنان وفلسطين اليه فاتخذ الاجراءات الآتية :

---

(١٠) Memorandum by the Director op. cit.

(١١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٠ .

أولا : ارســـال عدة برقيات الى السير ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى يذكره فيها بحق الأسرة الهاشمية فى عرش ســـوريا منذ عام ١٩١٦ •

ثانيا : اتخاذ مجلس وزراء شرقى الأردن برئاسة الأمير عبد الله قرارا فى أول يوليو ١٩٤١ رحب فيه بتصريح المستر أنطونى ايدن وتحدث عن الوحدة بين البلاد السورية ، وليس الوحدة العـــربية ، وضمان الولاء للحلفـــاء •

ثالثا : بعث الأمير عبد الله فى ١٦ يوليو ١٩٤١ برسالة الى المستر « أوليفر لتيلتون » وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط تحدث فيها أيضا عن الوحدة السورية برئاسته هو •

رابعا : طالب الأمير عبد الله فى ٦ يناير ١٩٤٢ م بريطانيا بأن ترفع عنه الانتداب حتى يصبح مثل الدول الأخرى وليكون قادرا على تحقيق وحدة الأردن وسوريا(١٢) •

خامسا : كان الأمير عبـــد الله متخوفا من فكرة الوحدة العربية الشاملة حتى لا يفقد الزعامة ولذلك يبعث ببرقية الى نورى السعيد فى ٢٤ يونيو ١٩٤١ م يقول فيها ــ كما جاء فى كتاب الدكتور أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ما نصه : ان مسألة ايجاد وحدة عربية أو اتحاد عربى مسألة موهومة خطيرة ، لذلك فمن واجب بغداد وعمان السعى للسير على سياسة هاشمية موحدة مع صرف المساعى للقضاء على من يريد اخراج القضية العربية عن مبادىء النهضة الأولى فى القطر السورى الذى قام به تفاهم سعودى سورى لبنانى خطير •

---

(١٢) عبد الحميد محمد الموافى : مصر فى جامعة الدول العربية ص٧٢

وبذل الجهد لاحياء أنصار الثورة (يقصد الثورة العربية الهاشمية الكبرى) مرة أخرى بهذه الديار واعادة الدعوة الهاشمية(١٣) .

ونتيجة لهذه الجهود التى بذلها الأمير عبد الله كانت كل الاستجابات سلبية وتمثلت فيما يلى :

١ — بالنسبة لبريطانيا ، فقد طلبت من الأمير ارجاء النظر فى الموضوع لأنها كانت لا تريد ألا تورط نفسها بفرض أى مشروع اتحادى على الأقطار العربية ، وجاء فى الرد البريطانى ما نصه : ان كل تقارب مع الحكومة السورية أو أية حكومة أخرى من الحكومات التى تضعها حكومة شرق الأردن نصب عينيها ينبغى ارجاؤه ريثما تكون الحالة أكثر استقرارا(١٤) .

٢ — وبالنسبة للعراق فقد استقبل نورى السعيد مشروع سوريا الكبرى بعدم اكتراث نظرا لأنه كان ينوى التقدم بمشروع الهلال الخصيب بزعامة بغداد ، وأظهر أنه مشغول باستقرار الأوضاع الداخلية فى العراق بعد القضاء على ثورة رشيد عالى الكيلانى .

٣ — وبالنسبة لسوريا ولبنان فان الوطنيين هناك لم يرحبوا بمشروع الأمير عبد الله لقيام دولة سوريا الكبرى حيث اختاروا النظام الجمهورى ، وأجريت الانتخابات حيث تسلم الحكم هناك فى دمشق وبيروت الوطنيون عام ١٩٤٣ م .

٤ — وبالنسبة لمصر فيذكر الدكتور أنيس صايغ أن الأمير عبد الله كان يخشى أن تؤدى دعوة المستر أنطونى ايدن لتحقيق روابط بين الأقطار العربية التى وردت فى تصريحه المشار اليه سابقا الى أن تحتل

---

(١٣) د . أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر ص ١٤٣ .

(١٤) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٧٤ .

مصر الزعامة فى التحرك العربى باعتبارها أكبر الأقطـــار العربية ، ولذلك لم يفت الحكومة المصرية أن تستنكر محاولات الأمير عبد الله مد قوة الهاشمين الى سوريا الكبرى انطلاقا من موقف مصر التقليدى من سيطرة الهاشمين على هـــذه المنطقة(١٥) •

وهكذا تجمد مشروع سوريا الكبرى ، وبقى حلما يراود الأمـــير عبد الله ، حيثأصدر فى عام ١٩٤٧ م ما عرف باسم الكتاب الأبيض الأردنى الذى احتوى على وثائق هـــذا المشروع ، ولعل أهم عامل فى تجميد المشروع كونه يهدف الى فرض وحدة اقليمية ضيقة ولتحقيق مجد شخصى لحاكم عمان ، ودون موافقة شعوب أقطار سوريا الكبرى •

مشروع الهلال الخصيب

كان المشروع الوحدوى الثانى المطروح على الساحة العربية مشروعا هاشميا أيضا خرج من بغـــداد وخطط له نورى السعيد رئيس وزراء العـــراق عام ١٩٤٢ م ، وقدمه فى ديســـمبر من نفس العـــام الى « ريتشارد كيزى » وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط ونشر باسم الكتاب الأزرق(١٦) •

وقد اشتمل الكتاب الأزرق العراقى على دعوة لقيام اتحاد عربى يضم كلا من الأقطار العربية الآتيـــة :

١ ـــ دولة سوريا الموحدة التى تضم كلا من سوريا ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن •

٢ ـــ العـــراق •

---

(١٥) المرجع السابق : ص ٧٣ •

(١٦) د • صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٠ •

٣ ـ اعطاء الفرصة للأقطار العربية الأخرى للانضمام لهذا الاتحاد فى المســتقبل •

٤ ـ اعطاء اليهود المقيمين بفلسطين حكما ذاتيا[١٧] •

وعقب نشر الكتاب الأزرق العراقى قام الأمير عبد الله الوصى على عرش العراق ومعه نورى السعيد رئيس وزراء العراق بزيارة للقاهرة وتباحثا مع رئيس الحكومة المصرية آنذاك مصطفى النحاس بقصد الحصول على موافقة مصر أو على الأقل عدم معارضتها لقيام دولة الهلال الخصيب الاتحادية بزعامة العراق •

وشرح الجانب العراقى فكرة الاتحاد بأنه بين دولتين الأولى سوريا الكبرى والثانية العراق ، ويقرر سكان سوريا الكبرى بأنفسهم نظام الحكم ملكى أو جمهورى ، ويمكن أن ينضم لهذا الاتحاد الأقطار العربية الراغبة ، على أن ينبثق عن الاتحاد أو التجمع مجلس يدير شئونه ويرأسه أحد رؤساء الدول الأعضاء باتفاق بقية الدول الأعضاء ، ويكون المجلس مســئولا عن شئون الدفاع والشئون الخارجية وشئون المواصــلات والجمارك وحماية الأقليات[١٨] •

ان نظرة الى وثائق مشروع الهلال الخصيب كما جاءت فى الكتاب الأزرق العراقى يتضح الفرق بين هــذا المشروع ومشروع ســوريا الكبرى الأردنى ، ويتمثل هــذا الفرق فيما يلى :

١ ـ ان مشروع الهلال الخصيب لا يدعو الى اندماج تام بين ســوريا والعراق •

٢ ـ أن العراق لم يطالب بعرش دمشق كما فعل الأمير عبد الله •

---

(١٧) Memorandum by the Director.

(١٨) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٧٥ •

٣ ـ أن مشروع الهلال الخصيب يهدف الى اقامة اتحاد فيدرالى بين دولة سوريا الكبرى ـ التى تضم كلا من القطر السورى والقطر اللبنانى والقطر الفلسطينى والقطر الأردنى ـ ودولة العراق .

٤ ـ منح المشروع لليهود المقيمين آنذاك فى فلسطين استقلالا اداريا بدعوى آنهم لن يشكلوا خطرا يذكر وسط الدولة الكبيرة المقترحة .

٥ ـ هناك شبه بين مشروع سوريا الكبرى ومشروع الهلال الخصيب يتمثل فى أن الدوافع التى حركت الأمير عبد الله هى نفسها التى حركت نورى السعيد ، وأعنى طموح رجل السياسة وتحيق المجد الشخصى لا العربى[١٩] .

وكانت مواقف القوى المختلفة من المشروع على النحو الآتى :

أولا : على الرغم من أن نورى السعيد أعلن قرار العراق بالمشاركة فى الحرب مع الخلفاء ضد دول المحور فى يناير ١٩٤٣ عقب تقـديم مشروع الهلال الخصيب لبريطانيا ، فان الحكومة البريطانية ردت على المشروع بتصريح للمستر أنطونى ايدن وزير الخارجية البريطانى فـى مجلس العموم البريطانى بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٣م جاء فيـه : أن حكومة صاحب الجلالة الملك سوف تنظر بعين العطف نحو أية خطوة يخطوها العرب لتحقيق وحدتهم فى المجالات الاقتصادية والثقافية أو السياسية ، ويجب أن يكون واضحا أن الخطوة الوحدوية يجب أن تأتى من العرب أنفسهم ، وللآن فاننى ألاحظ أنه لم يطرح مشروع اتحادى يجد قبولا عاما بين العرب [٢٠] .

كان هذا الموقف البريطانى يمثل الوضوح نحو مشروع الهلال الخصيب الذى أدركت أنه لتحقيق مطامع شخصية ولا ينبع من العرب

---

(١٩) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١١ .

(٢٠) Lenczawski, G : op. cit. p. 636.

الذين يشملهم ، وبالتالى لا يجد قبولا عربيا عاما يستلزم من الحكومة البريطانية تأييده فتكسب بذلك مزيدا من العداوة من تلك الشعوب التى سيفرض عليها الاتحاد •

فاذا أضفنا الى ذلك عدم تسليم بريطانيا بفكرة دخول فلسطين فى دولة الاتحاد بزعامة الأمير عبد الله أو تلك التى يتزعمها الحكم الهاشمى فى العراق بسبب وعد بلفور للحركة الصهيونية أدركنا اعتراض بريطانيا من ناحية أخرى على مشروع الهلال الخصيب ، ولم يخدعها تأكيد المشروع على اعطاء حكم ذاتى لليهود المقيمين آنذاك فى فلسطين•

ثانيا : لم يرحب الوطنيون فى سوريا ولبنان بمشروع الهلال الخصيب بل رفضوه كما رفضوا من قبل مشروع سوريا الكبرى . واختاروا النظام الجمهورى وأعلن استقلال كل من سوريا ولبنان كدولتين ذات سيادة عام ١٩٤٣م •

ثالثا : لم يصدر عن الأردن ما يفيد الترحيب بمشروع الهلال الخصيب ، وظل الأردن متمسكا بمشروع سوريا الكبرى بدليل نشره فى الكتاب الأبيض الأردنى عام ١٩٤٧م •

رابعا : بالنسبة للسعودية فانها لم ترحب بالمشروع كما لم ترحب بمشروع سوريا الكبرى لأن أى قوة للهاشميين يثير قلق السعوديين باعتبار الهاشميين اعداء السعوديين منذ استولى الأخيرون على الحجاز من الملك على بن الشريف حسين فى عام ١٩٢٥م • كما لم يرحب نورى السعيد بانضمام السعودية للمشروع الاتحادى بدعوى أن السعودية متخلفة اقتصاديا مع العراق •

خامسا : بالنسبة لمصر فان نورى السعيد رغم طلبه عدم اعتراض مصر على اقامة الاتحاد أثناء زيارته مع الأمير عبد الله الوصى على عرش العراق لمصر المذكورة سابقا ، الا أنه لم يطلب انضمام مصر الى

الاتحاد بحجة أن مصر سكانها كثيرون بقدر سكان الهلال الخصيب أو أكثر كما أن لها مشاكلها الخاصة بالسودان . ولذلك من الطبيعى أن تعارض مصر مشروع الهلال الخصيب واتفقت فى ذلك مع السعودية(٢١) .

مصر والوحـــــدة العربيـــة

قد يقع البعض فى خطأ عند دراسة قضية الوحدة العربية بأن الحكومة البريطانية هى صاحبة الاهتمام الأول بهذه الفكرة بدليل تقــديم حكام الأسرة الهاشمية فى الأردن والعراق لمشروعاتها الوحدوية الى الحكومة البريطانية ، وهذا فى رأينا تشويه لتاريخ العرب الحديث والمعاصر ، اذ أنه يصور بداية حركة الاتحاد العربى وكأنها من صنع بريطانيا وليست استجابة لدوافع وطنية نابعة من داخل الشعب العربى(٢٢) بينما كان العرب يدركون أن سياسة بريطانيا Deuide and ro.e أى « فرق تسد » ولذلك من الضرورى اقتراح الوسائل لتحقــيق الوحدة العربية (٢٣) .

ومما تجب ملاحظته أن مشروع سوريا الكبرى ومشروع الهلال الخصيب مشروعات لا تحقق الأمانى العربية حيث هدفت هـــذه المشروعات الى تحقيق وحدة اقليمية ضيقة فى منطقة من العالم العربى لتحقيق مصالح شخصية لحكام عمان وبغداد ، ولعلنا لا نجافى الصواب اذا قلنا ان فشل هذين المشروعين يرجع فى جانب منه على الأقل الــى استبعاد مصر من الانضمام الى أيهما ، بمعنى أن مصر لم تدع للإشتراك فى أى من المشروعين ، وفى رأيى أنه لو شاركت مصر فى أى من

---

(٢١) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٧٥ .

(٢٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٩٥ .

(٢٣) Fisher S. : The Middle East, AHistory, p. 571.

المشروعين لما تحق لحكام عمان أو بغداد فرصة الزعامة فى أى من الاتحادين المقترحين [٢٤] .

وانطلاقا من هذا نرى أن فكرة انشاء جامعة الدول العربية كشكل من أشكال الاتحاد العربى ولدت فى مصر وتقررت بين الأقطار العربية على أرض مصر ، ولهذا تهيأ لها البقاء الاستمرار منذ قيامها الى الآن ، وليس هذا بغريب على موقف مصر من العروبة اذ وقفت مصر باستمرار الى جانب الشعوب العربية فى كفاحها لنيل استقلالها حتى ومصر تناضل لاجلاء قوات الاحتلال البريطانى عن أراضيها .

وهذا لا ينفى أن كثيرين من المصريين اعتقدوا حتى أوائل الأربعينيات من القرن العشرين بوجوب اعطاء الأولوية فى أية جهود تشارك فيها مصر لتحقيق الوحدة العربية الى وحدة وادى النيل ، وهى الوحدة القائمة على أسس جغرافية طبيعية والتى يظهر فيها عامل المصلحة بصورة أوضح[٢٥] .

واذا تتبعنا تطور فكرة الاتحاد العربى فى مصر لوجدنا ذلك يرجع الى العشرينيات من القرن العشرين حيث نشرت صحيفة الأهرام القاهرية مقالا فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٤م فى أثناء حكم سعد زغلول بعنوان « الوحدة العربية » جاء فيه : ان الطريقة المثلى لتحقيق الوحدة العربية هى أن يعقد حلف بين أمراء وملوك البلاد العربية أساسه استقلال كل حكومة ثابتة فى ادارة بلادها مع اتفاق الجميع على صيانة البلاد كلها من كل عدوان أو نفوذ خارجى والتعاون على انقاذ البلاد العربية التى احتلتها الأجانب بالطرق الممكنة وأن يكون لهم مجلس حلفى

---

(٢٤) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٣١ .

(٢٥) د . انيس صايغ : المرجع السابق ص ٦٤ .

تقرر فيه جميع المسائل العامة المتعلقة بحفظ استقلال البلاد وترقيتها[٢٦].

وفى يوليو سنة ١٩٣٨م صرح مصطفى النحاس بأنه يحبذ فكرة الوحدة العربية وقال : حبذا لو مهدت السبيل بعد نجاح هذه الفكرة من الناحية الأدبية الى تعاون سياسى يحتفظ فيه كل شعب بمركزه السياسى بحسب ظروفه ومقتضيات أحواله . كما أن على ما هو قال فى نفس العام : ان وحدة العرب ستحقق فى يوم من الأيام ان عاجلا أو آجلا على أن يكون استقلال كل قطر من الأقطار معترفا بحدوده ثم ايجاد مجلس عام يضم أعضاء من كافة الدول العربية المستقلة [٢٧] .

كما أنه فى عام ١٩٤٢ م تأسس فى مصر « الاتحاد العربى » برئاسة فؤاد أباظة كحركة شعبية لتحقيق الاتحاد بين الدول الناطقة بالعربية ، وتضمن قانونه أن الغرض منه هو تنمية العلاقات وتقوية الروابط بين الأقطار العربية ، وأن الاتحاد العربى لا ينبغى جمع البلدان العربية تحت حكم سياسى واحد ولا يفرض عليها جميعا نظاما واحدا فى الحياة وانما تبقى كل آمة من أممه مستقلة قائمة بذاتها تختار لنفسها ما يوافقها من نظم الحكم وصور الحياة[٢٨] .

هذه امثلة لاتجاهات الرأى العام والمسئولين فى مصر نحو فكرة الوحدة العربية ، ومع ذلك لم تفرض مصر شكلا معينا للوحدة العربية ، واذا كانت مصر أخذت زمام المبادرة فى الدعوة لبحث تشكيل منظمة تحقق أمل العرب فى الوحدة دون أن تطرح حكومة مصطفى النحاس شكلا معينا من أشكال الوحدة[٢٩] ، وأن تبنى تلك الحكومة لقضية

(٢٦) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٨٤ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٨٥ .

(٢٨) نفس المرجع والصفحة .

(٢٩) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٣٢ .

الأتحاد العربى نزل بهذه الفكرة الى جمهور الشعب المصرى وقر بها اليه بحكم شعبية حزب الوفد(٣٠) .

كانت هناك ظروف ساهمت فى التحرك المصرى لتحقيق فكرة الوحدة العربية على أرض مصر ، تمثلت تلك الظروف فيما يلى :

أولا — الظروف الداخلية فى مصر :

وتتمثل هذه الظروف فى استقرار الأمور الداخلية بعد معاهـدة عام ١٩٣٦م بين مصر وبريطانيا من ناحية وبعد هزيمة الألمان فى العلمين مما أبعد خطر الحرب عن الأرض المصرية ، بالاضافة الى تولى مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد رئاسة الحكومة المصرية فى فبراير سـنة ١٩٤٢م ، وهى حكومة لها قواعد شعبية كبيرة ، وكان النحاس يميـل الى القيام بدور عربى لتدعيم مكانته عربيا واسلاميا ، هذا الى جانب أن اتجاه مصر العربى يمثل خطا أساسيا فى السياسة المصرية نحـو المنطقة العربية (٣١) .

ثانيا — الظروف الخارجية :

وتمثلت هذه الظروف فى المواقف العربية والمواقف الدولية ، فعلى الصعيد العربى وقفت مصر ضد المشروعات الهاشمية السابق الاشارة اليها ، وساندتها المملكة العربية السعودية التى قويت علاقتها بمصر بعد عقد معاهدة بين البلدين للصداقة والأخوة عام ١٩٣٦م ، كما صار هناك اقتناع عربى بأهمية دور مصر القيادى فى أى عمل عربى انطلاقا من سبق مصر فى المجال الحضارى وثقلها السكانى بالمقارنة بالأقطار العربية المستقلة آنذاك (٣٢) .

---

(٣٠) د . صلاح العقاد . المرجع السابق ص ٦١٢ .

(٣١) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٧٨ .

(٣٢) The American Assembly : The United State and the Middle East, .. p. 14.

وعلى الصعيد الدولى كان التصريح البريطانى الصادر فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٣م بمثابة التأييد البريطانى لتحركات العرب من أجل وحدة بلادهم ، على الرغم من أن هذا التصريح البريطانى استهدف تحقيق المصالح الاستراتيجية البريطانية ، كما كان للولايات المتحدة الأمريكية موقف محدد بناء على استيضاح من السعودية ، ويقول الموقف الأمريكى ان الولايات المتحدة ترغب أن ترى أقطار الشرق الأدنى تسترد حرياتها وتنمى امكاناتها الاقتصادية والاجتماعية ، كما أن الحكومة الأمريكية تتعاطف تماما مع أمانى أقطار الشرق الأدنى الأخرى فى الاستقلال التام ، وتمشيا مع ذلك فانه من الطبيعى اذا قررت هذه الشعوب بمحض اختيارها أن اتحادها مع بعضها فيه فائدتها ، فان الولايات المتحدة سوف تنظر لهذه الرغبة العربية بعين العطف .

وأضاف الرد الأمريكى الى ما سبق بأنه طالما اتخذت الأقطار المعنية قرارها الخاص . فانه يبدو لحكومة الولايات المتحدة أن الأحداث والمشكلات خلال السنوات القليلة الماضية قد أظهرت أن أقطار الشرق الأدنى تحتاج الى تعاون أكبر لتدعيم النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وأن أولى خطوات الاتحاد بين الأقطار العربية يجب أن تضع فى الاعتبار الأخذ بهذه النواحى أولا (٣٣) .

كان هذا الرد الأمريكى على الاستيضاح السعودى موضحا التأييد الأمريكى لتحقيق الاتحاد العربى فى جميع النواحى ما عدا الناحية السياسية ، وهو التأييد الذى جاء بعد التصريح البريطانى ، كما أن هذا الموقف الأمريكى يتمشى مع التحفظات السعودية بخصوص الوحدة السياسية بين الأقطار العربية .

كانت هذه الظروف الداخلية والدولية الخارجية مجتمعة دافعا

(٣٣) The Acting Secretary of State to the Minister in Egypt (kirk) . washington, October 26, 1943.

للتحرك المصرى لجمع شمل الأقطار العربية المستقلة آنذاك • العراق، سوريا ، لبنان ، الأردن ، السعودية ، اليمن • وجاءت المبـــادة المصرية فى شكل توجيه دعوات من مصطفى النحاس الى رؤساء الحكومات العربية لزيارة القاهرة كل على حدة ، ومناقشة الموضـــوع مع رئيس الحكومة المصرية مصطفى النحاس وذلك فى صيف عام ١٩٤٣م [٣٤] •

لم توضح مصر آراءها وتصورها لما يجب أن تكون عليه الوحدة بين الدول العربية أثناء المشاورات التى أجراها مصطفى النحاس رئيس الحكومة المصرية بشأن الوحدة العربية نظرا لأنها قامت بدور المقرب بين الدول العربية باعتبار أن مصر الدولة القائمة التى جاءتها الـــدول الأخرى كل على حدة لتبثها آمالها ومخاوفها ووجهات نظرها وتترك لمصر القيام بدور التوفيق بين كل الدول العربية للوصول فى النهاية الى تصور مشترك يجمع البلاد العربية جميعا[٣٥] •

استقبل مصطفى النحاس أول رئيس حكومة عربى قبل الدعـــوة المصرية ، وكان نورى السعيد رئيس وزراء العراق الذى وصل الى القاهرة فى ٣١ يوليو سنة ١٩٤٣ م ، وقد عبر نورى السعيد عن استحالة قيام حكومة مركزية لتفاوت الأقطار العربية من حيث التطور والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، واقترح نموذجين ممكنان للاتحاد هما :

أولا : انشاء هيئة تنفيذية لها صفة الالزام مع تمتع كل قطـــر بمعظم امتيازات السيادة •

وفى هذه الحالة يجب تمثيل كل دولة حسب سكانها ومساحتهـــا وامكانياتها الاقتصادية •

---

(٣٤) د • رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٣٢ •

(٣٥) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٨٦ •

ثانيا : تكوين هيئة تمثل الدول العربية المستقلة لتتشاور في الشئون المشتركة ولا تنفذ قراراتها الا بالنسبة للحكومة التي تقبلها ، وفي هذه الحالة يمثل جميع الأعضاء بالتساوى[٣٦] .

وعندما استقبل مصطفى النحاس السيد توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٤٣م ، ركز توفيق أبو الهدى على رغبة الأردن في تكوين سوريا الكبرى قبل الحديث في اتحاد عربي عام ، وذكر أنه اجميعا نركن في تحقيق هذه الأمنية الى رفعة النحاس باشا زعيم الأمة العربية • وعندما أشار النحاس الى صعوبة تحقيق مشروع سوريا الكبرى عرض توفيق أبو الهدى وجهة نظره والموافقة للنموذج الثاني الذي عرضه نورى السعيد لتحقيق التعاون مع الدول العربية في النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، والتعاون السياسي بقدر ما يتفق مع قيود المعاهدة البريطانية الأردنية[٣٧] .

وعندما استقبل مصطفى النحاس الشيخ يوسف ياسين السكرتير الخاص للملك عبد العزيز آل سعود ومندوبه في المشاورات العربية، أعرب المندوب السعودى عن رغبة بلاده في تقوية العلاقات الأخوية مع مصر ، وأكد على معارضة السعودية لفكرة سوريا الكبرى ، كما أنه أظهر معارضة السعودية على ايجاد أي تعاون في المجالات السياسية وطالب بأن يقتصر التنسيق بين الدول العربية على الشئون الثقافية والاقتصادية ، وأبدى استعدادا لتوثيق الروابط السياسية مع مصر بصفة خاصة ، ولعل الدافع الى هذا الموقف هو استمرار الخوف من أن تستخدم فكرة الاتحاد العربي لخدمة مصالح الهاشميين[٣٨] .

---

(٣٦) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٣ .

(٣٧) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٣ .

(٣٨) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٣ .

وبالنسبة لسوريا فقد ذكر رئيس وزرائها سعد الله الجابرى فى مقابلته مع مصطفى النحاس فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٣م أن بلاده ترفض مشروع سوريا الكبرى ، وأنها تطالب ببعض أجزاء لبنان التى انتزعت منها ، وان سوريا تؤثر أقوى أداة للتعاون بين الأقطار العربية وهى الحكومة المركزية ، وان كانت لا تجهل ما يقوم فى سبيل ذلك من عقبات، فاذا تعذر ذلك أقيم نظام آخر من الاتحاد أو الاتفاق أو الحلف تستمد قواعده ونظمه من أوضاع متشابهة عند الأمم الأخرى التى عالجت مثل هذه المشاكل[٣٩] .

وبذلك كان الوفد السورى هو الوحيد الذى أظهر استعدادا حقيقيا للتنازل عن السيادة الاقليمية لصالح حكومة اتحادية عربية ، على أن يشمل الاتحاد جميع الأقطار العربية المستقلة ، واعترض على اقامة اتحاد جزئى مع العراق أو مع الأردن لاختلاف نظم الحكم[٤٠] .

وعندما استقبل مصطفى النحاس السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان ، ركز رئيس الوزراء اللبنانى على ضرورة أن تتفهم الأقطار العربية موقف لبنان المتحفظ من الوحدة العربية تفهما يجعلها تعترف بكيانه وحدوده الحالية باعتباره دولة مستقلة ذات سيادة على أن يكون التعاون بين لبنان والأقطار العربية الأخرى قائما على أساس السيادة والمساواة ، ومن الطبيعى أن يحرص لبنان على تأكيد سيادته واستقلاله بحدوده الحالية فى مواجهة المشروعات الهاشمية أو المطالب السورية[٤١] .

وبالنسبة لليمن فقد أعرب ممثلها « حسين الكبسى » عن استعداد بلاده للتعاون مع المحافظة على استقلال وسيادة كل دولة عربية مع

---

(٣٩) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٩٥ .

(٤٠) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٤ .

(٤١) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ٩٥ .

تحقيق المساواة بين الدول العربية جميعا • وبذلك كانت اليمن كالسعودية ولبنان ذات المواقف المتحفظة بالنسبة لقضية الوحدة العربية •

وعندما انتهت المشاورات التمهيدية دعت مصر الى عقد لجنة تحضيرية للمؤتمر العربى العام تضم ممثلى الدول العربية التى اشتركت فى تلك المشاورات ، وبدأت اللجنة اجتماعاتها بالاسكندرية فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٤٤م ، ورغم تباين وجهات نظر حكومات الدول العربية السبع المشتركة فى الاجتماعات بين متشكك فى امكانية قيام اتحاد بين الدول العربية وبين مؤيد بحماس لمثل هذا الاتحاد وبين متحفظ بالنسبة للنواحى السياسية ، فقد أقر اجتماع الاسكندرية ما عرف باسم بروتوكول الاسكندرية الذى صدر فى ٧ اكتوبر ١٩٤٤[٤٢] •

وجاء نص بروتوكول الاسكندرية — بعد ادخال التعديلات على المشروع المصرى — على النحو التالى : تؤلف جامعة للدول العربية من الدول العربية المستقلة التى تقبل الانضمام اليها ، ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى مجلس جامعة الدول العربية تمثل فيه الدول المشتركة فى الجامعة على قدم المساواة ، وتكون مهمته مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول فيما بينها من الاتفاقات ، وعقد اجتماعات دورية لتوثيق الصلات بينها وتنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون فيها وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء بالوسائل الممكنة وللنظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها •

ويضيف البرتوكول : وتكون قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها فيما عدا الأحوال التى يقع فيها خلاف بين دولة عربية من أعضاء المجلس وأخرى ويلجأ فيها الى المجلس لفض هذا الخلاف أو يخشى معه وقوع حرب بينهما ، ففى هذه الأحوال تكون قرارات مجلس

(٤٢) د • رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٣٢ •

الجامعة نافذة ملزمة ، ويستثنى من ذلك مسائل السيادة والحدود الحاضرة باعتبار هذه الحدود محترمة بوضعها الحالى .

كما أضاف البروتوكول القول بأنه لا يجوز على كل حال الالتجاء الى استعمال القوة لفض المنازعات بين دولتين من دول الجامعة ، كما لا يجوز اتباع سياسة خارجية ضارة بسياسة مجموعة هذه الدول العربية وتؤلف منذ الآن لجنة فرعية من أعضاء اللجنة التحضيرية لاعـداد مشروع لنظام مجلس الجامعة ولبحث المسائل السياسية التى يمكن ابرام اتفاقات فيها بين الدول العربية (٤٣) .

وقع ممثلو الأقطار العربية . مصر والعراق وسوريا ولبنان وشرقى الأردن على بروتوكول الاسكندرية فى يوم ٧ اكتوبر ١٩٤٤م ، بينما وقعت السعودية على البروتوكول يوم ٣ يناير ١٩٤٥ ووقعـت اليمن علـى البروتوكول فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥م . وبدأت اللجنة الفرعية السياسية المشكلة من ممثلى الدول العربية الأعضاء فى اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام اجتماعاتها برئاسة محمود فهمى النقراشى وزير الخارجيـة المصرية ، وذلك يوم ١٤ فبراير ١٩٤٥م وذلك لوضع مشروع ميثاق لمجلس جامعة الدول العربية .

وقد صدر الميثاق فى ٢٢ مارس ١٩٤٥م بتوقيع أعضاء االجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام فى قصر الزعفران بالقاهرة ، وقد صارت القاهرة مقرا لمجلس الجامعة ولأجهزتها واختير عبد الرحمن عزام أول أمين عام للجامعة العربية .

وقد جاء الميثاق أضعف من بروتوكول الاسكندرية فى تأكيـد الروابط بين الدول الأعضاء بسبب كثرة التحفظات التى أبداها معظـم

---

(٤٣) عبد الحميد الموافى : المرجع السابق ص ١٠٥ — ١٠٩

المندوبين فلم يظهر فى الميثاق النص الوارد فى البروتوكول والقائل بأنه : لا يجوز فى أية حال اتباع سياسة خارجية تضر بسياسة جامعة الدول العربية أو أية دولة منها ، كما حذف من البروتوكول النص على تدعيم الروابط بين الدول العربية فى المستقبل ، وحلت محله المـادة التاسعة فى الميثاق التى تخول الدول الراغبة فى اقامة روابط أقوى أن تعقد ما تشاء من اتفاقات فيما بينها .

كما لم يحتو الميثاق على نص يدعو الى ضرورة اتخاذ موقف موحد فى الأمم المتحدة ، وأكدت المـادة الخامسة من الميثاق أن نظر مجلس الجامعة فى الخلافات بين الدول الأعضاء اختيارى ولا يلزم الا اذا اتفق الطرفان المتنازعان على قبول حكمه مقدما . ولم تنشأ محكمة عـدل عربية ، ولم تؤكد الدول العربية على عرض المشكلات بينها على مجلس الجامعة (٤٤) .

وهكذا ولدت جامعة الدول العربية التى هى جامعة للحكومـات أو الدول وليست جامعة للشعوب ، ومع ذلك ورغم السـلبيات التى عرضناها فانها كانت تمثل الحد الأدنى الذى استطاع الحكام العـرب الاتفاق عليه ، واذا كانت هناك سلبيات ، فان هناك ايجابيـات تمثلت فى الوحدة الثقافية العربية ، ومحاولة ايجاد الوحدة الاقتصادية العربيـة الى جانب قيام كثير من الأجهزة والمنظمات العربية مثل : الاتحاد العربى للمواصلات السلكية واللاسلكية ، والاتحاد العربى للنقل البحرى .. الخ .

واذا كان لمصر الدور الرائد فى ظهور الجامعة العربية كشكل من أشكال الاتحاد العربى ، فان مصر استمرت فى اتجاهها العربى ، ولذلك شاركت فى كثير من التجارب الوحدوية الآتية :

١ — مشروع الوحدة السورية المصرية التى استمرت من فبراير ١٩٥٨ الى سبتمبر ١٩٦١م .

---

(٤٤) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦١٥ . ؟

٢ ــ اتحاد الدول العربية المتحدة الذى ضم اليمن الى جانب مصر وسوريا فى ٨ مارس ١٩٥٨ الى ثورة اليمن فى سبتمبر ١٩٦٢ م •

٣ ــ مشروع الاتحاد المصرى العراقى السورى فى ١٧ ابريل ١٩٦٣م ، ولكنه لم يتحقق بسبب اصرار البعثيين فى العراق وسوريا على سيادة حزب البعث أمام رغبة عبد الناصر فى حل الأحزاب • •

٤ ــ ميثاق طرابلس عام ١٩٦٩م بين مصر وليبيا والسودان ويهدف الى التنسيق بين الأقطار الثلاثة فى المجالات المختلفة •

٥ ــ اتحاد الجمهوريات العربية الذى يضم كلا من مصر وليبيا وسوريا وهو اتحاد كونفدرالى استمر قائما من عام ١٩٧١ م الى عام ١٩٧٨ م •

وثائــــق

نسوق فيما يلى أقوال رؤساء الوفود العربية الى مصر لمناقشــة قضية الاتحاد العربى عن مصر وريادتها للفكرة العربية : من كتاب صادر عن جامعة الدول العربية عام ١٩٤٩ تحت عنوان : ملخص محاضر المشاورات • •

قال توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن : أرجو من رفعة الرئيس مصطفى النحاس ، وهو الذى تفضل بالدعوة الى جمع كلمة البــلاد العربية أن يساعد بما لمصر من مركز وبما لرفعته من نفوذ شخصى بصفته صاحب الزعامتين فى المملكة المصرية على أن ننال نحن الأقطار الأربعة المكونة لسوريا الكبرى ما نصبو اليه •

وقال سعد الله الجابرى رئيس وزراء سوريا : ان دمشق تعترف وتسلم بزعامة مصر راضية مختارة ، وهى لا تقول ذلك اعتباطا بل نتيجة

تفكير عميق ودراسة للواقع ، فان وراء مصر تاريخا من الجهاد القومى، وقد نشأ فيها رجال يستطيعون أن يتولوا توجيه القضية العربية بما لديهم من مزايا ووسائل فسوريا مستعدة للسير وراء مصر .

وقال حمدى الباجهجى رئيس وزراء العراق فى اجتماع الاسكندرية: ان هذه الفكرة تأسيس كيان سليم وصالح من أجزاء البلاد العربية المشتتة ، التى جابهت كثيرا من العقبات والمصاعب وجدت فى اجتماعها هذا الذى تفضلتم بافتتاحه — يقصد النحاس باشا — فى مصر العزيزة ، ووجدت فى رعاية مصر واهتمامها خير ضمان لتأييد نجاحها وتحقيقها تحقيقا يتفق مع آمالنا الغالية .

وقال سليم تقلا وزير خارجية لبنان فى اجتماع الاسكندرية أيضا : أن لبنان ليغتبط لتلبية هذه الدعوة التى كان لمصر فضل ارسائها ومصر سباقة الى المكارم والمفاخر وتوطيد الصلات الأخوية .

وقال حسين الكبسى مندوب امام اليمن الامام يحيى فى اجتماع الاسكندرية كذلك : أسجل شكرى لصاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا على الجهود التى بذلها ويبذلها فى سبيل تحقيق غاية هذ هالاجتماعات السعيدة التى تعلق عليها الأمة العربية عظيم الآمال .

وقال الشيخ يوسف ياسين ممثل السعودية : أقف فأحيى مصطفى مصر الذى كان له الفضل الأوفى والمسعى المبرور فى جمعنا بهذا البلد لخير العرب .

أعلن وزير العدل المصرى فى مجلس الشيوخ المصرى فى ٣٠ مارس ١٩٤٣م نيابة عن رئيس الوزراء المصرى مصطفى النحاس ما نصه :

« اننى معنى من قديم بأحوال الأمة العربية والمعاونة على تحقيق آمالها فى الحرية والاستقلال . وقد خطوت فى ذلك خطوات واسعة

صادفها التوفيق فاتجه الحكم فى بعض الأقطار العربية الاتجاه الشعبى الصحيح • فمنذ أعلن المستر ايدن تصريحه فكرت فيه طويلا •• ولقــد رأيت أن الطريقة المثلى التى يمكن أن توصل الى غاية مرضية هى أن تتناوله الحكومات العربية الرسمية • •

« وانتهيت من دراستى الى أنه يحسن بالحكومة المصرية أن تبادر باتخاذ خطوات رسمية فى هذا السبيل فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات المختلفة فيما ترمى اليه من آمال كل على حدتها ثم تبذل جهدها للتوفيق والتقريب بين آرائها ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ثم تدعوهم بعد ذلك فى اجتماع ودى لهذا الغرض حتى تبدأ المسعى للوحدة العربية نوجهــة متحدة بالفعل • فاذا ما تم التفاهم أو كاد وجب أن يعقد فى مصر مؤتمــر برياسة الحكومة المصرية لاكمال بحث الموضوع واتخــاذ ما يراه من القرارات محققا للأغراض التى تنشدها الأمة العربية •

« هذى هى خير السبل للسير فى الموضوع سيرا يكفل له النجاح ويضمن له التوفيق • وقد استقبلت يوم السبت الماضى ١٧ مارس معالى تحسين العسكرى وزير داخلية العراق • ودولة جميل بك المدفعى رئيس وزرائها السابق ، وتحدثت معهما فى الأمر وأطلعتهما على خطتى هذه وبدأت تنفيذهــا •

« فوجهت الى فخامة نورى السعيد باشا رئيس الحكومة العراقية دعوة رسمية حملها تحسين العسكرى ، حتى اذا ما وافق فخامته على هذه الخطوات استطرد البحث الى آراء العراق فى الموضوع بجميــع أطرافه من سياسيه واقتصادية واجتماعية وبخاصة السياسية • وسأوجه بعد ذلك الدعوة تلو الدعوة للحكومات العربية المختلفة وأستقصى من مندوبيها الواحد بعد الآخر عن ذات الموضوع ، فاذا ما انتهيت من هذه المباحثات التمهيدية ورأيت منها ما يبشر بالنجاح كما أرجو دعت الحكومة المصرية الى عقد مؤتمر فى مصر لاكمال بحث الموضوع واتخاذ ما يراه من القرارات محققا للاغراض التى تنشدها الأمة العربية » •

الفصل الثاني عشر

منظمة المؤتمر الاسلامي

- مقدمة ٠
- الوحدة الاسلامية ٠
- مشكلات العالم الاسلامى المعاصر ٠
- منظمة المؤتمر الاسلامى :

● عوامل قيامها :

١ – مشكلات الاقليات الاسلامية ٠

٢ – مشكلات التخلف الحضارى ٠

٣ – حرج موقف الجامعة العربية ٠

٤ – حريق المسجد الأقصى ٠

● مؤتمراتها ٠

١ – المؤتمر الأول بمدينة الرباط ٠

٢ – المؤتمر الثانى بمدينة جدة ٠

٣ – المؤتمر الثالث بمدينة كراتشى ٠

٤ – بقية المؤتمرات ٠

٥ – مؤتمر القمة بالكويت يناير ١٩٨٧م ٠

● مقـــــــدمة :

يعتبر قيام منظمة المؤتمر الاسلامى فى شهر رجب عام ١٣٩٨هـ الموافق لشهر سبتمبر عام ١٩٦٩م تجسيدا لفكرة الوحدة الاسلامية التى ترجع الى ظهور الاسلام فى شبه الجزيرة العربية وما اتصل به ما يمكن تسميته بالحركة العربية التى ظهرت بها قوة اللغة العربية التى رافقت الاســلام كدين فى انتشاره السريع قد أثرت على المجتمعات التى انتشر بها من القرن السابع الميلادى حتى الوقت الحاضر وظهر تأثيرها فى جميع نواحى حياة الانسان المسلم .

وتعتبر المرحلة الاولى لظهور الاسلام وانتشاره هامة نظرا لظهور عوامل أساسية أدت الى وحدة الثقافة الاسلامية اب الوحدة الاسلامية وجوهرها ، وهذه العوامل هى :

١ — الوحدة الروحية التى جمعت الشعوب الاسلامية عربية وغير عربيـــة .

٢ — ارتباط الدين بالسياسة ، فقد كان خليفة المسلمين هو الزعيم السياسى الى جانب كونه الزعيم الدينى للمسلمين ، مما ساعد على أن يكون للدين الاسلامى أثر عميق فى كل مرافق وميادين الحياة فى أنحاء العالم العربى والاسلامى .

٣ — شيوع مبادىء الأخاء والمساواة التى تحطم الحواجز بــين الناس دون النظر الى الجنس أو اللون ، وهذه المبادىء تستند الى الشرائع السماوية التى أتى بها الاسلام .

وقد انتشر الاسلام بمبادئه الروحية والاجتماعية والسياســـية والفكرية خارج شبه الجزيرة العربية ، ووصل فى انتشاره الى مختلف قارات الأرض ، فقد أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى الى « تونازنى » على حدود الصين فى عرض ما بين « فازان » من جهة الشمال

وبين « سرنديب » تحت خط الاستواء اقطارا متصلة وديارا متجاورة يسكنها المسلمون وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب[1] .

وكانت حركة انتشار الاسلام قوية نشطة فى بدايتها حتى بدأ كأن الأقطار التى انتشر بها تكون كتلة اسلامية متماسكة قوامها أن المسلمين مهما بعدت بينهم الديار التى يسكنونها ، وتباينت اللغات واختلفت الأجناس ، هم أصحاب وحدة فى التوجيه وأصحاب وحدة فى اعتبار المصدر المقدس الأكبر — وهو القرآن الكريم — لواء يلتف المسلمون جميعا تحت رايته ، وهذا كان كفيل بتقوية أواصر الوحدة الروحية وبعث النهضة الاسلامية القوية الجديرة بالقيادة والتوجيه لخير الانسانيــة موجهة نحو بناء مجتمع قوى الدعائم متكامل الروابط فى ظل الأخاء والاســلام .

ولا يقلل من هذه الوحدة الاسلامية ما تقتضيه طبيعة التفكير من اختلاف وجهات النظر فى الاستنباط والتدليل ، وما تمليه سنن الاجتماع من التسابق الذهنى ، فى الوصول الى الحقائق العلمية ، فهذا خــلاف مرغوب يدل على الثروة الفكرية والعظمة الاسلامية التى حررت العقول وأرهفت الأفكار وشحذت الأذهان ولم تحبسها فى حيز محدود أو نطاق محصور .

كما أن اجتهاد المجتهدين قدم للامة الاسلامية تراثا فكريا خالدا أنتجته البقريات التشريعية من أئمة المذاهب الاسلامية الكبرى . وهذا التراث الفكرى يعتبر بحق موضع اعتزاز تفخر به الأمة الاسلاميــة لأنه يدل على رحابة الفكر وسعة الأفق،أما الأمة الاسلامية — وان تعددت فيها المذاهب — أمة واحدة بحكم ما اتفقت عليه من المواضع التى ربطت بينها ، ولها مواضع تختلف فيها باختلاف العقول ، ووضوح الدلالات وتغير المصالح والأحوال ، والأمة بحكم ما اتفقت عليه أمة واحدة بحكم

---

(1) جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده : العروة الوثقى ص ١٠٧ .

ما اتفقت عليه من المواضع التى ربط تبينها • ولها مواضع تختلف فيهـا باختلاف العقول ، ووضوح الدلالات وتغير المصالح والأحوال ، والأمة بحكم ما اتفقت عليه أمة واحدة ، وبحكم ما اختلفت فيه مذاهب متعددة، والمذهبية لا تخرج عن اعتبارهم لبنات من بناء الأمة الاسلامية الواحدة مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : وأن هذه أمتكـم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون : صدق الله العظيم •

وهكذا ظهرت الوحدة الاسلامية عقيدة وسياسة فقامت الدولة الاسلامية الواحدة التى تعرضت لانتكاسات بسبب اغفال حكامها لجوهر التاريخية المعاصرة للامة الاسلامية رجالا سعوا الى احياء أمجادها وبعث العقيدة وأصول الفقه والتشريع الاسلامى ، الى أن قيض الله فى الفترة نهضتها ، وكانت منظمة المؤتمر الاسلامى هى الرمز الذى اجتمع حوله المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها وسيبقى هذا الرمز ان شاء الله منارا على بعث الأمة الاسلامية فى مواجهة التحديات المعاصرة •

● **الوحـــدة الاسلامية :**

وبهذا يتضح أن الوحدة من الزم الفرائض الواجبة على الأمـة الاسلامية ، وأن المسلمين يتحتم عليهم أن يعيشوا دائما متضامنين ، وهم يد على ن سواهم ، وأن كيانهم وبقاءهم متوقف على هذه الوحدة ، وعلى الاقل فى الأهداف والغايات اذا أجيز التعدد فى الوسائل بحسب ما تمليه مصالح الشعوب ، ومن أهم الأهداف أن تقف الأمة الاسلامية كلها صفا واحدا أمام الأعداء وعلى الأمة الاسلامية أن توجد من الهيئـات والمؤسسات ما يؤدى الى تحقيق غايات الدفاع والحماية والتنسـيق بين سياساتها ، ويجب أن يكون واضحا أن الدولة الاسلامية أعم وأشمل من الدولة السياسية ، لأن الدولة الاسلامية ذات وظائف مادية وروحية فى وقت واحـد •

وازاء تطلع المسلمين الى وحدتهم بدأت الاتجاهات المعادية للوحدة

الاسلامية تقوم بدور خطير لهدمها ، وحقيقة الأمر أن الوحدة الاسلامية تعرضت لعوامل تفكك من الداخل وعوامل غزو من الخارج — كما سبق أن رأينا — أما عوامل التفكك الداخلى فقد تمثلت — كما هو معلوم — فى قيام امارات ودويلات اسلامية هنا وهناك فى أنحاء الأمة الاسلامية منسلخة من الكيان الاسلامى العام،الى جانب ما أصاب المسلمين منجمود فكرى وخلافات مذهبية وسياسية شديدة أبعدتهمعنوحدتهم المتوارثة[٢] .

وأما العوامل الخارجية المعادية للوحدة الاسلامية — وكما هو معلوم كذلك — فقد تمثلت فى الغزوات المغولية والصليبية فى العصور الوسطى للدولة الاسلامية ، ثم فى الغزوات الاستعمارية الأوروبية فى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بصفة خاصة .

ومكمن الخطورة فى هذا الاستعمار الأوروبى هو ما ارتبط به من جهد بذله الاستعماريون لكى يحطموا الوحدة الاسلامية ، وقد نجح الاستعماريون فى تمزيق وحدة العالم الاسلامى وتفريق شمله وما نشروه من مذاهب فلسفية هدامة ، وما بثوه من أراجيف وشكوك حاولوا بها طمس معالم الاسلام ، وتشويه صحيفته وتبديد تراثه وتهوين أهدافه المثالية ومقوماته المعنوية . والاخطر من ذلك هو موالاة الحكام الاجنبى المخالف لهم فى الدين والجنس . والجأوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم [٣] .

ولكن قيض الله للعروبة والاسلام رجالا مخلصين وقفوا مدافعين عن الاسلام والوحدة الاسلامية اعتبارا من القرن الثامن عشر الميلادى وما تلاه من قرون : منهم زعماء الدعوات السلفية : محمد بن عبد الوهاب فى نجد بشبه الجزيرة العربية ، ومحمد بن على السنوسى فى برقة بليبيا،

---

(٢) يمكن الاستزادة من هـذا الموضوع من كتاب العروة الوثقى ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٣) جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده : العروة الوثقى ص ١١٠ .

ومحمد أحمد المهدى فى السودان ، الى جانب دعوة الجامعة الاسلامية التى تزعمها السيد جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده ، كما كان منهم زعماء الثورات والحركات الوطنية التى تصدت للاستعمار فى أنحاء العالم الاسلامى •

ومما هو جدير بالذكر أن فكرة الجامعة الاسلامية تدعو الى وحـــدة صفوف المسلمين وراء الدولة العثمانية ، وهذه هى العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، أى أن الأفغانى كان يعمل الى جانب اصلاح المساوىء الدينية والاجتماعية على صد النفوذ الأوروبى ، خاصة وأنه كان يـــرد الاستعمار الأوروبى الى أساس دينى ويعتبره حركة نصرانية موجهة ضد الاســـلام •

فحركة الجامعة الاسلامية اذن التى تبناها جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده حركة اسلامية عامةمجالهاالعالم الاسلامى كله وغايتها جمع المسلمين على كلمة سواء واقامتهم على مبدأ التحرر من قبضة المحتلين والمستبدين من المسلمين وغير المسلمين ، فالحركة وان لم تقم باسم الدين فانها كانت فى صميمها دعوة تحريرية للعقل الاسلامى كله ، وهى وان لم تقم كذلك فى ظل عصبية القبيلة أو الوطن فانها قامت فى ظل العصبية الاسلامية فى جميع الأقطار •

● مشكلات العالم الاسلامى المعاصر :

وهكذا يمكن القول أن العالم الاسلامى كان يموج منذ أواخــر القرن الثامن عشر بحركات دينية قوية جاءت كرد فعل لحركة الاستغراب Westernization فى الشرق الأدنى وكرد فعل لاعتداءات الـــدول الأوروبية على بعض أجزاء العالم الاسلامى ، وكانت بعض هذه الحركات الدينية تتخذ موقفا سلبيا من الاستغراب وتنادى بالارتداد أو الرجوع الى الأصول الاسلامية الأولى ، وهذه هى الدعوات السلفية التى أشرنا اليها ، الا أن الجامعة الاسلامية كانت أكثر ادراكا لمشكلات العـــالم الاسلامى •

وتتبع مشكلات العالم الاسلامى المعاصر من موقف هذا العالم من المذاهب والتيارات العالمية وتكتلها وأطماعهافى أقطار ذلك العالم ومحاولتها هدم الوحدة الاسلامية ومنع قيامها مرة أخرى ، فالمشكلة فى واقع الأمر هى مشكلة حضارية يعيشها العالم الاسلامى وسط المذاهب والتكتلات الدولية ، اذ أن أقطار العالم الاسلامى متخلفة عن الدول الأوروبية والأمريكية ، باعتبار الاقطار الاسلامية خضعت سنوات طويلة لعهود من السيطرة الأجنبية والاستغلال الأوروبى والعزلة المفروضة على نشاطها وحياتها فى مختلف الميادين .

أن مجتمعنا الاسلامى حاليا يعانى من المشكلات ما لم يعانه فى عصر من العصور الماضية ، وذلك راجع الى عدة عوامل نذر أهمها على النحو التالى :

١ — اصطدام المجتمعات الاسلامية بالحضارة الغربية ونظمها وفلسفتها وأخلاقها التى تختلف فى جوهرها عما ساد المجتمع الاسلامى من نظم وفلسفات وأخلاق وعادات .

٢ — تفكك المجتمع الاسلامى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا تفككا بصورة كبيرة نتج عنه شعور أبنائه بالحالة المتخلفة التى يعيشون فيها ، ورغبتهم فى التخلص من هذا التخلف والسير فى ركب الحضارة التى تسود العالم اليوم ، وكان من الطبيعى أن يشعر المتعلمون وحملة الفكر فى هذا المجتمع الاسلامى بوطأة هذا التخلف والحاجة الى سلوك الوسائل المجدية للخلاص منه ، والتمسك بالوفاق والغلب اللذين هما عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية [٤] .

---

(٤) جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده : المرجع السابق ص ١١٦ .

● موقف المسلمين من المشكلات :

وفى واقع الأمر انقسم مفكرو العالم الاسلامى فى معانجـــة مشكلات عالمهم الى ثلاث فئات هى :

أولا : فئة لا تؤمن بصلاح ما فى يد الأمة الاسلامية من نراث وعقيدة لحل هذه المشكلات ، فاتجهت الى الحضارة الغربية تنشد عندها الحل ، وقد أسرفت هذه الفئة فى هذا الاتجاه بحيث تخلت عن تفكيرها المستقل وعن شخصيتها المستقلة ، واستحسنت كل ما رأته فى الحضارة الغربية دون أن تدرك هذه الفئة الفوارق بـــين مجتمعنـــا الاســـــلامى والمجتمعات الغربية وأن ما يصلح لها ربما لا يصلح لنا •

ثانيا : وفئة تؤمن بأن فى الاسلام حل هذه المشكلات ايمانا غيبيـــا ولكنها لا تعرف كيف يحلها ، وتظن أن من الممكن تطبيق الاسلام بنفس الاشكال التى طبقت فى عصر الخلفاء الراشدين تماما • وهؤلاء هم أكثر فقـــاء الشريعة وعلمائها وهم بعيدون كل البعد عن تفهم مشكلات المجتمع الاسلامى المعاصر ، ويقفون منها دائما موقفا سلبيا ، بل أظهروا الاسلام أمام خصومه بمظهر العاجز عن حل مشكلات المسلمين •

وقامت المعركة بين هؤلاء الفقهاء وبين أعضاء الفئة الاولى — وهم المتعلمون فى الغرب والمتأثرون بالثقافة الغربية — وكان سلاح هؤلاء الفقهـــاء ضد الفئة الأولى هو الاتهام بالكفر والالحاد ، بينما رد عليهم أعضاء الفئة الأولى بأن هؤلاء الفقهاء رجعيون جامدون ، وكأن الجمهور الاسلامى بمجموعه وبطبيعة ايمانه واقتناعه بدينه مستعد أن يصغى الى هؤلاء الفقهـــاء أكثر ، فأيدهم وسار وراءهم •

ولم يفعل أعضاء الفئة الثانية شيئا من أجل اصلاح اجتماعى شامل ، وكانت النتيجة ازدياد وطأة الحضارة الغربية على العالم الاسلامى ، وازداد اتصال المسلمين بها خاصة منذ الحرب العالمية الأولى ، وانتشرت المعرفة واتسع نطاق العلم الذى كان متسما بطابع التفكير الغربى فى

مدارسنا ومعاهدنا العليا ، وبدأ الجمهور الاسلامى يفقد ثقته بهؤلاء الفقهاء الذين عجزوا عن حل مشكلاته من حيث لم يثق أبدا برواد الثقافة الغربية المتسمة بطابع العداء للاسلام بصفة خاصة وللاديان بصفة عامة .

ثالثا : وكانت الفئة الثالثة من المفكرين الاسلاميين تتخذ موقفا وسطا بين الفئتين السابقتين وتنادى بأن الاسلام يحل كل مشكلات المسلمين الاجتماعية ، فهى فى هذا تلتقى مع أولئك الفقهاء لكنها تختلف معهم فى فهم هذه المشكلات وتصورها وطبيعة حلها ، وتختلف معهم فى طريقة فهم الاسلام وتمثل مقاصده العامة ، ويختلفون مع الفئة الأولى من رواد الثقافة العربية بموقفهم من عقيدة الأمة وتراثها بموقفهم من الحضارة الغربية وايمانهم باستقامة مبادئها ومذاهبها .

وهذه الفئة الثالثة تفهم مبادىء الاسلام على أنها هى المبادىء الثلاثة الآتية :

١ — تحقيق مصالح الناس فى كل ما يحتاجون اليه ، ولا تضيق الشريعة الاسلامية بمصلحة للمجتمع ، ويقر العقلاء والدارسون الشرعيون والاجتماعيون بأنها مصلحة .

٢ — تحقيق العدالة بين الناس اذا تعارضت مصالحهم مهما كلفت العدالة من غرم لبعض الناس .

٣ — تحقيق التطور الاجتماعى الصالح فى المجتمع الانسانى ، فلا يقف الاسلام فى وجه تطور ما فى مختلف نواحى الحياة الاجتماعية ، اذا كان هذا التطور نتيجة محتمة لتطور الفكر أو العلم أو ضرورات الحياة .

كما أن لهذه الفئة الثالثة من المفكرين الاسلاميين موقفا من مشكلات المجتمع الاسلامى يقوم على ضرورة دراسة هذه المشكلات دراسة عميقة وعريضة ، والاختلاط بالمجتمع اختلاطا شاملا لكل لفئاته حتى تتحدد المشكلة وتعرف أسبابها ويعرف الطريق الصحيح لحلها حلا عمليا متفقا مع رسالة الاسلام .

وتحيط بالعالم الاسلامي المعاصر قوى ومذاهب وتيارات فكريـــة واقتصادية تزيد من مشكلات هذا العالم ، من بينها الشيوعية والرأسمالية والصهيونية ، فما موقف الاسلام منها ؟ .

● نظرة المسلمين الى الشيوعية :

ينظر المسلمون الى الشيوعية من ثلاث نواحي هي[٥] :

أولا : ان الشيوعية كعقيدة ذات فلسفة مادية تنكر الروح وما وراء المادة ، وهي في ذلك تختلف عن الاسلام في أساسها وجوهرها ، ولا يمكن أن تلتقى معه في عقيدته وفلسفته ، وموقف الاسلام من فلســفة الشيوعية هو تفنيدها بالحجة والمنطق وتوضيح ما فيها من انحراف عن الحق وخطأ في الواقـــع .

ثانيا : ان الشيوعية كنظام اقتصادى اشتراكى يسعى الى تحقيق العدالة بين طبقات الشعب ، ويمنع تحكم المـــال ووسائل الانتاج في العمل والعمال بأسلوب خاص ، وموقف الاسلام انه وضع نظاما اشتراكيا واضح المعالم مستقلا عن الشيوعية وعن الاشتراكيات المتعددة وعن الرأسمالية ، وهو في ذلك لا يحارب الشيوعية في كل اتجاهاتها الاشتراكية ولا يقرها في كل اتجاهاتها أيضا ، كما أنه لا يحارب النظم الاقتصادية الأخرى ولا يقرها في كل تفاصيلها واتجاهاتها .

ولقد سبقت الأديان كلها الشيوعية الى الرحمة بالبائسين وانصاف الناس والرغبة في تحقيق العدالة بين الجماهير ، ولكل دين وسائله الخاصة به في تحقيق هذه الأهداف الانسانية ، فلا ضير على الاســـلام أن تتفق معه الشيوعية في أهدافه الانسانية النبيلة ، وان كانت تسلك لذلك طرقا لا يقرها الاسلام .

---

(٥) يمكن الاستزادة في هذا الموضوع من كتاب حاضر العالم الاسلامى للمؤلف الامريكى لـــثروب ستودارد وتعليـــق الامـــير شـــكيب ارســــلان ص ٢٥٣ — ٢٨١ — تحت عنوان : القلق الاجتماعى والبلشفية .

ثالثا : أن الشيوعية كدولة ذات قوة وأهداف سياسية ، وموقف الاسلام منها هو موقفه من كل قوة مسلحة تجاوره ، فان سالمت عقيدة المسلمين وكرامتهم واحترمت ارادتهم وسلطانهم على ديارهم سالمها الاسلام والمسلمون ولو كانت مخالفة فى العقيدة والنظام لأن الاسلام لا يفرض الحرب على كل من خالفه ، وانما يضع هذا المبدأ الخالد العادل فى قول الله سبحانه وتعالى : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم [٦] • وان هى حاربت المسلمين فى عقيدتهم وكرامتهم وديارهم أعلن المسلمون عليها الحرب واستعد المسلمون بكل وسائل القوة لرد العدوان ، وشعارهم فى ذلك هو المبدأ الذى لا يزال شرعة الأمم حتى اليوم فى قول الله سبحانه وتعالى : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم [٧]•

واذا كانت هذه نظرة الاسلام والمسلمين الى الشيوعية فلماذا تنتشر الشيوعية فى بلاد المسلمين ؟ وفى رأينا هناك عدة أسباب لانتشار الشيوعية فى أقطار العالم الاسلامى سواء فى المشرق فى المغرب ، أهمها ما يلى : [٨] •

أولا : فساد الأنظمة الاجتماعية ، فان انحطاط مستوى المعيشة والعلم والصحة والتفاوت الكبير بين الطبقات وفساد أنظمة الحكم وانحراف الحكام عن سنن العدالة ، ذلك كله من أكبر أسباب التذمر الذى يؤدى بالجماهير الى اعتناق أية فكرة تظن فيها الخلاص من حالتها السيئة • أن الجماهير انما تعنى بمصالحها المالية قبل كل شىء ، وهى تفتش عن تحقيق تلك المصالح فى دائرة أديانها ، فاذا رأت فيها العجز

---

(٦) سورة الممتحنة الآية رقم ٨ .

(٧) سورة البقرة الآية رقم ١٩٨ .

(٨) يمكن الاستزادة فى هذا الموضوع بالرجوع الى كتاب الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا للدكتور يوسف القرضاوى ص ٣٢٠ — ٣٣٢ تحت عنوان كيف وجدت الاشتراكية لها سوقا .

والأعراض عن تحقيق ذلك تولت عنها وهى تفتيش عن مذهب يعدها بالانقاذ وستتبعه حتما ولو كان آتيا من الشيطان •

ثانيا : محاربة الديمقراطية الغربية لشعو بالعالم الاسلامى والمتخلف فى أفريقيا وآسيا فى أمانيها التحررية والاستقلالية ومحاربة أبنائها تحت نير الجهل والظلام والعبودية ، واشاعة حكم الارهاب والبطش فى كثير من الأقطار المتحفزة للتحرر ، كل ذلك له أثره فى اتجاه الجماهير الى نظام يعدها بالتحرر من سلطان الديمقراطيات وبطشها وارهابها •

ثالثا : التأييد الذى لقيته الصهيونية من الديمقراطية الغربية حتى أصبح لها كيان مفروض فى قلب الوطن العربى رغم ارادة سكانه وشعوبه مما شرد سكان فلسطين العرب واشاع المرارة والخيبة فى نفوس العرب والمسلمين ، وجعل أوساط اللاجئين الفلسطينيين أمكنة صالحة للشيوعية تزداد يوما بعد يوم • واذا كان اضطراب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا قد جعل نصفها يميل الى الشيوعية أو يقع تحت قبضتها ، فكيف لا تؤدى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة فى أوساط الشعوب الاسلامية ، الى جانب موقف الدول الغربية الديمقراطية المعادى لأمانى الشعوب الاسلامية ، كيف لا يؤدى ذلك كله الى ميل بين الجماهير الاسلامية — والعربية جزء منها — نحو الشيوعية [9] •

● موقف المسلمين من الرأسمالية :

واذا كان هذا هو موقف الاسلام والمسلمين من الشيوعية ، فما موقف الاسلام والمسلمين من الرأسمالية ؟

---

(٩) لمزيد من التفصيل عن الاسلام والشيوعية يمكن الرجوع الى كتاب الماركسية والاسلام للدكتور مصطفى محمود •

ينظر الاسلام والمسلمين الى الرأسمالية من ثلاث نواحى هى (١) :

(أ) ان الرأسمالية كعقيدة ومبدأ يرتبط بمفاهيم الديمقراطية الغربية والليبراليةفىمجالات السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية، وموقف الاسلام من ذلك هو أن للاسلام ديموقراطيته غير المزيفة ودعوته للحرية الموجهة البعيدة عن الفوضى ، ومن ثم يمكن القول أن ديمقراطية الاسلام أكثر أصالة وتحديداً لأنها تنسحب على المسلمين وغير المسلمين بينما الديمقراطية والحرية الغربية لا يقرها أصحابها لغيرهم .

(ب) ان الرأسمالية كنظام اقتصادى يقوم على أساس نظريـة العرض والطلب والمنافسة الحرة فى الانتاج والتجارة ، وتطبيقا لهذه النظرية لا تتدخل حكومات المجتمعات الرأسمالية فى الاقتصاد القومى للبلاد ، انما تترك امره للافراد ، فالملكية الخاصة لوسائل الانتاج تحصر الاستفادة فى عدد قليل من الافراد أو الذين تتيح لهم سيطرتهم على وسائل الانتاج استغلال مجموع الشعب والتحكم فى الأسواق وفى الاسعار . وموقف الاسلام من ذلك موقف الناقد لكل استغلال للإنسان ولكل احتكار فى احتياجات الناس ، حيث أن مبادىء الاسلام لا تقـر الرأسمالية فى استغلالها وفى تميزها الطبقى ، انما تؤمن بالمساواة وفى التقارب الطبقى وفى التكافل الاجتماعى وان تكون الثروة فى خدمـة المجموع .

(جـ) أن الرأسمالية فى نظام سياسى كدول ذات قوة وأهداف سياسية مارست قوتها وحققت أهدافها الاستعمارية فى كل اقطار العالم الاسلامى ، وزرعت الصهيونية فى قلب العالم الاسلامى وأمدتها بأسباب القوة والبقاء وحارب الاسلام بصورة شتى ، ولذلك يقف منها الاسلام والمسلمون موقف المكافح والمناضل ضد الأطماع الاستعمارية واتجاهات

---

(١) يمكن الاستزادة من موضوع الراسمالية والاسلام بالرجوع الى كتاب الحـلول المستوردة وكيف جنت علينـا للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٠٣ — ١٣١ تحت عنوان لمـاذا فشلت الليبرالية الديمقراطية عندنا ؟ .

الالحاد التى حاولت الدول الاستعمارية بثها ، وهدف الاسلام والمسلمين هو المحافظة على جوهر الدين الاسلامى وأصوله ، وطرد الاستعمار من أرض المسلمين واقامة علاقات مع الدول الرأسمالية على أســاس المصلحة الوطنية ومعاملة الند للند ، والوعى بأساليب الحضارة الغربيــة المادية بحيث يملكها المسلمون ويستفيدون منها دون أن تملكهم هى وتقيد حركتهم[11] .

● موقف الاسلام من الصهيونية :

ولنا سؤال أخير حول احدى المشكلات التى واجهت العالم الاسلامى وهو موقف الاسلام من الصهيونية ؟ . لا شك أن الدين الاسلامى والمسلمين يفرقون بين اليهودية كدين سماوى والصهيونية كحركة عنصرية سياسية متحالفة مع الاستعمار ضد جزء من الأمة العربية التى هى قلب الأمة الإسلامية ، ذلك ان الصهيونية التقت مع النازية فى بادئها حيــث تدعو الصهيونية الى مبدأ العنصر الممتاز ومبدأ الديانة الخاصة والوطن الخاص ، بل وتدعو الى تحقيق حلم استعمارى بأن تمد الصهيونيــة سيطرتها على معظم منطقة الشرق الأوسط من نهر النيل الى نهر الفرات ، كما تدعو الى استخدام القوة لتحقيق هذه السيطرة ، وبالتالى استطاعوا نفوذهم السياسى ليس فقط فى اوروبا بل فى أمريكا كذلك الى جانــب نفوذهم الاقتصادى وسيطرتهم على أجهزة الدعاية من صحافة واذاعة وتليفزيون ونشرات .. [12] .

ومما هو جدير بالذكر ان الحركة الصهيونية كانت أكثر تحركــا وتنظيما من العرب ولها رجال ذوى نفوذ فى الاقطار الكبرى الاربعة انجلترا وفرنســا وايطاليا والولايات المتحدة الامريكية وهى الاقطــار

---

(١١) للاستزادة يمكن الرجوع الى كتاب الاسلام والراسمالية لمؤلفه مكسيم رودنسون وترجمة نزيه الحكيم ..

(١٢) د . محمد فاضل الجمالى : الخطر الصهيونى ص ٢٥ — ٣٢ .

المنتصرة فى الحرب العالمية الاولى [١٣] ، ولكن أساليبها لم تخب عن اليهود فى العالم ، اذ وجدت جماعات يهودية عالمية عارضت بشـــدة خطط الحركة الصهيونية ، وقد ارسل حوالى ٣٠٠ من قادة اليهود الامريكيـــين الى الرئيس ويلسون يعبرون عن استنكارهم لمطالب الحركة الصهيونيـــة فى فلسطين ، كما كانت هناك قيادات يهودية فى أوروبا تعتقد أن الصهيونية انما تمثل خطرا على اليهود فى العالم ، وتسبب مزيدا من العـــداء للسامية [١٤] .

وعقب الحرب العالمية الثانية نشطت الحركة الصهيونية فى تذكـــير الدول الكبرى بتنفيذ وعد بلفور مستخدمة ما لاقاه الصهيونيون من اضطهاد على يد هتلر فى ألمانيا وكان الرأى العام الأمريكى يجهل تماما الوضع القائم فى فلسطين وما يمكن أن يؤدى اليه تحقيق مطالب الصهيونية من صراع ، وبدت أمام الرأى العام الأمريكى دعـــاوى الصهيونية وكأنها حجج قانونية وعادلة ، بينما كانت أقلية من الشـــعب الأمريكى الذين عاشوا فى منطقة الشرق الأوسط يرفعون اصـــوات الاحتجاج ضد الدعاوى الصهيونية [١٥] .

ومع ذلك قامت اسرائيل كبداية لحلم الحركة الصهيونية ، واتخذت منذ عام ١٩٤٨م سياسة عدوانية ليس فقط بارتكاب مذابح قامت بهـــا العصابات الصهيونية ضد العرب فى فلسطين ، بل وأيضا فى الاعتداء على الدول العربية الاسلامية المحيطة بفلسطين كالأردن ومصر وسوريا ولبنان منذ عام ١٩٤٨ ، مرورا بعام ١٩٥٦ م وعام ١٩٦٧ م حتى ١٩٧٣ م، مستندة الى التصريح الذى أصدرته كل من الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا فى ٢٥ مايو عام ١٩٥٠ بضمان حدود دول الشرق

---

(١٣) د . رأفت الشيخ : امريكا والعلاقات الدولية ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(١٤) Polk, W. « The U.S. and the Arad World, » p. 300.

(١٥) The American Assembly : The United States and the Middle East, p. 7.

الأوسط ، والذى معناه ضمان حدود اسرائيل وتهديد للعرب اذا حاولوا مهاجمتهـــا (١٦) .

اذا كان هذا هو الخطر الصهيونى على الاسلام والمسلمين ، فكيف لهم مواجهة هذا الخطر؟فى رأيى أن هذا يأتى بوحدة المسلمين الذين تهفوا نفوسهم الى أولى القبلتين فى القدس الواقعة تحت سيطرة اسرائيل ، وحدة على الأقل فى الهــدف وان اختلفت الوســائل ووضع الخطط والامكانيات الكفيلة بتحقيق مثل تلك الوحدة موضع التنفيذ ، ودراســة أساليب الصهيونية لكى يتمكن المسلمون من معرفة مخططاتها والاستعداد للرد عليها أو منعها من التحقيق ، وذلك من خلال معرفة المســـلمين لامكانياتهم ومدى ما يكن أن يقدوه لتحقيق هدفهم .

كذلك يمكن للمسلمين عن طريق التآخى والتكاتف والعمل المنتــج تربية شباب مزود بفلسفة روحية خلقية وعملية شاملة تؤهلهم ليس فقط لمقاومة الخطر الصهيونى بل والخطر الاستعمارى الذى يتخذ حاليا أشكالا ثقافية واقتصادية ، وان يتزود هذا الشباب بالعلم الحــديث والأساليب الحديثة فى الاقتصاد والاجتماع ، والتخلى عن الاساليب القديمة البالية ، هذا الى جانب الأخذ بمبدأ الدفاع عن النفس انطلاقا من أن خير وسيلة للدفاع عن النفس هى الهجوم ، ولتحقيق ذلك يمكن الأخذ بما يلى :

١ — ان يدرك العرب والمسلمون ويفهموا بصورة جلية حقيقــة الخطر الصهيونى ، وأن هذا الخطر لن يقتصر على فلسطين وحدهــا بل أنه يشمل البلاد العربية الاسلامية كلها .

٢ — أن يتعاون العرب فى داخل فلسطين وخارجهــا على شراء أراضى فلسطين وجعلها وقفا بحيث لا يمكن بيعها الى الصهيونيين فى المســتقبل .

---

(١٦) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٧٢ .

٣ ــ ان يتمسك العرب تمسكا شديدا بكل التصريحات التى تضمن لهم حرياتهم وحقوقهم كاملة مما صرح به الرجال المسئولون فى الديمقراطيات الكبرى وهيئة الأمم المتحدة .

٤ ــ أن تشترك البلاد العربية والاسلامية بالتعاون مع عرب فلسطين فى انشاء مراكز كبرى للدعاية والتنوير فى أوروبا وأمريكا ، وبيان أن ما تشكو للعرب اليوم الا من الصهيونية السياسية الاعتدائية التى جاءت لتحتل لب البلاد العربية ولتخنق الأمة العربية وهى فى بدء نهضتها الجديدة[١٧] .

٥ ــ استخدام المؤتمر الاسلامى ومؤتمرات عدم الانحياز والوحدة الافريقية ومنظمة الشعوب الاسيوية الافريقية فى تأييد القضية العربية الاسلامية وقبلها فلسطين ونبضها القدس الشريف .

● ما هــو الحــــل ؟

اذا كانت تلك المشكلات التى تواجه المسلمين وتفت فى عضد الاسلام وتمنع الوحدة الاسلامية من أن تقوم لها قائمة ، فما هو الحل لمواجهة تلك المشكلات ؟ . لقد فشل الحلان الدخيلان على بلادنا المستوردان من عند غيرنا وهما الحل الليبرالى الديمقراطى ، والحل الاشتراكى فى كل مجالات الحياة ، لقد فشلا فى المجال الاقتصادى وفى مجال الحرية والطمأنينة للشعوب المسلمة ، وفى المجال العسكرى وفى المجال الأخلاقى وفى المجال العربى والاسلامى .. اذن لم يعد أمامنا سوى أن نقول مع القائلين أن الحل الاسلامى فريضة وضرورة [١٨] اذا أريد للامة الاسلامية أن تتخلص من مشكلاتها وتستعيد مكانتها الأولى .

---

(١٧) د . محمد فاضل الجمالى : المرجع السابق ص ٩٦ ــ ١٠٣ .

(١٨) د . يوسف القرضاوى : الحل الاســلامى فريضة وضرورة ص ٦ ــ ١٥ .

وكيف تهتدى الشعوب الاسلامية مع حكامها الى تطبيق الشريعة الاسلامية فى كل نواحى حياتها ؟ لكى يتحقق ذلك لا بد من شروط لاقامة المجتمع الاسلامى الكامل ، بمعنى أن تكون عقيدته اسلامية ومفاهيمه وأفكاره اسلامية ، ومشاعره ونزعاته اسلامية ، وأخلاقه وتربيته اسلامية، وأن تكون قوانينه وتشريعاته اسلامية .. كيف ؟ (١٩) .

١ — ضرورة قيام الدولة المسلمة حكومة وشعبا التى تقوم بحماية عقيدة الاسلام من أى عبث ، واقامة الشعائر الاسلامية والاعانة عليها ، ولتوجيه أبناء المجتمع توجيها اسلاميا ، ولوضع التشريعات التى جاء بها الاسلام فى قوانين قابلة للتطبيق ، ولتنظيم فريضة الجهاد بتدريب المسلمين وشراء الاسلحة وتنظيم الصفوف .

٢ — اتخاذ الاسلام مصدرا وحيدا للتشريع ، فمثلا اذا قال الاسلام ان المسلمين أمة واحدة وان المؤمنين اخوة ، وان الرابطة الاسلامية فوق الرابطة القومية والوطنية ، فالحل الاسلامى هو الذى يقيم سياسته العملية على الولاء لأمة الاسلام والعداء الاسلام ، والعمل الجاد المخلص على اعادة الوحدة الاسلامية .

٣ — أن يكون تطبيق الشريعة الاسلامية تطبيقا شاملا لا يقبل التجزئة ، بمعنى أن يتصدى الحل الاسلامى لكل مشكلات الحياة ، وعدم أخذ بعض أحكام الله دون بعض .

٤ — لا يمكن تطبيق الشريعة الاسلامية الا اذا أخذت باسم الاسلام وتحت عنوان الاسلام لا باسم الاشتراكية أو الرأسمالية .

٥ — ان يكون الاسلام غاية لا وسيلة ، وان يكون المنتهى لكل الأنظمة والمناهج والوسائل والامكانيات لتطبيقه ، ولا يتخذ وسيلة لتثبيت حكم معين أو للدعاية لبلد أو لأسرة أو لحزب أو عهد أو نظام أو مذهب (٢٠) .

---

(١٩) نفس المصدر ص ٣٧ .

(٢٠) نفس المرجع السابق ص ٦٩ — ٩٦ بتصرف .

وتحقيقا لهذه الأهداف كان لا بد من وجود هيئة تنسق بين الشعوب والحكومات الاسلامية بعضها مع بعض ، ومن ثم ظهرت على الساحة الاسلامية دعوة لتجسيد الوحدة الاسلامية فى صورة عملية ، وجاء هذا التجسيد فيما أصبح حقيقة واقعة وأعنى « منظمة المؤتمر الاســلامى » الذى صارت له أمانة عامة وعدة هيئات أو منشآت تتبعها •

شهد النصف الثانى من القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين للميلادى) قيام أكبر منظمة للعالم الاسلامى ، وانعقد أول مؤتمر قمـــة اسلامى لها فى الرباط عاصة الملكة المغربية فى رجب سنة ١٣٩٨هـ (سبتبر ١٩٦٩م) وفى غضون العشر سنوات التالية عقدت العديد من مؤتمرات القمة ومؤتمرات وزراء الخارجية الاسلامية للنظر فى القضايا الاسلامية الملحة التى تجابه الشعوب الاسلامية واستطاعت على هذا المدى القصير أن تكون واحدا من ابرز المنظمات العالمية بحكم مئات الملايين من القوى البشرية التى تمثلها وانتمائها لآخر وأعظم الديانات السماوية بالاضافة الى أهمية الموضوعات التى تتناولها والتى تشكل جزءا هاما من قضايا الانسانية المعاصرة •

ولقد كان ظهور المنظمة على مسرح التاريخ المعاصر نتيجة لعوامل متعددة نبرز أهمها فيما يلى •

أولا ـــ مشكلات الاقليات الاسلامية :

نتيجة لحركة المد الاطرادى العكسى بين زيادة انتشار الديـــن الاسلامى ، وانحسار النفوذ السياسى لبعض الدول الاسلامية . بسبب السياسة الاستعمارية ، ظهرت أقليات اسلامية ، فى اطار دول غير اسلامية • وارتبط ذلك بتعرض هذه الأقليات ، لاضطهـــادات دينيـــة

وسياسية واقتصادية ، اتخذ بعضها دورا حادا ، أقرب الى محاولات آسيا وجنوب افريقية ، واتخذ بعضها محاولات الادماج والامتصاص الابادة منه الى شيء آخر كما هو الحال بالنسبة لمسلمى الفلبين ، ووسط كما هو الحال بين مسلمى قبرص وارتريا ، بالاضافة الى تعرض بعض المسلمين فى مناطق كثيرة من أنحاء العالم لاضطهادات دينيةوسياسية واقتصادية • وقد شجع هذه الحركة المضادة للاسلام ما لقيته من نجاح فى مراحل سابقة فى ميادين أخرى نخص بالذكر منها انهــاء الوجود الاسلامى فى كل من أسبانيا وصقلية وكريت وغيرها •

وعلى الرغم من وجود المنظمات الدولية المعروفة الا أنها لم تكن صالحة لمجابهة هذه القضايا التى طالما نظر اليها على أنها قضايا داخلية لا تجيز مواثيق هذه المنظمات التدخل فيها وحتى الجامعة العربية كــان ميثاقها يقف عاجزا عن التصدى بايجابية لهذه المشكلات تمشيا مع نصوص ميثاقها بالاضافة الى تشابك الظروف الدولية السياسية والاقتصادية فى عالمنا المعاصر وهو ما سوف نفرد له بندا خاصا فى هذه العوامل •

ومن أجل ذلك كان لا بد من وجود منظمة اسلامية تختص بالنظر فى هذه المشكلات والقضايا بعيدا عن الحساسيات المختلفة •

ثانيا ــ مشكلات التخلف الحضارى :

ليس من شك فى أن المد الاستعمارى بوجه خاص والسياســـة الامبريالية بوجه عام قد ساعد على تثبيت التخلف الحضارى فى كثير من البلاد الاسلامية التى تعرضت للاحتلال الأجنبى بسبب السياســة الاقتصادية التى كانت تجعل من هذه البلاد مناطق استهلاك لمصنوعــات ومنتجات الدول الصناعية الكبرى ولذلك فقد كانت عملية الاحتــلال الأجنبى تعمل على اعاقة أى نمو حضارى يمكن أن يحرم الدول الكبرى من استنزاف ثروات البلاد المغلوبة على أمرها وحتى بعد أن حصلت كثير من البلاد الاسلامية على استقلالها فان فروق مسافات التخلف بين

أولئك الذين سبقوا على الطريق وأولئك الذين يلهثون من أجل التقدم ظلت طويلة وشاقة ليس فقط بسبب المعوقات التى تضعها الدول المستغلة فى طريق النمو والتقدم وانما أيضا بسبب الحاجة الى موارد التمويل والأساليب التنظيمية والتقنية الحديثة بالاضافة الى الخبرات والامكانيات المطلوبة فى هذا السبيل وكان أخطر ما فسرت به هذه الظاهرة ادعاء التناقض بين معطيات الاسلام والنهضة العلمية المعاصرة ومن أجل ذلك كان لا بد من تنظيم اسلامى يجابه كل هذه المشكلات ويساعد على تجاوزها خاصة بعد أن توافرت الامكانيات المادية لدى الدول البترولية الاسلامية والامكانيات والخبرات التقنية لدى بعض الدول الاسلامية التى سبقت على الطريق •

ثالثا — حرج موقف جامعة الدول العربية :

الجامعة العربية ضرورة قومية يجب أن يسعى الجميع لتدعيمها وتقويتها حيث أنها فى النهاية المعتصم الأخير الذى تلجأ اليه الدول العربية كلما أدلهم بها الأمر أو استعصى عليها الاتفاق على حل ومهما قيل عن امكانياتها المحدودة وسلبياتها التى تنعكس عليها من واقع العالم العربى فهى الأمل المرتجى الذى يحاول فيه زعماء الأمة العربية أن يتناسوا خلافاتهم ويضمدوا جراحاتهم •

ولكن الجامعة العربية بمواثيقها التقليدية المرتبطة بمواثيق المنظمات الدائرة فى فلك المنظمات الدولية تحول بينا وبين مناقشة مشاكل الأقليات الاسلامية فى الدول المختلفة لأن ذلك يتعارض مع حقوق الدول فى سيادتها الداخلية بالاضافة الى تشابك المصالح العربية وغير العربية فى كثير من الموضوعات والمشكلات والقضايا السياسية الهامة التى تحتاج فيها الجامعة العربية دعما دوليا على مستوى المنظمات السياسية الكبرى •

ومن أجل ذلك فكثيرا ما كانت تتجاوز جامعة الدول العربية النظر

فى كثير من القضايا الاسلامية الهامة وفى مقدمتها مشاكل المسلمين فى الفلبين وقبرص وارتريا وجيبوتى وغيرها مما كان يؤدى فى كثير من الأحيان الى تجميد هذه المشكلات فضلا عما كان يصيب هذه الأقليات الاسلامية من أسى عميق يتولد عن الشعور باغفال الجامعة العربية لأوضاعها المريرة .

ومن هنا كان لا بد من ايجاد منظمة اسلامية تتخطى هذه الحواجز والحساسيات وتقدم المساعدات والامكانات المادية والعسكرية والحضارية للاقليات الاسلامية المغلوبة على أمرها .

رابعا — حريق المسجد الأقصى :

كان السبب المباشر الذى حول الحلم الى حقيقة ما أقدمت عليه اسرائيل فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٦٩ م جريا على سياستها العدوانية من عملية تخريب كبرى لبعض الأماكن الاسلامية المقدسة فى فلسطين المحتلة وانتهاك حرماتها وبلغت ذروة ذلك الانتهاك بالحريق الذى اشعلته فى المسجد الأقصى ونتجت عنه أضرار فادحة سببت الذعر عند أكثر من ثمانمائة مليون من المسلمين مما دعا الى ضرورة تصدى الدول والشعوب الاسلامية لهذا الحدث الخطير واذابة كل الحساسيات التى كانت تثار حول انشاء المنظة الاسلامية .

● مؤتمرات المنظمة :

المؤتمر الأول :

كان أول مؤتمر قمة لمنظمة المؤتمر الاسلامى انعقد بعد أقل من شهر لهذا الحادث الخطير (حريق المسجد الأقصى) ، بمدينة الرباط فى رجب ١٣٠٩هـ (سبتمبر سنة ١٩٦٩م) وحضره ملوك ورؤساء سبع وعشرين دولة عربية واسلامية وممثلون عن منظمة التحرير الفلسطينية

كمراقبين ولم تحضر كل من سوريا والعراق وقد ندد المؤتمر بهذا الحدث الخطير وطالب المؤتمرون كلا من فرنسا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأخذ بعين الاعتبار وضع الحرم القدسي بالنسبة للمسلمين فى مختلف أرجاء الارض وعزم الحكومات الاسلامية على تحرير القدس ورفضهم لموقف اسرائيل من ضم القدس الشرقية الى عاصمة الدولـة الصهيونية بالاضافة الى ضرورة الانسحاب من الاراضى العربية التـي احتلت بعد عام ١٩٦٧ ومساندتهم الكاملة للشعب الفلسطينى فى كفاحه من أجل استرداد أراضيه مع ترك التفصيلات لمؤتمر يعقد على مستوى وزراء خارجية الدول العربية الاسلامية فى جدة فى محرم ١٣٩٠هـ (فبراير / مارس ١٩٧٠ م) وأهم ما يلاحظ على هذا المؤتمر الأول ما يلى :

أولا : ان هذا الاجتماع كان أقرب الى مؤتمر مجابهة لمسألة حريق المسجد الأقصى أكثر منه مؤتمرا للمنظمة الاسلامية ويتضح لنا ذلك من قراراته التى اقتصرت على شجب موقف اسرائيل من هذا الحـادث العدوانى الخطير اضافة الى القرارات التقليدية المعتادة لجامعة الدول العربية وفى مقدمتها المطالبة بجلاء القوات الاسرائيلية عن الاراضى التى احتلت بعد عام ١٩٦٧ ٠

ثانيا : تردد بعض الدول التى تنهج نهجا اشتراكيا فى سياستها فى حضور هذا المؤتمر وفى مقدمتها العراق وسوريا اللتان امتنعتا عن حضور المؤتمر بالاضافة الى مصر التى حضرت كعضو مراقب ولو أنهـا كانت قد خرجت جريحة من عدوان سنة ١٩٦٧ فلربما كانت حذت حـذو الدولتين الاخريين وقد كان ذلك راجعا الى التصور الذى وقر فى أذهان هذه الدول من وجود تناقض بين فكرة المؤتمر الاسلامى والجامعـة العربيـة ٠

ثالثا : قلة عدد الدول الاسلامية والعربية التى شاركت فى هـذا المؤتمر اذا قورنت بعضوية منظمة المؤتمر الاسلامى الآن التى تضم واحدا واربعين دولة اسلامية وعربية هى المملكة العربية السعودية وجمهورية

مصر العربية والجمهورية الغينية والجمهورية الأندونيسية وايران والمملكة الأردنية الهاشمية وجمهورية لبنان والمملكة المغربيـــة والجهوريـــة الليبية والجمهورية التونسية وجمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية وجمهورية بنجلاديش الشعبية وجمهورية أفغانستان والجمهورية العراقية وجمهورية النيجر والجمهورية التركية وجمهورية أوغنده واتحاد ماليزيا وجمهورية زامبيا وغينيا بيساو وجمهورية الكاميرون ودولة الامارات المتحـــــدة وجمهورية تشاد وجمهورية مالى ودولة قطر وسلطنة عمان ودولة الكويت والجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وجمهورية موريتانيا الاسلامية ودولة البحرين وجمهورية جابون وجمهورية سيراليون وجمهورية باكستان الاسلامية وجمهورية السنغال وجزر القمر ومالديف وجمهورية السودان والجمهورية العربية السورية وفلسطين .

رابعا : عدم تمثيل الجامعة العربية فى هذا الاجتماع لما سبق أن ذكرت من أنه كان هناك تصور خاطىء بوجود تناقض بين المنظمتـــين الاسلامية والعربية . وكان اشتراك أمين الجامعة العربية فى جلسات منظمة المؤتمر الاسلامى اعتبارا من المؤتمر الثالث الذى عقد فى كراتشى شوال سنة ١٣٩٠هـ (ديسمبر ١٩٧٠ م) ولم تحضره العراق وسوريا أيضا وبدأ اشتراك سوريا فى المؤتر الرابع الذى عقد فى جدة فى محرم سنة ١٣٩٢ هـ مارس سنة ١٩٧٢ م وهو من أخطر مؤتمرات المؤتمـــر الاسلامى ثم بدأ حضور العراق بعد ذلك .

المؤتمر الثـــانى :

ولقد بدأ المؤتمر فى جلسته الثانية التى عقدت فى جدة فى محرم سنة ١٣٩٠ هـ (فبراير ـــ مارس ١٩٧٠ م) بحضور وزراء خارجيـــة الدول الاسلامية والعربية يضع الأسس التنظيمة لتشكيله فقرر انشاء أمانة دائمة للمؤتمر الاسلامى يكون مقرها جدة الى أن تتحرر القدس فينتقل اليها على أن تكون هذه الأمانة حلقة اتصال بين الدول الاسلامية

مهمتها متابعة تنفيذ القرارات والاعداد للدورات القادمة واتخاذ المؤتمر قرارا باعتبار يوم ٢١ أغسطس من كل عام (يوم حريق المسجد الأقصى) يوم التضامن مع الشعب العربى الفلسطينى .

بقيـــة المؤتمرات :

ويعتبر المؤتمر الثالث لوزراء خارجية الدول الاسلامية الذى عقـد فى جدة (فى محرم سنة ١٣٩٢ هـ فبراير / مارس سنة ١٩٧٢ م) من أخطر اجتماعات المؤتمر حيث صودق فيه على ميثاق المؤتمر الاسلامى بشأن تعزيز التضامن ودعم التعاون فى المجالات الاقتصادية والثقافيـة والعلمية والمجالات الأخرى بين الدول الاسلامية كما تقـرر انشـاء المؤسسات التالية :

١ ـ انشاء وكالة أنباء اسلامية دولية فى جدة تكون مركزا لأهم الأنباء والأحداث الاسلامية ويتم تداولها ونشرها على الدول الأعضاء .

٢ ـ انشاء منظمات ومراكز ثقافية اسلامية مهمتها نشر وحمايـة العقيدة والثقافة الاسلامية على أن تكون من اختصاصات دائرة الشئون الثقافية بالامانة العامة ويشرف عليها مساعد الأمين العام وتختص بالجوانب التالية :

(ا) رعاية الجماعات الاسلامية ماديا وثقافيا فى جميع بلدان العالم الاسـلامى .

(ب) جمع المعلومات ذات الطابع الثقافى ودراستها وتداولها .

(جـ) نشر الكتب المتعلقة بالدين الاسلامى والثقافة الاسـلامية بالاضافة الى قضايا العالم الاسلامى الكبرى وفى مقدمتها القضيـة الفلسطينية وقضايا الاقليات الاسلامية فى العالم .

(د) تنظيم دورات تدريبية للمسئولين عن المراكز الثقافيـة الاسلامية .

(هـ) تنشيط الألعاب الرياضية واقامة المباريات بين الدول الاسلامية .

(و) انشاء مركز للبحوث الاسلامية .

(ز) جمع الاحصاءات واعداد الدراسات عن أحوال الجماعات الاسلامية فى البلاد غير الاسلامية .

(ى) انشاء مجلة اسلامية دورية تنطق باسم المؤتمر الاسلامى .

(ط) انشاء جامعة اسلامية تفتح أبوابها لكل أبناء الشعوب الاسلامية .

٣ — الموافقة على اقتراح مصر بانشاء البنك الاسلامى الدولى مهمته الدراسة العلمية واعطاء المشورة فى الموضوعات الاقتصادية على أن تكون له ادارة مالية واقتصادية لخدمة العالم الاسلامى .

وقد تعرضت المؤتمرات الاسلامية الاثنا عشر التى عقدت حتى الآن لكافة القضايا الاسلامية الهامة وفى مقدمتها عدوان البرتغال على غينيا وقضية المسلمين فى الفلبين وتضامن الدول الاسلامية مع الشعوب الأفريقية المكافحة ضد الاستعمار والتمييز العنصرى وقضايا المسلمين فى قبرص وارتريا وجيبوتى وغيرها من القضايا الاسلامية الملحة ووقفت الى جانبها تساندها ماديا وسياسيا واعلاميا وفكريا .

وقد اجتمع وزراء الخارجية للدول الاسلامية فى دورته رقم ١٢ بمدينة « اسلام أباد » الباكستانية خلال شهر رجب ١٤٠٠هـ الموافق شهر مايو ١٩٨٠ وذلك لمناقشة أهم قضيتين على الساحة الاسلامية وهما :

١ — الغزو السوفييتى لأفغانستان .

٢ — قضية فلسطين .

وقد اتخذ المؤتمر فى ٨ رجب ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٢ مايو ١٩٨٠ م عدة قرارات أهمها :

١ — أعرب المؤتمر عن قلقة العميق لما يعانيه الشعب الأفغـانى وللتدفق المستمر للاجئين الأفغانيين الى باكستان وايران •

٢ — قرر المؤتمر تشكيل لجنة لزيادة موسكو للتفاوض بشأن مشكلة أفغانستان •

٣ — توجيه نداء الى جميع دول العالم لتقديم المساعدة لتخفيف آلام اللاجئين الأفغانيين •

٤ — كرر المؤتمر مطالبه بالانسحاب الفورى والكامل وغير المشروط لجميع القوات السوفييتية المرابطة فى الأراضى الأفغانيـة ، وأهاب بجميع الدول لاحترام سـيادة أفغانستان ووحدة أراضيها واستقلالها السياسى وانتمائها للاسلام •

٥ — أكد المؤتمر التزام جميع الدول الاسـلامية بتنفيذ جميع القرارات الاسلامية السابقة والمتعلقة بمدينة القدس •

٦ — اعتبر المؤتمر قرار العدو الاسرائيلى الأخير بضم مدينة القدس الشريفة وجعلها عاصمة لكيانه الصهيونى العنصرى قرارا باطلا ولاغيا وغير مشروع وتحديا لمشاعر المسـلمين جميعا ، ودعا المؤتمر جميع المسلمين لمقاومته[٢١] •

ومنذ عام ١٩٨٠ م استمرت اجتماعات منظمة المؤتمر الاسـلامى التى ترسخت أقدامها بين منظمات العالم الاقليمية والدولية ، وبما مكنها من أن تصبح محط أنظار المسلمين فى مختلف أنحاء العالم باعتبارها

---

(٢١) جريدة الراية القطرية — الدوحة العـدد ١٤٠ السنة الثانية السبت ١٠ رجب ١٤٠٠ هـ / ٢٤ مايو ١٩٨٠ م •

تمثل نشوة دينية وسياسية تربط بين المسلمين وتسعى لحل مشكلاتهم وتوفق بينهم ..

وقد نشطت أجهزة المنظمة الاعلامية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية والعقيدية بحيث غطت كل احتياجات المسلمين ، ولا شك فى أن جعل مقر المنظمة بمدينة مكة المكرمة حيث المسجد الحرام قد منحها مكانة عليا بين المسلمين الذين تهفو نفوسهم الى زيارة بيت الله والحج والعمرة ..

ويعتبر انعقاد مؤتمر قمة الدول الاسلامية تحت مظلة منظمة المؤتمر الاسلامى بالكويت فى أواخر شهر جمادى الأولى عام ١٤٠٧ هـ الموافق أواخر شهر يناير عام ١٩٨٧ م فرصة لتأكيد الوحدة الاسلامية وتنقية الجو العربى بما يخدم قضايا الأمة العربية ويدعم الروابط بين الأقطار الاسلامية فى مواجهة التحديات التى يتعرض لها العالم هذه الأيام .

***

المصـــــادر

المصـــــادر

اولا — الوثائق :

— وثائق السودان ١ ، ٢ ، ٢/٢/٤ دار الوثائق القومية .

— وثائق دار المحفوظات التاريخية بطرابلس — ليبيا .

— Foreign Relations of the U. S. Diplomatic Papers,

U.S. Government Printing office, Washington, 1947 — 1946.

ثانيا — الدوريات :

— مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٥٥ م :

M. Anis : The development of British interests in Egypt in 18 th Century, 1665 - 1798.

— مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد ٢٢ لسنة ١٩٦٨ م :

د . محمد محمود السروجى : الموقف الدولى والاحتلال الايطالى لطرابلس .

— مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . العدد ٧ :

د . صلاح العقاد : دعوة حركات الاصلاح السلفى .

— مجلة كلية البنات عام ١٩٦٤ م :

د . عبد الحميد البطريق : الوهابية دين ودولة .

— مجلة معهد الدراسات الافريقية .

Sudan Notes and Records

ثالثا — المراجع العربية :

١ — د . ابراهيم العدوى : يقظة السودان . القاهرة ١٩٥٦ .

٢ — ابراهيم فوزى باشا : السودان بين يدى غوردون وكتشنر . جزآن . القاهرة ١٩٠١ .

٣ — ابن تيمية (تقى الدين أبى العباس أحمـــد بن تيمية) : كتاب الزيارة من مجلد الجامع الفريد . الرياض (بدون تاريخ) .

٤ — ابن زنتل احمد الرمال : آخرة المماليك فى مصر .

٥ — ابن غلبون (أبو عبد الله محمد بن خليل غلبون) : تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس ، وما كان بهـــا من الأخبار . عنى بنشره وتحقيقه الطاهر الزاوى . القاهرة ١٣٤٩ هـ .

٦ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ٨ أجزاء .

٧ — احمد النائب الانصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب جزآن ، الآستانة . ١٨٩٩ م .

٨ — احمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، لجنة التأليف والنشر . القاهرة ١٩٤٨ .

٩ — احمد حسنين : فى صحراء ليبيا . مطبعة مصر بدون تاريخ .

١٠ — احمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن ، جزآن ، القاهرة ٣٤ — ١٩٣٦ .

١١ — احمد صدقى الدجانى : احاديث عن تاريخ ليبيا فى القرنين ١٨ ، ١٩ . طرابلس ١٩٦٥ .

١٢ — د . أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة . القاهرة .

١٣ — أحمد عسة : معجزة فوق الرمال . بيروت ١٩٦٦ .

١٤ — د . أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ شرق الجزيرة العربية فى العصور الحديثة . القاهرة ١٩٦٨ .

١٥ — التعليم الدينى فى ليبيا ، بحث مقدم لوزراء التربية والتعليم والوزراء المسئولين عن التخطيط الاقتصادى فى الدول العربية ، المنعقد فى طرابلس ، ابريل ١٩٦٦ .

١٦ — د . السيد رجب حراز : التوسع الايطالى فى شرق افريقيا . القاهرة ١٩٦٠ .

١٧ — د . السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث . القاهرة ١٩٧٠ .

١٨ — الطاهر احمد الزاوى : ولاة طرابلس من بداية الفتح العربى الى نهاية الحكم التركى . بيروت ١٩٧٠ .

١٩ — الطاهر أحمد الزاوى : معجم البلدان الليبية . طرابلس ١٩٦٨ .

٢٠ — الليدى آن بلنت (مترجم) ، رحلة الى بلد نجد . الرياض ١٦٦٧.
د . أنيس صايا : الفكرة العربية فى مصر . القاهرة ١٩٧٠ .

٢١ — جامعة السيد محمد بن على السنوسى الاسلامية ماضيها وحاضرها ، طرابلس ١٩٦٢ .

٢٢ — د . جلال يحيى : الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية . القاهرة ١٩٥٩ .

٢٣ ــ د . جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقيــة .
القاهرة ١٩٥٩ .

٢٤ ــ جورج كيرك (تعريب عمر الاسكندرى) : موجز تاريخ الشرق الأوسط . القاهرة ١٩٥٧ .

٢٥ ــ حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين . القاهرة ١٩٣٥
٢٦ ــ د . حسن سليمان محمود : المملكة العربية الســعودية .
القاهرة ١٩٦٠ .

٢٧ ــ د . حسن سليمان محمود : ليبيــا المــاضى والحــاضر .
القاهرة ١٩٦٢ .

٢٨ ــ د . حسن صبرى الخولى : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين . القاهرة ١٩٧٠ .

٢٩ ــ د . حسين محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية .
القاهرة ١٩٦٣ .

٣٠ ــ حسين بن غنام : تاريخ نجد ، أو روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام . القاهرة ١٩٦١ .

٣١ ــ د . حسين فوزى النجار : الشرق العربى بين حربين . القاهرة .

٣٢ ــ خليفة المنتصر : ليبيا قبل المحنة وبعدها ، طرابلس ١٩٦٠ .

٣٣ ــ د . رافت الشيخ : تطور التعليم فى ليبيا فى العصور الحديثة .
طرابلس ١٩٧٢ .

٣٤ ــ د . رافت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث . القاهرة ١٩٧٥ .

٣٥ ــ د . رافت الشيخ ، د . محمود متولى : افريقيا فى العلاقات الدولية ، القاهرة ١٩٧٥ .

٣٦ — د . رأفت الشيخ : أمريكا فى العلاقات الدولية .
القاهرة ١٩٧٩ .

٣٧ — د . رأفت الشيخ : العرب دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر . القاهرة ١٩٨٣ .

٣٨ — رحلة الحشائشى الى ليبيا (عثمان الحشائشى التونسى) : تحقيق على مصطفى المصراطى . بيروت ١٩٦٥ .

٣٩ — رفعت رمضان : على بك الكبير . القاهرة ١٩٦٢ .

٤٠ — رشيد رضا : الوهابيون والحجاز . القاهرة ١٩٢٥ .

٤١ — رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ، ٣ أجزاء .
القاهرة ١٩٣١ .

٤٢ — ريتشارد توللى (ترجمة عمر الديراوى) : عشر سنوات فى بلاط طرابلس ، طرابلس ١٩٦١ .

٤٣ — رجينا الشريف (مترجم) : الصهيونية غير اليهودية . عالم المعرفة عدد ديسمبر ١٩٨٥ .

٤٤ — د . زاهر رياض : استعمار افريقية . القاهرة ١٩٦٥ .

٤٥ — د . زاهر رياض : شمال افريقية فى العصر الحديث .
القاهرة ١٩٦٧ .

٤٦ — ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية . بيرت ١٩٦٠

٤٧ — سليمان البارونى : صفحات خالدة من الجهاد ، تحقيق زعيمة سليمان البارونى . القاهرة ١٩٦٠ .

٤٨ — د . صلاح العقاد : تطور السياسة الفرنسية فى الجزائر .
القاهرة ١٩٥٩ .

٤٩ — د . صلاح العقاد : الجزائر المعاصرة . القاهرة ١٩٦٤ .

٥٠ — د . صلاح العقاد : المغرب العربى . القاهرة ١٩٦٩ .

٥١ — د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى . القاهرة ١٩٧٤ .

٥٢ — د . صلاح العقاد : المشرق العربى المعاصر . القاهرة ١٩٧٩
ضرار صالح : تاريخ السودان الحديث .

٥٣ — د . عبد الحميد محمد الموافى : مصر فى جامعة الدولة العربية . القاهرة ١٩٨٣ .

٥٤ — عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (القاهرة بدون تاريخ) .

٥٥ — عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (القاهرة ١٩٦٦) .

٥٦ — عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية .

٥٧ — عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، المقدمة .

٥٨ — د عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى . القاهرة ١٩٦٩ .

٥٩ — د . عبد الشافى غنيم ، د . رأفت الشيخ : قضايا اسلامية معاصرة . القاهرة ١٩٨٠ .

٦٠ — الشيخ عبد العزيز آل الشيخ : تعقيب على كتاب الدعوة الوهابية لعبد الكريم الخطيب .

٦١ — د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية .

٦٢ — د . عبد العزيز الشناوى : ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ٣ أجزاء . القاهرة ١٩٦٩ .

٦٣ — عبد العزيز عبد المجيد : الترجمة فى السودان والأسس النفسية والاجتماعية التى قامت عليها . ٣ أجزاء . القاهرة ١٩٤٩ .

٦٤ — عبد الكريم الخطيب : الدعوة الوهابية ط ٢ القاهرة ١٩٧٤ .

٦٥ — عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الاسـلام ، من القرن الاول الى الرابع عشر (١٠٠ — ١٣٧٠ هـ) القاهرة بدون تاريخ .

٦٦ — عبد المجيد عابدين : الثقافة العربية فى السودان .

٦٧ — د . عبد الوهاب المسيرى : الايديولوجية الصهيونية . جزءان العدد ٦٠ ، ٦١ من عالم المعرفة ١٩٨٣ .

٦٨ — د . عزه النص : احوال السـكان فى العالم العـربى . القاهرة ١٩٥٥ .

٦٩ — عزيز سـامح (مترجم) : الأتراك العثمانيون فى أفريقيـا الشمالية (١٩٦٩) .

٧٠ — د . على ابراهيم عبده : المنافسة الدولية فى أعالى النيل ، القاهرة ١٩٥٨ .

٧١ — فتحى رضوان : مصطفى كامل .

٧٢ — فيليب رفلة : الجغرافيا السياسية لافريقية . القاهرة ١٩٦٥ .

٧٣ — كارل بروكلمان (تعريب نبيه أمين ومنير البعلبكى) : تاريخ الشعوب الاسلامية . بيروت ١٩٦٥ .

٧٤ — كرومر : تقرير عن المـالية والادارة والحالة العمومية فى مصر والسودان سنة ١٩٠٣ رفعه الايرل كرومر قنصل جنرال دولة انكلترا ووكيلها السياسى فى مصر الى جناب المركيز لنسدون ناظر خارجيتها .

٧٥ — ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية . القاهرة ١٩٦٢ .

٧٦ — لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاســلامى (ترجمة عجاج نويهض) ٤ أجزاء فى مجلدين . بيروت ١٩٧٣ .

٧٧ — محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد .

٧٨ — محمد بن عبد الوهاب : ثلاث عشرة رســالة فى مجلـــد الجامع الفريد .

٧٩ — محمد بن عبد الوهاب : مختصر ســيرة الرسول .

٨٠ — محمد بن عبد الوهاب : كتاب كشف الشبهات فى التوحيد فى مجلد الجامع الفريد .

٨١ — محمد بن على السنوسى : الدرر الســنية فى أخبار السلالة الادريسية بنغازى ١٩٦٨ .

٨٢ — محمد الطيب الأشهب : السنوسى الكبير .

٨٣ — د . محمد انيس : الدولة العثمــانية والشرق العــربى . القاهرة ١٩٦٥ .

٨٤ — د . محمد أنيس ، د . السيد رجب حراز : الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر . القاهرة ١٩٦٧ .

٨٥ — د . محمد أنيس : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة . اجزاء . القاهرة ١٩٦٩ .

٨٦ — محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة . القاهرة ١٩٢٧ .

٨٧ — د . محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر القاهرة ١٩٤٨ .

٨٨ — د . محمد عوض : السودان الشمالى سكانه وقبائله . القاهرة ١٩٥١ .

٨٩ — د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسيادة على السودان — الوضع التاريخى للمسألة . القاهرة ١٩٤٦ .

٩٠ — د . محمد فؤاد شكرى : التونسية دين ودولة . القاهرة ١٩٤٨ .

٩١ — د . محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن ١٩ . القاهرة ١٩٥٧ .

٩٢ — د . محمد محمود السروجى : العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية الى الاستقلال .

٩٣ — محمد مصطفى بازامة : العدوان ، أو الحرب بين ايطاليا وتركيا فى ليبيا . طرابلس ١٩٦٥ .

٩٤ — د . محمد مصطفى صفوت : الاحتلال البريطانى لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه . القاهرة ١٩٥٢ .

٩٥ — د . محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره على البلاد العربية . القاهرة ١٩٥٧ .

٩٦ — محمود أبو رية : جمال الدين الأفغانى ط ٢ . القاهرة ١٩٧١ .

٩٧ — محمود القبانى : السودان المصرى والانجليز . مجموعة رسائل نشرت اصلا فى الأهرام . القاهرة ١٨٩٦ .

٩٨ — محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية .
٩٩ — مصطفى بعيو : دراسات فى التاريخ اللوبى . القاهرة ١٩٤٥ .

١٠٠ — مصطفى عبد الرازق : العروة الوثقى .

١٠١ — د . مكى شبيكة : السودان عبر القرون . القاهرة ١٩٦٤ .

١٠٢ — د . مكى شبيكة : مملكة الفونج الاسلامية . القاهرة ١٩٦٤ .

١٠٣ — ميخائل الصباغ : تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيدانى . بيروت.

١٠٤ — نصر الدين عبد الحميد : مصر وحركة الجامعة الاسلامية .

١٠٥ — نعوم شقير : تاريخ السودان الحديث وجغرافيته . ٣ اجزاء .

القاهرة ١٩٠٣ .

١٠٦ — د . نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الايطالى الى الاستقلال .

١٠٧ — د . نقولا زيادة : برقة . الدولة العربية الثامنة .
بيروت ١٩٥٠ .

١٠٨ — د . يونان لبيب رزق : السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول (١٨٩٩ — ١٩٢٤) .

* * *

رابعا — المراجع الأجنبية :

1 — Anis . M : England and the Suez Route in the 18th Century .

2 — Chirol : The Egyptian Problem.

3 — Coupland , R. Exploition of East Africa , 1856 — 1890. London 1939.

4 p Cromer : Modern Egypt.

5 — Evans Pritshard : The Sanussi of Cyrenaica.

6 — Fisher : The Middle East history .

7 — Hamilton : The Anglo - Egyptian Sudan.

8 — Hilleson : Anglo - Egyptian Sudan .

9 — aolt : Mahdiya .

10 — Holt : Modern history of the Sudan.

11 — Holt : Egypt and the Fertile Crescent .

12 — Kedourie : Afghant and Abduh.

13 — Langer : Diplomacy of Imperialism.

14 — Polk : The U.S. and the Arab World.

15 — Shibaka : British policy in the Sudas .

فهرســــت

الصفحة

الباب الاول : الدولة العثمانية والوطن العربى
(٢٣ — ١٠٦)

الباب الثانى : مرحلة اليقظة العربية الاسلامية الاولى فى التاريخ الحــديث
(١٠٧ — ٢٧٤)

الباب الثالث : مقومات اليقظة العربية الاسلامية (مرحلة التدهور الثانية فى التاريخ الحديث)
(٢٧٥ — ٣٦٠)

الصفحة

الباب الرابع : مرحلة اليقظة العربية والاسلامية الثانية
(٣٦١ — ٤٥٩)

شـــــكر وتقـــــدير

يطيب للمؤلف ان يتقدم بخالص الشكر والتقدير للسيد الدكتور محمد رفعت عبد العزيز المدرس بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة الزقازيق على تفضله بمراجعة بروفات الكتاب .

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ١٩٨٦/٧٤٣٦

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر - ميضاة الوصلى بجوار جامع الدعاء
ت ٩٢٥٣٠٤